

لذلك لا يُديم الله سبحانه غنى أحدٍ أبد الدهر، بل جعل الدنيا دُولاً^(١) بين الناس.

إذن : فلو عرف هذا الملاك الكافر من قوم نوح - عليه السلام - معنى كلمة الفضل^(٢) لما قالوها ؛ لأن الفضل هو الزائد عن المطلوب للكائن ، في المحسوسات أو المعاني والفضل يقتضى وجود فاضل ومفضل .

وليُنظر كل طاغية في حياته ليرى ما الفاضل فيها ؟

إنه بعض من المال أو الجاه ، وكل مَنْ يخدم هذا الطاغية هم أصحاب الفضل ؛ لأن سيادة الطاغية مبنية على عطائهم .

فهم أصحاب الفضل ، ما دام الفضل هو الأمر الزائد عن الضروري .

إذن : فحقيقة ارتباط العالم بعضه ببعض ، هو ارتباط الحاجة لا ارتباط السيطرة ، ولذلك حين نرى مسيطراً يطغى ، فتحن نقول له : تعقّل الأمر ؛ لأنك ما سيطرت إلا بأناس من الأراذل ، فإظهار قوته تكون بمن يُجيدون تصويب السلاح ، أو بمن تدربوا على إيذاء البشر ، فهو يبنى سيادته ببعض الأراذل ، كوسائل لتحقيق سيطرته .

وقول الكافرين من ملا نوح - عليه السلام - :

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ۖ﴾ (٢٧)

[هود]

يكشف أنهم قد فهموا الفضل على أنه العتّى ، والجاه والمناصب ، وهم قد أخطأوا الفهم .

(١) الدُولَة : اسم للشيء الذى يتداول ، والدُولَة : الفعل والانتقال من حال إلى حال ، لا بصرف من لسان العرب - مادة : دول [

(٢) فالفضل بمنهوم الكفرة يخالف الفضل فى مفهوم المؤمن : فالفضل عند الكافر هو المال والسلطان ، وفى مفهوم المؤمن هو الإضطفاء والعطاءات والهيئات الإلهية التى يصطفى الله سبحانه بها الرسل والأنبياء والمخلصين من عباده .

وَيُنْهَى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ :

[هود]

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢٧)

والظن^(١) هو الراجح، والمرجوح هو الوهم؛ وهذا يشبه أن في الإنسان فطرة تستيقظ في النفس كومضات، فالتكبر يمضي في كبره إلى أن تأتي له ومضة من فطرته ، فيعرف أن الحق حق، وأن الباطل باطل.

وحين جاءت هذه الومضة في نفوس هذا الملاك الكافر ، قالوا :

[هود]

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢٧)

ولم يقولوا : «نعتقد أنكم كاذبون» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِي مِنْ رَّبِّي وَءَالَيْتِي رَحْمَةً
مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ ﴾ (٢٨)

وقول نوح عليه السلام : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني إن كنت على بينة موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية ، وآتاني الحق سبحانه : ﴿ رَحْمَةً ﴾ أي : رسالة ، بينما خفيت هذه المسألة عنكم ، فهل أجبركم على

(١) الظن : ما يحصل في النفس عن أماره ، فهو شك راجح ، وقوله من أفعال الرجحان . والظن : مصدر ، والظن : اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿ .. إِنْ يَجْعَلُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَفْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم] وجمعه : ظنون . وقال تعالى : ﴿ .. وَتَقُولُونَ بِآلِهِ الظَّنُّونَا ﴾ [الأحزاب] الظنوننا بالآل في الوصل ، وفي الوقف ، ويغير ألف قرواءة . [القاموس القويم] .

(٢) البينة : الحجة الواضحة الموضحة للحق . والبينة : الظاهرة الواضحة التي لا شك فيها ، أو هي مبينة للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره . قال تعالى : ﴿ كَمْ أَنْتَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] يتصرف .

ذلك ؟ لا ؛ لأن الإيمان لا بد أن يأتي طواعية بعد إقناع ملموس ، وانفعال مأنوس ، واختيار بيقين^(١) .

وحين ننظر في قوله :

﴿ .. أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكُمْ هَادِيًا وَبَارِكًا فِي الْكَلِمَاتِ وَأَنَّهَا كَلِمَاتٌ كَارِهُونَ ﴾ (٢٨)

[هود]

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل «نزل» ثم كاف المخاطبة ، وهنا نكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مضموم في الفعل ، ومفعول أول هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة .

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب^(٢) ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزرع الإيمان في القلوب .

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخضع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم^(٣) كما أخضع الكون كله له ، فهو سبحانه القائل :

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ .. ﴾ (٢٧)

[النازعات]

فالحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر^(٤) ، وكل الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ﴾ (٢١) [فصلت]

(٢) القلوب لها حكومة خاصة ، يقول الحق : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١١) [محمد]

ويقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (٢٠) [الأنفال] فإيمان القلوب إيمان العابدين ، وإيمان

القوالب إيمان المكرمين والمرائين ، وهناك فرق بين قبول اليقين ومعلق المكرمين .

(٣) ويرب العزة سبحانه يقول : ﴿ وَقَدْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمْنٌ مِنْ لِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسُ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥) [يونس] ، ويقول أيضاً : ﴿ .. وَقَدْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعُهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِفِينَ

﴾ (١٢) [الأنعام]

(٤) يقول الحق : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ

(٧) [الرحمن] ويقول الحق : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ يَحْمَدُهُ

وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١١) [الإسراء]

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ..﴾ (٥٧) [غافر]
والكون كله يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .

وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال
سبحانه عنهم :

﴿ .. لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦) [التحريم]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد قwalب لأخضع الخلق كلهم
لعبادته ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع ؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاقِعٌ ^(١) نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ
السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٤) [الشعراء]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنْزَعٌ عن رغبة إخضاع القوالب البشرية ،
بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ؛ ولذلك لا يُكْرِهُ الله سبحانه
أحداً على الإيمان .

والدين لا يكون بالإكراه ، بل بالطوعية والرضا .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ^(٢) .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة]

وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على
العقل ، فالعقل بالإدراك يتفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب ينزع
إلى اختياره بيقين المؤمن .

(١) يخضع نفسه ، بخعاً ويخوعاً : قتلها مماتاً وغيبطاً وحزناً . وقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاقِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْغَدِيثِ سُبْحَانَ ﴾ (١٦) [الكهف] .

(٢) الغي : الضلال والانهماك في الجهل .

يقول الحق :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾
[آل عمران]

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَّبِعٍ ، أما الدين فامر يتَّبِعُ فيه الرشد ؛ لأن المنهج حين يطلب منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمي محارمك ، وحين يأمرك ألا تغتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففي هذا كله راحة للإنسان .

إذن : فما يطلبه المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت في مطلوبات المنهج فلن تجد لها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً . وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاء .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البيئة واضحة فاصلة بينه وبين الغي .

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية في غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلي تجده يقول لك :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . (٢٥٦)﴾ [البقرة]

ولك أن تقول له : لا إكراه في الحمل على الدين والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدين فإياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين ؛ لأن الحق سبحانه لم يكره أحداً على الدخول في الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويتدبر ؛ لأنه إن دخل في الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب ؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضى إقامة الحد على المرتد^(١) ومعاقبة العاصي على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة في الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَيَقُولُ لَا اسْتُلْكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنَّا جَرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِظَارٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّكْتَفَوْنَ بِهِمْ وَلَكَفَىٰ أَرْكَؤُ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ﴾ (٣٩)

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففى مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴾ (٤٠) [الأنعام]

لأن العوض فى التبادل قد لا يكون مالا ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر - كما نعلم - هو أعم من أن يكون مالا أو غير مال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

(١) حد المرتد فى شريعة الإسلام هو القتل ، فقد روى البخارى فى صحيحه (١٢ / ٢٦٧ - فتح) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من بدل دينه فاقتلوه » ، وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير نفس » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٧٦) .

ولكن يجب أن يشبه إلى أنه لا يحكم بارتداد أحد إلا بعد صدور ما يدل على كفره دلالة قطعية لا تختمل التأويل ، حتى تُنسب إلى الإمام مالك أنه قال : « من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه ، حُمِلَ أمره على الإيمان » . ولا يطبق حد الردة إلا بعد الاستتابة لمدة ثلاثة أيام .

(٢) أى : لا أسألكم على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله والإيمان به مالا أو غيره .

(٣) إن - هنا - نافية ، بمعنى : « ما » أو « ليس » أى : ما أجرى إلا على الله .

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ ۞ (٢٩) ﴾ [هود]

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغلَى الأمر .

وقول الرسول :

﴿ إِنْ أَجْرِيَ ^(١) إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ ۞ (٢٩) ﴾ [هود]

هو قول يدل على أن الأمر الذي جاء به الرسول هو أمر نافع ؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة .

ونحن نعلم أن مبادلة الشيء بعيثه أو ما يساويه ؛ تُسمَّى شراء ، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين ، وتظل العين ملكاً لصاحبها ، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً ، فكأن نوحاً عليه السلام يقول : لقد كنت أستحق أجراً لأنني أقدم لكم منفعة ، لكنني لن آخذ منكم شيئاً ، لا زُهداً في الأجر ، ولكني أطمع في الأجر بمن هو أفضل منكم وأعظم وأكبر .

ولأن هذا المملأ الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أراذل ^(٢) ؛ لذلك يأتي الرد من نوح عليه السلام :

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ ۞ (٢٩) ﴾ [هود]

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير ، فاليقين الإيمانى لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة .

(١) أجره يؤجره إيجاراً : أجر من فلان الدار وغيرها : أكثرها منه ، وأجره يؤجره مؤاجرة استأجره .
اتخذه أجيراً والإجارة : الأجر على العمل : عقد تملك نفع مقصود من العين بعوض ، والأجرة عوض العمل والانتفاع ، والأجر الذى يكفى العامل للعيش والأجر الحقيقى القوة الشرائية للتقيد الذى يحصل عليه العامل والأجرة : الأجر . والأجير من يعمل بأجر وأعظم الأجر عطاء الله المعجم الوجيز بتصرف .

(٢) والأراذل جمع رذل ، وقيل : الواحد أرذل والجمع أراذل ، وقد غلبت عليه الاسمية وإن كان وصفاً (التبيان فى إعراب القرآن)

وَلَا يُخْلِي رَسُولٌ مَكَاناً مِنْ أَتْبَاعِهِ الْفُقَرَاءَ لِيَأْتِيَ الْاِغْتِيَاءَ ، بَلِ الْكُلُّ
سِوَايَةِ أَمَامِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ^(١) يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ
مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
الظَّالِمِينَ ^(٢) ﴾ [الأنعام]

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة «أراذل» فتنه ،
فمن تكبر بسبب فقر وضعف أتباع الرسل ، فليغرق في كبره .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا ^(٣) بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ ^(٤) اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ^(٥) ﴾ [الأنعام]

وأيضا يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ،
وَأَلَّا يَنْصَرِفَ عَنْهُمْ أَوْ عَنْ أَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، فيقول الحق سبحانه :

(١) أى : نهائياً وليلاً . والمراد أنهم دائمو الدعاء لله رب العالمين .

(٢) نزلت هذه الآية في بضعة نفر من فقراء وضعفاء المسلمين منهم : ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد
وبلال . فقد قالت قریش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطرهم ، فدخل قلب
رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فأنزل الله تعالى الآية . أخرجه النيسابورى في أسباب
النزول (ص ١٢٤) .

(٣) فتنا : اختبرنا . والفتنة : الاختبار بالنار ، واستجبرت لكل اختبار شديد . وقال تعالى : ﴿ مَا أُنْصِرُ عَلَيْهِ
بَيِّنَاتٍ ﴾ [الصافات] .

(٤) من عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . وقال تعالى : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ
... ﴾ [آل عمران] [القاموس الفوري] .

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ.. (٢٨)﴾ [الكهف]

جاء هذا القول حتى لا ينشأ فساد أو عداوة بين المؤمنين برسول الله ﷺ ، ولا يقال : «فلان مُقَرَّبٌ منه» ؛ ولذلك كان ﷺ إذا جلس ؛ يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يقطن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه .

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ.. (٢٩)﴾ [هود]

وفي هذا بيان أن نوحاً - عليه السلام - لن يطرد هؤلاء الضعاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلقون الله تعالى ، أيسمح نوح عليه السلام أن يقال عنه أمام الحق - تبارك وتعالى - إنه قد طرد قوماً آمنوا برسائله ؟ طبعاً لا .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه يحاسب رسله ، والمرسل إليهم ، فهو سبحانه القائل :

﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [الأعراف]

(١) عدت عنه عن : تجاوزته وأعملت النظر إليه واستحسننت غيره ، كناية عن الإعراض وعدم الاهتمام . قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ.. (٢٨)﴾ [الكهف] أي : لا تركهم ولا تهملهم . [القاموس القويم] .
(٢) قوله تعالى : ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [الأعراف] كقوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (١٥)﴾ [القصص] وكقوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ فَأُولَئِكَ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة] فيسأل الله عن الاستجابة للرسل ، ويسأل الرسل عن البلاغ . ومن النص القرآني نأخذ حديث رسول الله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [ابن كثير بتصرف ص ٢٠٦ ، ج ٢]

إذن : فتوح - عليه السلام - يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملائكة الكافر من قومه يجهلون ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٢٩)

[هود]

أى : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طُرِدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٠)

وهنا يوضح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف ؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله - عز وجل - لحظة الحساب ، فهناك يوم لا ملك فيه لأحد إلا الله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد يقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى ؛ لأنه الفاهر فوق كل خلقه .

والنصر - كما نعلم - يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهي بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع فى طرد مؤمن من حظيرة الإيمان .

وفى هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣٠)

[هود]

أى : يجب ألا تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تتذكروه .

وكما جاء الحق سبحانه بالتذكير ، وهو الأمر الذى بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكير ، وهو التأمل لاستنباط شيء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكير ، الذى يجعل الإنسان فى تأمل يقوده إلى تقديس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق التى تكشف له معالم الطريق .

وجاء الحق - سبحانه - أيضاً بالتدبير ، أى : ألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر^(١) ، بل لا بد من البحث فى حقائق الأشياء .

لذلك يقول الحق جلّ وعلاً :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ^(٢) الْقُرْآنَ .. (٨٦) ﴾ [النساء]

أى : أفلا يبحثون عن الكنوز الموجودة فى المعطيات الخفية للقرآن .
والتدبير هو الذى يكشف المعانى الخفية خلف ظواهر الآيات ، والناس يتفاضلون فى تعرضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعانى .
ولذلك لجّد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « تَوَرَّوا القرآن »^(٣)
أى : قَلِّبُوا معانى الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها ، فعجائب القرآن لا تنقضى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح :

(١) وقد قال عز وجل : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْفِيَ اللَّهُ وَعْدُهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٠) يَحْكُمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٥١) ﴾ [الزمر] وقد كان هذا تعقيباً عنه سبحانه لقصة الروم وأنهم سيصبرون على الفرس فى بضع سنين ، وقد استغرب الناس يومئذ ذلك ، بسبب اعتمادهم بظواهر الحياة الدنيا دون النظر إلى عواقب الأمور وسير الأمم من قبل وأقدار الله فى تصرفه شئون خلقه .
(٢) تدبر : تأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ونهاياتها ، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٥١) ﴾ [محمد] أى : هل عجزوا وعصوا فلا يتأملون معانى القرآن ويصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به . وبين همزة الاستفهام وفاء المظن فعل محذوف دائماً والمعنى : أعجزوا فلا يتنبهون . [القاموس القويم] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان (مادة : ذ ور) ، قال : « وفى حديث عبد الله : أثيروا القرآن فإن فيه خير الأولين والآخرين ، وفى رواية : علم الأولين والآخرين . قال شمر : تثير القرآن قراءته ومناقشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته » .

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ^(١)
وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ
لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)

وهكذا يَسُدُّ نوح - عليه السلام - على هذا الملا الكافر كل أسباب
إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك
خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملا ، وإن طلبوا أن يكشف لهم
الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده .

ولم يدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ،
لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب .

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمَنَ مِنَ الضُّعَافِ الَّذِينَ تَزْدِرِيهِمْ
وتُحَقِّقُهُمْ وتُهَكِّمُهُمْ عليهم عيون هذا الملا الكافر ؛ لأن نوحاً يخشى سؤال
الله - عزَّ وجلَّ - له إن سَدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

ولا بد من وثقة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ..﴾ (٣١) [هود]

(١) غاب الشيء غيباً غيباً وغيباً وغيباً وغيباً فهو غائب ، والجمع غيب وغيباب . والغيب كل ما
غاب عنك ، وجمعه غيوب ولى التنزيل ﴿.. غَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ (٣١) ﴿[الثالثة] وقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ
مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهَا شَيْءٌ وَهُوَ يَشْفَعُ لِمَنْ يَشَاءُ فِي الْوَسْطَى وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَابٌ لِمَنْ
يَعْلَمُهَا وَلَا يَرْبِطُ وَلَا يَنْبَسِرُ﴾ (٣١) [الأنعام]

(٢) تزدري : تحقر . والأزدراء : الاحتقار والانتقاص والغيب . [لسان العرب]

ونلاحظ هنا أن الخطاب قد حوّل إلى الغيبة^(١) ، فلم يخاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم : إن الله سيمنع عنكم الخير ، ذلك لأن الله سبحانه عليه هو العليم بما في نفوسهم ، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من الغشائين .

اللام في كلمة ﴿لَّذِينَ﴾ تعنى الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف .

ومجىء «اللام» بمعنى «عن» له نظائر^(٢) ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿.. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبا] وهم هنا لا يقولون للحق ، ولكنهم يقولون عن الحق ، وهكذا جاءت «اللام» بمعنى «عن»^(٣) .

وهكذا أوضح نوح - عليه السلام - أنه لو طرد من يقال عنهم «أراذل» ، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح - عليه السلام - يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس ؛ لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لأنفسه ولا لغيره .

(١) وهنا يعرف في أساليب البلاغة بالانفكات ، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أى : من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها ، بعد التعبير بالأول . (انظر الإنشاد في علوم القرآن - للمسبوطي) (٢/٢٥٣) .

(٢) من أمثلة اللام بمعنى «عن» أيضاً ، قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَأَلْنَاكُمْ ..﴾ [الأحقاف] أى : عنهم وفي حقهم ، لا أنهم خاطبوا به المؤمنين ، وإلا لقل : «ما سئلمونا» .

(٣) اللام : حرف يجر الظاهر والمضمر ، ويؤدى عدة معان منها : انتهاء الغاية ، والمسلّك ، وشبه المسلّك ، والدلالة على التعليل ، والدلالة على شبه التعليل ، والدلالة على النسب ، والتعمدية المجردة ، والتعليل ، والتوكيد المحض ، والتقوية ، والدلالة على القسم والتعجب معاً ، والدلالة على التعجب بغير قسم ، والدلالة على المساقبة المنتظرة ، والدلالة على التبليغ ، والدلالة على التبيين ، وأن تكون بمعنى «بعد» ، وأن تكون بمعنى «قبل» ، وأن تكون بمعنى «من الياية» ، وأن تكون للمعاوزة (بمعنى : عن) ، وأن تكون لتوكيد النفي ، وأن تكون بمعنى «مع» ، وأن تكون بمعنى «عند» . . . انظر تفصيل ذلك في [النحو الواسع] : (٢/٤٧٢ - ٤٨١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : (١١)

﴿ قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ (٢٢)

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزعج الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة «الجدال» مأخوذة من «الجدل» أى : القتل ، وقتل الحبل إنما يأتي من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أى مادة مثل هذا أو ذلك ، ثم ضم شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بلف كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوى : «مفتول العضلات» ، أى : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أى : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلى فأنت تدهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذى خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتأزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهي تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

(١) جدال : خصم بالحق والباطل . واستعمل فى الباطل فى قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا أَنَّمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ۞ ﴾ [النساء] واستعمل فى الحق فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادَلْتُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۞ ﴾ [٢٢٠] ﴿ [التعليل] ، وقد نهى الله سبحانه حجاج بيته الحرام عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم ، قال تعالى : ﴿ فَلَا رَفْثَ وَلَا فُجُورَ وَلَا جِدَالَ لِي الْحَيِّ ۖ ۞ ﴾ [البقرة] ، [القاموس التوحيدي] .

وهم قد قالوا نتوح عليه السلام :

﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُتِرَتْ جَدَالَنَا .. ﴾ (٢٢) [هود]

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ،
ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المراء^(١) ، لأن الجدال إنما يكون لحق ، والمراء
يكون بعد ظهور الحق .

الجدال - إذن - مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالِغِي أَيْحَسَنُ .. ﴾ (١٢٥) [النحل]

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْإِنِّي " تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (١) [المجادلة]

[المجادلة]

إذن : فالجدال مطلوب لتصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ،
لا احتكاك فيه ولا إيذاء^(٢) .

(١) المراء : المماواة والجدال . وأصل المراء في اللغة أن يستخرج الرجل من مناظره كلاماً ومعاني الخصومة
وغيرها

من : مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها . [انظر اللسان] والمراء والمماواة يحمل معاني الشك
والريبة في الأمر مما يستلزم جدلاً أكثر وأعمق وأطول ، وهذا معنى منه .

(٢) هي امرأة يقال لها غميلة بنت ثعلبة ، اشتكت زوجها إلى رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، أكل
مالي ، وأتني شبابة ونشرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني
أشكو إليك . قالت عائشة رضي الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ
الْإِنِّي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (١) [المجادلة] وزوجها هو : أوس بن الصامت . انظر
تفسير ابن كثير (٣/٤) وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٣١) .

(٣) يقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (١٢٥) [النحل]
أي : من احتجاج منهم إلى مناقرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كقول
تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. ﴾ (٤٧) [العنكبوت] انظر :
ابن كثير (٢/٥٩١) .

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكك الآراء ، فالتحكك كالتلحك ، وهو الرغبة في عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذي يوصل إلى الحق ، مثلما نحك الزناد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكك^(١) فهو يوارى ويطمس الحقيقة .

والمرء هو الجدال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى^(٢) الضرع ، فحين يقومون بإنزال اللين من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللين بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهي حلب الضرع ، يظل من يحلبها ممسكاً بحلمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقي من اللين ، ويُقال لهذا الجزء الأخير « المرى » .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة « المرء » ، وهو ما بعد ظهور الحق .

وهناك بجانب الجدال والمرء ، والاحتكاك ، والتحكك ، الحجاج والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم .

وبعد أن مكثوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن يتزل بهم العذاب الذي أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجيء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٢)

[عبر]

وكأنهم - بهذا القول - قد أخرجوا نوحاً مخرج من بيده أن يأتي بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هي ملك لله سبحانه وتعالى .

(١) التحكك: التحرش والتعرض . وإنه ليتحكك بك ، أى : يتعرض لشركه . [اللسان - مادة : حكك] .

(٢) المرى : مسح ضرع الناقة لنذر اللين . والمرى : الناقة تدعى على من يمسح ضرعها . وقيل : هى الناقة الكثيرة اللين . [اللسان : مادة - مرى] .

وجاء فى المصباح المنير : ماريته أسارىه محاراة ومرء : جاذبته . وتقدم القول إذا أريد بالجدال الحق أو الباطل . ويقال : ماريته إذا طعنت فى قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقالل ، ولا يكون (المرء) إلا اعتراضاً بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداءً واعتراضاً ، وامتنع فى أمر : شك فيه . يتصرف ص ٥٧٠

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴾ (٢٢)

لأن الحق سبحانه هو الذي يقدر للعذاب أوأناً ، ويقدر لكل تعذيب ميلاداً ، ولا يعجل الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة في الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبى^(١) عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ﴾ (٢٣)

﴿ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٤)

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فلن تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم ؛ لأن الآية بها تعدد الشرطين .

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طالباً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : « إن جئتني غداً أقبل اعتذارك إن كان معك والدك » .

(١) تتأبى : تمنع وترفض الانصياع والطاعة . ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ (٢٧) ﴿ [مريم] .

(٢) نصح له ونصحه نصحاً ونصيحة : تحرى ما يصلح له وأراد له الخير والنفع ودلّه عليه . ونصح له الرد : أخلصه . ونصح لله : أطاعه وأخلص لدهنه . ونصح للرسول : صدقه وأخلص له ولم يخالف أمره سراً ولا علناً . ومن النصح بمعنى الإرشاد والدلالة على الخير ، يقول تعالى : ﴿ .. وَتَنصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَنبُحُونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢٨) ﴿ [الأعراف] ، ويقول : ﴿ .. وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (٢٩) ﴿ [الأعراف] . [القاموس القويم] .

(٣) أغواه : أضله وأوقعه في الغي والضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَايِينَ ﴾ (٣٠) ﴿ [الصافات] .

وقول الناظر : «إن كان معك والدك» هو شرط متأخر ، ولكنه كان يجب أن يتقدم .

وفى الآية الكريمة - التى نحن بصددھا - جاء الشرط الأول متأخراً ، ولكن هل يغوى الله سبحانه عبادہ ؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والغواية هى الضلال^(١) والبعد عن الطريق المستقيم .
والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى^(٢) ﴾ [النجم]

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

﴿ .. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى^(٣) ﴾ [طه]

ونحن يجب ألا نقع فى الآفة التى يخطئء البعض بها ، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى ، فالألفاظ لها معان متعددة .

لذلك لا بد أن نعرض كل معانى اللفظ لتأخذ اللفظ المناسب للسياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا^(٤) ﴾ [مريم]

(١) ضلّ : غابت عنه الحجة وعدل عن الحق . والضلال : السبيل والضياح . وضل الشيء . خفى وغاب فهو يائس لازماً كما فى المثال السابق .

ويائس متعدياً مثل : ضل المسافر الطريق ، وقد نفى الله عن رسوله الضلال والغواية ، وأثبت له أنه هو الباطن منه وبه وله ، كما جاء فى قوله تعالى . ﴿ وما ينطق عن الهوى^(٥) ﴾ [إن هو إلا وحي يوحى^(٦)] [النجم] القاموس القويم مع تفسير البرهان باختصار .

(٢) غوى يغوى غيياً ، وغوى يغوى غواية : انهك فى الجهل ، وهو صد الرشيد . وغوى بمعنى خاب وضل ، لأنه انهك فى الجهل .

(٣) الغى : سعى به واد فى جهنم وتُرى بذلك قوله : ﴿ .. فسوف يلقون غياً^(٧) ﴾ [مريم] أى : جزاء الغى ، أو يدخلون وادى الغى فى جهنم [القاموس القويم] .

وقوله سبحانه هنا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

أى : سوف يلقون عذاباً ، لأنَّ غَيَّهُم كان سبباً فى تعذيبهم ، فسمى العذاب باسم مُسَبِّهه .

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ (١١) [الشورى]

والحق سبحانه لا يُسِيء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمى ما يلقاهم من العذاب سيئة^(١) .

وكذلك «الغى» يرد بمعنى «الإغواء» ، ويرد بمعنى الأثر الذى يترتب عن الغى من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى فى كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فأدم عليه السلام حين تَنَكَّبَ^(٢) عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألاَّ يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى فى هذا الموقف :

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٢) [طه]

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج فى «افعل» و«لا تفعل» ستظهر عورته وتبدل له سوءاته^(٣) .

(١) وهذا يعرف بالمشاكلة ، وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثاله قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ (١١) [الشورى] ، لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة ، ومثله قوله تعالى : ﴿وَمَكُرُوا وَكُورَ اللَّهِ ۖ﴾ (٥٢) [آل عمران] فإطلاق المكر فى جانب البارئ تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . انظر : الإتيقان فى علوم القرآن (٣/ ٢٨١) .

(٢) تنكب عن الشيء وعن الطريق : عدل . وَتَنَكَّبَ دَلَّانٌ عَنَّا : مَالَ عَنَّا . وَتَنَكَّبَهُ : تَجَنَّبَهُ . انظر : لسان العرب . ويقول تعالى : ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن العصاوط يُفَكِّهون﴾ (٢٥) [المؤمنون] . أى : هائلون متصرفون عنه .

(٣) السوءات : جميع سيئة : وهى كل ما يفتيح إظهاره ويتغنى بشره . قال تعالى : ﴿لَقَدْ لَعَنَّ اللَّهُ عُزَائِرًا بَحْثًا فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعِزَّتْ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ هَذَا الْفَرَاغِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣٥) [المائدة] .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستَعِدّاً لاستقبال المنهج والوَحْيِ .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢٩) [الحجر]

ولكن هل أغوى الله - سبحانه - الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِي ، ولكنه يترك الخيار للمكلف إن شاء أطاع ، وإن شاء عصَى .

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار^(١) ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووجهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد .

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدى ، وقادر على أن يضل^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَذْنًا نَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس] . ويقول سبحانه : ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى قَدْ تَسْنَى الرَّسْدُ مِنْ قَبْلِ . ﴾ [البقرة] . فإن الإنسان مخير في البدائل ، أما القضايا التي لا يستطيع تبديلها فهي خصومية الخلق ، ويفهم من كلام فضيلة الشيخ أن إبليس من الجن لإثبات حق الاختيار له .

(٢) قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّمَا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (٣) [الإنسان] ، فإله قد جعل الإنسان مُهَيَّأً لأن يسلك أحد السبيلين : سبيل الهدى ، وسبيل الضلال ، ثم دلَّه سبحانه على الطريق الصواب المستقيم ، وترك له حرية الاختيار ، فإما شاكراً لنعمة الدلالة إلى الخير ، فيكون مؤمناً . وإما كافراً بها ليكون كافراً .

(١)
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَأَنَّا بَرِيٌّ مِّنْهَا نُجْرِمُونَ﴾ (٣٥)

جاء هذا القول في صُلب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام .

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمد الذي يناقض واقعاً .

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلزمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التي تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرق ، فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظر إلى المأخوذ منك ، بل التفت إلى المأخوذ لك .

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء .

ونحن نعلم أن المنهج يؤسس في المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشرع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحد من حريتك ، ولكنه في الواقع يُحقق لك منافع متعددة ، ويحميك من أن يعتدي الآخرون عليك .

(١) افتري القول : اختلقه واخترعه . وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ..﴾ (٣٥) [هود] أي : يقولون : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . وقال تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَاتٍ ..﴾ (١٧) [هود] أي : مكذوبات - كما تدعون . [القاموس المفروق] .

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثل في أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمل هو وزرُ إجرام الافتراء .

وإن لم يكن قد افتراه ، فعليهم يقع وزرُ إجرامهم "بإتهامه أنه قد افتري .

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتياك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنتم برءاء منه ، وإن لم أفتّر فعليكم إجرامكم وأنا برىء .

وجاء الحذف من شقّ المقابل من شقّ آخر ، وهذا ما يسمّى في اللغة «الاحتياك»^(١) .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ . . (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

والفئة القليلة تكون قلّسها في الأفراد والعنّاد وكلّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرتها في العُدّة والعَدَد وكلّ لوازم الحرب ، والقلة القليلة إنما تغلب بإذن الله تعالى .

وهكذا بوضّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاء الله تعالى .

(١) آدم اللخوب فيما افتروه .

(٢) الاحتياك : من أساليب البلاغة المروية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني أن يحذف نظيره في الأول كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ . . (٢٤٦) ﴾ [النمل] . والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، لحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثاني «وأخرجها» . وقال الزركشي : هو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فعلى إجرامي وأنا برىء مما تجرمون (٢٤٦) ﴾ [هود] . والتقدير : «إن افتريته فعلى إجرامي وأنتم برءاء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون» [الإنشاد في علوم القرآن : ١٨٢ / ٣ ، ١٨٣] .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ۖ ۝ (١٣)﴾ [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت^(١) والشيطان ، وهذا يسمّى «الاحتباك» .

وهذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنْ أَفْرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝ (٢٥)﴾ [مؤد]

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله ﷺ حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿ ۝ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ (٢٥)﴾ [سبا]

فلم يقل : « عَمَّا تُجْرِمُونَ » . فلم يقابل إبداءهم القولى والمادى له بإبداء قولى .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد ﷺ :

﴿ ۝ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٢٦)﴾ [سبا]

وهذا ارتقاء في الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التي أنزلها الله على العالم كله .

(١) الطاغوت : مصدر يدل على المبالغة ، ويسمى به الشيطان المسم ، وكل ما عبد من دونه الله ، وكل ما يغوى بالشر والداعى للضلال والفتنه .

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

ومجىء «إلا» هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى «غير» أى : لن يؤمن من قومك غير الذى آمن .

ولهذا نظير فى قمة العفائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴾ (٢٢) [الأنبياء]

و«إلا» هنا أيضاً بمعنى «غير» ، ولو كانت «إلا» بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه - معاذ الله - سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون «إلا» للاستثناء ، بل هى بمعنى «غير» ، وتقيد معنى الوحدانية لله عز وجل وتفرد به بالالهوية .

والآية التى نتناولها بخواطرننا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجترأ نوح - عليه السلام - على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافت ، وكناته الأربع ، نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة هام . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . ولا تبتئس : لا تحزن . يقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء بكرهه . والابتأس : الحزن فى استكانة . [لسان العرب - مادة : بأس]

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٥٩

﴿ .. رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ^(١) ﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِذْ تُنذِرُهُمْ
يُظِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ^(٢) ﴾ [نوح]

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم
يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا . وقال له سبحانه :

﴿ .. فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ^(٣) ﴾ [هود]

والابتئاس هو الحزن المحيط ، وهم قد كفروا وليس بعنه الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ^(٤) وَوَحِّينَا ^(٥) وَلَا تَخْطُبِنِي فِي الَّذِينَ

ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّفْرَقُونَ ^(٦) ﴾

(١) يذره : يتركه ويدعه . وهذا الفعل لم يستعمل منه في القرآن الكريم إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ أَتَذَرُنَا مُرْسًى وَفُورَهُ يُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٢٧) [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَا الْهَيْكَمَ .. ﴾ (٢٨) [نوح] أي : لا تتركنا أهتكم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ^(٧) ﴾ [المدثر] أي : تتركتني أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . [القاموس القويم] .

(٢) الديَّار : من يسكن الدار ، أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار ، أي : ما فيها أحد . وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ .. رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ^(٨) ﴾ [نوح] . أي : لا تترك أحداً منهم حيًّا . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) [الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ولذلك لا يقال : صنع الخيول كذا . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا صَبَّأُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. ﴾ (٢٩) [طه] أي : أن الذي صَبَّأَهُ وأحدثوه كيد وسحر . وقال تعالى في قصة مرسى عليه السلام : ﴿ .. وَنُصْنِجْ عَلَى غَيْبٍ ^(٩) ﴾ [طه] أي : تُرَبِّسْ محروساً بعنايتي . وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. ﴾ (٣٠) [هود] أي : تحت عنايتنا ورعايتنا . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) [الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث ، وللواحد والجمع . يقول الحق : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ لَهُ .. ﴾ (٣١) [النحل] والفلك : المذخر تسبح فيه النجوم السماوية ، يقول الحق : ﴿ .. كُلُّ فِي الْفُلْكِ يَشْهَدُونَ ^(١٠) ﴾ [الأنبياء] [القاموس القويم - باختصار]

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحي له بصنع السفينة .
ومعنى «اصنع» أى : اعمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ،
فالصنعة أن تُوجدَ معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ،
أو صانع النَّجَف ، أو صانع الكراسى ، أما الذى يقوم على صيانة الصنعة
فهو الحرفى .

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذى يحث الأرض
ويذر فيها السحب ويرويها ليستنبط منها النباتات ، ويسمى صاحب هذه
المهنة «زارع» أو «فلاح» ، لأن اقتيات الحياة المباشر يأتى من الزراعة .

أما الصانع فيأتى بشيء من متطلبات الحياة ، فى تطويرها ويوجد آلة
أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً ، والحرفى هو الذى يصون تلك الآلة ، أما
التاجر فهو الذى يقوم بعملية تجمع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج
الشىء والمستهلك ، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّ﴾ .. (٣٧)

[هود]

أى : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشىء سيصنع من شىء آخر
موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل
هذه المدة الطويلة ، وتضحمت فى الجلع والقروع .

وبدأ نوح عليه السلام فى عملية شق الشجرة ليصنع منها السفينة التى بلغ
طولها - كما قيل^(١) - ثلاثمائة ذراع^(٢) وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ

(١) ذكره قتادة . وفيها أقوال أخرى . واجمع الراى على أن ارتفاعها فى السماء كان ثلاثين ذراعاً ، ثلاث
طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور .
وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها . انظر تفسير ابن كثير (٤٤٤/٢) .

(٢) الذراع : مقياس للأطوال يفدر به ٧٥ ستيماً أو أقل . والذراع من الإنسان : من المرفق إلى أطراف
الأصابع .

ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التي زرعها نوح عليه السلام قد تفضّخت جداً لطول المدّة التي قضاها نوح في دعوته لقومه ؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائرياً بمقدار دائرة كل عام . وحين تقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوّن من دوائر ، وكل دائرة تمثّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علّمه الحق سبحانه بالوحي وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألم يُلهم الله سبحانه نبيّه داود عليه السلام في مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه - جبلٌ وعَلا - قد أمر الجبال أن تُؤَوِّبَ " معه ، وكذلك الطير ، فالآن له الحديد " دون نار :

﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَا لَهُ الْحَدِيدُ ﴾ (١١) أَنْ اْعْمَلْ

[سبأ]

سَابِقَاتِ .. (١١) ﴿

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليّناً دون نار - بإذنه سبحانه - ليصنع منه داود دروعاً كبيرة مستوفية للظهر والصدر ، لتحمي معاطب " الإنسان .

(١) تروِبُ : تَسْبِجُ معه وترجّع التسبيح . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٧) : «التأريب في اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها» .

(٢) قال الحسن البصري وقادة الأعمش وغيرهم : كان داود لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يثقله بيده مثل الخيوط . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٧) .

(٣) المعاطب : الممالك . واحدها معطب . والمعطب : الهالك يكون في الناس وغيرهم . عطب (بكسر الطاء) عطياً وأعطبه : أهلكه . [اللسان : مادة (ع ط ب)] والمراد : الأماكن التي إذا طعن فيها المقاتل قد تؤدي إلى هلاكه .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات ^(١) .

والسابغة هي السرودة ، مثل الحصير ، حيث يُوضع العود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من فرد الحصير أو لفه .

وفي نفس الآية يبين لنا الحق سبحانه كيفية الوحي لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّوْدِ ^(٢) .. (١١) ﴾ [سبأ]

أي : أنك يا داود حين تنسج ^(٣) الحديد اللين - بإذن الله تعالى - لتجعله دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كي لا تكون الدرع ضيقة على صدر المقاتل فتضيق حركته ، وتقلل من قدرته على التنفس ، فيلهث بسرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال .

وكذلك يجب ألا تكون الدرع واسعة على صدر المقاتل ؛ حتى لا تساعد سعة الدرع سيف الخصم ، فيضرب الدرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن حين تكون الدرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبّل الحركة ، فهذه هي الدرع المناسبة للقتال .

(١) الدرع السابغة: الواسعة التي تطول إلى الأرض فتغطي الكعبين . [اللسان - مادة: سبغ] .
(٢) السرد: نسج حلقات الدرع وإحكام صنعها . وسرد الأديم والجلد سرده سرداً: خرزّه وثقبه بالخرز في تناوب وتناق ؛ ولهذا سمي نسج الدروع سرداً ؛ لما فيه من دقة وتناوب وتناق . وقدّر في السرد: أي : أحكم العمل في سردهم الدروع ، أي : في أثناء نسجها ، أي : أحكم السرد ، وأتقن النسج . [القاموس القويم] .

(٣) النسج : ضم الشيء إلى الشيء . ونسج الشيء ينسجه نسجاً فالتنسج ، ونسجت الريح التراب : صعبت بعضه إلى بعض . والريح تنسج الماء : إذا ضربت ممتنه فانتسجت له طرائق كالخُبْلِك . ونسجت الريح الورق الهشيم : جمعت بعضه إلى بعض . ومن معاني النسج : حياكة الثوب . وربما سمي الدرع (صانع الدروع) نسجاً . [اللسان : مادة (ن س ج) بتصرف] .

وقد أتقن داود عليه السلام صناعة تلك الدُّرُوع بتلك الهندسة الدقيقة التي أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له : ﴿ وَقَدِّرْ .. (١١) ﴾ وكلمة قدر تعطي معنى التقدير والإتقان .

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجه إلى الإتقان في الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان في العمل والإبداع فيه ، لتتخذ من هذا التوجيه نبزاً^(١) نسير عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صناعته وهو يقول : «الله» ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يهب الإنسان طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً في تعليمه لداود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ^(٢) .. (٨٠) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا يلقي الله تعالى الخاطر في قلب الرسول أو النبي أن «افعل كذا» ؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كل علومها وفنونها في التحنيط والأنوار والنحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يمثلون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر في أصوله ؛ مصدره السماء .

وفي قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول :

(١) التبراس : الصباح ، أو الشمس المنيرة . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) اللبوس : ما يلبس . والمراد بها هنا : الدروع التي تلبس في الحرب . [القاموس القويم] .

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٧)

ومعنى «بأعيننا» هو بحفظنا وبرعايتنا ، وكلمة «بأعيننا» تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية .

ألم يقل الحق سبحانه في مسألة تخصُّ رسول الله محمد ﷺ ؟

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .. (٤٨) ﴿[الطور]

وكذلك قال سبحانه في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿.. وَلِتَصْغَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (٢٩) ﴿[طه]

وأنقذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذي كان يقتل أطفال بني إسرائيل ، وألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب زوجته الفرعون ، وقال سبحانه :

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ..﴾ (٢٩) ﴿[طه]

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد ألقى في اليم^(١) ،

(١) الفُلك : السفينة . ولقطة الفلك تقع للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع . قال تعالى : ﴿فَأَعْيِنَاهُ وَمِنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (١٠٩) ﴿[الشعراء] جمعه مفرداً مذكراً . وقال تعالى : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَهِ ..﴾ (٤٤) ﴿[النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : «مواجر» أي : السفن .

(٢) أي : اصبر على أذاهم ، ولا تبألهم ، فإِنَّكَ بَرَأَيْتَ مِنَّا وَلَحْتَ كَلَاءَتُنَا ، والله يعصمك من الناس . تفسير ابن كثير (٢٤٥/٤) .

(٣) اليم : مجتمع الماء الكثير ، سواء أكان ماء جلياً أو مالحة ، وقد ورد هذان المعنيان في القرآن :

- قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ (٢٥) ﴿أَنَّ اقْنَدِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِيهِ إِلَى الْيَمِّ فَيَلْقَاهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ..﴾ (٢٥) ﴿[طه] فهو هنا الماء العذب . والمقصود نيل مصر .

- وقال تعالى : ﴿فَأَسْقَمْنَا مِنْهُمْ لَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ..﴾ (٣٥) ﴿[الأعراف] فهو هنا الماء المالح والمقصود

خليج السويس امتداد البحر الأحمر .

والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالية لموسى الحياة :

﴿ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ ۚ ۞ (٩) ﴾ [القصاص]

ونحن نجد أن عدو موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش فى كنفه ورعايته ، وكأن الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تربيون من يتولى قهركم .
وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ۞ (٣٧) ﴾ [هود]

أى : إنك إن توقفت لآية عقبة ، فسوف نلهمك بما تواجه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفلّك احتاج لألواح خشبية ، ولا بد أن تماسك تلك الألواح ، ولم تكن المسامير قد اخترعت بعد ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفى أمريكا فى العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البردي وربطها بالحبال المجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه فى طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۖ ۞ (١٣) ﴾ [النمر]

(١) قرة عين لى ولك : أى : جعلت سرورى ولك : [القاموس المقيّم] .
(٢) دسر الدسار فى الشئ : دفعه فيه بقوة ، والدسار : المسمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة وجميعه (دُسُر) .
قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۖ ۞ (١٣) ﴾ [النمر] . كناية عن موصوف هو السفينة . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذى يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . ذكره ابن كثير فى التفسير (٢٦٤/٤) .

أى : أن نوحاً عليه السلام قد أحضر ألواحاً من الخشب وربطها بحبال مجدولة ، وأحكم الربط بقدر مقتدر بما لا يسمع يتسرب الماء إلى داخل السفينة .

مثلاً تصنع البراميل الخشبية فى عصرنا ، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة ، ويرتبها ثم يحكم ربطها بإطار قوى ، وحين يوضع فيها أى سائل ، فالخشب يتشرب من هذا السائل وتمدد ليسد المسام ، فلا يتضح السائل من البرميل ؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التى تتمدد بالبرودة على العكس من كل المواد التى تتمدد بالحرارة .

ولذلك نجد النجار الحاذق ^(١) فى صنعته هو من يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك فى الفصول الربية ^(٢) ؛ لأنه إن صنعها فى الصيف ، سجد الخشب وهو منكش ، فإذا ما جاء الشتاء تمدد ذلك الخشب وسبب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وكذلك إن صنعها فى الشتاء والخشب متمدد سيأتى الصيف وتشكش الأبواب ، وتكون لها متاعبها ، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أى صندوق أو شباك بإحكام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ ^(٣) [هود]

أى : لا تحدثنى فى أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم من ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر فى القمة العقدية ، وهى الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له ؛ لذلك استحقوا العقاب ، وهو الإغراق .

(١) الحاذق : الناهر فى عمله حذق الشيء - مهراجه - [انظر اللسان] .

(٢) الربية : الغاية التى لا ترصد يبرد أو حر .

(٣) الغرق هو أن يغمر الماء الشخص حتى يموت ، يقول الحق : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ الْغُرُقُ .. ﴾ ^(٤) [يونس] أن تمكّن منه ، وغرق كفرج فهو غرق وغارق وغريق - وجمع الأخير غرقى ، واسم المفعول منه مغروق ، قال تعالى : ﴿ .. فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُوقِينَ ﴾ ^(٥) [هود] (القاموس القويم ص ٥٩ ج ٢) .

وهكذا علم نوح عليه السلام أن صنَّع السفينة مرتبط ببلون العقاب الذي سيقع على مَنْ كَفَرُوا برسائله ، فهو وَمَنْ آمَنُوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كَفَرُوا فسوف يفرق .

وبين الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٢٨)

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يَمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه ، بما يعنى : ها هو بعد أن ادعى النبوة يتحول إلى ثَجَار ، ثم يتساءلون : كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة .

ونحن نلاحظ فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴾ (٢٨) [هود]

تنفيذ الأمر الذى صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴾ (٢٧) [هود]

(١) مَلَأَ : جماعه منهم .

(٢) سَخَر منه وبه من ياب فرح سَخَرَا وسَخَرُوا وسَخَرَا وسَخَرِيه : هزى به . قال تعالى : ﴿ .. قَالَ سَخَرْنَا مِنْهُمْ لِيَوْمِهِمْ ﴾ [هود] (٢٧) [القاموس القويم]

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٩)

ونلاحظ في قول الحق سبحانه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أن الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً ؛ لأن أي حدث - كما تعلم - له أكثر من صورة ، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه ؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت وقوع الحدث كان الفعل مضارعاً .

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضى أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف «السين» كأن نقول : «سيعلمون» وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتى كلمة «سوف» .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة^(١) ، ولذلك جاء به «سوف» لتدل على أوسع مدى زمني .

وما الذى سوف يعلمونه؟ إنه العذاب ، آياتى لنوح ومن معه أم يأتى للذين كفروا من ملاء نوح ؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ..﴾ (٣٩) [هود]

(١) يخزى يخزى : هان واقتضع ونجس . وأخزاه فلان ويخزيه : أهانه وفضحه . قال تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ مِنْ تَحْتِهَا إِلَّا فَكٌّ أَفْزَقَهُ أَخْزَيْتَهُ ..﴾ (١١٢) [آل عمران] .

(٢) يحل : يترل عليهم . وقال تعالى : ﴿.. وَلَا تَطْفُوا لَهُ فِيهِ جِلْدَ غَضَبٍ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (٨٥) [طه] [القاموس المبرور] .

(٣) قال زيد بن أسلم : مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها ويبيسها ، ومائة سنة يعملها . ذكره القرطبي في تفسيره (٣٣٤٩/٤) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٦٤٦٩

وفى هذا القول ما يؤكد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم ؛ لأنهم كفروا وسخروا وقالوا:

﴿ .. فَأَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٢)

[هود]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَعْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٢٩)

[هود]

لجد فيه كلمة ﴿يَعْلُ﴾ وهى ضد الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَحَلَّ بِالْمَكَانِ ، أى : نزل لبقيم به ، والضد هو الرحيل أو الترحال .

وقول الحق سبحانه : ﴿مُقِيمٌ﴾ يعنى أنه العذاب الذى سيحل بهم عذاب دائم^(١) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ^(٢) إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَاءَ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ^(٣) ﴾

(١) جاء فى تفسير الآية عند القرطبى (٢/ ٢٣٥١) ما يفيد أن هنا نوعين من العذاب :

- الأول : ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وهو فى الدنيا .

- الثانى : ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة .

(٢) التنور : مكان تفجر الماء . والكانون الذى يخبز فيه . قال تعالى : ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ .. ﴾ (٥٤) [هود] أى : تفجرت الأرض بماء كثير ، أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . والتنور : مجتمع ماء الراى . وكل ذلك يدل على كثرة الماء ، وعلى قوة التدفّاع . [القاموس القويم] .

(٣) أهل من باب فرح وضرب ونصر أهلاً وأمولاً : تزوج ، وأهل المكان قصر بأهله . والأهل الأقارب والعشيرة والزوجة ، وأهل الدار أصحابها ، وأهل النبی أتباعه ، وأهل الكتاب هم أصحاب الديانات السماوية ، قال تعالى : ﴿ .. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا خَلْقًا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٥٥) [المائدة] [القاموس القويم باختصار] .

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿أَمْرُنَا﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَكَانُوا قَلَّةً قَلِيلَةً .

إذن : ففي قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ .. (٢٧)﴾ [هود]

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذي يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿وَقَارَ التَّنُورُ .. (٤٠)﴾ [هود]

ومعنى كلمة ﴿قَارَ﴾ أى : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوى على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين تغلى الماء نرى فقائيع الهواء وهى تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء مشوراً خارج إناء الغليان .

وهـ «التنور» هو المكان الذى تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التنور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .

وكانت العلامة هى خروج الماء من غير مَظْلَئِهِ وهو التنور .

واختلف العلماء^(١) فى تفسير كلمة «التنور» فمنهم من قال : إن التنور هو

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره هذه الاختلافات على سبعة أقوال ، فنراجع هناك (١/ ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢) ، ثم قال : «قال النحاس : هذه الأقوال ليست بمختلفة ، وهى لمتنوع فى أن ذلك كان علامة أو تدبيراً . أما ابن كثير فقد رجح قول ابن عباس أن التنور هو وجه الأرض ، أى : صارت الأرض ميماً تنفث من الماء من التنوير التى هى مكان النار ، صارت تنور ماء . قال ابن كثير : «هذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف» وذكر ياقى الأقوال ولكنه وصفها بالغرابة . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٤٥] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧١

المكان الذى كان آدم عليه السلام يخيز فيه ، أو هو المكان الذى كانت تعمل فيه
حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضر ، المهم أن فوران التثور كان علامة بين
نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التثور فعلى نوح أن يحمل من كل
زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ ۝ (٤١) ﴾ [هود]

تعنى : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة ﴿كُلِّ﴾
المنونة - وتفيد التعميم - أى : احمل فى السفينة من كل شىء ، تطلبه حياة
الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ، حتى الخنزير كان ضمن ما
حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله
معه ، لم يفتنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض
منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ ۝ (٤٢) ﴾ [هود]

تدل على أن كلمة «زَوْج»^(١) هى مفرد ؛ يدلل قول الحق سبحانه :

(١) الزوج : كل واحد مع آخر من جنسه مع اختلاف المهمة لأن فى اختلاف المهمة تكامل الغاية ، يطلق
على الذكر والأنثى ، فالرجل زوج لامرأة ، والمرأة زوج لرجل . والزوج فى الحساب خلاف الفرد ، وهو
كل ما ينقسم قسمين متساويين .

والزوج : الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض كالرطب واليابس والذكر والأنثى . قال تعالى :
﴿ فَلَمَّا أَحْمَلْ لَهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ ۝ (٤٢) ﴾ [هود] أى : احمل فى السفينة ذكراً وأنثى من كل نوع .
وقال تعالى : ﴿ رَأَى مِنْ شَجَرِهِ أَرْوَاجَ ۖ ۝ (٤٥) ﴾ [ص] . أى : أصناف متزاوجة ذكورة وأنوثة ، أو متناقضة
كل شىء وضده . [القاموس القويم] . يتصرف

[النساء]

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. (١)﴾

إذن : كلمة «زَوْجٍ» تعنى مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً .
أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة «الزوج» على أنها اثنان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلُ الذَّكَرَيْنِ حَرُمٌ أُمِ
الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ ثُبُوتِي بِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٢)
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ.. (١٤٤)﴾ [الأنعام]

وحين نجمع العدد سنجد ثمانية ، ولو كانت كلمة «زوج» تطلق على
الاثنين لصار العدد فى تلك الآية ٢٤ الكريمة ستة عشر .

ويوضح القرآن الكريم أن كلمة «زوج» مفرد فى قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً (١) مِنْ مِّنْ مِّمْرٍ يَمْنَى (٢) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً (٣) فَخَلَقَ فَسَوَّى (٤)
(٢٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٢٩)﴾ [القيامة]

إذن : فالذكر زوج ، والأنثى زوج أيضاً .

وواصل نروح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه :

- (١) نطق الماء : سال وتطرأ ، والنطفة : ماء الصافي ، وتطلى فى القرآن على ماء الرجل أو امرأة ، الذى يُخلق منه الولد . وقال تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٢١)﴾ [النحل] .
- (٢) حتى يمتنى : يصب فى الرحم . كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف .
- (٣) علقه : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسسه ، وجمعها : علق . قال تعالى : ﴿فَوَما خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ.. (٥)﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَسْخَرْنَا مِنْهَا آخِرَ فِتْنَتِكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٢١)﴾ [المؤمنون] وقال
تعالى : ﴿وَسَخَّرَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ [الملوك] . [القاموس القويم] .
- (٤) سَوَّى : فعله وكمله ونفخ فيه الروح . كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٤٧٣﴾

﴿.. أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠) ﴿

[هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال : إنهم عاشوا في تلك السفينة عامين^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) ﴿

هذه هي المرحلة الأخيرة في قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

﴿وَقَارَ الثُّورُ ..﴾ (٤٠) ﴿

[هود]

وحمل نوح عليه السلام في الفلك - بأمر من الله تعالى - من كل شيء زوجين اثنين ، وأهله ومن آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ..﴾ (٤١) ﴿

[هود]

(١) قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودي لعشر خلون من المحرم ، فذلك ستة أشهر . وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة . قاله القرطبي في تفسيره (٣٣٥٤/٤) وذكر ابن كثير في تفسيره (٤١٧/٢) عن ابن عباس أنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، أي : حوالي خمسة أشهر . فאלله أعلم .

(٢) للجري (بفتح الراء وتُمدّ نحو الكسرة) : مصدر ميمي بمعنى الجري . قال تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَحْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ..﴾ (٤١) ﴿ [هود] أي : جريها وإرساؤها بركة اسم الله وبعنايته ورعايته . [القاموس المرفوع] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤١)

[هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه .

والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعلَى عليه فى خدمة المُستعلَى ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء لِيُخدم المُستعلَى .

ولكن الله تعالى يقول هنا :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

ولم يقل : « اركبوا عليها » .

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة ، فقد صنعها "نوح عليه السلام بروحى من الله تعالى على أفضل نظام فى البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إذن - لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

يُبين لنا أنها قد صُنعت لتُنَجى من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ لِيُتيح

(١) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَعَّرْنَا نَجْدُ مَاسِرٍ .. ﴾ (٤٩) [طه] وقال تعالى : ﴿ .. إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصْتُمُونَ ﴾ (٦٠) [فاطر] ، وتأتى عقب التربة والتعليم بحراسنى وحنائى كما فى قوله تعالى : ﴿ .. وَنَصَّحْ عَلَى عَنِي ﴾ (٦٥) [طه] وتطلق على الأبنية العالية والقصور الثينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَجْلِدُونَ مَعَانِيَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٥) [الشعراء] [القاموس القويم بتصرف] .

الرُّسُوءُ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان .

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوءُها بإذنه سبحانه .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

يعلمنا أن جريانها إنما يتم بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - : نجد القاضى يقول مفتتحاً الحكم : « باسم الدستور والقانون » أى : أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون .

ونوح عليه السلام يقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة .

ولذلك يقال : « كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر »^(١) .

لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضلياً ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر وروية وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحلم .

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول : « باسم القوى القادر » ولكى تحصل على علم ؛ تقول : « باسم العليم » ، وتريد الغنى ؛ فتقول : « باسم الغنى » وحين تحتاج إلى الحلم تقول : « باسم الحليم » ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول : « باسم القهار » .

(١) أبتر : أى مقطوع البركة ، لا خير فيه .

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذي يُغْنِي عن كل ذلك أن تنادى
ربك وتبهرك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كل
صفات الكمال والجلال .

وليك أن تهيب أو تستحي ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو
كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ٤١ ﴾ [هود]

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبقوا -
كغالبية البشر - كل التكليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك قَدَّرَ الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التي
ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هي الميزة في قول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصِفُ السفينة وركابها :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَقَرٍّ يَتَنَزَّلُ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٢ ﴾

(١) الجرى : السير السريع . جرى الماء يجرى : سار . وجرت السفينة : سارت وأسرعت . قال تعالى :
﴿ لِيَهْمَا غَيَّانَ تَجْرِيَانِ ٤٠ ﴾ [الرحمن] وقال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .. ٤١ ﴾ [هود]
وهي سفينة نوح عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَاطِقَاتُ الْمَاءِ حَمَلَاتِكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ٤٢ ﴾ [الحاقة] أى :
في السفينة المعهودة . وجمع الجارية : الجوارى . وقال تعالى : ﴿ وَبَيْنَ أَيْدِيهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٤٣ ﴾ [الشورى] وحذفت الياء تخفيفاً من الجوارى في رسم المصحف . وتوكله تعالى : ﴿ فَالْعَارِيَاتُ يُسْرَأْنَ ٤٤ ﴾ [الذاريات] قيل : هي السفن . وليل : هي الرياح . وقيل : هي النجوم والكواكب . وقال تعالى :
﴿ وَالْفَلَكَ السَّيِّئُ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ .. ٤٥ ﴾ [البقرة] [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

١٤٧٧

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان المرح كالجبال ، وهذا يدل على أنها مسيرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادى نوح ابنه :

﴿ .. وَتَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ^(١) يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (١٢) ﴾ [هود]

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحمله

وفى هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مراد الابن في مخالفة مراد أبيه

﴿ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (١٣) ﴾

مكذباً ظن ابن نوح أنه سينجو إن أوى ^(٢) إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرق الموج بين نوح وابنه ، وغرق الابن .

(١) المعزل : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ .. ﴾ (١٢) [هود] أي : في موضع عزل نفسه فيه جانباً ، ولم ينضم إلى ركاب السفينة مع أبيه نوح عليه السلام . [القاموس القويم] .

(٢) يعصمني : يمتنعني ويحميني من الماء فلا أغرق . والمعصية : الشئ والحفظ .

(٣) حال بينهما يحول حولاً : حيز وفصل . قال تعالى : ﴿ .. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (١٣) ﴾ [هود] أي : حيز المرح وفصل بين نوح عليه السلام ، وابنه ، فكان من المغرقين . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) أوى : لجأ إلى جبل ولاذ به ؛ طلباً للحماية من الماء الغزير . وأوى إلى المكان : وأوى إليه يأوي أويًا : نزله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرَى الْفُتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ .. ﴾ (٦) [الكهف] أي : نزلوه والتجئوا إليه . [القاموس القويم] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهي الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلفظة استواء السفينة على الجودي ،

ويقال : إن جبل الجودي يوجد في الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجعل به لا يضر .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ^(١) وَبَسِّمَاءَ أَقْلِي^(٢) وَغِيضَ الْمَاءِ^(٣) وَقُضِيَ الْأَمْرُ^(٤) وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ^(٥) بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٦) ۝ ١١ ﴾

والبلع هو مرور الشيء من الخلق ليسقط في الجوف ، وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ۝ ١١ ﴾ [هود]

فإنهم أن القاتل هو من تنصاع له الأرض .

ولم يقل الله سبحانه : « قال الله يا أرض ابْلَعِي مَاءَكِ » ؛ لأن هناك أصلاً متعيناً وإن لم يقله ، والحق سبحانه يريد أن ينمى فينا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء .

(١) أقلي : أمسك (امتنع) عن إزال المطر . [كلمات القرآن] . والإقلاع عن الأمر : التكتف عنه . وأقلى عن الشيء : كف عنه . وأقلى السماء : كفت عن المطر . [القاموس القويم] .

(٢) غيض الماء : نقص وذهب في الأرض [كلمات القرآن] .

وغاى الماء يغيض غيضاً : ذهب وابتلعه الأرض [القاموس القويم] .

(٣) استوت على الجودي : استقرت على جبل يقرب الموصل . [كلمات القرآن] .

وقيل : إن ذلك كان يوم عاشوراء ، فصامه نوح ومن كان معه من الوحش والخلق شكراً لله عز وجل . [مختصر تفسير الطبري] .

(٤) قضي : أي : هلكاً وسحقاً . [كلمات القرآن] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧٩

ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي﴾ أي: أن توقف المطر.
وهكذا ينهى الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأن أوقف المصب،
وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحي تطفح إن كان
هناك ما يسد تصريف الماء، لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذي
لا يمتص المياه، ولذلك نجد الجهات المختصة تجدد طاقاتها لإصلاح مواسير
الصرف الصحي لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة.

وأقول هنا: إن حسن استخدام الماء من حسن الإيمان، لأنني ألاحظ أن الناس
حين يتوضأون فهم يفتحون صنابير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للتوضوء
الشرعي، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقي ليضيع دون جدوى^(١).

وعلى الناس أن يدخروا الماء، ولا يسيئوا استغلاله، لأن الماء حين يتوقف
فهو يحيى الموات، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحاري، ونحتاج لتخفيف
العيب على شبكات الصرف الصحي.

ياختصار: نحن نحتاج إلى حسن استقبال نعم الله تعالى وحسن التصرف
فيها، لننعم بها، ونسعد بخيرها.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي.. (١١)﴾

[هود]

أي: اتركي المطر.. ومن ذلك أخذنا كلمة «قلع» الذي يوضع فوق السفن
الشراعية الصغيرة، وهو الشراع.

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ. فقال: ما هذا السرف؟ فقال:
أفنى الوضوء «إسراف» قال: «نعم وإن كنت على نهر جار» أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٢١)
وابن ماجه في سننه (٤٢٥) قال البوصيري في الزوائد: «إسناده ضعيف» لضعف حنبل بن عبد الله وابن
لهيعة.

ويُقال: «أفلعت المركب» أى: تركت السكون الذى كانت عليه وهى واقفة على الشاطئ.

ويقول الحق سبحانه:

[هود] ﴿وَعَبَسَ الْمَاءُ .. (١١)﴾

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول: لنعلم أن الله تعالى هو الذى أمر الماء بأن يعبس.

ومادة «غاض» تستعمل لازمة، وتستعمل متعدية^(١).

ثم يقول سبحانه:

[هود] ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى .. (١٢)﴾

أى: استقرت السفينة على جبل الجودى.

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

[هود] ﴿.. وَقِيلَ بَعْدَ الْقُورِ الظَّالِمِينَ (١٣)﴾

وهو بعدُ نهائى إلى يوم القيامة.

وتتحرك عاطفة الأبوة فى نوح عليه السلام، ويظهرها قول الحق سبحانه:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ

الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (١٤)﴾

(١) تستعمل «غاض» لازمة، وهى أن تكفى بفاعها فلا تحتاج لمفعول به، وذلك مثل: غاض الماء - أى: نقص، ولقد تستعمل متعدية أى: تتعدى لفاعلها إلى المفعول به. فنقول: أغاض الله ماءه (البشر) أو: غاضه وغضه.

(٢) أحكم: اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة. أى: أنه سبحانه وتعالى هو أفضل الحاكمين. وأحكم الأمر: أتقنه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ أَمَانَهُ .. (٥٧)﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها متقنة محكمة. [القاموس القويم].

وعاطفة الأيوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قدر حاجة البنة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمل أيُّ أب أو أيُّ أم متاعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتباع نجد المثل في إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ^(١) ۖ ۝ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرفعها فوق قامته بالاحتتيال ، فأحضر حجراً ووقف عليه ليُعلى جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ۝ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنقله بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ۝ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فقال الحق سبحانه :

(١) ابتلى : اختبر وامتحان . بكلمات : بأوامر ونواه . فأتمهن : أداهن لله تعالى على الكمال . [الكلمات القرآن] .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام . قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناusk وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، ولفق الرأس ، وفي الجسد : تغليم الأطفال .

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١٢٤)

[البقرة]

من هذا نعلم أن النبوة ليس لها بنوة ، بل النبوة لها أتباع .
ويتضح ذلك أيضاً في قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقر في ذهنه
قول الحق سبحانه :

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١٢٤)

[البقرة]

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق ملكة وأهلها :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ
آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾ (١٢٤)

[البقرة]

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه
يبيّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن
والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هي للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق
سبحانه :

﴿ وَمَنْ كَفَرَ .. ﴾ (١٢٦)

[البقرة]

أي : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .

ونريد أن نقول إن عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن
تناسباً عكسياً ، فإن كان الابن قوياً فعاطفة الأبوة والأمومة تقل .

ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غني قائم بأمر الأبوين ويتكفل
بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

(١) العهد : الزمان والوصية والوثن والتمن والأمان . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ .. ﴾ (١٧٠) [البقرة] .

وعهد إليه بالأمر بعهد عهداً : أوصاه به وجعله في ذمته وضمنته . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا
يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ .. ﴾ (٥٣) [يس] . [القاموس المفهرس] .

ومستلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغنى ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب ، وكلما كان الابن في حاجة ؛ كانت العاطفة معه .

وفي نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلاحظ أن نوحاً كان يملك المبرور طلباً لنجاة الابن ؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابته لأنه من أهله ، فقال :

﴿ .. رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنْ وَعْدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾
[هود]

إذن : فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء ؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطئ ؛ لأن الابن قد غرق ، بل لا بد أن ذلك الغرق كان لحكمة .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِينَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١)

(١) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ..﴾ : أى : ليس من أهل ولايتك ودينك ، ولا من وعدتك أن تنجيه معك .
﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ..﴾ : قيل : معناه ، أن مسألتك إياي ما تسأله في ابنك المخالف لك عمل غير صالح .
﴿ .. إِنْى أَخْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٢) : فى مسألتك إياي عن ذلك . [مختصر تفسير الطبرى] .

ووعظه بوعظاً ووعظاً : نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير ، والوعظة : ما يوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ .. وَمَوْعِظَةُ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٣) [البقرة] . [الفامرس القويم] .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يُلفتَ نبيه نوحاً إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتباع ، وإذا قاس نوح - عليه السلام - ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له .

ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسي : «سلمان من آل البيت»^(١) .

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتباع ، لا بنوة نسب .

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى :

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾

[هود]

ثم يأتي سبحانه بالعلة والخشية لذلك بقوله :

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾

[هود]

فكان البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فاللغات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿.. فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾

[هود]

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٥٩٨/٣) من حديث عمرو بن عوف المزني . قال الذهبي والمجلوني : سنده ضعيف .

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكر جيداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يريهم ربهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ ۖ
عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٧)

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقر بأنه لما أحب أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتب سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قلبه مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ .. ﴾ (١٧) [هود]

يوضح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه .

ولذلك يستعiez نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) هذا يعوذ عوداً : لا ذولجأ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (١) [الناس] ، أي : أجدأ إليه ، وألوذ به ، وأحتسب بحمايته [القاموس المفهوم] .

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ
أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَنْتُمْ سَمِعْتُمْهُمْ ثُمَّ لَمَسَهُمُ مِنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

وقول الحق سبحانه :

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ..﴾ (٤٨) [هود]

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر
مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة ، مما حمل في تلك السفينة من
كل زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين الذين أجهلهم الله تعالى ، وأغرق
من قالوا عليهم إنهم أراذل^(١) .

وقول الحق سبحانه :

﴿أَمْرٌ مِّمَّنْ مَعَكَ ..﴾ (٤٨) [هود]

تضمن أهل^(٢) نوح عليه السلام ومن آمن به ، وكذلك أم الوحوش
والطيور والحيوانات والدواب .

(١) البركة : زيادة الخير والثناء والسعادة . قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَفَرُوا فَآخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/٦٥] .
(٢) يمسهم العذاب : يصيبهم ويؤذيهم . وقال تعالى : ﴿.. وَإِذَا مَسَّ الْظُّرُكَانَ يَتُومًا﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ يَكْفُرُوا أَنْتُمْ كُفَرًا عَلَيْهِمُ الْكُفْرُ .﴾ [هود] . [القاموس القويم] .
(٣) الأراذل : جمع أرذل : وهو الدون من الناس ، وقيل : هو الدون في منقره وحالاته . وقيل : هو الرديء من كل شيء . وهم قد اعتبروهم أراذل لأنهم نسبوهم إلى مهنتهم كالحياسة والحجامة . قاله الزجاج . [انظر : لسان العرب - مادة : رذل] .

(٤) وقد استثنى الله عز وجل منهم امرأة نوح التي قال عنها رب العزة : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغَيَّرْهُمَا مِن اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِكِينَ﴾ [التحريم] وخيانتها لنوح كانت في الإيمان . قال ابن عباس : ما زنت امرأة نوح ، إنما كانت خيانتها أنها كانت تخبر أنه محنون ، وكانت تطلع على سره فإذا آمن مع نوح أخذ أخبرت الجبابرة من قوم نوح . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/٣٩٢] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٨٧

أى: أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهى أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية فى الأرض .

وقول الحق سبحانه:

﴿ اهْبِطْ^(١) بِسَلَامٍ مِنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

والمقصود بالسّلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يعد هناك من الكافرين ما يتغص على نوح - عليه السلام - أمره ، ولن يجد من يكدر عليه بالقول:

﴿ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٤٩) ﴾ [هود]

ولن يجد من يتهمة بالافتراء .

ومن بقى مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذى بلغهم به نوح عن الله تعالى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَكَاتٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

يعنى أن الحق سبحانه يبارك فى القليل ليجمعه كثيراً .

ويقال: «إن هذا الشيء مبارك» كالطعام الذى يأتى به الإنسان ليكفى اثنين ، ولكنه فوجئ بخمسة من الضيوف ، فيكفى هذا الطعام الجميع .

إذن: فالشيء المبارك هو القليل الذى يؤدى ما يؤدّيه الكثير ، مع مظنة أنه لا يقى .

(١) هَبِطَ يَهْبِطُ هَبْطًا ، من باب ضرب : نزل من علو إلى سُفْل ، أو اتحد من علو ، وفى لغة قليلة هبط يهبط من باب تعدد هبوطاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَشْفَقُ لَمَخْرُجٌ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَكُ مِنْ حَشَاةٍ اللَّهُ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] كما ذكّ الجبل حينما تجلى الله عليه (الفاموس القويم بتصرف).

وكان يجب أن تأتي هنا كلمة ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح - عليه السلام - من كل زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفى.

وقول الحق سبحانه :

﴿.. وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سَمِثُوعُ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨﴾ [هود]

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية ، فقد كان المؤمنون مع نوح - عليه السلام - هم الصفوة ، وبمضى الزمن طرأت الغفلة على بعض منهم ، ويأتي جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة ، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج .

وفي هذا يقول الرسول ﷺ : «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكيت»^(١) ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المجل^(٢) ، كجمر دخرجه على رجلك فنقط ، فتراه متبرأ^(٣) ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصي فدخرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلدك ! ما أظرفه ! ما أعقله ! وما في قلبه

(١) الوكيت : الأثر اليسير . قاله الهروي . وقال غيره : هو سواد يسير . وقيل : هو لون يحدث مخالف للون الذي كان قبله . [شرح النووي لصحيح مسلم - ٥٢٨/٢] .

(٢) المجل : أن يكون بين الجلد واللحم ماء . والجنة : قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العسل . مجلت اليد : نطعت من العمل فمرنت وصلبت وتخشّ جلدُها وتعجّر وظهر فيها ما يشبه البشر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة . [لسان العرب - مادة : مجل] .

(٣) متبرأ : مرتفعاً . وكل ما رفعته فقد تبرأ . وانتبر الجرح : ارتفع وورم . [لسان العرب - مادة : تبرأ] قال النووي في شرحه لمسلم (٥٢٨/٢) : «منه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه» .

مَثَقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ^(١) مِنْ إِيْمَانٍ ^(٢).

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول ﷺ : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأَيُّما قلب أشربها ^(٣) نُكُتَتْ ^(٤) فيه نَكْةٌ سوداء ، وأَيُّما قلب أنكرها نُكُتَتْ فيه نَكْةٌ بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرَبَّاداً ^(٥) كالْكُوزِ مُجَخَّباً ^(٦) لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ^(٧)» .

وأعوذ بالله تعالى من طرود فتنة الغفلة على القلوب .

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من استطاع عليه الغفلة ، وسيمتحنهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمشاع الدنيا ، ولن يضمن عليهم ، ولكن سيُلحِقُهُمُ العذاب .

(١) الخردل : نوع من أنواع الحبوب الثوابل . يضرب مثلاً في الصغر ، قال تعالى : ﴿وَمَا تَنبَأُ بِهَا إِنَّ تَلَقَّ بِمَثَقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَهَكَذَا فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [النمل] .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠٨٦) ومسلم في صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

(٣) أي : خالط قلبه حُبُّ الفتن . وكأنه أسقامها . ومنه قوله تعالى عن اليهود : ﴿وَأَخْرَجُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ .. ﴾ [البقرة] أي : خالط قلوبهم حب عبادة العجل من دون الله . [وراجع : لسان العرب - مادة : شرب] .

(٤) نُكُتْ : أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها . أي : أن الفتنة تترك أثراً في القلب . [راجع : مختار القاموس - مادة : نُكُتْ] .

(٥) مُرَبَّاداً : أسود عليه غبرة . والمقصود من حيث المعنى لا الصبورة . ذكره ابن منظور في لسان العرب . والشربد : التلون . يقال : لما رأيته شربد لونه . أي : تراه أحمر مرة ، ومرة أخضر ، ومرة أصفر . [اللسان] .

(٦) الكوز الجصفي : أي : المائل الذي يكتب ويصطب ما فيه . فالجصفي هنا هو : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذي لا يمي خيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء . لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [اللسان - مادة : جج خ ي] .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤١٠٥) ومسلم في صحيحه (١٠٠٤) من حديث حذيفة بن اليمان .

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثاني : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

ونحن نعلم أن من ذرية نوح عليه السلام «قوم عاده» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك «قوم ثمود» الذين أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام ، وقوم لوط ، وهؤلاء جميعاً رآنت^(١) الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

وكلمة «تلك» إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم يُعلم عنك أنك جلست إلى معلّم^(٢) ، ولم يذكر عنك أنك قرأت في كتاب ، ولذلك يأتي في القرآن :

(١) وإن الشيء ريتاً : صدىء ، مأخوذ من الصدا يعلو السيف ليذهب بريقه ، ويستعار للغشاة تنظى على انقلاب بسبب الذنوب ، وإن الصدا عليه : غلب عليه وغطاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين] أي : غطت غشاة الخرب على قلوبهم . [القاموس القويم] .
(٢) حاول مشركو قريش أن يعلموا في أن القرآن وحى من عند الله ، فقال عنهم سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُكَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَيَقُولُ لِسَانُ عَرَبِي مُبِينٌ ﴾ [التل] فاتهموه بالتعلم من غلام نصراني أعجمي ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا ، يقول ابن كثير في تفسيره (٥٨٦/٢) : وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ^(١)﴾ [التقصص]

وجاء:

﴿.. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا لَهُمْ^(٢) آيُهُمْ يَكْفُلُ^(٣) مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ^(٤)﴾ [آل عمران]

إذن: فما دمت يا محمد لم تقرأ ولم تتعلم عن معلم فمن علمك ؟
إنما علمك الله سبحانه .

وكان الله سبحانه وتعالى علم رسول الله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله ، وأنه سبحانه لن يسلمه إلى خصومه ولا أعدائه .

ولذلك يأتي القول الكريم: ﴿فَاصْبِرْ﴾ ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذي استمر ألف سنة إلا خمسين ، ويأتي بعدها قوله سبحانه :

(١) ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ : خطاب من الله تعالى إليه محمد ﷺ ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ : أى : بجانب الجبل أو الوادى أو المكان الغربى من موسى حين المناجاة . ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ^(١)﴾ [التقصص] : أى : أوحينا إلى موسى - عليه السلام - الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه . [تفسير الجلالين] ومختصر تفسير الطبرى [بتصرف] .

(٢) الأفلام - هنا - جمع قلم بمعنى السهم أو خشبة تشبهه ، يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه فى القمار - وتنهى الإسلام عن ذلك - وكانوا يستعملونه أيضاً فى الفرعة . ومن استعماله فى الفرعة قوله سبحانه : ﴿إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا لَهُمْ^(٢) آيُهُمْ يَكْفُلُ^(٣) مَرْيَمَ﴾ [آل عمران] فالأفلام هنا : سهام الاقتراع ، وقد أجزت الفرعة فجاز سهم زكريا - عليه السلام - فكفل مريم . [القاموس القويم] .

(٣) كفل يكفل كفلاً وكفالة : قام بالتربية والرعاية لمن يكفله . وتو له سبحانه : ﴿يَكْفُلُ^(٣) مَرْيَمَ﴾ : أى : يرعاها ويربها . وقال تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا^(٤)﴾ [آل عمران] : أى : جعله كفلاً لها . [القاموس القويم] .

{هود}

﴿ .. إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٩)

* * *

تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يُرسل رسولا إلا إذا عم الفساد .

إذن : فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمت لها أسرة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعز على الموجودين أن يقيموا .

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسلا جدد إلا إذا لم يوجد في الأمة من يرفع كلمة الله ؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانية في النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدّثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوامة تردعه وتردّه إلى الإيمان .

أما إذا تصلبت ذاته ، ولم توجد لديه نفس لوامة ، فالمناعة الذاتية تختفى ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بلمومه .

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث رب العزة سبحانه برسول جديد ، وبيئة جديدة ، وبرهان جديد .

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَسْقُوا رَبَّهُمْ وَاللَّهُ

مَالِكُكُمْ مِنَ اللَّهِ فَاخِذُوا بِلِحْظِهِ وَلَا تُفْتَرُوا عَلَيْهِ ﴾ (٥٠)

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٤) : « هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم ، كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهي جبال الرمل » وقد قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٣٦٩) : « قيل : هم عادان : عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ، وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران في قوله تعالى : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ [الفجر] . »

(٢) ﴿ .. إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود] كلمة (إن) هنا نافية بمعنى (ما) النافية . أى : ما أنتم إلا مفترون .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٣

يفتح الحق سبحانه الآية بتحسينهم ومواتستهم بالمرسل إليهم ، فيُخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العنت ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما ييلفهم به .

وحين يقول لهم :

﴿ يَا قَوْمِ .. ﴾ (٥٠)

[هود]

فهذا للإيناس أيضاً .

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء .

والله سبحانه لم يقل :

﴿ .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٥٠)

[هود]

إلا لأن الفساد قد طمَّ^(١) .

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود :

﴿ يَنْقُورِمْ لَا أَشْكُرْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥١)

(١) يقال للشئ الذي يكثر حتى يعلو : قد طمَّ . ويقال : طمَّ الماء إذا كثر . طمَّ : غمر ، ولذلك قيل ليوم القيامة : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٥٥) [النازعات] . [راجع : لسان العرب ، والقاموس القويم] .
(٢) كلمة (٥٠) في هذه الآية الكريمة ، نافية بمعنى (ما) النافية ؛ أي : ما أجرى إلا على الذي فطرني ، أو ليس أجرى إلا على الذي فطرني ، وهو الله سبحانه وتعالى . أجر فلان فلاناً - من بابي ضرب ونصر - أجراً : أثابه على عمل ، أو صار أجيراً له وبالجوهرين فسر قوله تعالى : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجِرَنِي ثَمَانِي حَجِجٍ .. ﴾ (٢٧) [القصص] وسمي المهر أجراً محجازاً - قال تعالى : ﴿ فَأَتَوْهُمْ أُجُورُهُمْ .. ﴾ (٥٠) [الطلاق] أي مهورهم - وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أُجُورُهُمْ عَذْرَاءً .. ﴾ (٥٣) [البقرة] أي ثوابه [القاموس القويم بتصرف]

(٣) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم ؛ فهو فاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٦٤) [الأنعام] أي : خالقهما . وقوله سبحانه : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٥٥) [الأنعام] أي : خلقكم أول مرة في الدنيا . [القاموس القويم]

وكان هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذى يشقُّ عليكم فيما أمركم به وأدعوكم إليه ، إننى أقدم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم مما ألفتكم ، ثم آخذ منكم مالا مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة ترك ما تعودتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة .

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن : فلا مشقة أكلُفكم بها ، كما أننى فى غنى عن ذلك الأجر ؛ لأن أجرى على من أرسلنى .

﴿ .. إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ^(١) أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾ [هود]

أى : أن أجرى على من خلقتنى مُعدداً لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعنى التكوين الأساسى للإنسان .

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم - أيضاً أن الأجر يكون عادةً مقابلًا للمنفعة .

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشتري بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتسمى هذه العملية بيعاً وشراءً .

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه .

وقول هود عليه السلام :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٥١) ﴾ [هود]

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه ؛ لأن الأجر الذى تدفعونه فى المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلًا لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة ؛

(١) فطر الله الخلق ، كنصر : خلقهم وبدأهم ، فهو فاطر ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٦٧) ﴾ [الأنعام] خالقها - وفطر الشيء شقه فطراً والجمع فطور ، والاسم الفطرة قال تعالى : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهَ إِلَهِي فَطَرْتُ النَّاسَ مِثْلَهَا .. (٦٧) ﴾ [الروم] [القاموس القويم باختصار]

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء .

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة ^(١) :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴾ (٥١)

[هود]

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام : فسيدنا إبراهيم لم يقلها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها ^(٢) : لأن فرعون قال له :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا .. ﴾ (١٨)

[الشعراء]

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجسميّة ، وهي المنهج الرّسالي الذي جاء به هود عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

(١) قالها نوح عليه السلام : (سورة يونس، آية ٢٢) ، (سورة هود ، آية ٢٩) ، (الشعراء ، آية ١٠٩) ، وقالها هود عليه السلام : (هود : ٥١) ، (الشعراء : ١٢٧) . وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود : (الشعراء : ١٤٥) وقالها لوط عليه السلام : (الشعراء : ١٦٤) . وقالها شعيب (الشعراء : ١٨٠) .

(٢) وذلك أن فرعون من على موسى عليه السلام بهذا عند طلبه خروج بني إسرائيل معه ، فقال فرعون : ﴿ .. أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَنُفِّسْنَا فِيكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا لَعَلَّكَ إِلَى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الشعراء) فلا يتأتى لموسى بعد هذا أن يقول ما قاله إخوانه من الرسل .

(٣) مِدْرَارًا : صيغة مبالغة ، أي : كثير غزير متتابع . وقال الله سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا .. ﴾

(٤) (الأنعام) أي نذر عليهم مطراً غزيراً ، (القاسوس القسم) . وقد وردت كلمة (مِدْرَارًا) في القرآن الكريم ثلاث مرات ، في الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفي الآية الثانية والخمسين من سورة هود ، وفي الآية الحادية عشرة من سورة نوح .

وهكذا نعلم أن الاستعفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول :
يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف
بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذنوب فسات من ذنوب ،
فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب
المعاصي .

وعلى الإنسان أن يتذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة
هي مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسك وثابة ^(١) الحياة عن مسببها الواهب لكل
النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا ، فأول ما ينزل به الرسول إلى
الامة هو أن يصحح العقيدة في قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بآله واحد
يتلقون عنه «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه «قوم عاد» ، والدعوة إلى
الإيمان بآله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهج لا يمكن أن يقتصر على الطقوس
فقط من الشهادة بوحداية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ولكن عبادة الله تعالى هي أن تؤدى الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل في
ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام في حركة الحياة ، يريدون منا أن نقصر
الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل في حركة الحياة
غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس في الشرق ،
وحضارة الرومان في الغرب .

(١) وثابة الحياة : أي : سيرها على نظام واحد ، لا يتخلف ، فبدونك أنه يسير بنفسه وبيداته وتنسى مسيره
ومسببه . قال في اللسان (مادة : رتب) : «الراتب : الثابت الدائم . والرتب : الشيء للقيم الثابت» .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٧

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأميين ؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أميٌّ^(١) أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول .

يريد هؤلاء - إذن - أن يوقعوا الإسلام في الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

وتقول لهم : لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حق ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثل أوامر المعبود في « افعل » و « لا تفعل » ؛ وما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ ويفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون .

إذن : فالعبادة هي كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها في الطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هي التي بنى عليها الإسلام ؛ وليست هي كل الإسلام^(٢) .

إذن : فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام في أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة في الحياة ، ولا بد أن

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكد عليه رب العزة في القرآن ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

الأمي نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حالته التي وكدها عليها مفضوذاً ينطرد الله بالتلقى عنه إلهاماً ووحياً ، فما نطق عن هوى ﴿ إِنَّهُ قَوْلُ إِلَهِ وَحْيٍ يُوْحَىٰ ﴾ [التجم:] وهذا الوصف من خصوصيات النبي ، وهي تشريف له ، لأنه إذا كان أمياً وأنزل الله عليه الكتاب المعجز ، فلا شك أنه من عند الله والامية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لقل أنه قرأ ونقل عن غيره . « من أقوال الشيخ الشعراوي » م . س

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ومسلم في صحيحه (١٦) .

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حولها .
فالعبداء تستوعب كل حركة في الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العباد :
تنحصر في باب العبادات في تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو
من العباداة أيضاً ، واستقامة الناس في المعاملات تؤدي إلى انتظام حياة الناس .
وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خوارطنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ (٥٢) [هود]

والاستغفار ^(١) لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله
هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التي ارتكبوها
مخالفة لمنهج الرسول الذي جاء من قبله ، أو هي الذنوب التي ارتكبوها
بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ .. ﴾ (٥٢) [هود]
والتوبة تقتضي العزم على ألا تُنشئوا ذنباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :
﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ .. ﴾ (٥٢) [هود]
ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مائلاً لكل ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه
قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن
طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة ونحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه
فلا تمطر .

(١) غفر الذنوب يغفره - كضرب - غفراً وغفرانا ومغفرة . ستره وعنا عنه ولم يعاقبه فاعله ، قال تعالى :
﴿ تَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .. ﴾ (٥٢) [البقرة] والناظر : اسم فاعل وغفور وغفار : صفتان للمبالغة وكلها من
أسماء الله الحسنى ؛ وغفران مصدر ، والمغفرة مصدر ميمي ، واستغفر طلب الغفران لنفسه ، قال
تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرُّسُولُ .. ﴾ (٥٢) [النساء] طلب من الله أن يغفر لهم ، [القاموس القويم
بإختصار]

مثلما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ^(١) عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ^(٢) رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف]

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وإنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التي تنظم بها كل حركة في الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفر لنفسك القُوَّةَ^(٣) بامتنباطه من الأسباب التي طمرها^(٤) الله سبحانه وتعالى في الأرض .

والقوت - كما نعلم - من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ ونعمد البذور جذورها الضاربة المسبحة الساجدة لله تعالى ؛ فيمطر الحق سبحانه السماء ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المنسرب إليها عبر الأرض ؛ وتأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

(١) أي : لما رأوا العذاب مستقبليهم اعتقدوا أنه عارض مطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا محملين محتاجين إلى المطر . (تفسير ابن كثير ٤ / ١٦٠) .

(٢) وذلك أنهم ظنوا المرسلهم هو د عليه السلام : ﴿ .. فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف] .

(٣) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ؛ وجمعه «قوات» . قال تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ فِيهَا أَمْرَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴾ [الفصلت] أي : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شيء حتى إلى آخر الدهر . وأقات النباتات أو الحيوان : أمده بقوته الذي يحفظ حياته . وأقات عليه : حفظه وحفظ بقائه . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ﴾ [النساء] أي : غالياً مقدراً ، أو حافظاً وأتياً حياته . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) طمرها : دفنها وأردعها وخباها في باطن الأرض . والمطمورة : حقيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هيء خفياً يظمر فيه الطعام والمال . أي : يخبأ . [لسان العرب - مادة : طمر] .

والسماء هي كل ما علاك فأظلك^(١) ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها .

وانظروا قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (١٥) [الحج]

أى : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أى شىء ويربطه فيما علاه ويعلق نفسه فيه ؛ ولسوف يموت ، وغيطه لن يرحل عنه .

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ ۞ ﴾ (٥٢) [هود]

والمدرار : هو الذى يُدرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضار ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر .

إذن : المدرار هو المطر الذى يتوالى توالياً مصلحاً لا مُفسداً .

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر : «اللهم حوالينا ولا علينا»^(٢) .

ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضر ؛ وتعمر الدنيا ؛ وتزداد قوة إلى قوتنا .

(١) قال الزجاج : السماء فى اللغة : يقال لكل ما ارتفع وعلا : قد سما يسمر . وكل سقف فهو سماء .

والسماء : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء . [اللسان : مادة سمو] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩٧) ، والبخارى فى صحيحه (٩٣٣) ، فعن أنس بن مالك قال : أصابت الناس سنة على عهد النبى ﷺ فبينما النبى ﷺ يخطب فى يوم الجمعة قام أعرابى فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العميال ، فادع الله لنا . فرفع يديه - وما نرى فى السماء قزعة - فوالذى نفسى بيده ما وضمها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يشحادر على خيته ﷺ ، فمضرتا يورنا ذلك ، ومن الغد وبعد الغد ، والذى يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابى فقال : يا رسول الله تهديم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : «اللهم حوالينا ولا علينا» .

أما مَنْ يتولَّى ^(١) ؛ فهو يُجْرِمُ في حقِّ نفسه ؛ لأنَّ إجْرامَ العبدِ إنما يعودُ على نفسه ؛ فلا تظنَّ أنَّ إجْرامَ أيِّ عبدٍ بالمَعْصية يؤدِّي غيره ^(٢) .
والحقُّ سبحانه يقولُ :

﴿ .. وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٤٤]

[يرسم ٢]

ويأتى الحقُّ سبحانه من بعد ذلك بالردِّ الذى قاله قوم عاد :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي
مَالِهِمْ إِنَّا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥٢]

وهم هنا يشكرون أن هوداً قد أتاهم ببيِّنة أو مُعجزة .

والبيِّنة - كما نعلم - هى الأمانة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أن جوهر أى معجزة هو التحدى ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هى الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً ^(٣) وسلاماً عليه حين ألقوه فيها .

ونحن نلاحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام :

(١) يتولَّى : يُعرض . والتولَّى : الإعراض والإدبار . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَابِعُونَ ﴾ [٤٦] [آل عمران] .

(٢) والحقُّ سبحانه يقولُ : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [٥١] [النساء] والإثم : الفسب . وهاتبتة إنما تعود على نفسه .

(٣) بيِّنة : أى : دليل وبرهان وحجة واضحة لا شك فيها . وقال تعالى : ﴿ تَحْمِ آتِيَاهُمْ مِنْ آيَةِ نَبِيٍّ .. ﴾ [٤٦] [البقرة] وقال تعالى : ﴿ .. حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [٦] [البقرة] . [الفاموس القويم] بتصرف .

(٤) البرد : ضد الحر . قال بعض العلماء : جعل الله فى النار برداً يرفع حرها ، وحرّاً يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل « برداً وسلاماً » لكان بردها أشدَّ عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان بردها باقياً على الأبد . انظر تفسير القرطبي (٦ / ٤٤٨٢) .

﴿ ٧٠ 》 يَا قَوْمِ إِنْ كُنْ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ^(١) وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ^(٢) ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿ ٧١ 》﴾ [يونس]

أى : إن كنتم أهلاً للتحدى ، فهذا أنا ذا أمامكم أحارب الفساد ، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان .

وأحكموا كيدكم ؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الرباني ؛ لأن أحداً لن يستطيع إطفاء نور الله فى يد رسول من رسله ؛ أو أن يخلصوا الدنيا منه بقتله . . ما حدث هذا أبداً .

إذن : فالبيئة ^(٣) التى جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر ؛ وهو تحدى القادرين عليه ؛ لأنهم أهل طغيان ؛ وأهل بطش ؛ ومع ذلك لم يقدرُوا عليه ؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا ﷺ .

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهى القرآن الكريم ؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة .

ونعلم أن غالبية الرسل - عليهم جميعاً السلام - قد جاءوا بمعجزات حسية كونية ؛ انتهى أمدها بوقوعها ، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدّقناها ، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفئ .

(١) مقامى (يضم الميم) : أى : إقامتى بينكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا 》 [٧٠] ﴿ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم . راجع تفسير ابن كثير .

(٢) الغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه . وقال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ 》 [٧١] ﴿ [البقرة] . [القاموس القويم] .

(٣) أبان الشئ بيمين بياناً أى : ظهر وانضح ، فهو بين ، وهى بيئة أى ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيئة بمعنى المظهر والمفهره والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يفسر قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْدِيكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ 》 [٧١] ﴿ [البقرة] أى واضحة لا شك فيها ، والبيئة الحجة والبرهان يقول الحق : ﴿ 》 . . حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ 》 [٧١] ﴿ [البينة] وتبين الأمر ؛ وضح وظهر . [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٢

فمثلاً شفى عيسى - عليه السلام - الأكمه^(١) والأبرص^(٢) - بإذن ربه -
فمَنْ رآه آمن به ، وَمَنْ لَمْ يَرَهُ قَدْ لَا يُؤْمِنُ ، وكذلك موسى - عليه
السلام - ضرب البحر بالعصا فانفلق أمامه ، ومن رآه آمن به ، وانتهت
تلك المعجزات ؛ لكن القرآن الكريم باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أى واحد من أمة محمد ﷺ قبل قيام الساعة أن يقول: محمد
رسول الله ومعجزته القرآن ؛ لأن محمداً ﷺ جاء رسولاً عاماً ؛
ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الجنس
الباقى ؛ ومع ذلك قالوا له :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(٣) (٦٥) أَوْ تَكُونَ لَكَ
جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ^(٤) (٦٦) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(٥) (٦٧) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلًا ^(٦) (٦٨) ﴾ [الإسراء]

وكل ما طلبوه مسائل حسية ؛ لذلك يأتى الرد :

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ^(٧) (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

(١) كحه يكحه كحها ، فهو أكمه ؛ وكذا أحصى ، أو فقد بصره فهو أكمه . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
وَأَحْيَا الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٦٥) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم] .

(٢) الأبرص : هو من أصابه داء البرص ، وهو مرض جلدى يحدث بقعا بيضاء فى الجلد تشوّهه ، وهو من
أعراض مرض الجذام . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٦٥) ﴾ [المائدة] . [القاموس
القويم] .

(٣) نبع الماء : خرج من العين . والينبوع : العين يخرج منها الماء غزيراً سهلاً . والجمع : ينابيع . قال تعالى :
﴿ فَسَلِّكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. (٦٥) ﴾ [الزمر] ، [القاموس القويم] .

(٤) كسفاً : قطعاً . والكسفة : القطعة . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا .. (٦٦) ﴾ [الطور] .
وقال تعالى : ﴿ إِنْ نَدْنَاهُ نَحْشِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٦٧) ﴾ [سبا] [القاموس
القويم] .

(٥) الثبيل : الجماعة أو العشيرة أو الأعوان المناصرون . قال تعالى : ﴿ .. أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلًا ^(٦٧) ﴾
[الإسراء] معك ليؤيدوك . [القاموس القويم] .

ومع ذلك كذبوا.

وأضاف قوم عاد :

﴿ . . وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٣) ﴿ [مرد]

هم - إذن - قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة» ؛ لأن الإله هو مَنْ يَنْزِلُ مِنْهَا يَحْدُدُ مِنْ خِلَالِهِ كَيْفَ يُعْبَدُ ؛ ولم تُقَلِّ الأصنام لهم شيئاً ؛ ولم تُبَلِّغهم منهجاً .

إذن : فالقياس المنطقي يُلغِي تَصَوُّرَ تلك الأصنام كآلهة ؛ فلماذا عبدوها ؟ لقد عبدوها ؛ لأن الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها ؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تُحَدُّ من شهوات النفس ؛ فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر .

وهذه هي حُجَّةُ كُلِّ ادِّعَاءِ نبوة أو ادِّعَاءِ مَهْدِيَّةٍ ^(١) في هذا العصر ، فيدَّعي النبيُّ الكاذبُ النبوةَ ، ويدعو للاختلاط مع النساء ، وشرب الخمر ، وارتكاب الموبقات ^(٢) ، ويسمِّي ذلك ديناً .

وتجد مثل هذه الدِّعَاوَى في البهائية ^(٣) والقاديانية ^(٤) ؛ وغيرها من المعتقدات الزائفة .

(١) المقصود هؤلاء الذين يدَّعون أنهم المهدي المنتظر الذي جاء ذكره في أحاديث رواها البخاري في صحيحه ، أنه يأتي في آخر الزمان ، ويكون معاصراً لنزول عيسى بن مريم .

(٢) الموبقات : المهلكات . أوبقته : أهلكه . وقال تعالى : ﴿ .. وَخَلَقْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (٥٥) ﴿ [الكهف] أي : جعلنا تواصلهم في الدنيا موبقاً ، أي : مهلكاً لهم في الآخرة . [لسان العرب - مادة : وق] .

(٣) البهائية : طائفة ذات عقائد فاسدة ، تنسب لـ «المرزا حسين علي انانندراتي» ترمي بطهران ، ولد عام ١٢٣٣ هـ ، أفكاره خليط من البوذية والمزدكية واليهودية والإسلام والمسيحية . انظر : حقيقة البابية والبهائية - د . محسن عبد الحميد ١٩٨٥ م .

(٤) القاديانية : تُنسب لمرزا غلام أحمد من قاديان بلاهور من إقليم البنجاب بين باكستان والهند ، ولد ١٢٥٢ هـ ، وادَّعى النبوة . (القاديانية ، نشأتها وتطورها ، د . حسن عيسى - دار القلم / الكويت

١٩٨١ م) .

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ .. ﴾ (٥٢)

[هود]

يعنى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ .. وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٣)

[هود]

أى : وما نحن لك بمصدقين ، لأن (آمن) تأتى بمعانى متعددة ^(١) .

فإن عديتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤)

[قريش]

وإن عديتها بحرف «الهاء» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ .. ﴾ (٦٢)

[البقرة]

فالمعنى يتعلق باعتقاد الألوهية .

وإن عديتها بحرف «اللام» : مثل قول الحق سبحانه :

(١) آمن يأمن : اطمأن ولم يخف . وآمن منه : سلم . وآمن على كذا : اطمأن إليه ووثق به . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ آمَنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ آخِيهِ مِنْ قُلٍّ .. ﴾ (٤٣) [يوسف] .

وآمن : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. ﴾ (٢٤) [إبراهيم] . أى : يأمن من يحل به . وآمنه من خوف : جعله آمناً غير خائف . ومعانى المادة كلها ترجع إلى الثقة والاطمئنان . قال تعالى : ﴿ .. وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) [قريش] أى : جعلهم آمنين لا يخافون ، لأنهم جيران الحرم الآمن فى البلد الآمن .

والمؤمن : من أسماء الله الحسنى ، أى : واهب الأمن ويأمن الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، فلا خوف لمن يلجأ إليه سبحانه . قال تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (٢٥) [الحشر] .

وآمن له : أذعن وخضع عن ثقة وحب وتقدير . قال تعالى : ﴿ قَاتِلْ لَهُ لُوطًا .. ﴾ (١٥) [العنكبوت] . وآمن به : صدق به ووثق به من اقتناع . قال تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ (٢٦) [يس] . والإيمان : الإذعان والتصديق . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .. ﴾ (١٠٤) [الأنعام] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ...﴾ (٨٣)

[يونس]

تكون بمعنى التصديق .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٨٤)

و«إن» التي تفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية ، وأداة «إن» الشرطية يأتي بعدها جملة شرط ، وجواب شرط ، فإن لم تكن كذلك فهي تكون بمعنى النفي ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿إِن أُمَمَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ...﴾ (٧)

[المجادلة]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ...﴾ (٩١)

[هود]

أي : «ما نقول إلا اعتراك» .

وهكذا نعلم أن كلمة «إن» هنا جاءت بمعنى النفي .

و«إلا» هي أداة استثناء ، وقبلها فعل هو «نقول» ، وإذا وجدت أداة استثناء ، ولم يذكر المستثنى منه صراحة ، فاعلم أنه واحد من ثلاثة : إما أن يكون مصدر الفعل ، وإما أن يكون ظرف الفعل ، وإما أن يكون حال الفعل^(١) .

(١) أعراه يعرفه : ألم به أو غشيه وأصابه . قال تعالى : ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...﴾ (٩١) [هود] أي : أصابك . قال القراء : كانوا كذّابوه - يعني : هوداً عليه السلام - ثم جعلوه مختلطاً ، ودعوا أن ألهمهم هي التي خبته ليهب إياها . قال القراء : معناه : ما نقول إلا منك بعض أصنامنا بجنون لسبك إياها . [لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) يسمى النحاة لهذا النوع من أساليب الاستثناء «الاستثناء المفرغ» وهو ما حذف منه المستثنى منه ، والكلام غير موجب (أي : منفي) مثل : ما تكلم إلا واحد . ويقول تعالى : ﴿إِن نُّعَلِّمُ إِلَّا هَذَا...﴾ (٣٧) [الباقية] أي : ما نعلم إلا شئاً عظيماً . انظر تفصيل ذلك في النحو الوافي [٣١٧/٢ - ٣٢٧] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥.٧

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أن آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سَفَّهْتَهُمْ وَأَبْطَلْتَ
الْوَهْيَ لَهُمْ ، وَجِئْتَ بِإِلَهٍ جَدِيدٍ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَصَابَتْكَ الْآلِهَةُ بِسُوءٍ - يراد به
الجنون - فَأَخَذْتَ تَخْلُطَ فِي الْكَلَامِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَعْنَى .

ويرد عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية :

﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا ^(١) إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ^(٢) ﴾ [هود]

وهو يُشْهَدُ الله الذي يثق أنه أرسله ، ويحمي ذاته ، ويحمي عقله ؛ لأن
عقل الرسول هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ من الله .

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولا ولا يحميه .

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد ﷺ أنه مجنون ؛ فأنزل
الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ^(١) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ^(٢) ﴾
وَأَنْتَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ^(٣) [الفلم]

ونحن نعلم أن المجنون لا يخلق له ، وفي هذا بيان أن رسول الله ﷺ
في قمة العقل ؛ لأنه في قمة الخلق الطيب .

وهنا يُشْهَدُ هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة
السليمة ، ويحكموا: أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه برىء من
تلك الآلهة التي يُشْرِكُونَ بعبادتها من دون الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام :

(١) طلبه للشهادة منا ليس لأنهم أهل للشهادة ، ولكن المعنى : وأشهدكم نهاية للتقرير ، أي : لتعرفوا أنني
برىء من عبادة الأصنام التي تعبدونها . انظر تفسير القرطبي (٤ / ٢٣٧٠) .

(٢) غير ممنون : أي : غير مقطوع ، بل هو دائم ، ويحتمل أنه غير مكدر بالمن والتفريع والفخر به . والمعنيان
لا يتعارضان [الفهم من القويم ٢ / ٢٤٠] .

﴿مِنْ دُونِهِ، فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ (٥٥)

وقوله : ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أى : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلبوه ، وهو - عليه السلام - هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم ، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدى .

والتحدى هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو - عليه السلام - متأكد من قوله :

﴿أَشْهَدُ اللَّهَ...﴾ (٥٤)

[هود]

الذى قاله فى الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمى مثل هذا التحدى جزافاً ؛ لأن الإنسان لا يجازف بحياته فى كلمة .

وهو لم يقل : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ (٥٥) إلا إذا كان قد أوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة .

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ (١٨)

[آل عمران]

(١) كان فلاناً مكيداً كيداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكافرين ، ومماقتهم على ما دبروه من كيد ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٠٩) وأكيد كيداً ﴿١١٠﴾ [الطارق] ، والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتدبر بها الكائد يقول الحق : ﴿فَأَجْبِهرًا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُوا صُلْحًا﴾ (١٢٦) [طه] (القاموس القويم بتصريف)

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٩

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم^(١) ، والله سبحانه وتعالى حين شهد نفسه فإنما يطمئنتنا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة .

وقد أشهد هود عليه السلام ربه سبحانه ، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولا ليمكِّن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ^(٢)
أَخَذُ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٣) ﴾

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِئًا بِالْقِسْطِ ۚ ۝ (١٨) ﴾ [آل عمران] .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العقل ، ويسمى فيه الذكر والمؤنث وقد يشمل العقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَجَاسَةٍ ۚ ۝ (٣٤) ﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وغيره . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تُحْسِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِنْ شَاءَ ۚ ۝ (٥٠) ﴾ [العنكبوت] الدابة هنا كمن حيوان ما عند الإنسان بدليل كلمة ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ لَاحِقِينَ ﴾ [الأنفال] تشمل الحيوان والإنسان الكافر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ ۚ ۝ (٥١) ﴾ [الشورى] والدابة هنا تشمل الكائنات الحية في الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن في السماء كائنات حية وعاقلة .

[القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الناصية : ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً « ناصية » . وأخذ بناصرية فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيئِهَا ۚ ۝ (٥٦) ﴾ [هود] أي : مسيطر عليها مآلت أمرها متصرف فيها ، وقوله تعالى : ﴿ ۚ فَلْيَأْخُذْ بِالْقَوَاسِي وَالْأَقْدَامِ ^(٤) ﴾ [الرحمن] أي : يُجَرِّد للجرمون من نواصيهم وأقدامهم ، فتربط ناصية للجرم مع قدميه ، ويؤخذ فيلقى في النار عاجزاً مهتأناً . وقوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ^(٥) ﴾ [العلق] معجز مرسل علاقته الجزئية ، أي : صاحبها كاذب خاطئ .

[القاموس القويم] .

(٤) الصراط : لغة في السراط ، وبهما قرىء - بالصاد ، والسين - وهو السيل والطريق للخير والشر . فمن الخير قوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ^(٦) ﴾ [الفاتحة] وقوله تعالى : ﴿ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٧) ﴾ [هود] . ومن الشر والهلاك ، قوله تعالى : ﴿ ۚ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ^(٨) ﴾ [الصافات] والتعبير بقوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ ﴾ على سبيل التهكم والسخرية . [القاموس القويم] .

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكل على الله تعالى الذي لا يعلوهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو الآخذ بناصية كل دابة تدب في الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هي مقدم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشده منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يُعَرِّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيْمَاهُمْ ^(١) فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن]

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا ^(٢) بِالنَّاصِيَةِ (١٥) ﴾ [العلق]

إذن : فكيف لم يجزئ قوم عاد على أن يسلبوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة - مثلاً - على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥١) ﴾ [مرد]

ونحن نلاحظ أنه عليه السلام قال في صدر ^(٣) الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ .. (٥٦) ﴾ ، وفي عجز ^(٤) الآية قال : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي (٥٦) ﴾ ،

والسبب في قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ .. (٥٦) ﴾ أنهم كانوا قادحين ^(٥) في مسألة ربوبية الحق سبحانه .

(١) السيماء والسيما والسيمة : العلامة ، وسوم الشيء : أعلمه يسومه أي : بعلامة . [الفاموس القويم] .

(٢) سفع بناصيته : قبض عليها فاجتذبتها . أي : لنجذبه من ناصيته إذلالاً له ، وذلك كناية عن الإذلال والقهر والإهانة . [الفاموس القويم ٣١٦/١] .

(٣) الصدر : مقدم كل شيء وأوله . والمراد : بداية الآية الكريمة .

(٤) عجز كل شيء : مؤخره . والمراد : نهاية الآية الكريمة .

(٥) القدح في الشيء : العيب فيه وتقصاه . [راجع اللسان - مادة : قذح] .

لذلك قال عليه السلام في مجال السيطرة: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أما في عجز الآية فقال:

﴿.. إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦)

[هود]

أى: أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة ، ولم يأت هنا بشيء يخص أربابهم ، لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه .

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم في منتهى قدرته ، وقهره وسيطرته ، ولا شيء يُقَلَّتْ منه ، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره في الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَنَسَخْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ (٥٧)

الفعل «تولَّوا» أصله: «تتولَّوا» ، وفي اللغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصر على تاء واحدة .

وهكذا يكون المعنى:

إن تتولَّوا فقد أبلغتكم المنهج الذي أرسلت به إليكم ، ولا عذر لكم عندي لأن الحق سبحانه لا يعذب قوماً وهم غافلون ؛ لذلك أرسلني إليكم .

(١) «ولى عن الشيء»: انصرف عنه ، أو أعرض عنه . وقال تعالى: ﴿.. وَلَوْ عَلَى أَذْيَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٥٦) [الإسراء] أى: أعرضوا . وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْكَنُوا فَقَدْ أَهْلَكُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ ..﴾ (٥٦) [آل عمران] . [القاموس القويم] .

(٢) حفيظ: من أسماء الله الحسنى . والحفيظ: الحافظ الأمين الذي يحفظ عباده ويحييهم . قال تعالى: ﴿.. وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ (٥٦) [سبا] [القاموس القويم - بصرف] .

أو أن الخطاب من الله سبحانه ليهود عليه السلام ليبين له : فإن تولّوا فقل لهم : ﴿ أَبَلَمْ تَكُنْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. ﴾ (٥٧) [هود]
والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء^(١) لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ﴾ (٥٩) [مريم]
والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيباً :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (٥٥) [النور]
إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يولد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .
وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْضِرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخُلُ وَمن يَخُلُ فَإِنَّمَا يَخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٨) [محمد]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا .. ﴾ (٥٧) [هود]

(١) خلفه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه . والخلف القرن من الناس أي الجيل بعد الجيل . والخلف الولد قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ .. ﴾ (٥٩) [مريم] والخليفة من يخلف غيره وجمعها خلفاء وخلائف ، يقول الحق : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٥٩) [الأعراف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٥٩) [ناظر] [القاموس القويم ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ج ١]

لأن المنهج الذي نزل على الخلق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصالح العباد ، وهو سبحانه خلق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف^(١) .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية :

أنتم ألقتم التمرد ؛ إما التمرد في القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : « لن أمرض » ؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت ؟

إذن : فما دُمتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية ليك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم بالتوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ .. وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ (٥٧) [هود]

فألله سبحانه رقيب ؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس^(٢) والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

(١) يقول رب العزة في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني . ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد في مسنده (١٥٤/٥) وابن ماجه في مسنده (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) النواميس : القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون .

ولهؤلاء نقول : لا فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر ، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه :

﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ^(١) وَلَا نَوْمٌ ۚ ۞ (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يظمتن العباد ؛ ليناموا ويرتاحوا ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن الغفلة أو النوم ، بل هو سبحانه قويم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ^(٢) ۞ (٥٨) ﴾

وساعة تسمع ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ فأنت تعرف أن هناك أمراً وأمرأً مُطاعاً ، وبمجرد صدور الأمر من الأمر سبحانه يكون التنفيذ ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(٢) ۞ (٢) ﴾ [الانشقاق]

إذن : فهي بمجرد السمع تَفْعَلُ أمر الحق سبحانه .

(١) السنة : انزعاس وهو أول النوم . والنعاس ما كان من العين ، فإذا صار في القلب صار نوماً . وقد فرّق الفضل الضبي بينهما فقال : السنة من الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب . لراجع تفسير الفرقطى ١١٩٦/٢ .

(٢) عَذَابٌ غَلِيظٌ : أى : كبير كثير شديد صعب . [القاموس القويم] .

(٣) حق له (بالبناء للمجهول) : أثبت له . قال تعالى : ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(٢) ۞ [الانشقاق] ﴾ أى : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم] .

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنَجِّي موسى عليه السلام من الذبح الذي أمر به فرعون ، أوحى الله سبحانه لأم موسى قائلاً :

﴿ .. فَإِذَا خِفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ^(١) وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾
[القصص]

وكيف تفعل أم ذلك ؟

إن كل أم إنما تحرص على ابنها ، والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء في البحر موت محقق ^(٢) ، لكن أم موسى استقبلت الوحي ، ولم تتردد ، مما يدل على أنها لم تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهام وارد إليها من الله سبحانه ، إلهام لا ينازعه شك أو شيطان .

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :
﴿ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ^(٣) .. (٣٩) ﴾
[طه]

وقد استقبل البحر الأمر الإلهي ، لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

في قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . وقد ورد المعنيان في القرآن ، فقال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٦١) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر .
وقال تعالى لموسى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٦٢) أَنْ اقْنِصِي فِي الصَّبْرِ فَلَإِنَّهُ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٦٣) ﴾ [طه] فاليم هنا هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم] .

(٢) أم موسى عاشت في خوف مظنون مصحوب بقلق ، فقد يحدث وقد لا يحدث ، كما عاشت في خوف محقق وهو إلقاء ابنها في البحر ، فالبحر يعني الفرق .. ولكن جانب الإلهام جعلها تستقبل الخوف المحقق بالإيمان التقي ، فالبحر استقبله ، والموج بداعيه ، والشاطئ بقبله ، والعدو بربه ، وعين الله ترعاه .

(٣) الساحل : شاطئ النهر ، لأن الموج يأكل منه وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٦٣) ﴾ [طه] أي : بشاطئ النهر . [القاموس القويم] .

[هود]

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ...﴾ (٤٧)

وحدث الطوفان ؛ ليغرق الكافرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا...﴾ (٥٨)

يعنى : مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تتناسب مع ذنوبها مع عظمة الأمر بها سبحانه وتعالى .

فحين تأتى ريحٌ صَرْصَرٌ^(١) أو صَيْحَةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، ويقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يعمُّ المكذِّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدقون به وبرسالته ، فكيف يتأتى أن تذهب الصيحة إلى أذان المكذِّبين فقط ، وتخرق تلك الأذان ؛ وتترك أذان المؤمنين ؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير .

إن موجَّه الصيحة قد حدَّد لها من تُصيب ومن تترك ، وهى صيحة موجَّهة ، مثلها مثل حجارة سجِّل^(٢) التى رمتها طير أبابيل^(٣) على أبرهة الحبشى وجنوده ؛ مع نجاة جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعض من المتفلسفين .

(١) الصرُّ : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ...﴾ (آل عمران) . وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا غَدَاةُ فَالِئِكَرَاتٍ رِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة) [القاموس القويم] .

(٢) السَّجِّل : الطين المنحجر . قال تعالى : ﴿... وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مُّنْضُودٍ﴾ (هود) وقال تعالى : ﴿وَنَرَمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الفيل) [القاموس القويم] .

(٣) أبابيل : جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها ، وهى نفية الكثرة . قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (الفيل) [القاموس القويم] .

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد ؛ ولكنه يُنجي
المؤمن ؛ ويعذب الكافر ؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة
مسيطرة عليه .

يقول المتنبي ^(١) :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنْ بَيَضَ أَوْجُهُنَا وَمَا تُسَوِّدُ بَيَضَ الْعَيْنِ وَاللِّمَمِ
وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً لَوْ احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ ^(٢)

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس ؛ يجعل
بشرة الأبيض ثيل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر ؛ لكنك إن تركت
شيئاً أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض ؛ ويحدث ذلك رغم
أن الفاعل واحد ؛ لكن القابل مختلف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا .. (٥٨)﴾

[هود]

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام ؛ لأن هذه هي الرحمة .
والرحمة - كما نعلم - هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر ؛ أما
الشفاء فهو يعالج الداء .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾

[الإسراء]

(١) هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة في «حجلة تسمى «كندة» عام ٣٠٣ هـ ،
نشأ بالشام ، ادعى النبوة في يادبة السماوة (بين الكوفة والشام) ، ولذلك سمي بالمتنبي ، ثم رجع عن
دعواه بعد أمره ، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً . (الأعلام لخبر الدين الزركلي) .

(٢) المتنبي رغم أنه أدب له قدرة على إدارة المعاني ، فقد تعرض لحقيقة علمية يؤخذ منها الأسرار الخفية ؛
التي تجعل المثل مختاراً بتوحيد لقدرة الله سبحانه .

ونحن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمة نجاةين :

النجاة الأولى : من العذاب الجامع ؛ الريح الصovصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاغية ، يقول سبحانه :

﴿ .. نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْتَهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ ﴾

[هود]

والنجاة الثانية : هي نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا وغم قسوته ، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا.

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية ، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة .
وغلظ الشيء يعطى له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم .

ولذلك حينما يملك الحق سبحانه رجلاً بضْع^(١) امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعرض ، ولم يملك الرجل النفعية المطلقة من المرأة^(٢) التي يتزوجها ؛ فالزوج يُمكن من عودة زوجته بعقد الزواج .

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٦١ ﴾

[النساء]

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ .

(١) البضع : النكاح والجماع ، والمباضعة : المجامعة ومباشرة الرجل للمرأة . [لسان العرب - مادة : بضع] .

(٢) فللمرأة - مثلاً - ذمة مالية خاصة بها ، ليس من حق زوجها الاستيلاء على مالها ، أو التدخل في كيفية استثماره إلا بعد موافقتها بإرادتها الحرة .

(٣) ميثاقاً غليظاً : أى : عطيماً كبير الشأن ، هو ميثاق الزواج . [القاموس القويم] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩)

«تلك» إشارة إلى المكان الذي عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا
لمؤنث ، ولتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال
سبحانه : ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ (٥٩) فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و«عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات
التي عاشت في المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ ﴿تلك﴾ فهي إشارة إلى
الديار ، والديار لم تجحد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ (٥٩) [هود]

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهي الأمور العجيبة الملفتة للنظر
التي تأتي بوحى بإيمان بما تنص عليه .

(١) جحد الحق يجحده جحوداً : أنكره ، وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها . وجحد الآية :
كفر بها . قال تعالى : ﴿.. وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٦) . [الأنعام] . [القاموس المرفوع] .

(٢) جاءت (رسله) هنا بصيغة الجمع ، لا المفرد . قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٣٧٣) : أي عني هوداً
وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿يُنَادِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطُّبَاتِ
..﴾ (٥٧) [الأنعام] . يعني : النبي ﷺ ، لأنه لم يكن في عصره رسول سواه ، وإنما جمع هذا لأن من
كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هوداً والرسول قبله ، وكانوا يحثوا لو أرسل
إليهم ألف رسول لجحدوا الكل .

(٣) الجبار : الكبر . والعنيد : الطاغى الذي لا يقل الحق ولا يدع له . [تفسير القرطبي ٤/٣٣٧٣] .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله
الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس
والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التي في القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتي مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولا من عند
الله تعالى ، وهي المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التي يريد الله سبحانه بمتبعيه لضمان صحة
حركة الحياة في خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا
تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحدوا بإعراض^(١) .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ...﴾ (٥٩)

[هود]

وهود عليه السلام هو الذي أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو
المعنى بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ^(٢) النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...﴾ (٨١)

[آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل
رسول يُرسل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) الجحود لا يأتي إلا عند إغلاق القلب وشروء الفكر وضعف النفس .
(٢) الميثاق والموتى : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَضَعْتُمْ بِهِ...﴾ (٢٤)
[البقرة] أي : عهده الذي عاهدكم عليه وألزمكم الوفاء به . [القاموس المبرور ٢ / ٣١٩] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿ ٦٥٢١ ﴾

﴿ كُلُّ آمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ

[البقرة]

... ﴿ ٢٨٥ ﴾ ﴾

فهم قد انقسموا إلى قسمين : لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَعَصُوا رُسُلَهُ وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ^(١) ﴾ (٥٩) ﴿

[هود]

أى : أن هناك متبعا ، ومتبعا .

والمقصود بالجبار العنيد هم قوم المجتمع ، سادة الطفيلان والصنف الثانى هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفرق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضال في ذاته ، وهناك مضل لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران ^(٢) : وزر ضلاله في ذاته ، ووزر إضلال غيره ^(٣) .

أما الذين اتبعوا فلهم بعض العذر : لأنهم اتبعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة .

(١) العنيد : صيغة مبالغة ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْضَحُوا وَخَبَّ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم] القاموس للزويم ص ٢٩٠ ج ٢

(٢) الوزر : الحمل الثقيل والذنب ، وجزاء الذنب وعقوبته ، والهم والكرب . قال تعالى : ﴿ ... فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ [مائدة] : أى : حملاً ثقيلاً هو ذنبه أو جزاء ذنبه . وقرئ تعالى : ﴿ وَوَضَحًا عَلَيْكَ وَذَلِكَ ﴾ [الشرح] أى : معك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق ، فلما جاءت الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يحمل (لا هم أصته ، أو يكن الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حيك لله وخوفك إياه ، وقد وضعه عليك وغفوه لك . قال تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْتُمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ .. ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى الهفوات الصغيرة تنوياً كبيرة لمضماها الله عنه بالمغفرة . [القاموس القديم ٢/ ٢٢٢] .

(٣) قال تعالى عن الذين يضلون غيرهم : ﴿ لِيُحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تَزِيدُ اللَّهُ مَا تَفْزَعُونَ ﴾ [النحل] ، وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ وَلِيُحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تَزِيدُ اللَّهُ مَا تَفْزَعُونَ ﴾ [التكوير] والاتقال هى الذنوب ، ويحملون أقال من أضلهم فاتبعوهم فى ضلالهم [راجع : القاموس القديم ، مادة تفل] .

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيتحدث عن الفئة التي ضلت في ذاتها ويقول:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانِيٌّ ^(١) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)

[البقرة]

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلّة فيقول:

﴿ قَوْلِ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. ﴾ (٧٩)

[البقرة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدُ لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٦٠)

والزمان بالنسبة للمخلوق ثلاثة أقسام: حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ ^(٢) ، وساعة يبعثون هي الزمن الثالث .

(١) الأمانى: جمع أمنية ، وهي ما يرغب الإنسان فيه من الخير ، فعلمهم من الكتاب ليس أمانى كاذبة في دخول الجنة دون أن يصدقوها عملهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَعْلَ الْكِتَابِ .. ﴾ (١٣٣) النساء . [القاموس القويم ٢ / ٢٤١] بزيادة يقتضيتها المقام .

(٢) اللعنة: اسم مرة ، وتستعمل بمعنى المصدر ، قال تعالى : ﴿ .. أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٨) هود [أى: سخطه وغضبه وطرده مُنْصَبً عَلَى الظَّالِمِينَ . [القاموس القويم].

(٣) البرزخ: الحاجز بين الشيئين . قال تعالى : ﴿ مَوْجَ الْيَمِّنِ يَلْقَئَانِ (٥) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] أى: بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلا منهما في مجراه ، فلا يبغي ولا يطفى على الآخر . وقال تعالى : ﴿ .. وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٥٨) [المؤمنون] أى: حاجز يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا حتى يوم القيامة وتسمى فترة القبور فترة البرزخ . من مات فقد دخل البرزخ إلى يوم القيامة [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٢٢

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزء^(١) ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ
تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

هذه هي الأزمنة الثلاثة - حياة ، وبرزخ ، وبعث - وكل وقت منها له ظرف .
ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه في البحر :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا (٤٦) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر]

وفي هذا دليل على عرض الجزء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ
«القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار»^(٢)

إذن : فهنا زمان : زمن عرضهم على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وزمن
دخولهم النار .

(١) قال تعالى عن عذاب آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] فهذا عرض للجزء عليهم ، وهو في حد ذاته عذاب .

(٢) الغدو : الدخول في الغداة ، أو السير أول النهار . قال تعالى : ﴿ غَدُوْهَا نَهْرٌ . (٤٦) ﴾ [مبا] أي : مدة
سير الرياح في وقت الغداة تقطعها القوافل في شهر .

ويقابل الغدو بالعشي وبالأصال ، قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا . (٤٦) ﴾ [غافر] وقال
تعالى : ﴿ .. مُسَبِّحٌ لِّهَا بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ (٢٥) ﴾ [النور] . [القاموس المقيّم] .

(٣) أخرجه الترمذي والطبراني في الكبير عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن أبي هريرة وسندهما
ضعيف . وانظر مجمع الزوائد (٤٦ / ٣) ومسند الفردوس للذهبي (٢٣١ / ٣) .

وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار^(١) ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .
وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب في الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود]

وكلمة «ألا»^(٢) هي أداة تنبيه - كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يليق به المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذي يقود زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتي كلمة «ألا» كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً في الدنيا بالريح العقيم^(٣) ، ثم أتبعوا لعنة في البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .
وجاء الحق سبحانه وتعالى بحديثه هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبيّن بكلمة «ألا» أي : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالقدادة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٧٩) ومسلم في صحيحه (٢٨٦٦) .

(٢) ألا : أداة استفهام وهي مركبة من همزة الاستفهام ومن لا النافية ، وتكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها وتقريره كقوله : ﴿ .. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ .. ﴾ [البقرة] وتكون للعرض والتخصيص والحث ، كقوله تعالى : ﴿ .. أَلَا تَجِبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴾ [النور] [القاموس القويم ٢٧/١] .

(٣) ذلك كان عذاب قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ .. وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات] والريح العقيم هي التي لا خير فيها - بل هي تهلك وتدمر ، وذلك وصف على المجاز بالاختصار [القاموس القويم ص ٣١ ج ٢] .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث في الدنيا ، وهو كفر في القمة ؛ لذلك نالوا عقاباً في الدنيا .

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم في البرزخ ، ثم تأتي لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم ، بل كفروا بربهم .

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف ، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التي لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهي الجزاء العادل .

وقد أوضح لهم هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ^(١) إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٥٦) ﴾

[هود]

أي : أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛ ولذلك يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ^(٦١) ﴾

[هود]

فأنت لا تكفي بلعنتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى .

ولسائل أن يقول : ولماذا يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ^(٦١) ﴾

[هود]

(١) الناصية : ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً ناصية - وأخذ بناصره فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه ، قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. ^(٥٦) ﴾ [هود] مسيطر عليها ومالك أمرها متصرف فيها . [القاموس القويم بتصرف ص ٢٧٠ ح ٢] .

ونقول: لقد قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم]

وهذا يوضح لنا أن «عادًا» كانت اثنتين: عادًا الأولى، وهم قوم عاشوا وضلّوا فأهلكهم الله، وهناك عاد الثانية^(١).

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبي في تفسيره (٣٣٦٩/٤) أنهما عادان، عاد الأولى، وعاد الأخرى، فهؤلاء - أي: قوم هود - هم الأولى، وأما الأخرى فهي أقبام عاشت في جزيرة العرب. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِذْ ذَاتَ الْعَمَادِ﴾ [الأنعام]، ويقول (٢٧٥٢/٣): «كان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء. وكانت عاد فيما روى ثلاث عشرة قبيلة، يتزولون ومال عالنج، وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت فيما روى بنو أحيى حضير مورت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام، ولحق هود - حين أهلك قومه - من آمن معه بككة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا».

(٢) نمود: قبيلة من العرب الأول. ويقال: إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح. [راجع: لسان العرب - مادة نمذ].

(٣) أنشأ الشيء: أوجده وأحدثه وخلقه. وأنشأ الله السحاب: كوّنه وأظهره في السماء. قال تعالى: ﴿وَنَبِّئِ السَّحَابَ أَنفَالًا﴾ [الرعد] أي: يكون السحب المثلثة بالماء. وأنشأكم من الأرض: خلقكم منها. [القاموس المقوم] بتصرف.

(٤) عمر فلان النار: بناها، وعمر القوم المكان: سكنوه فهو معمور. وعمرت الدار بأهلها: قضي عمارتها. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾ [التوبة] أي: يقيم فيها الصلاة ويجلس فيها للعلم ويبحث للاعتكاف، وبينها ويحافظ عليها؛ فكل ذلك من عمارتها. وقوله تعالى: ﴿اجْعَلْهُم مِّقَاتَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾ [التوبة] أي: أن عمارة المسجد بغير إيمان لا وزن لها؛ فالإيمان هو أساس لقبول الأعمال. واستعمروا في المكان: جعله يعمره. قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود]. [القاموس المقيم ٣٥/٢].

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه يبين لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام.

وجاء الحق سبحانه بلفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾ لبيان العلاقة التي بين صالح - عليه السلام - وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فلماذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه - فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج.

وناداه صالح عليه السلام : ﴿يَا قَوْمُ﴾ ، وهي من القيام ، يعنى : يا من تقومون للأمور . والذي يقوم على الأمر عادة هم الرجال ؛ لأن أمر النساء مستور - دائماً - فى طى الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتى فيه ذكر المرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، والنساء مضويات على الستر فى ظل الرجال ، والرجل يشقى ويكدح ، والمرأة تدبر حياة السكُنَى وتربية الأولاد.

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل.

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلتمت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجل ، وهو رعاية الأسرة ؟

وكذلك نجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقول لمن يفعل ذلك : إذا كنت لم تتفق التهمتكم فى الملابس ، ووصفتُهُ بأنه «حرية» ، فلماذا تتدخل فى أمر الحجاب ، ولا تعتبره «حرية» أيضاً.

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنّا عنها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ (٦١) والعبادة تقتضى تلقى أوامر الإله المعبود بـ «افعل» و «لا تفعل»^(١) فى كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شيء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد ، ولا يسمع أحداً مخالفته.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ (٦١) [هود]

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر غير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى.

ويقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ (٦١) [هود]

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شيء ، ويقال : أنشأ ، أى : أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر.

لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه «أنشأ» لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه ، فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتشأن من عدم.

والوجود من العدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة بوجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

(١) إن مدار التكليف فى حياة الناس لا يخرج عن الأمر والنهى ، فمن الأمر نأخذ الفرض والسنة والمستحب والتدبّر والتطوع والواجب والحلال ، وكل ما يرضى الله لسعادة البشرية . والنهى : يكون من الحرام والمكروه . وحركة الحياة منوطة بالفعل كأمر ، ولا تفعل كنهى ، وفى النهى عند الاستجابة سعادة ، وعند المخالفة شقاء .

والحق سبحانه جلّت مشيئته في الإنشاء ، فهو ينشئ الإنسان من
الثقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى في
آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة
الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمنى الزوج وبريضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذي هو خلاصة
الأغذية وهي تأتي من الأرض ، فسواء رمزت لأدم بإنشائه من الأرض ،
أو أبقيتها في ذريته ، فكل شيء مرده إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾^(١) فيها .. (٦١) [هود]

نجد فيه كلمة «استعمركم» وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها
للطلب^(٢) ، وهكذا يكون معنى كلمة «استعمر» هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل ببلاداً أخرى : «دول
الاستعمار» .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعني أنهم
يرغبون في عمارة الأرض ، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يخرّبون في
الأرض ، ولذلك كان يجب أن تسمى «دول الاستخراب» .

(١) استعمركم فيها : أذن لكم في عمارتها واستخراج قومكم منها وجعلكم عمارها . [راجع اللسان : مادة
عمر] .

(٢) قال القاضي أبو بكر بن البرقي : تأتي كلمة استعمل في لسان العرب على معان :
- منها : استعمل ، بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أي : طلبت منه حملانا .
- وبمعنى : اعتقده كقولهم : استعملت هذا الأمر ، أي : اعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً . واستعملته
أي : اعتقدته عسيراً ووجدته .

- وبمعنى : أصبت ، كقولهم : استجدته أي : أصبته جيداً .
- ومنها بمعنى : فعل ، كقوله : فر في المكان واستقر . نقله الفرطاس في تفسيره (٢/ ٣٢٧٥) .

﴿اَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً.

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأواني المستطرقة^(١) ، فقد كان الناس يشربون الماء من النرع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأواني المستطرقة ، فاستغلها الناس فى بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت .

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل، وهكذا يزداد فى الأمر الصالح صلاحاً.

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة فى عدد السكان.

وما دام عدد السكان فى زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح ؛ لأن الأزمة التى نعانى منها الآن ، هى نتيجة للغفلة التى مرت علينا ، فزاد التكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضى أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة فى السكان .

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض .

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلّى على الخلق بصفات من صفاته ، فالقوى يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنى ؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه ومرهوبة منه لنا .

(١) الأواني المستطرقة: عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أمسية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أعلى واحد . (المعجم الوسيط) .

والدليل على ذلك أن القوى فينا يصير إلى ضعف ، والغنى منا قد يصيبه الفقر ؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لفعل .

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل ؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً - على سبيل المثال - فعليه أن يتذكر أن الذي زرع له النخلة^(١) هو من سبقه ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين - وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً- وليستفيد بها من يأتي من بعده .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه «ثمود» في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (١١) [هود]

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة^(٢) .

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم :

(١) النخل شجر الرطب والتمر والبلح ، واحده نخلة . وجمع النخلة نخيل قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمُ إِلَيْكَ بِجُذُعِ الثَّنَخِلَةِ تُحَاذِلُكَ ﴾ [مريم] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. ﴾ [البقرة] .

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة . أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٤٠) وقال : حديث غريب لا تعوله إلا من هذا الوجه . وقد أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤ / ٥) والدارمي في سننه (٢٢٢ / ٢) من حديث أبي ذر الغفاري .

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ
تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٦٢)

كانوا ينظرون إلى صالح - عليه السلام - بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم
لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره .

والمرجو هو الإنسان المؤمل فيه الخير ، ذكاء ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية
خصلة من الخصال التي تبشر بأن له مستقبلاً حسناً .

ولكن ما إن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله سبحانه وتعالى
أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

وقد أوضح لهم صالح - عليه السلام - ما أوضحه الرسل من قبله ومن
بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس الهة تُعبد هو أمر
خاطيء ، لأن العبادة تقتضي أوامر ونواهي ينزل بها منهج ، يتبعه من
يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود :

﴿ .. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٦٢) [هود]

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا .. ﴾ (٦٢) [هود] أي : كنا
نرجو أن تكون فينا سيدياً . [مختصر تفسير الطبري] و[القاموس القويم] .
قبل : كان صالح يصيب آلهتهم ويشترها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا
انقطع رجاءنا منك . انظر القرطبي (١/ ٣٣٧٧) .

(٢) أراه : أوصله إلى الشك وأدخل الشك في نفسه ، واسم الفاعل : مرِب . وقوله تعالى : ﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي
شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (٦٢) [هود] على سبيل التوكيد أي : في شك موصل إلى شك . وكذلك قوله تعالى
على لسان قوم ثمود : ﴿ .. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٦٢) [هود] ، وأرب الرجل فهو
مرِب : صار موضع ربة وشك لا يطمئن إليه الناس . قال تعالى : ﴿ مَتَاعُ الْغُرُفِ نَعْتِدُ مَرْبٍ ﴾ (٦٥) [ق] .
[القاموس القويم] .

والشك هو استواء الطرفين: التقى والإثبات.

إذن: فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هي عبادة صادقة ، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون في أمر تلك العبادة ؛ وهذا يظهر أن خصال الخير في صالح عليه السلام جعلتهم يترددون في أمر عبادتهم ^(١) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود:

﴿ قَالَ يَبْقَومِرَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقَرُّ مِنْ رَبِّي وَءَاتَىٰ
مِنهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَتَصَرَّفِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ^(٢) ١٢٠ ﴾

(١) وأيضاً فإنهم في شك من دعوة صالح عليه السلام إلى عبادة إله واحد ، فخطابهم هنا موجه لصالحي (كما تذهبون) أي: يا صالح ، كانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام ، أرسل إليهم أخوهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فسألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء عيتوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكتابة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليزمن به وليتبعه ، فقام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت الصخرة وانشقت عن ناقة يشرك جنيتها بين جنبيها وكانت الناقة تشرب من البئر يوماً وتركه لهم يوماً وكافروا بغيره من حليها ويملاؤن ما يشاءون من أوعيتهم ، ولكن تسعة نفر اتفقوا على قتلها ، فعزوها ، فنزل بهم عقاب الله بعد ثلاث أيام . [تفسير ابن كثير ٢/٢٢٧ - ٢٢٩] باختصار شديد .

(٢) أرايتم: أي: أخبروني . [كلمات القرآن] .

(٣) ينة: يقين وبرهان وبصيرة . [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] . وهي الحجة الواضحة الموضحة للحق التي تحمل الحق ظاهراً للعيان .

(٤) رحمة: أي: نبوة . [تفسير الجلالين] . وقد سبق قول نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتْلِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ .. ﴾ [هود] قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٣٤٣) : أي: نبوة ورسالة . عن ابن عباس ، وهي رحمة على الخلق . وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل: الإيمان والإسلام .

(٥) خسره: جعله يخسر ، وخسره تخسيرا: أبعد عن الخير ، وأهلكه . وقوله تعالى: ﴿ .. فَمَنْ يَنْصَرِفِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ^(٦) ﴾ [هود] أي: غير إبعاد عن الخير ، أو غير إهلاك بعذاب الله [القاموس القويم] وجاء في تفسير الجلالين: (غير تخسيرا) أي: غير تفضيل . وجاء في مختصر تفسير الطبري ﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ^(٧) ﴾ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خساراً ، يخسركم حظوظكم من رحمة الله عز وجل .

وكان صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال: أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأبدني ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسي ، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليّ منهجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة ﴿ وَأَتَّانِي مِنْهُ رَحْمَةً ۖ ۝٦٢ ﴾ وهي النبوة ؟

﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ ۝٦٣ ﴾ [هود]

وساعة يستفهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام:

﴿ .. فَمَا تَرِيدُونَ ۚ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٤ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال . فهل التخصير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه ؟

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لنا هذه المعاني كلها ، فلإن أطاعهم صالح - عليه السلام - وعصى ربه ، فهو قد أزد في خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهديين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى .

إذن: فالتخصير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح - عليه السلام - وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام:

﴿ وَيَقَوْمٍ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَُا ^(١)
تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ ^(٢)
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ^(٣)

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبياً فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة ^(١) ما ، وهم قوم كانوا نابغين في نحت بيوتهم في الجبال . ومن يَزُرُ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح ، وهي منحوتة في الجبال .

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَتَجِدُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَأَرَاهِينَ ^(١٦) ﴾ [الشعراء]

(١) الناقة : أنثى الجمال ، ونسبت ناقة صالح لله ، لأنها ناقة فقراء الله تسقيهم لبنها ، أو لأنها مندوبة لله وإن لله حاميتها وراعيها ، أو لأنها ناقة رسول الله ، ونسبت لله تشريفاً لها . [القاموس القويم] .

(٢) آية : معجزة دالة على صدق نبوة صالح عليه السلام . [كلمات القرآن] .

(٣) ذرُّوها : دعوها أو اتركوها . وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَوْ تَقَوِّمْ لِنَفْسِكَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) ﴿ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ .. ﴾ (١٨) ﴿ [أنوح] أي : لا تترك آلِهَتَكُمْ ، ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذُرُّوهُ وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ (١٩) ﴿ [المدثر] أي : اتركني أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . وقوله تعالى : ﴿ .. ذُرُّنَا مَعَ الْعَاقِبِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ [التوبة] أي : اتركنا . [القاموس القويم] بصرف .

وجاء في مختصر تفسير الطبري : ﴿ فَذُرُّوها تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. ﴾ (٢١) ﴿ [هود] أي : اتركوها تأكل من أرض الله ، ليس عليكم رزقها ولا مؤنتها .

(٤) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. ﴾ (٢٢) ﴿ أي : لا تلتواها ولا تالوها بعثر . [مختصر تفسير الطبري] .

(٥) قال القرطبي في تفسيره (٢٣٧٨/٤) : قيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكاثبة .

(٦) قَرَّةٌ : أشرف ويظهر فهو قَرَّةٌ ، وقَرَّةٌ فراحة وفروحة : حلق ومهر ونشط وخف فهو قَرَّةٌ . وقَرَّى بهما قوله تعالى : ﴿ وَتَجِدُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَأَرَاهِينَ ﴾ (٢٣) ﴿ [الشعراء] أي : حاذقين نشطين ، وقَرَّى (قَرَّهين) أي : بطرين أشرين . [القاموس القويم] .

هم - إذن - قد حددوا الآية ، وهى خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهى حامل .

ويعد أن وجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطبقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. ﴾ (٦٤)

[هود]

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه .

مثلما نقول : «بيت الله» ، وهذا القول إن أطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه : «بيت الله» فنحن نبني عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكِرَتْ لتكون مُصَلًّى ، ولا يُزَاوَل فيها أى عمل آخر .

هكذا تكون الكعبة هى بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هى بيوت لله باختيار خلق الله .

ولذلك فبيت الله - باختيار الله - هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن : فإن أضيف شيء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. ﴾ (٦٤) وهى ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو .

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشيء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه .

ومثال ذلك : ابن أبى لهب^(١) ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله ﷺ وحين اشتد عناد أبى لهب للرسول ﷺ ، قال أبو لهب لابنته : طلق بنت

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتبة . ذكرها البهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨) وقال أيضاً : كانت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ تحت عتبة بن أبى لهب ، وكانت رقية تحت أخيه عتبة بن أبى لهب .

سورة هود

٦٥٣٧

محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء ^(١) ، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال : «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه ^(٢)» .

فقال أبو لهب : إني لأتوجس شراً من دعوة محمد .

ثم سافر ابن أبي لهب مع بعض قومه في رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً في وسط رجال الراكب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله ﷺ ، وإذا بأسد يقفز من الرجال ويأكل الولد ، فهنا نسب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله فقال : «أكلت كلب من كلاب الله» فكان كلب الله أسداً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خراطرها عنها يوضح لهم صالح عليه السلام : هذه الناقة هي الآية التي طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتي لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التي طلبوها وهي من جنس الحيوان .

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والفكر فيصير إنساناً .

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل (ثبت يدا أبي لهب) قال أبو لهب لأبيه عتبة وعتبة : وأسي ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابني محمد ، وسأل النبي ﷺ عتبة خلاق رتبة ، وسأته رتبة ذلك وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية - وهي حمالة الخطب : طلقها يا بني فإنها قد صبت نطفها . وطلعت عتبة أم كلثوم ، وجاء النبي ﷺ حين غارت أم كلثوم فقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابتك ، لا تحبني ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فتق تمبصه ، فقال ﷺ : «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه» . دلالة النبوة للبيهقي (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩) ، وأورده البيهقي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩) وعزاه الطبراني مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف ، وقد أخرجه الحاكم في مستدرقه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبي عرق وصححه . وحسنه ابن حجر في الفتح (٤/ ٣٩) .

(٢) الكلب : كل سبع حقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكلب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلين ﴾ . (٥٠) [المائدة] ، فقد دخل في هذا : الفهد ، والبازي ، والصقور ، والشاهين ، وجميع أنواع الجوارح ، [انظر : اللسان مادة : كلب] وانظر فتح الباري (٤/ ٣٩) .

وكان من الممكن أن يأتي لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل في الوقت نفسه .

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها . وقال لهم :

﴿ .. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (٦١)

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وإن مسوها " بسوء " ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر .

إذن : فلا بد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسوها .

وهم قد مسوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ﴾

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

(١) المس : الجنون على تخيل أن الجن مسته كقوله تعالى : ﴿ كَمَا يَقُولُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .. ﴾ (٢٥) [البقرة] أي : المصروع الذي لا يعي مسه وماسه ناسه أو مساساً من كل منها الآخر مفاعلة من الجنائين ومس الزوجان تلاقى بشراتهما ومن جلد كل منهما جلد الآخر ، ومس من باب فرح مساً أجرى يده عليه من غير حائل ومسته النار أصابته ومس الغرض : أصابه على إعجاز ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْسَهُ إِلَّا الْمُظْهِرُونَ ﴾ (٦٥) [الواقعة] أي : لا يمسك بالمحجب إلا المظاهر من الحليث الأكبر ، [القاموس القويم] تصرف ص ٢٢٦ ج ٢ .

(٢) العقر : أصل كل شيء ، وعقرته : أصبت عقره ، كقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا .. ﴾ (٦٥) [هود] أي : أصابوها إصابة قاتلة ، أي : نحروها . [القاموس القويم] .

(٣) تمتع واستمتع بمعنى واحد . ومتع بالشيء : اتمتع به . والمتاع : مصدر يسمى به الشيء المستفاد به ، والمتاع : كل ما يستفاد به من طعام وأثاث وأداة ومال . وقال تعالى : ﴿ ذَرُوهُمْ يَأْكُلُوا وَتَمَتَّعُوا بِآثَانِهِمْ الْأَمَلِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧) [التحجر] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (٢٧) [محمد] . [القاموس القويم] يتصرف .

(٤) وعد غير مكذوب : أي : وعد صادق واقع لا محالة ؛ وهو من قيل تأكيد الشيء بشئ نظيفه .

وجلسوا في منازلهم ثلاثة أيام^(١) ثم جاءهم العذاب .

ولفائل أن يقول : ولم الإمهال بثلاثة أيام ؟

ونقول : إن العذاب إذا جاء فالألم الحسى ينقطع من المعضب ، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا في ذلك الألم طرال تلك المدة حتى يتألموا حسياً ، وكل يوم يمر عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذي قال فيه الله تعالى :

﴿ .. وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۚ ﴾ (٦٥)

[هود]

الحق سبحانه هو الذى يعد ، وهو القادر على إنفاذ الوعد ، ولا تقوم قوة أمامه ، لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب .

على عكس الإنسان منا حين يعد بشيء ، فمن الممكن أن يأتى وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع .

لذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ ﴾ (٦٦) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٦٤) ﴿

[الكهف]

لأنك إن قلت : «أفعل ذلك غداً» ، وتعد إنساناً بلفائه لكذا وكذا ؛ فقل : «إن شاء الله» ؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمن يأتى ، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور «بمشيئة القوى القادر» حتى إذا لم ينجز ما وعد به ، يكون قد خرج عن الكذب ، لأن الله تعالى لم يشأ ، لأن الإنسان إذا وعد ، فهو لا يعتمد على إرادته ، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شيء .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٣٧٩/٤) أن عقرباً كان يوم الأربعاء ، فأتوا يوم الخميس والجمعة والسبت . وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما قاموا ثلاثة أيام ، لأن الفصيل رغاً ثلاثاً ، فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول ، ثم احمرت في الثانى ، ثم اسودت في الثالث . وهكذا في الرابع . وانظر تفسير ابن كثير (٢٢٩/٢) .

والفعل - كما نعلم - يقتضى فاعلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً
دافعاً ، وقدرة تمكن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحد شيئاً من
كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من يعده أن
يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للقاء ؛ فربما انتهى
السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على
إنقاذ السبب .

إذن : فإذا قال : « أفعل ذلك غداً مع فلان » ؛ يكون قد جازف وتكلم في
شيء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل : « إن شاء الله » ، أى :
أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر .

ويعطى الحق سبحانه في كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على
خلفه فهو سبحانه القائل :

﴿ فَعَقَرُوهَا ^(١) فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

وقوله : ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً في مكان يختلف
عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد
من سفر ، فتبعضهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما
نزل على المكين منهم في أى مكان .

(١) العقر : أصل كل شيء . وعقرته - من باب نصر : أصبتم حقره فحقره تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا الثَّالِثَةَ .. (٢٧٨) ﴾
[الأعراف] أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . وعقرت المرأة : أصيبت بالمعقم ، لهن لا تلد فهي
عاقرة . قال تعالى : ﴿ وَكَانَتْ أُمُّ بَنِي عَاقِرًا .. (٥) ﴾ [عريم] .

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبو رغال»^(١)، وكان يحج إلى بيت الله ، فلم يتبعه عذابه في بيت الله ؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمن من دخل بيته ، فهو سبحانه وتعالى أولى بأن يؤمن من دخل البيت الحرام^(٢) ، وظل الحجر الذي سيُضرب به ، أو الصيحة التي كان عليها أن تأخذه ، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه . . . وعمَّ العذاب الكافرين من قوم صالح ، وتمسح من في الديار إلا هذا الرجل ، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب^(٣) .

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذي عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل ، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يؤمن إلى أن يخرج ، وكانوا يُضيقون عليه ، فلا يطعمه أحد ، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج ، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام ، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصانة .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال في البيت الحرام ، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية .

(١) عن جابر بن عبد الله قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسأوا الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني : الناقة - تزد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر وبهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أممداً الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله ، فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٩٦) والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢٠ ، ٥٦٧) وصححه إسناده . قال الهيثمي (٧/ ٥٠) : رجال أحمد رجال الصحيح ، قلت : هم أيضاً رجال الإسناد الأول .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩١) فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . . (٩٢) [آل عمران] أي : يكون آمناً مطمئناً لا يخاف على نفسه أو ماله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حُرْمِهِمْ . . . ﴾ (٩٣) [العنكبوت] .

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٩) : « أن جارية كانت مقعدة واسمها كلبية ابنة السلق ويقال لها : الذريعة . وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلعت رجلاها ، فقالت تسمى كاسرع من شيء » ، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربوا ماتت .

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضى زماناً ، ويقتضى مكاناً .
 وكان العرب دائمى الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه
 أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخصّ البيت الحرام بذلك ، وأراد
 سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لأن
 الحرب قد تكون سجالاً^(١) بين الناس وتوقف ليهم الحمية والألفة^(٢) والعزة .
 وكل واحد منهم يحب فى ذاته أن ينتهى من الحرب ، ولكنه لا يحب أن
 يجبن أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من
 الزمان ومن المكان ، فحرم القتال فى الأشهر الحرم .
 وما إن تأتى الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر
 الحرم لكنت قد أنزلت بخصمى الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليدارى
 كبرياه ؛ لأنه فى أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .
 وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربة :
 لو لم يدخل الحرم ؛ لأذقت عذاب الهزيمة .
 وبمضى الزمان وبالمكث فى المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما
 عشقوه فانتهوا من الحرب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
 مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ ١١ ﴾

(١) الحرب بينهم سجال : أى : نصرتهم بينهم مقاداة ، مرة لهم ، وأخرى عليهم . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الألفة : العزة والحمية والكرامة . [المعجم الوسيط] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٤٣

فحين شاء الحق أن ينزل العذاب بثمود ، بعد مضيَّ المدة التي أنذروا ينزلون العذاب بعدها ، نجى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ، لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يعانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .
هذا الذل وتلك الفضيحة التي حاقت ^(١) بثمود .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَقْوَى الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسلياً وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء ، وفي هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٦٧) ﴾

ويسمى الحق سبحانه هنا العذاب الذي نزل على ثمود «الصيحة» وسمّاه في موضع آخر «الطاغية» :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٦٨) ﴾ [الحاقة]

وسمّاه في موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه :

(١) حاقت به الشيء أو العذاب يحق حيفاً : نزل به وأصابه وأحاط به . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْيُنِهِ .. (٦٧) ﴾ [فاطر] .

(٢) جثم جثوماً : لزّم مكانه لاصقاً بالأرض . قال تعالى : ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثَامِينَ (٦٨) ﴾ [هود] .
كناية عن موتهم بحالتهم ، فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٦٣)

[نصت]

وفي سورة الأعراف سمّاه «الرجفة» ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة ^(١) تؤدي معنى الحدث الذي يذهب ^(٢) ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا : «وأخذت الذين ظلموا الصيحة ؟» لماذا اختفت ناء التانيث من الفعل ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٧)

[هرد]

ونقول : إن الذي يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن تفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فناء التانيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً فأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين ، فقال : «أخذ» ولم يقل : «أخذت» .

ثم قال سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَانِمِينَ ﴾ (٦٧)

[هرد]

أي : ملقون على ركبهم وعلى جباههم بلا حركة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) رجف يرجف رجفاً ورجفاناً : تحرك واضطرب بشدة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ (٥٣) [المرمل] والرجفة : اسم مرة من الرجف . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ .. ﴾ (٧٤) [الأعراف] [القاموس القويم] .

(٢) دهمه أمر دهماً : فجاء وغشيه . ودهمه القوم : جاءوه مجتمعين مرة واحدة . وأدهمه : ساءه وأرضعه . والدَّهم : العدد الكثير . وجيش دهم : كثير . [المعجم الوسيط] .

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا^(١) إِلَّا إِنْ شَعَوْا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ

لِشَعْوٍ ۖ﴾

ومادة «غنى»^(١) .. «غنى» ، أو «غناء» كلها متساوية ؛ لأن الغناء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغنى عن شيء ، قالغنى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين ، والأغنية التي يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها مما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغناء هو للإقامة .

والحق سبحانه يقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا^(٢) كَانَ لَمْ تَغْن^(٣) بِالْأَمْسِ ..﴾ (٢٤)

[يونس]

أى : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ..﴾ (٦٨)

[هود]

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا لِي دِيَارِهِمْ جَانِعِينَ﴾ (٥٧) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٥٨) [هود] . [القاموس القويم] .

(٢) غنى يغنى غناء وغنى : كثر ماله ، فهو غان وغنى . والغنى : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ..﴾ (٢٢) [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٣) حصيد الزرع يحصده حصداً وحصاداً : قطعه عند نضجه . ويستعمل الحصيد مجازاً بمعنى الإهلاك والإبادة . قال تعالى : ﴿.. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (٦٦) [الأنبياء] أى : جعلناهم كالزرع للحصود ، أى : أهلكناهم . وقال تعالى : ﴿وَلَا يَخْلُقُ إِلَّا مَشَاءَ قَدَرٍ لَّهُمْ﴾ (٦١) [الأنبياء] أى : لا يخلق إلا ما يشاء . ومنها هالك . [القاموس القويم] .

(٤) غنيت الدار بأهلها : سمرت بهم ، قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ ..﴾ (٤٤) [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم ٦١/٢] .

أى: ثم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ .. (٦٨) ، وهذه هى حيثية العذاب الذى نزل بهم .

وعادة ما تتعدى كلمة «كفر» بالباء ، ويقال: كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ .. (٦٨) [هود]

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى «كَفَرُوا رَبَّهُمْ» أى: ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به .

وقول الحق سبحانه: «كَفَرُوا رَبَّهُمْ» يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعنه ذنب ، ولا يوجد ما هو أكبر منه فى الذنوب .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلَا بَعْدَ لِمُودَ ﴾ (٦٨) [هود]

أى: أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرده من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم .

ويأتى الحق سبحانه فى الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهى جزء من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَىٰ^(١) قَالُوا
سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ^(٢) أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ^(٣)﴾

وكلمة «رسل» جمع «رسول» ، والرسول هو المرسل من جهة إلى جهة ، وأى إنسان تبعته إلى جهة ما ، اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعى للرسول : أن يكون مُرسلاً من الله .

ويقول الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي^(١) مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج]

واصطفاه الملائكة كرسلى لتيسير التلقى عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التى تتلقى عن الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه .

لذلك يأتى لنا الله جلَّ علاه بالرسول ، فيصطفى من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقى ليتزولوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة .

(١) البشرى والبشارة : ما يعطى للبشر بالخبر السار . والبشرى : مصدر بمعنى البشارة والبشرى ، ويطلق كل منها على الخير السار . وبشره : أخبره بما يسره . قال تعالى : ﴿قَالَ الْبَشْرِ ثَمُونِي عَلَى أَنْ تُبْنِي الْكِبْرُفِيمَ قَبِيرُونَ﴾ (٥٤) [الحجر] .

(٢) لبث : أقام واستقر . وما لبث أن فعل كذا : ما قعد وما ثوانى ، أى : أسرع إلى فعله بغير أى توان . وقوله تعالى : ﴿.. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٧٥) [هود] أى : أسرع فأتى به ، وهو دليل العناية والحفاوة بالضيف ، [القاموس القويم] .

(٣) حنذ اللحم يحنذه حنذاً : شواءه على الحجارة ، فهو حنيد أى : مشوى . قال تعالى : ﴿.. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٧٥) [هود] ، وخمعه يكون أطيب من السلوق والطبوخ فى الماء . [القاموس القويم] .

(٤) اصطفاة : اختياره وأثره وفضله . قال تعالى : ﴿.. يَا هَرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) [آل عمران] أى : اختارك وتفضلت . وقال تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج] أى : يختار الأنضلى منهم لرسالاته . [القاموس القويم] .

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقى من الله تعالى ،
ولا كل البشر يقادرون على التلقى عن الله أو عن الملائكة .

وهذه الحلقات في الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتزهل للضعيف أن
يأخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك في حياتهم .

وسبق أن ضريت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفيء نور المنزل ، لكننا نترك
ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم
بمناجاة البيت ، فتحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نصاب نحن إن
اصطدنا بما هو أقوى منا .

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوي .

وكذلك بفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأني بمصطفى من الملائكة ، يتلقى
عن الحق سبحانه ويبلغ الملك من هؤلاء الرسول المصطفى من البشر .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ^(١) أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ^(٢) أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا ^(٣) فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وهنا يقول الحق سبحانه :

(١) الوحي : يطلق على الأمر للوحي به من إطلاق المصدر على المفعول به .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ .. (٥٠) ﴾ [الأنبياء] أي : بالقرآن الذي أوحاه الله إلي . ويطلق
الوحي على الملك الذي أرسله الله إلى الرسول ليبلغه ما أمر الله به ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى] أي : إلهاماً من الله ، وقدفاً وإلقاء في قلب الرسول في سرعة
وخباء . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٥] .

(٢) ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] أي : فاصل بين الألوهية والبشرية ، وبطريقة لا يعلمها إلا الله
تعالى . [القاموس القويم ٢ / ٣٢٥] .

(٣) ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا .. (٥٣) ﴾ [الشورى] مثل جبريل عليه السلام ، فيوحى إلى الرسول بإذن من الله
ما أمر الله به [القاموس القويم ٢ / ٣٢٥] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٥٤٩﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِٔ .. ﴾ (٦٩) [هود]

والبشرى هى الإخبار بشىء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهى عكس الإنذار الذى يعنى الإخبار بشىء محزون قبل أوانه .

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم - عليه السلام - البشارة التى جاءوا من أجلها ، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن ، فمن أدب الدخول إلى أى مكان أن نسلم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ^(١) وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. ﴾ (٢٧) [النور]

ولذلك يأتى الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

﴿ قَالُوا سَلَامًا .. ﴾ (٦٩) [هود]

وجاء سبحانه برّد إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ سَلَامٌ .. ﴾ (٦٩) [هود]

ونحن نلاحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء بالرفع ، وقولهم : ﴿ سَلَامًا ﴾ دل على فعل يوضح التجدد ، والرد جاء بكلمة ﴿ سَلَامٌ ﴾ بالرفع ؛ ليدل على الثبات والإصرار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. ﴾ (٨٦) [النساء]

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) استأذن : ذهب ترجّشه ، واستأذن به وإليه ، والهمزة والسين والتاء للمطلب فى الغالب . فقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. ﴾ (٢٧) [النور] أى : حتى تطلبوا الأذن والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأمان وتعلموه [القاموس المقيم ١/ ٣٧] .

﴿ .. فَلَمَّا لَبِثَ ^(٦٦) أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود]

والعجل هو ولد البقر .

وهناك آيات كثيرة في القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن ، لا يقصد التكرار ، ولكن لأن كل لقطة في أى موضع هي لقطة مقصودة لها دلالتها وأسرارها ، فإذا جُمِعَت اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام في شمول متكامل .

وعلى سبيل المثال : يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [الأنعام]

وفي موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية اليعقينية التي أرادها لإبراهيم ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ ^(٦٧) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ^(٦٨) قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [٦٦] فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ^(٦٩) قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [٧٠] فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [٧١] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ^(٧٢) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ^(٧٣) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام]

(٦٦) ما لبث أن جاء : أى : أسرع بإعداد الطعام وإحضاره لضيفه ، وهذا فيه دلالة قوية على الجود والكرم الذي اتصف به إبراهيم عليه السلام . [القاموس القويم] . يتصرف .

(٦٧) جَنَّ الشَّيْءُ : يَجَنُّ جَنًّا : ستره ، ويتضمن الفعل معنى كلمة «أظلم» لأن الظلام يستر كل شيء . وَجَنَّ اللَّيْلُ : أَظْلَمَ . [القاموس القويم] .

(٦٨) أَفَلَ : غاب وغرب تحت الأفق [كلمات القرآن] .

(٦٩) بَازِغًا : طالعا من الأفق متشرقا ضوء . [كلمات القرآن] .

(٧٠) نَظَرَ الشَّيْءُ : شَهِدَ . ونظر الله الخلق : خلقهم وبداهم فهو فاطر أى ابتداء خلق السموات والأرض . [القاموس القويم ٢ / ٨٤] .

(٧١) حَنِيفًا : مائلا عن الباطل ، مستقيما على الحق . [لسان العرب] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٥١

إن هذه الآيات تبين وظيفة الخواص إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه في موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطب عمه باحترام لمكانته التي تساوي منزلة الأب .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾ [مريم]

فهذه الآية تبين رفق الداعي مع جمال العرض .

فأصرَّ العمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧)﴾ [مريم]

وبعد ذلك يتبرأ منه لإصراره على الكفر .

ثم هناك لقطة من يُحاجج إبراهيم في ربه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ (١) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وكانت تلك سفسطة (١) في القول ناتجة عن عجز في التعبير ، فليس

(١) حاجبه : نازعه الحجة ، فهي مفاعلة من الجانبين ، أى : قدم كل منهما حجته ، ليغلب بها الآخر . قال تعالى : ﴿وَرَجَعَهُ قَوْمَهُ قَالَ اتَّعَالَوْهُ فِي اللَّهِ .. (٥٥)﴾ [الأنعام] [الفاءوس القويم ١/ ١٤٣] .

(٢) السفسطة : المغالطة والتفصيل بغير إحكام الخصم وإسكاته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. ﴾ (٧٥٨)

[البقرة]

وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتى فى موضع آخر من القرآن ليعين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ (٧٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَبْصُرُونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾

[الشعراء]

وفى هذه الآية أمثلة تعمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾

[الشعراء]

يقول رب العزة سبحانه فى سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥٦) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾

[الأنبياء]

هذه هي التربية الیقينية^(١) التي أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام
ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصل
إلى عبادة مَنْ خَلَقَهُ وَخَلَقَ الْكَوْنُ ، وهو الصانع الذي يضع قانون صيانة
ما يصنع سبحانه وتعالى .

ولذلك نلاحظ قوله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨)

[الشعراء]

فلم يقل : «الذي خلقني يهديني» لأن هذه دعوى ؛ ستُدعى ، وسيضع
الناس قوانين لأنفسهم ، فبين الحق سبحانه أن الذي خلق هو الذي يَهْدِي .

وجاء الحق سبحانه بكلمة «هو» لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق
خالقهم فيه ، لكن الأمر الذي لم يُدَّعَ ، لم يأت فيه بكلمة «هو» كقوله :

﴿ وَاللّٰى بِمِيتٰى ثُمَّ يُحْيِيهِ ﴾ (٨١)

[الشعراء]

فما لا شركة فيه عند الخلق يأتي به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن
في الأمر الآخر يأتي بتأكيد الضمير كقوله :

﴿ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨٠)

[الشعراء]

فقد يقال : «إن الطبيب هو الذي يشفيني» ، ولكن ذلك غير حقيقي ؛ لأن
الله سبحانه هو الذي يضع العلم ، وهو الذي خلق الداء وخلق الدواء^(٢) .

(١) اليقين : العلم الثابت الواضح الذي لا شك فيه ، ويقال خير يقين لا شك فيه ، ويكفى به عن الموت ؛
لأنه لا شك فيه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (٢٢) [الحجر] أي : الموت وقال
تعالى : ﴿ فَسَكَّتْ غَيْرَ تَعْبِدُ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحُطُّ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَا يُقِينُ ﴾ (٢٢) [النمل] وأيقن الأمر
وأيقن به : علمه علماً ثابتاً واضحاً لا شك فيه [القاموس المبرور ٢/ ٣٧١ ، ٣٧٢] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» أخرجه
البخاري في صحيحه (٥٦٧٨) وابن ماجه في سننه (٣٤٣٩) .

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ^(١) مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

إذن: فكل مناسبة تأتي لتأكيد معنى من معاني الإيمان تأتي معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام ، وإذا جُمِعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد ﷺ القصص ، فذلك لتثبيت قواده ﷺ :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠)﴾ [هود]
لأن النبي ﷺ يتعرض لكثير من الأحداث ، فيذكره الله سبحانه بما حدث للرسول عليهم السلام ويأتي باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول ﷺ .
وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿.. قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)﴾ [هود]

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ^(٢) (٥٢)﴾ [الحجر]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن هذا الموقف:

﴿فَأَوْجَسَ^(٣) مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِيعَةِ إِلهِهِ (٢٨)﴾

[الذاريات]

(١) القواعد: جمع قاعدة ، وقاعدة البناء: أساسه الذي يقوم عليه. [القاموس القويم ١٢٧/٢].

(٢) ويجل يوجل: فرح وخاف. قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْحَلْ .. (٥٢)﴾ [الحجر] أي: لا تفرح ولا تخف ، وهو وجل ، أي: خائف . وقال تعالى: ﴿.. قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ (٥٢)﴾ [الحجر]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٥١)﴾ [الأنفال].

(٣) أوجس في نفسه: أضمر الخوف في نفسه. قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٢٧)﴾ [طه] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨)﴾ [الذاريات] أي: أحس الخوف والخوف. [القاموس القويم].

أى: أحس في نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجهيد^(١) ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل ؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام .

والشرع لا يتدخل في الإدراك أو المواجهيد ، ولكنه يتدخل في النزوع ، إلا في أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال في المرأة .

لذلك أمر الشرع بغض البصر^(٢) ؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فيتزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفوري ؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك .

وهنا بين الحق مواجهيد إبراهيم عليه السلام حين قال :

﴿ وَأَوْجِسُ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ .. ﴾ (٧٠) [هود]

وجاء بالمعنى النزوعى حين قال :

﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ .. ﴾ (٧١) [هود]

وهو حين التأكيد والتثبيت .

وقال الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (٧٢) [هود]

وهو : العجل السمين المشوى على الحجارة ؛ لأن الشواء - كما نعلم - قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة .

(١) المواجهيد : جمع مواجهة ، وهى ما يحس به القلب ويحده الإنسان فى نفسه من مشاعر الفرح والحزن والرضا والغضب وغيرها .

(٢) ودليل هذا قوله عز وجل : ﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَتَّبِعُونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُونَ أَعْيُنَهُمْ ذَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [النور] .

(٣) أن : بمعنى حتى . قاله كبراء النحويين . حكاه القاضى ابن العربى . والمعنى : أى : ما أبطأ عن مجيئه بعجل . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٨٢) .

ومثل ذلك يحدث في البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جداً ، ويحمونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر ؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم ؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء .

أو أن كلمة : ﴿ .. بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ٦٦ ﴾ [هود]

أى : ينزل منه الدهن بعد الشواء .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ٦٦ ﴾ [هود]

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم ، ومن عادة الكرام أن يُعَجَّلُوا بإكرام الضيف^(١) ، وتقديم الطعام له ، والكريم هو من يفعل ذلك ؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام ، فإن كان الضيف جائعاً أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك . ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوى :

﴿ فَمَأْرَهُ أَوْحَدِيَّتُهُمْ لَا تَنْصِلُ إِلَى تَوْكْرِهِمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ٧٠ ﴾

(١) وقد حدث رسول الله ﷺ على إكرام الضيف ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠١٨) وكذا مسلم في صحيحه (٤٧) .

(٢) نكره : استوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . [القاموس القويم] تقول : نكرتك وأنكرتك واستكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته . راجع للقرطبي (٤/٢٣٨٤) .

(٣) وحس وأوحس : فرغ . وأوحس في نفسه : أضمر الخوف في نفسه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ٧٠ ﴾ [هود] أى : أحس الفزع والخوف . وقال تعالى : ﴿ فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُرْسًى ٧١ ﴾ [طه] . أى : أضمر الخوف في نفسه حين رأى أعمال السحرة . [القاموس القويم] .

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شراً ونكرهم ، أى : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .
وقد بين ذلك قول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢ ﴾ قَالُوا لَا تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُوا بَشْرَتَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ الْقَانِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَنْ يَقْطَعُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨ ﴾ [الحجر]

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ٨١ ﴾ [هود]

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

﴿ .. لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ ٧٠ ﴾ [هود]

أى : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ؛ لأن الملك قد يتشكل فى هيئة إنسان ، مثلما تشكل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد ﷺ .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل فى صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

(١) القانترون : الذين انقطع أملهم فى الخير أو يشعرون . والقنوط : صيغة مبالغة ، أى : شديد اليأس معذور الأمان . (القاموس الغريب) .

أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إِنْ عَفَرَيْتَا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ ^(١) الْبَارِحَةُ لِيَقْطَعَ عَلَى صَلَاتِي ، فَأَمَكَّتْنِي اللَّهُ مِنْهُ ، فَأَخَذْتَهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَلَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سَلِيمَانَ :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لَأُخَذَ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢٥)

[ص]

فرددته خامساً ^(٢) .

إذن : إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن نضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

وحُكِّم الصورة عند تشكل الجنى هي التى نحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجنى متشكلاً فى صورة إلا لحظة قصيرة ليختفى على الفور ؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمت أن الصورة التى تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به ؛ لذلك فالجن يخافون من البشر .

وشاء الحق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفرع الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. ﴾ (٧٠)

[مرد]

(١) تَفَلَّتْ : أى : تعرض لى قلة أى : بغتة .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٢٣) ومسلم فى صحيحه (٥٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة ﴿نَكِرْهُمْ﴾ تقتضى أن ننظر فى مادة «النون والكاف والراء» وكلمة «نكر» وكلمة «أنكر» كلتاهما مستعملة فى القرآن ^(١).

والشاعر يقول:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتَ ^(٢) مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبُ وَالصَّلَامُ
والاستعمال اللغوى يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى
منكرات ، أى: ينكرها الإنسان بفطرته.

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيد
نكروهم ، وأوجس فى نفسه خيفة ، فلاحظوا ذلك ، وقالوا:

﴿.. لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ^(٣)﴾ [هود]

وهكذا عرف لمن جاءوا ، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه
العذاب ، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول: إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت
له: ألا تضم ابن أخيك إلى كنفك ^(٤) هنا: لأن قومه يوشك أن يعذبهم الله بالعذاب.

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّتْ من
فراستها ^(٥) ، وتيسمت لأنها تنبئت إلى هذه المسألة.

(١) كلمة «نكر» وردت فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. ^(٦)﴾ [هود]. وقال تعالى عن
سليمان: ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرَشُهَا .. ^(٧)﴾ [النمل]. أما أنكر ، فقد قال تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآيَاتِ
اللَّهِ تُكْرَوْنَ ^(٨)﴾ [حافى] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَشْجَابِ مَنْ يُكْرُ بِعَصَا .. ^(٩)﴾ [الرعد] ، وقوله
تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُهُمْ الْكَافِرُونَ ^(١٠)﴾ [النحل].

(٢) جمع الشاعر بين اللتين . ويقال: نكرت لما نراه بعينيك وأنكرت لما نراه بقلبك . قاله القرطبي فى تفسيره
(٣٣٨٤/٤).

(٣) الكنف والكفنة: ناحية الشيء . وكنف الرجل الرجل جعله لى كنفه أى: فى حفظه وأمانته . وكنف
الرجل: حفظه وصنعه . [راجع لسان العرب].

(٤) الفراسة: الفطنة فى النظر والتثبت والتأمل للشيء والبصيرة . والغرس: أن تنوهم امرأة ما لى شخص ما
فيكون كما ترسمت ، وهذا يكون بأحد أمرين:

١- ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه بنوع من المكاشفات.

٢- ما يتعلم بالذلائل والتجارب فتعرف بها أحوال الناس.

[راجع لسان العرب] مع زيادة من عندنا .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۖ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۚ مُسَوَّمَةً ^(١) عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۚ ﴾ (٢١)

[الذاريات]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَمْرًا فَآيَةً ۖ فَضَاحِكٌ ۖ فَتَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۚ ﴾ (٢٢)

فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف ^(٢) ، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم ، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً ، وبشّرتها الملائكة بإسحاق ، ومن وراء إسحق يعقوب .

فبعد دفع العذاب ، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين ، تأتي البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان ^(٣) إليه ، وإن كان أوانها قد فات ؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من

(١) ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ۚ ﴾ [الذاريات] أي : عليها خواتيم بأسماء المتعلمين . وسومٌ على القوم : أغار عليهم نعات لبهم بالإفساد والهلاك . قال تعالى : ﴿ .. يُعَذِّبُكُمْ وَيُكْثِمُ بَخْمَةً أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَوِّبِينَ ۚ ﴾ [آل عمران] أي : معلّمى أنفسهم وخيلهم بعلامات ، أو متغيرين على الكفار . وقوله تعالى : ﴿ وَالْغَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ۚ ﴾ [آل عمران] أي : الرسالة للرعى ، أو المعلمة بعلامات . وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُمْ فِي وَحُوهِمْ ۚ ﴾ [الفتح] أي : علامة إيمانهم نور في وجوههم . [القاموس القويم] .

(٢) هي : سارة امرأة إبراهيم عليه السلام من قومه ، وهي أم إسحاق عليه السلام جاءها الولد وهي في سن كبيرة ، بعد أن ولدت هاجر - لإبراهيم - إسماعيل عليه السلام .

(٣) عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدي أتى رسول الله ﷺ فدعاه في عرسه فكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهي العروس . قال : تدرون ما صنعت رسول الله ﷺ ؟ أنقعت حمات من الليلة في ثوبه أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٤٩٨/٢) وابن ماجه في سننه (١٩١٢) .

(٤) صبا يصبو صبواً وصبواً : مال وأحب . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَعْرِفْ عَنِّي تَحِيَّةً مِنْ أَصْبٍ إِلَيْهِمْ وَأَنْتَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۚ ﴾ [يوسف] . أصبو : أميل . وصبا إلى الشيء : حنّ واشتاق إليه ، [القاموس المفهرس] .

عمرها ، وبلغ هو المائة والعشرين عاماً^(١) . وفي هذا امتتان على إبراهيم
يمجيء ابن الابن أيضاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ
وَخَفَدَةً^(٢) ۖ ۞ (٧٢)﴾ [التحل]

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿.. فَبَشَّرْنَا هَآءَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۖ﴾ [هود]

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنته ، لأن
هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا نوات البشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم
لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام ؛ لما جاءوا به من
القواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامراته قد علما أنهما لم يأتيا
بأى أمر يغضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هى الغلام ، وكان ذلك حُلماً قديماً عند امرأة
إبراهيم عليه السلام لأنها عاقرة ، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى
بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة^(٣) .

(١) قال مجاهد : كانت سارة بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين . وقيل غير
هذا . أما إبراهيم فقيل : كان ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة سنة . ذكره القرطبي فى تفسيره
[٣٣٨٨/٤] .

(٢) حفدة : أولاد الأولاد . والحافدة : العون والخادم ، وولد الولد ، جمعه : حفدٌ ، وحفدٌ ، وحفدة .
وحفد فى عمله : خف ونشط وأسرع ليه فهو حافد ، وهو حفيد ، ومسمى العون أو الخادم أو ولد الولد
حافداً لنشاطه وخفته فى العون والخدمة . [القاموس القويم ١/١٦٦] .

(٣) يقول رب العزة سبحانه عن ذلك فى سورة الذاريات : ﴿.. وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ (٦٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ
فَقَسَتْ وُجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَظِيمٌ (٦٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْمُكَيِّمُ الْعَظِيمُ (٧٠)﴾ [الذاريات] . صك
الوجه : الثطم تعجباً وهو كناية عن الدهشة والتعجب [القاموس القويم ١/٣٨٠] .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ يَوَئَلَيَّ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ^(١)
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٧٢)

والشيء العجيب هو الذي يخالف نوايس الكون المعتادة ، ولكن هناك فرقاً بين النوايس ^(٢) وخالق النوايس ، الذي هو قادر على أن يخرق النوايس .

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر :

﴿ أَبَشِّرْهُنِي عَلَى أَنْ مَسْنِيَ الْكِبَرُ .. ﴾ (٥٤) [الحجر]

ولم يأت هنا يقول امرأة إبراهيم التي قالت :

﴿ يَا وَيَلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴾ (٧٢) [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة ، لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد .

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوموا به ، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب ، وهو أهم ما تطلبه المرأة .

وأيضاً سُمي النخل بالبعل ، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه ، وإنما يكتفى النخل بما يمتصه من الأرض ، وما ينزل له من مطر السماء ^(٣) .

(١) البعل : الزوج والزوجة ، فهو مصدر سمي به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بموله . قال تعالى : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴾ (٧٢) [هود] . وقال تعالى : ﴿ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ .. ﴾ (٥٥) [البقرة] أي : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعي ، وبعد طلاقه بآنة أو طلفتين بآنتين بلفظ جديد . [القاموس القويم ١ / ٧٦] .

سُمي زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . والمباغلة : المباشرة . والبعل : النكاح . تبعلت المرأة : أطاعت بعلمها . وتبعلت له : تزيت . وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطوعة لأزواجها محبة له . [لسان العرب] .

(٢) النوايس : الفوائس الإلهية التي يخضع لها الكون .

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (مادة : ب ع ل) : استبعل الموضع والنخل : صار بعلاً واسخ العروق في الماء مستغنياً عن السقي وعن إجراء الماء في نهر أو عاثر إليه . (العاثر : هو البئر)

وكذلك سُمِّي نوع من القول «بالقول البعلی»، وهو الذي لا يحتاج إلى إرواء.

إذن: فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شيء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ

وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٢﴾﴾

والعجب - إذن - إنما يكون من قانون بشري، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة في أن يخرق الناموس... ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية.

والقصة التي حدثت لإبراهيم عليه السلام وامراته تكررت في قصة زكريا عليه السلام، والحق سبحانه هو الذي أعطى مريم عليها السلام إشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سأها:

﴿أَنْتِ^(١) لَكِ هَذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

فقالت مريم:

(١) أنتي: اسم استفهام بمعنى: من أين. وتأتي بمعنى: كيف مثل قوله تعالى: ﴿فَاتُوا خَرْتَكُمْ أَنْتِ شَيْءٌ.. (٣٧)﴾ [البقرة] أي: كيف شئتم بشرط اتباع الفطرة المستقيمة التي تشير إليها الآية في قوله تعالى: ﴿فَاتُوا خَرْتَكُمْ أَنْتِ شَيْءٌ.. (٣٧)﴾ [البقرة] وجاءت في بعض الآيات صالحة للسمعين مثل قوله تعالى: ﴿أَنْتِ يَكُونُ فِي غَلَامٍ.. (١٠)﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم ص ٤١ ح ١].

﴿ هُوَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

[آل عمران]

إذن: فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم ، لا بين الخالق - سبحانه - وخلقهم .

ولذلك يأتي قول الحق عز وجل :

[آل عمران]

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴾ (٣٨)

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكر بقول مريم :

[آل عمران]

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

فمن حقه أن يدعو :

[آل عمران]

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً .. ﴾ (٣٨)

فأوحى له الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (٣٩)

[مريم]

أى : أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط ، بل وسماه له أيضاً باسم لم يسبقه إليه أحد .

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر ، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الفأل^(١) الحسن في أن يعيش الابن -

(١) الفأل: ضد الطيرة ، والجمع : فنول وأفول . ومنها : التفاؤل ، وهو الاستبشار بالخير . [مختار القاموس] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٦٥

لكن الحق سبحانه حين يسمي اسماً ، فقد سماه «يحيى» ليحيا بالفعل ،
ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتي الموت ؛ لذلك قُتل ^(١) يحيى وصار شهيداً ،
والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتي إليه موتٌ أبداً ^(٢) .

وهذا عكس تسمية البشر ؛ لأن الإنسان قد يسمى ابنه «سعيداً» ويعيش
الابن حياته في منتهى الشقاء .

والشاعر يقول عن الإنسان الذي سمى ابنه «يحيى» :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ لِرَدِّ قَضَاءِ اللَّهِ فِيهِ مَسِيلٌ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هي التي نهت إلى قضية الرزق
من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن ^(٣) وأن
زوجه عاقراً .

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل
شيء أزلاً ^(٤) ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه
سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) قال ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٣٩٠) : «ذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك
الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج بعض سحارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام من
ذلك فبقي في نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى ، فوهب لها
فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها» .
(٢) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا تَحْزَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ فِي رِجْزٍ مُّزْمَنَةٍ
مِنْ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران] .

(٣) قال زكريا : ﴿... رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَاؤِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم] وقال
بعد تبشيره يحيى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي بَكْرٌ لِّمِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [١٨] .
[مريم] قال مجاهد : عتياً يعني : نحول للعظم . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٢) : «لم يبين فيه لفاح
ولا جماع» .

(٤) الأزل : القدم . أصلها «لم يزل» ، قال أبو منصور : ومنه قولهم : هذا شيء أزلي ، أي : قديم . [لسان
العرب] .

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩)﴾ [مريم]

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى قرّر ، فلا راد لما أَراده ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿..هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

وهكذا توالى الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خرق النواميس التى تعرضت هى لها بعد ذلك ، حينما تمثّل لها الملك بشراً ، وبشرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهى التى لم يمسهها بشر - فيذكرها الملك بأنها هى التى أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق فى أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

﴿..إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران]

وكان لا بد من طمأننتها ؛ لأن إيجابها للمسيح عيسى - عليه السلام - دون أب هى مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهى أمانة ، غير مرتاب فيها ولا متهمة .

والآية التى نحن بصددّها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدره الله تعالى وأراد ، خلافاً للناموس الغالب فى خلقه ؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء فى غير الأوان المعتاد ^(١) .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٣٨٩/٤) : « من تلك الهبات والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا من ولد إبراهيم وسارة » . بتصرف

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .. (٧٢)﴾ [هود]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ (٧٢)﴾ [هود]

أى : أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده ، فلا حد لخيره وإحسانه ، ولله تعالى مطلق صفات المجد .

وكلمة «حميد» - فى اللغة - من «فعل» وترد على معنيين : إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا : «الله رحيم» بمعنى أنه راحم خلقه . وإما أن تكون بمعنى مفعول كقولنا : «قتيل» بمعنى «مقتول» .

وكلمة «حميد» هنا تأتى بالمعنيين معاً : «حامد» و«محمود» ، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه «الشكور» ؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته . والله سبحانه «حميد» ؛ لأنه حامد لمن يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه «محمود» ممن أنعم عليهم نعمه السابغة .

والله سبحانه هو المجيد الذى يعطى قبل أن يُسأل .

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل ، فأخرج كيساً ووضع فيه يده ، ثم رجع إلى أهله يبكى ، فقالت له امرأته : وما يبكيك وقد أدبت له حق سؤاله ؟ قال : أنا أبكى لأنى تركته ليسأل ، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا ، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل ، ومثال ذلك : هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين فى بطن أمه ، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال .

والحق سبحانه وتعالى فى كل لقطة من لقطات القرآن يعطى فكرة اجتماعية مأخوذة من الدين ، فيها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الخنيز للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال: لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، قُلْ أَنْ ترفع الطعام من أمامه يعد أن أكدت عليه فى تناول الطعام.

ويروى بعض العارفين^(١) أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال: أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ قالت الملائكة: لا نأكل إلا إذا دُعينا ثمن الطعام. فقال إبراهيم ، بما آناه الله من حكمة النبوة ووحى الإلهام: ثَمَنُهُ أَنْ تُسَمُّوا اللَّهَ أوله ، وتحمده آخره^(٢).

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت فى أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا انتهيت منه وقلت: «الحمد لله» تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿لَمَّا تَسَأَلْنُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر]

وهكذا بين لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأننا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هى مكلفة بتعذيب قوم لوط.

(١) هو عمرو بن دينار الجهمي بالزلاء ، أبو محمد الأثرم ، فقيه ، كان مفتى أهل مكة ، فارسى الأصل ، مولده بصنعاء ٤٦ هـ وولاه مكة (١٢٦ هـ) عن ٨١ عاماً. قال شعبة: ما رأيت أثبت على الحديث منه. الأعلام للزركلى (٧٧/٥).

(٢) ذكر هذا الأثر السيرطى فى اندر الثور (٤/٤٥٠) وفى آخره أن الملائكة نظرت لبعضها البعض وقالوا: «هَذَا اتَّخَذَ اللَّهُ غُلِيلاً». وعزاه لابن اللندى عن عمرو بن دينار.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ ^(١)

يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ^(٢) ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّةً من مقابل ؛ وتعطيه حُجَّةً ؛ لتصل إلى حق .
والجدل يختلف عن المراء ^(٣) فالمرء يعني أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل
لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق .

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون
الجدال بالتي هي أحسن .

وهنا يبين لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته
البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغيلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم
ذاهبون لتعذيب قوم لوط :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ^(٤) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ^(٥)
مُسَوَّمَةً ^(٦) عِندَ رَبِّكَ .. ^(٧) ﴾

[الذاريات]

(١) راعه الشيء يروعه ، روعاً : أصاب روعه ، أي : قلبه ، والروع : القلب - بضم الراء . وقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ .. ^(١) ﴾ [مرد] أي : ذهب عنه الخوف والقلق . [القاموس القويم] .

(٢) الجدل : المنازعة في الرأي وثلة الخصومة . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جِدَلًا ^(١) ﴾

[الكهف] أي : أكثر مبالغة في الخصومة وتأييد الباطل بغير حق . [القاموس القويم] .

(٣) مراء يماريه مراءة مراءة : ناظره وجادله . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تُنَازِرُ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ

مِنْهُمْ أَحَدًا ^(١) ﴾ [الكهف] أي : فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أهل الكهف إلا جدلاً واضحاً يسراً .

وقال تعالى : ﴿ قِيَامِي آلَاءَ رَبِّكَ تَعَارَىٰ ^(١) ﴾ [النجم] أي : تشكك . [القاموس القويم] .

(٤) مسومة : أي : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . قال تعالى : ﴿ وَالْعَلَى الْمُسُومَةُ .. ^(١) ﴾ [آل عمران]

أي : المعلمة بعلامات ، أو الرسالة للرعي . وقال تعالى : ﴿ سِجَانُهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ .. ^(١) ﴾ [التنج] ،

أي : علامة إيمانهم نور في وجوههم . [القاموس القويم] .

ومجادلة سيدنا إبراهيم في عقاب قوم لوط ، لم تكن رداً لأمر الله ، ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون ؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام ؛ قلب رحيم .

ولذلك يأتي الحق سبحانه بالعلة في المجادلة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾^(١)

إذن : فالعلة في الجدل أنه حلیم لا يُعَجِّلُ بالعقوبة ، وأَوَّاه ؛ أى : يتأوه من القلب ، والتأوه رقة في القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعنى الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو رحمة وراقة .

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم لوط لعلهم يؤمنون ، وتأوُّهُهُ هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجسلة بما ينتظروهم من عذاب أليم .

وقال الحق سبحانه في صفات إبراهيم أنه «منيب» أى : يرجع إلى الحكم وإلى الحق في قضاياها .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز :

(١) أَوَّاه : صيغة مبالغة ، أى : كثير التأوه ، وغلب على معنى التضرع إلى الله في العبادة ، والندم على الذنوب . [القاموس القويم] .

(٢) أَنَابَ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ : رَجَعَ إِلَيْهِ ، وَتَابَ ، وَتَرَكَ الذُّنُوبَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود] [أى : إِلَيْهِ أَتُوبُ وَأَرْجِعُ ، وَمُنِيبٌ : اسْمٌ فَاعِلٌ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ غَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالسَّيِّئِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [٢٢] [ق] [أى : بِقَلْبٍ رَاجِعٍ إِلَى اللَّهِ . وَجَاءَ جَمْعٌ «مُنِيبٌ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَآمَنَ .. ﴾ [الروم] [أى : رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ إِلَيْهِ ، أَيْ : كُونُوا تَائِبِينَ وَكُونُوا مُتَّقِينَ . [القاموس القويم] .

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ^(١) وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤)﴾

[التوبة]

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأناب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة في قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٥)﴾

[التوبة]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خراطورتنا عنها والتي أوضحت تأوّه إبراهيم لله عز وجل وتأوّه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - في الجدل ما قاله الحق سبحانه في سورة العنكبوت :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنِ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. (٣٢)﴾

[العنكبوت]

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبي من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿.. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لُتَجْعِلَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ^(٢) (٣٢)﴾

[العنكبوت]

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له ، أو سيعطيه إياه ، وهو فعل يتعدى للمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به .

والموعدة : مصدر مبني ، واسم زمان أو مكان . قال تعالى : ﴿لَا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤)﴾ [التوبة] أي : عن وعد واحد في مرة واحدة . [القاموس القويم ٢ / ٣٤٣] .

(٢) من الغابرين : أي : من الباقين المتخلفين في القرية للهلاك . أو كانت من الماضين الداهيين أي : من الهالكين . يقال : مضى وذهب بمعنى مات وهلك . [القاموس القويم] .

وكان إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، يسبح له الجنادل عن أهل القرية جميعاً .

ويتلقى إبراهيم الرد هنا في سورة هود في الآية التالية :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٧٦)

وقول الملائكة :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. ﴾ (٧٦) [هود]

يعنى إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُتَّهٍ ومحسوم ، فهم قد جاءوا لينفذوا ، لا ليهددوا ؛ وأبلغوا إبراهيم :

﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .. ﴾ (٧٦) [هود]

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿ مُنِيبٌ ﴾ يعلم أن أى أمر من الله تعالى لا بد أن يُنْقَذَ ، فلا بد أن يتقبل - أمر الحق سبحانه :

﴿ .. وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٧٦) [هود]

أى : لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله ، وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب ^(١) ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود ^(٢) .

(١) أَعْرِضْ : فعل أمر من الإعراض ، وهو الانصراف عن الشيء . وأعرض عن الشيء : ولى مصرفاً عنه غير راغب فيه . قال تعالى : ﴿ أَعْرِضْ وَتَأْتِ بِحَاجَتِهِ .. ﴾ (٢٥) [الإسراء] . [القاموس القويم ١٦/٢] .

(٢) جاء هنا فى حق قوم ثمود مع نبىهم صالح ، وذلك أن الله تردهم بالكلث والتمتع فى ديارهم ثلاثة أيام بعدها يأتىهم عذاب الله بسبب عقرهم الناقة . يقول سبحانه : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ فِئْتَمُوا لِي ذَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَذَابٌ مُّكَذِّبٍ ﴾ (٥٥) [هود] .

(٣) غير مردود : أى : غير مصروف عنهم ولا مدلول . [تفسير القرطبي ٢٣٩٢/٤] .

وَيُرَوَّى^(١) أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جِدَالِهِ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ لُوطٌ خَمْسُونَ قَدْ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، أُنْعَذِبُونَهُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ عَشْرَةٌ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، أُنْعَذِبُونَهُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ وَاحِدٌ هُوَ لُوطٌ؟ فَرَدَّتِ الْمَلَائِكَةُ:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ..﴾ (٣٦) [الْعنكبوت]

وانتهى الجدل، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)

أى: أن لوطاً شعر بالسوء، وضاق بهم ذرعاً، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وتدفع بها الأشياء، وأى شيء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به، وإن لم تطله ذراعك؛ قلت: «ضقت به ذرعاً» أى: أن يدي لم تطله، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي، وفوق ما أتاني الله من الآلات ومن الخيل.

وما الذى يسىء لوطاً فى مجيئ الملائكة؟

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٦٠) وعزاه لعبد الوزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من حذيفة بن اليمان.

(٢) يقال: ضاق بالأمر ذرعاً، وذراعاً: أى: لم يطله ولم يَغْرِ على احتماله واشتد عليه بسبب الضيق. قال تعالى: ﴿.. وضاق بهم ذرعاً﴾ (٧٧) [هود] أى: اشتد عليه الضيق بسبب وجودهم خوفاً عليهم من قومه. [القاموس المقيوم]، وضاق بهم ذرعاً: ضعفت ثقافته عن تدبير خلاصهم. [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف].

(٣) يوم عصيب: شديد شره وبلاءه. [كلمات القرآن].

قيل: لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال ، فحين يُقال: «فلان ملاك» ، أى: أن شكله جميل^(١).

ولوط - عليه السلام - يعلم أن آفة قومه هى إتيان الذكور ، وامرأته تعلم هذه الآفة ، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط ، فهى ترحب بتلك الآفة .

ويُقال: إنها تنبهت لمجىء الرجال الحسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح المنزل ، وصفقت لعل القوم يتبهنون لها ، فلم يلتفت لها أحد ، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم ، وأشارت لهم بما يعبر عن مجىء ضيوف يتميزون بالجمال^(٢).

وهنا قال لوط عليه السلام:

﴿.. هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾

[هود]

أى: يوم شديد المتاعب.

ويقال: «يوم عصيب» و «يوم عصبصب»^(٣) ، ومنه «العُصْبَةُ»^(٤) وهم جماعة يتكاثرون على شىء ، ويقوى الفرد بمجموعهم ، وقد صدق ظن لوط .

وفى هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك :

(١) وهذا هو ما قالته صريحيات يوسف عليه السلام ، عندما أدخلته امرأة العزيز عليهن: ﴿.. فَلَمَّا وَانَّهُ أَكْبَرَهُنَّ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٥٠)﴾ [يوسف].

(٢) وتلك كانت خيانتها لزوجها لوط عليه السلام ، أنها كانت تدل قومه على أضياف لوط ليقبلوا معهم المنكر ، وقد قال رب المرأة عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا .. (٥٠)﴾ [التحریم].

(٣) قال الفراء: يوم عصيب ، وعصبصب: شديد ، وقيل: هو الشديد الحر . وقال أبو العلاء: يوم عصبصب بارد ذو سحب كثير ، لا يظهر فيه من السماء شىء . [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

(٤) العصبية والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين . قال تعالى: ﴿وَتَحْنُ عُصْبَةٌ .. (٥١)﴾ [يوسف] قال الأخفش: والعصبية والعصابة جماعة ليس لها واحد . [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

﴿١﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ
فِي ضَعِيفِي ۚ أَلَيْسَ يَنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ۚ ۞ (٧٨) ﴾

أى: يسرعون إليه فى تدافق ، والإنسان إذا لم يكن قد مرّن على الشر وله به
دربة ، يكون متردداً خائفاً ، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط .

وكلمة «يهرعون» هى من الألفاظ العجيبة فى اللغة العربية ، والفاظ
اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل ، كقولنا: «يضرب زيدُ عمرو» أى: أن الضارب
هو «زيد» والمضروب هو «عمرو» ، ونقول: «يُضْرَبُ عمرو» أى: أننا بينا
الفعل للمجهول ، وسمى عمرو «نائب فاعل» .

أما فى الفعل «يُهرَعُ» فلا نجد أحداً يقول: «يُهرع» إلا ويكون بعدها فاعل
وليس نائب فاعل ، مثلها مثل الفعل «جُنَّ» فهل هناك من يأتى لنفسه
بالجنون ، أم أن الجنون هو الذى جاءه؟ لا أحد يعرف سبب الجنون؟
ولذلك بُنيت الكلمة للمجهول ، ولكن ما يأتى بعدها يكون فاعلاً . وهذا
من إعجاز البيان القرآنى .

(١) الهرع: المشى فى اضطراب وسرعة ، وأقبل يهرع ، وأهرع - مجهولاً - فهو مهرع: يهرع من ضعف ،
أو خوف . والمهروع: المجنون يهرع . [مختار القاموس] .

(٢) الرشيد: من أسماء الله الحسنى ، ولم يوصف الله به فى القرآن . ورشد يرشد رشداً ورشاداً: أصاب
وجه الصواب والخير والحق ، والرشد: ضد النى والضلال . والرشد: ضد السفه وسوء التدبير ، وبلغ
رشد: بلغ كمال عقله وحسن تصرفه للأمور . قال تعالى: ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ ۞ (٢٥) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ۚ ۞ (٥٤) ﴾ [الأنبياء] أى: هديناه إلى الحق والخير
والصواب . وقال تعالى - ما جاء على لسان الكفار - : ﴿ إِنَّكَ لَأَمْتٌ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ ۚ ۞ (٥٧) ﴾ [مرد]
وفصلهم الاستهزاء بنى الله شعيب - عليه السلام - بوصفه بأنه وحده من بينهم الخليم الرشيد ، وهم
يعتقدون عكس ذلك . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] ينصرف .

وكذلك نقول: «زُكِمَ فلان» فمن الذى أصابه بالزكام؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام.

إذن: فإذا جُهِلَ الفاعل فتحن نبنى الفعل للمجهول ، ولكن ما يأتى بعده يكون فاعلاً.

وقوله تعالى:

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨)﴾ [هود]

يُبين أنهم أقبلوا باندفاع ، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه ؛ لأن كلاً منهم له درجة على ذلك الفعل المشين ، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تهيب ، باندفاع من نفسه ودفع من غيره ، مثلما نقول: «سنوزع تمويلاً بالمجان» ؛ هنا تجدد الناس يتدافعون ، كل منهم من تلقاء نفسه ، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء .

وقوم لوط كانوا على درجة بتلك الفاحشة .

يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. (٧٨)﴾ [هود]

أى: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة ، ولهم درجة عليها وخفيفة على قلوبهم ، ولا حياء يمنعهم عنها .

فالحياء يعنى أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها ، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة ، قلن يخجل أحد من الآخر^(١) .

(١) وليس أدل على حبيهم الشديد لهذه الفعلة وعدم حياتهم من إتيانهم إليها أنهم كانوا يأتون بها فى ناديتهم وهو مجلسهم حيث يجتمعون للحديث والتشاور ، قال الحق: ﴿أَتُكْمُ قَاتُونَ الرِّجَالِ وَتَقَطُّونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] وما كانوا يأتونه أيضاً من مجالسهم: الضراط ، والصغير ، ولعب الحمام ، والسخرية من أبناء السبيل ، [القاموس القويم] ، والدر المنثور للسيوطي [١/٦٦١] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٧٧

وماذا يكون موقف لوط - عليه السلام - في هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفي كوكبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكر لوط - عليه السلام - في أن يصرفهم انصرافاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .. ﴾ (٧٨)

[هود]

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العرف في أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد زوج رسول الله ﷺ إحدى بناته لعتبة بن أبي لهب ، وأخرى لأبي العاص بن الربيع؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل : إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتنافسين؟

وقيل : إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيهم بهذا الزواج ؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفي هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي ضَيْفِي .. ﴾ (٧٨)

[هود]

وكلمة «ضيف»^(١) - كما نعلم - جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق

(١) ضانه بضمه ضيفاً : نزل عنده فهو ضائف ، أو استم القبول : مضيف . والضيف : مصدر يوصف به بلفظه فلا يتى ولا يجمع ولا يثنى ، وقد يجمع على ضيوف ، وضيفان . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحْهُمْ ﴾ (٧٨) [الحجر] أي : هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني بالتعدى عليهم ، و«ضيف» هنا بلفظه المفرد وهو لعدد من الملائكة . [الفانوس القويم] .

أيضاً على الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول : « هذا ضيفي » ، وإن جاء اثنان تقول : « هذان ضيفي » ، وإن كانت امرأة تقول : « هذه ضيفي » ، وإن كانتا امرأتين تقول : « هاتان ضيفي » ، وإن جاءت جماعة تقول : « هؤلاء ضيفي »^(١) .

والحق سبحانه يقول :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (١٤) [الذاريات]

وهناك ألفاظ أخرى كذلك في اللغة مثل : كلمة « طفل »^(٢) فهي مفرد ؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة « طفل » وُجِدَ لها جمع هو « أطفال » .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا يَدِينُ رِئْسَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدِينَنَّ رِئْسَتَهُنَّ إِلَّا بِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاؤَ بُعُولَتِهِنَّ^(٣) أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحْنَهُنَّ ﴾ (٥٦) [الحجر] .

(٢) الطفل (بكسر الطاء) : هو الصغير من كل شيء ، والطفل من الإنسان : الولد ما دام صغيراً . ويستوى فيه المفرد وغيره ، وجاء الجمع في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْبَطْلَ الَّذِينَ لَمْ يُقْهَرُوا عَلَىٰ غُرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ (٥٦) [النور] أي : الأطفال ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. ﴾ (٥٧) [الحج] أي : أطفالاً . وجمع الطفل : أطفال ، وجاء في القرآن : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسَادُوا .. ﴾ (٥٩) [النور] [الفارسي القويم ١/ ٤١٣] بتصريف .

(٣) بعولتهن : أزواجهن .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٧٩

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ^(١) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴿

[النور]

إذن: فكلمة «طفل» تطلق أيضاً ، ويراد بها الجماعة.

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه^(٢) في ضيفه ، والخزى فضيحة أمام النفس وأمام الناس .

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيئ ما لم يره أحد ، أما أن يراه الناس ، ففي هذا فضح له ؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة الناس ، والهوان أن يكون العمل السيئ بينه وبين نفسه .

ويتساءل لوط عليه السلام :

﴿ .. أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَشِيدٌ ﴾ (٧٨) ﴿

[هود]

أى : ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة^(٣) ، يمنع هذه المسألة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) الإرب: الحاجة التي تقتضى الاحتمال لها وكذلك الأربة والمأرب . قال تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ .. ﴾ (٣١) [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكرهم أو عجزهم أو صغرهم . وقوله : ﴿ .. وَلِيَّ لَهَا مَكْرِبٌ آخَرٌ ﴾ (٦٨) [طه] أى : حاجات وأغراض كثيرة أخرى كالتقاء ضرر أو غير ذلك .

(٢) أخزاه فلان: أهانه وفضحه . قال تعالى : ﴿ وَرَبَّنَا إِنَّكَ فَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ .. ﴾ (٦٦) [آل عمران] ومن دعاء القرآن : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُخْشَوْنَ ﴾ (٦٦) [الشعراء] ، وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي صُلْبِي .. ﴾ (٦٥) [هود] أى : لا تهينوني ولا تفضحوني بإهانة ضيفي ، وحذقت ياء التكلم من كلمة «تخزونى» وسأ ونطقاً وتخفيفاً ، [المقاموس القويم ١/١٩٢] .

(٣) ومن معانى الرشد أيضاً أن يكون شديداً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويكون صالحاً مصلحاً هادياً مستقيماً مرشداً حكيماً . انظر تفسير القرطبي [٢/٢٣٩٦] .

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩)

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفحشاء من قوم لوط ؛ فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا في بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئتنا .

وكان هذا يعنى الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا فى هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال فى الجمال .

ويأتى الحق سبحانه برّد لوط عليه السلام :

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّائِي رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ (٨٠)

وساعة نقرأ كلمة «لو» فهذا هو التمنى ، أى : رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولنا : «لو أن زيدا عندك بلحيت» ، لكن نجد هنا شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : «لو أن لى بكم قوة لفعلت كذا وكذا» .

(١) اختلف العلماء فى المقصود بالبنات : هل من بنات لوط فعلاً من صلبه ؟ أم أن المقصود بهن نساء قومه ، فالتبى أب لأمته نساء ورجالاً . انظر تفسير ابن كثير (٤/٤٥٣) والقرطبي (٤/٣٣٩٥) والفر المصور للسيوطي (٤/٤٥٧) .

(٢) قال ابن كثير : «أى : إنك تعلم أن نساءنا لأرب لنا فيهن . شتهين . وددت أن . . . تفسيره (٤/٣٣٩٧) : «أن قوم لوط خطبوا بناته فردهم ، وكذا . . . شتهن أن من رد في خطبة امرأة لم يمل له أبد» .

(٣) أوى المكان ، وأوى إليه يأوى أويًا : نزله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ..﴾ (٦٦) . [الكهف] أى : نزلوه والتجئوا إليه . [القاموس القويم]

(٤) ركن الشيء : جانبه الأخرى . وقوله تعالى : ﴿.. أَوْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٦٦) [مرد] أى : ألبأ إلى حصن قوى يحمينى ، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم كأنه ركن ممتنع حصين . [القاموس القويم ١/٢٧٦] .

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له : إن ركنك لشديد^(١) ؛ ولذلك قال :

﴿ .. أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٨٠) [هود]

والشيء الشديد هو المتجمع فجمعاً يصعب فصله ، أو المختلط اختلاطاً يمزج يصعب تحلله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء ؛ فلما أن تجمع أشياء أجناسها منفصلة ، ولكنك تربطها ربطاً قوياً ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة يرباط قوى ، لكن كليهما - المصلوب والشجرة - منفصل عن الآخر وله ذاته ، وهناك ما يُسمى خلطاً ، وهناك ما يُسمى مزجاً ، والخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء المترجة ببعضها .

ومثال ذلك : أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع خبثات من الفول السوداني ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض ؛ لأنك جمعتهما على استقلال . ولكن إن قُمتَ بعصر ليمون على كوب من الماء المحلى بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حله .

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في متعة من قومه ، أهل «سدوم» ويقال : إنها خمس قرى قريبة من «حمص» .

وقد تعجب رسول الله ﷺ من قول لوط ، فقال - فيما رواه البخاري - : «رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد»^(٢) .

فلهو ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى .

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٤٥٩) وعزاه لابن جرير الطبري عن وهب بن منبه . وركنه الشديد هنا هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٧٥ ، ٤٦٩٤) وأحمد في مسنده (٢/٣٢٦ ، ٣٢٢ ، ٣٥٠) وابن ماجه في سننه (١٠٢٦) من حديث أبي هريرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالته الملائكة للوط عليه السلام:

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
إِنْ مَّوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١)

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم .

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ .. ﴾ (٨١) فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسرى بأهله ليلاً أى : اخرج بأهلك فى جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال^(١) يقوم لوط هو الصبح :

﴿ .. إِنْ مَّوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١) [هود]

(١) القطع والقطعة : الجزء المقطوع . قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴾ (٨١) [هود] والقطع : جمع « قطعة » . وقوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَتَقَاتُوا فُتُورَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا .. ﴾ (٣٧) [يونس] قطعاً - بكسر القاف وفتح الطاء - ومظلماً : حال من الليل ، وقرئ « قطعاً » - بكسر القاف وسكون الطاء - أى : جزءاً ، وتعرب « مظلماً » - على هذه القراءة - نعتاً لقوله : « قطعاً » أو حالاً من الليل . [القاموس القويم ١٢٥/٢] .

(٢) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . قال تعالى : ﴿ فَآخِذْهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (٢٥) [النازعات] أى : عليه الله عذاباً شديداً بعد عبرة لغيره فى الدين والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٦) [البقرة] أى : جعلها الله - بالمذاب الشديد - عبرة لآمل زمانها ، ولن يأتى بعدها ، وللمتقين فى كل زمان . وقال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ .. ﴾ (٢٤) [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله تعالى لينعظ بها الناس . [القاموس القويم] .

لذلك قالوا:

[هود] ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ...﴾ (٨١)

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول وينتهي عند ربع الليل الأخير ، وقيل : إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف .

ثم يقول الحق سبحانه :

[هود] ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ^(١) مِنْكُمْ أَحَدٌ...﴾ (٨٢)

والالتفات : هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالتك ، ويسمى الانصراف عن المقابل . فهل المقصود هو الالتفات الحسى أم الالتفات المعنوى ؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه ؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألقوه من مقام ومن حياة ؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقلوا أنفسهم ، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم .

هذا هو المقصود بعدم الالتفات المعنوى ، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسى .

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه ؛ لأنها خاتنه بمولاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب .

(١) التفت الرجل : أمال وجهه ونظر بعمق أو يسرة ، أو انحرف ورجع عن وجهته . قال تعالى : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ...﴾ [هود] أى : لا يلتفت بعمق ولا يسرة ، ولا إلى الخلف ، فارجع وينصرف عن السير معك . [القاموس القويم ١٩٦/٢] .

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصه للوط ، وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت : وا قوماء ورجعت لتمكث معهم ، ولينالها العذاب الذي نالهم في الموعد الذي حددته الملائكة وهو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ^(٨١) أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود]

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالا .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مِّنْضُورٍ ^(٨٢) ﴾

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس : قرية «سدوم» وقرية «دادوما» وقرية «ضعوه» ، وقرية «عامورا» وقرية «قتم» .

وقوله تعالى :

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا .. ﴾ ^(٨٢) [هود]

أى : انقلبت انقلاباً تاماً ^(٨٣) .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) : «يحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع» .

(٢) السجّيل : الضيق المشحور . قال تعالى : ﴿ .. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مِّنْضُورٍ ﴾ ^(٨٢) [هود] ، [القاموس المقوم ١/ ٣٠٤] .

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) : «أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أداها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء تهيق حميرهم وصياح ديكهم ، لم تنكف لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم تكسروا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة» .

ويقول القرآن في موضع آخر :

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ ^(١) أَهْوَى ^(٢)﴾

[النجم]

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمد ، أى : قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك ^(٣) إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .

كذلك المؤتفكة ، أى : القرى التى جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع .

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجر .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى ^(٤) ﴿... حِجَارَةً مِّن طِينٍ ^(٥)﴾ [الذاريات]

وكلمة «حجارة» تعطى الإحساس بالصلابة ، أما كلمة «طين» فتعطى إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذى نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً ... أى : يتتابع فى نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

(١) المؤتفكة : القرى المقلبة عند خسفها . قال تعالى : ﴿وَأَمْحَاهُ بِغَمَامٍ مَّدِينٍ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ^(٢)﴾ [التوبة] من اللخسوفات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها ، وهى المؤتفكة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ^(٣)﴾ [النجم] أى : أسقطها وخسفها . [القاموس القويم] .

(٢) الإفك : الكذب ، وأماك : صيغة مبالغة أى : كثير الكذب ، قال تعالى : ﴿عَزَّزْنَا عَلَىٰ تَكْلِيفِهِمَ الشَّعْرَاءَ ^(٤)﴾ [الشعراء] . وقال لى سحرة فرعون : ﴿... فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ^(٥)﴾ [الأعراف] . أى : ما يكذبون ويدعون أنه حق ، وهذا يدل على أن السحر تخيل وإيهام ، وليس قليلاً لحقائق الأشياء ، فالحيل حيل والعيان عيان ، ولكن الساحر يرهى الناس أنه عمل شيئاً وهو لم يعمل شيئاً . [القاموس القويم] .

(٣) كان ذلك فى شأن قوم لوط أيضاً ، قال تعالى فيما قاله إبراهيم عليه السلام للملائكة المرسلين إليه : ﴿قَالَ فَمَا خَبَّكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ^(١)﴾ فَأَلَّا إِذَا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ^(٢) يُرْسِلُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ^(٣) مُّسَوِّتَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ^(٤)﴾ [الذاريات] .

﴿مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢)

وكلمة «مُسَوِّمَةٌ» أى: مُعلِّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذلك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى: الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهى مُرتِّبة ، لأن الحق سبحانه قال :

﴿.. سَجِيلٍ مُنْضُودٍ﴾ (٨٢) [هود]

ووردت كلمة (سجيل) أيضاً فى قول الحق سبحانه :

﴿.. طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ ﴿٤﴾﴾ [الفيل]

ويُنتهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿.. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢) [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تابعت فى الموكب الرسالى ونجاتها هو محمد ﷺ .

ونحن نعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسليّة وثباتاً ييقن لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ..﴾ (١٢٠) [هود]

(١) نضد الشيء بضمه: جعل بعضه فرق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام ، فهو منضود ونضيد ، أى: منظم . قال تعالى: ﴿وَالْحُلُوفَ أَلْبَسْتُمْ لَهَا ظِلْعًا نَضِيدًا﴾ (٥٠) [ق] أى: مرصوص بنظام . ومثله قوله تعالى: ﴿وَطَلْعَ مُنْضُودٍ﴾ (٦٥) [الرائدة] ، أما قوله تعالى: ﴿.. مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ﴾ (٨٢) [هود] أى: متابع منتظم السقوط عليهم . [القاموس المفهرس].

وتحكي القصص المآرك التي قامت بين كل رسول مُؤَيَّد بمعجزة من الله ، وبين المشكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المآرك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكَلِّفُوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ؛ فالسما هي التي تتدخل لتأديب المخالفين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ^(١) ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ^(١٠) الَّذِينَ ظَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ^(١٣) عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ^(١٤) ﴾ [الفجر]

(١) إرم : اسم قبيلة منها « عاد » ، وقيل : هي مدينة كبيرة لهم ، وزعم الكندي في كتابه « فضائل مصر » أنها مدينة الإسكندرية . وقوله تعالى : ﴿ .. ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر] يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/ ١٨] .

(٢) جابه بجويه جويًا : قطع . وقوله : ﴿ .. جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر] أي : قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم ، وحذفت ياء « الوادي » في رسم المصحف . [القاموس القويم ١/ ١٣٥] .

(٣) الأوتاد : جمع وتد . والوتد : قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت في الأرض ثم يشد بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد ، لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . قال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالُ أَوْتَادُ ^(٧) ﴾ [النبا] وقال أيضاً : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١١) ﴾ [الفجر] قيل : هم الجنود الذين يشنون ملكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعليمهم من الناس ، ولعل المراد بها الأهرام التي بناها فرعون ، تشبه الجبال . [القاموس القويم ٢/ ٣١٨] .

(٤) السوط : الجلد الذي يغرب به ، وسُمي سوطاً لأنه يخلط الدم باللحم . وقوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر] وعبر عن الضرب بالسوط بالفعل « صب » ليفيد دوام الألم وشموله ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صبا فأغرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيعمه . أو السوط : الخلط ، فالعذاب مختلط متنوع ، نصب عليهم من العذاب أخلاطاً متنوعاً . [القاموس القويم] .

(٥) المرصد : اسم مكان الرصد « كالمُرْصَد » . قال تعالى : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. (٥) ﴾ [التوبة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٥) ﴾ [النبا] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر] والمراد : أن الحق سبحانه رقيب عليهم ويحصى جميع ذنوبهم - مهما صغرت - ليعاقبهم عليها . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف .

ولكن الأمر يختلف بمجيء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذي تقوم عليه الساعة ، وقومه مأموثون على البلاغ عن الله تعالى بخلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ؛ لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ^(١) لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١١٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فكل واحد من أمة محمد ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إنساناً في الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبي الذي يملك القلوب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاقِعٌ ^(٢) نَفْسِكَ إِلَّا تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) إِنْ تَشَأْ نُثِرْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إذن : فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع .

(١) الوسط : مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به القوة وغيره ، بلطفه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١١٦) ﴾ [البقرة] . أي : أمة فاضلة خيرة ، خير الأمم ، فالوسط خير الطرفين ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (٢٢٠) ﴾ [آل عمران] .
(٢) باعج نفسه بخرعاً وبخرعاً : قتلها هماً وغبطاً وحرناً . قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاقِعٌ نَفْسِكَ إِلَّا تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) إِنْ تَشَأْ نُثِرْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء] . [القاموس القويم] .

وهكذا فَوُضِّتْ أمة محمد ﷺ تفويضين: فَوُضِّتْ في نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال ، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذي يليه .

وها هو ﷺ يقول: «نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها ، فربُّ مُبْلَغٍ أوعى من سامع»^(١) .

فَوُضِّتْ أمة محمد ﷺ في أن تقف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض الدين ولكن لتحمي حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفِعَ سيفٌ في الإسلام ليفرض ديناً ؛ بل رفع السيف ليحمي حرية اختيار الإنسان للدين .

يقول سبحانه :

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فلذا آمن فعلية الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعيب للدخول في الإسلام ، فمن أين يأتي ادعاء فرض الدين على المخالفين ؟

إذن: فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين: الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، والإيمان الثاني أن يبلغ الدعوة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «علماء أمي كأنبيا بني إسرائيل»^(٢) .

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط ؛ لا ، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة ، وينساح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والحميدي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٢) أورده السيوطي في الدور المنتثرة (٢٩٣) وقال : لا أصل له . قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٢٨٦) : قال ابن حجر والزرخشى : لا أصل له . وانظر كشف الخفاء للمجلوتى (٢/٨٣) .
ويؤخذ من الحديث أن توفّر من العلماء الصدق والأمانة في البلاغ والذكاء في العرض .

بالدعوة فى الأرض ليعلم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً فى اختيار الدين .

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ لآية قوة تحارب حرية اختيار الدين .

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت قواده ﷺ .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى ﷺ وهو فى مكة ، فصرخ بالدعوة ، لا فى أذان القبائل الواهية فى أطراف الجزيرة ، ولكن فى أذان سادة الجزيرة ، حتى لا يقال : إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به ، ولم يجرؤ على السادة ، وهم قريش ، التى أخذت السيادة بحكم إقامتها فى مكان البيت العتيق ، وكان كل العرب يحججون إلى البيت الحرام ، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء ، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحججون إلى البيت الحرام .

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت ،

إذن : فالبيت هو الذى صنع السيادة لقريش ، وهو الذى صنع السيادة للآلهة المدعاة من الأصنام حين يأتى كل قوم بالههم من الحجر ؛ ليضعوه فى البيت ؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت .

إذن : فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام ، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة ، وسقته^(١) أحلامهم ، ولم يُبالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة .

(١) سفهت الرجل : أى : رميته بالسفه ، ونسبت إلى الطيش والجهل ، وسفه نفسه : حملها على الجهل والطيش فكانت جعل نفسه سفهياً . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةٍ نَفْسَةٍ ﴾ . [البقرة : ١٢٠] . وسفه أحلامهم : اتهمهم بالسفه والجهل . والأحلام - هنا - هى العقول [القاموس القرين ١/ ٣١٧] .

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش في مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلم الدنيا كلها أن العصية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد .

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصرُوا الدعوة ؛ فكان الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصية لمحمد للحق الممثل فى رسالة محمد ، ولم تخلق العصية لمحمد إيماناً به وبرسالته .

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيّن لهم أن المكان الذى قُلِبَ عليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟ والظلم - كما نعلم - هو مجاوزة الحق للغير ، أى : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذى حق ، فإذا كان ظلماً فى الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً فى إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء فى الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم .

والله سبحانه يريد أن يذكر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجرى ، أو أمر الله حين يأتى ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرِضْتُمْ أَنْ يُنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِكُمْ الْعَذَابَ كَمَا أَنْزَلَ بِهَذِهِ الْقُرَى ؛ وهى غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها فى كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام^(١) .

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ لَمْ نَلَمَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٥٧) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (٥٨) إِلَّا عَجُوزًا مِّنَ الْفَاطِمِينَ (٥٩) ثُمَّ دَرَسْنَا الْآخَرِينَ (٦٠) وَإِنَّكُمْ لَمُتْرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ (٦١) وَبِالْبَلِيلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ [الصافات] .

إِذْ: فهي قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها:

﴿وَأَنَّهَا لَبِيبٌ مُّقِيمٌ (٧٦)﴾ [الحجر]

أى: بطريق تمرّون عليها ، لا يجرفها سيل ، ولا يغير معالمها ريح . بل هي طريق ثابتة مقيمة تمرّون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام ، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لقطة وعبرة ؛ حتى لا تقعوا فى ظلم آخر .

وقد نبهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ^(١) آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ^(٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ^(٣) (١٣٠)﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية ، وكأن من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم ، وأن تتبهاوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى .

(١) الربيع - بكسر الراء - : الجبل ، أو ما يشبهه من أنبىئى المرتفعة أو المكان المرتفع . قال تعالى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] . [القاموس القويم] .

(٢) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء] أى: آنية عالية وتصوراً منيعة تحسنون صلتها راجين أن تخلصوا إليها ، ولستم بخالدين . [القاموس القويم] .

(٣) بطش به بطشاً: أخذه بعنف وشدة . قال تعالى : ﴿إِنْ بَطَشَ ذَاكَ أَنفِدْنَاهُ (١٢)﴾ [البورج] . والجبر: القهر . وجبره وأكرهه على أمر . والجبار: صيغة مبالغة . والجبار من الناس : العانى المتعمد المسلط . وقال تعالى : ﴿قُلُوا يَا مُوسَى إِنَّ لَهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ . . (٢٦)﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿... وَحَآبٍ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِدٍ (٥٠)﴾ [إبراهيم] . [القاموس القويم ١/ ٧٢] يتصرف .

ويلفتنهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام .

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

[الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحول الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول .

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش :

(١) كيدهم : سعيهم لتخريب الكعبة . تضليل : تضيق وإبطان وخسار . طيراً أبابيل : جماعات متفرقة متتابعة . سجيل : طين متحجر محرق (أجر) . كعصف مأكول : كبن أكلته الدواب فرائته . [كلمات القرآن - للشيع حسين مخلوق] .

﴿لَا إِلَافَ ۚ قُرَيْشٍ ۚ﴾ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴿[قُرَيْشٍ]

إذن: كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة ، وأنهم - وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهي سر معاشهم - إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقتربون ظلماً جديداً آخر .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢) ﴾ [هود]

أو : أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذي نزل بهؤلاء القوم المشركين ، ليس يبعد أن يصيب قريشاً ، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوماً يصيبه في مكانه الذي يكون فيه .

والسطحيون - في اللغة - يخطئون فيأخذون على القرآن مأخذ ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة في اللغة ، ويقولون: كيف يقول الله :

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢) ﴾ [هود]

وكلمة «ما هي» مؤنثة ، وتقتضى أن يقول: «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد» ، أى: أن يكون القول: «وما هي من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى ، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة ، لأن «فعليل» إن جاءت بمعنى «مفعول» ، فهذا يستوى المذكر والمؤنث .

(١) لا إلاف قريش: اصحبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت [كلمات القرآن].

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ^(١) ﴾ (٤)

[التحريم]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ ^(٢) مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦)

[الأعراف]

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذي جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التي جاء بها الله فى هذه السورة لموكب الرسل ، فيأتى بقصة شعيب عليه السلام ، ويقول سبحانه :

﴿ وَإِن مَدِينٌ أَخَاهُ شُعَيْبٌ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنفَعُ صُورَ الْمَكِّيَالِ ^(٣) وَالْمِيزَانُ إِنِّي أَنزِلُكُمْ بِخَبِيرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ^(٤) ﴾ (٨٢)

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يماونه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ^(١) ﴾ [سبا] وقال تعالى : ﴿ .. وَلَوْ كَانُوا يَفْقَهُمْ ظُهِيراً ^(٢) ﴾ [الاسراء] أى : معينا مساعداً . وقال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ^(٣) ﴾ [الفرقان] أى : معاوناً أعداء الله ضد الله وضد كتبه وضد رسله - وتعالى الله عما يفعلون . [القاموس القويم ١/ ٤١٨] .

(٢) قرب الشيء من الشيء ، يقرب قريباً : دنا منه فهو قريب قريب مسافة ، فيستوى فيه للمذكر والمؤنث ، قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ^(١) ﴾ [الأعراف] أى : مكانها قريب منهم ، وأما قرابة النسب فتطابق الموصوف فتقول : هو قريب لى وهى قريبة لى فى النسب والرحم . [القاموس القويم ٢/ ١٠٨] .

(٣) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٤) : «فى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما : أنهم بنو مدين بن إبراهيم ، فقبل : مدين ، والمراد بنو مدين . كما يقال مضر والمراد بنو مضر .

الثانى : أنه اسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا يتصرف ملين لأنه اسم مدينة» .

(٤) كان القمح يكيله كيلاً : قدره بمكيال ، وهو وعاء له سعة معلومة اتفق الناس على التقدير به . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنتُمْ ^(١) ﴾ [الاسراء] والمكيال : مصدر «كال» ، ويطلق على المكيال . والمكيال يستخدم لكيال الحبوب .. وإذا نقص المكيال نقص ما يكال به ، فإله سبحانه وتعالى يهى عن أن ينقص المؤمن شيئاً عما يبيعه للناس ، أو ما يكيله لهم . [القاموس القويم ٢/ ١٨٢] يتصرف . وجمع مكيال : مكايل . وجمع كيل : أكيال . والكيلة : وعاء يكال به الحبوب ومقداره الآن ثمانية أقداح ، والجمع : كيالات . [المعجم الوسيط] .

(٥) يوم محيط : مهلك . [كلمات القرآن] .

و«مدين» هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التي تناسلت منه سُميت باسمه ، وكذلك القرية التي أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ، لأن القرية لا بد لها من سكان .

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

والمقصود «أسأل أهل القرية»^(١) .

إذن : مرة يطلق الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين . وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك في كل الرسالات .

والحق سبحانه يقول :

﴿شَرَعَ^(٢) لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي^(٣) إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ [الشورى]

إذن : فحمة الدين هي قضية العقيدة الإيمانية ، وهي عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية «افعل»

(١) الآية فيها مجاز بالحذف ، وهو أحد فنون البلاغة .

(٢) شرع الشيء : بينه وأوضحه . والشرعة والشريعة : ما شرعه الله ويُنه من المنائد والأحكام . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الاجتهاد : الاختيار والاستخلاص والاصطفاء . [القاموس القويم ١/ ١١٧] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٥٩٧﴾

و «لا تفعل» فالله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذى لا يؤمن به ، فالله سبحانه لا يوجه إليه أى حكم .

ولذلك تجد حيثية كل حكم تكليفى فى القرآن مُصدراً بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

سواء أكان الأمر صيماً^(١) ، أم قصاصاً^(٢) ، ففى كل تكليف يُصدر بهذا القول ، لا بد أن يأتى المعنى : يا من آمنتم بى إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع منى التكليف .

ولذلك أقول دائماً :

إن علة كل تكليف هى الإيمان بالملكف ، ولا داعى للبحث عن علة أخرى .

فمثلاً حين يُقال : إن علة الوضوء النظافة ، نقول : وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم نلمس وجوهنا فى التيمم^(٣) .

إذن : فالقصد هو أن نتهياً للصلاة بأى شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للخالق سبحانه وتعالى .

وياك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره ؛ لأن مبرره هو صدوره عن الله سبحانه وتعالى .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [البقرة] .

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى لِمَن عَلَى لَه مِن أَجْبِه شَيْءٌ فَلْيَتَّعِ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ لِّمَن اتَّعَدَى بِغَدِّ ذَلِكَ فَهُوَ عِقَابٌ أَلِيمٌ (٢١٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١٩)﴾ [البقرة] .

(٣) التيمم لغة : التمسد ، وشرعاً : هو طهارة تراهية تقوم مقام الماتية عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، ويصح إلى تسمة أشخاص : فاقط الماء الكافى ، وفاقد القدرة على استعماله ، والخائف حدوث مرض أو زيادته ، وتأخر بره ، وعطش محترم ، والخائف مع تلف حال ذى يال . الشرح الصغير للدرديرى ج١ يقول سبحانه : ﴿... وَإِن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)﴾ [النساء] .

وكذلك كل شيء يقوله رسول الله ﷺ فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها ؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم في القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى في تكليفه .
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ ۝٨٤ ﴾ [هود]

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة في الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هي الأركان الأساسية^(١) التي يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف^(٢) ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلت صنعة من صانع فعلى ولى الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة .

(١) من ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٨) وكذا مسلم (١٦) .

(٢) التكاليف تنحصر في الأمر والنهي . والأمر تأخذ منه الفرض والواجب والسنة والمستحب ، سواء كان تعديداً أو اجتماعياً ، والنهي تأخذ منه الحرام والمكروه ، وعلى اتباع الأمر واجتناب النهي يكون للمجتمع الصالح بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۖ ۝٧٧ ﴾ [الحشر] وتروى تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَاوْا ۖ ۝٣٥ ﴾ [فصلت] .

وقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. ﴾ (٨٤)

[مورد]

أى : إياك أن تأخذ حكماً تكليفاً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى ،
لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وإياك أن تستدرك^(١) من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى ، وتظلم
نفسك وتقول : « لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم ، ولنا نأى لأنفسنا
بحكم جديد^(٢) » .

إياك أن تستدرك حكماً على الله . افهم الحكم أولاً ، فإن جاء حكماً
محكماً فخذ ، وإن كان غير محكم بأن جاء مجملاً ، أو غير مبين ،
فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل .

ولذلك نحمد رسول الله ﷺ يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال :
« كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال :
فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم
يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، قال : فضرب
رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ
لما يرضى رسول الله ﷺ »^(٣) .

ويعد أن دعا شعيب - عليه السلام - آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده ، وهذا هو
الأمر المشترك بين جميع الرسل - عليهم السلام - ثأنى الأحكام الأخرى ،

(١) استدرك ما فات : تداركه . واستدرك الشيء بالشيء : تداركه به . واستدرك عليه القول : أصلح خطئه ،
أو أكمل نقصه ، أو أزال عنه لبساً . [المعجم الوسيط] .

(٢) يقول الحق : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. ﴾ (٣) [المائدة] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٠ / ٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٢٥٩٢) كتاب الأنفسيه من
حديث معاذ بن جبل .

فمن يعمل فاحشة له علاجه ، ومن ينقص في الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر .

لأن العالم القديم كان عالم انعزال ، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وآفة في مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة في مكان آخر .

وكل رسول يأتي ليعالج عيباً محدداً في المكان الذي أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً ﷺ جاء - وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين - جاء ﷺ والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيمانى ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث في عصرنا الآن بقارة أمريكا نجد عندنا في نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد ﷺ هو خاتم الرسل .

وكانت خيبة آل مدين هي عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيصة التطفيف^(١) في الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ ۖ ۝٨٤ ﴾ [مود]

وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون^(٢) ، لأنه لو شاء لقال : «ولا تنقصوا المكيل أو الموزون» هذا

(١) طقف الكيل : طول أعلاه وجعل له طغافوته ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه ، ليمتص الحَب الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه في إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . قال نهالى : ﴿ وَقِيلَ لِلْمُظَلِّينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [الطائفين] فهم مظفون في الحالتين لأنهم يأخذون أكثر من حقهم ويسلمون غيرهم حقه ناقصاً . [القاموس القويم ٤٠٣/١] .

(٢) الكيل : اسم مفعول من (كال) ، وهو كل شيء يكال بالمكيال سواء كان تمحاً أو غيره . واسم الفاعل : «كائل» . والموزون : اسم مفعول من (وزن) وهو كل شيء يوزن بالميزان . واسم الفاعل : «وازن» .

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذي حق حقه ، أن يأخذ المشتري حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه في الربح .

إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشتري معاً^(١) .

والكيل - كما نعرف - هو تعديل شيء بشيء ، فإن كان في الخفة والثقل ، فالأمر يحتاج إلى ميزان ، وإن كان تعديل شيء بشيء في الكم ، فهذا يحتاج إلى الكيل ، وهذا هو الأمر المشهور في الكيل والميزان ، وأي تعديل شيء بشيء يحتاج إلى ما يناسبه ، فالقمماش مثلاً - يتم تعديله بالمتري ، والأرض يتم تعديلها بالمساحة ؛ أي : قياس الطول والعرض ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم ، وهذا يعني قياس الطول والعرض والارتفاع واستخراج الناتج بعملية ضرب كل منهم في الآخر .

إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً ، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذي حق حقه .

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمر أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ، كزهد من أكلت حقوقهم في العمل .

وأنت حين تعطى للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يبطئ في العمل ، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .

ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذي حق حقه يزيد من جودة الأداء في العمل .

(١) كما يفهم من مراد الشيخ أن إعطاء الحقوق هو التوازن لميزان الحياة .

وعليها أن نترك صاحب الطموح ليعمل ؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكتزّه ؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم - حتى وإن كان لا يفكر في ذلك - فالذي يبني عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجي المواد اللازمة للبناء - دون أن يقصد - ومستنفع العامل الفقير - دون أن يقصد صاحب العمل - وربما انتفع كل الفقراء بما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل .

إذن : فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه ؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»^(١) .

وهكذا نعلم أن الدين في ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفي واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذي يؤثر^(٢) غيره على نفسه - ولو كان به خصاصة^(٣) - لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد أثر الآخر على نفسه في ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى^(٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال أبو حمير في زوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان . وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبراني في معجمه الصغير (٢٠ / ١) من حديث جابر ، وأبو نعيم في الحلية (١٤٦ / ٧) من حديث أبي هريرة . فهو مجموع هذه الطرق وأثرها يروى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل في صحيح البخاري عن أبي هريرة - كتاب البيوع .

(٢) أثره : اختاره وفضله . قال تعالى : ﴿ قَالُوا قَالَهُ تَفَدَّ أَثَرُ اللَّهِ عَلَيْنَا .. ﴾ (٥٦) ﴿ [يوسف] وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ تَزْكُرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [الأعلى] أي : تفضلونها على الآخرة . وقال تعالى : ﴿ وَتَزْكُرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتُؤْتُونَ بِهِمْ خَصَاصَةً .. ﴾ (٩) ﴿ [الحشر] أي : يفضلون غيرهم على أنفسهم كرماء ومروءة وتقوى . [القاموس القويم ٧ / ١] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . وأصل ذلك من الفرجة أو الحلة لأن الشيء إذا انفرج وهى واختل [لسان العرب : مادة خصص] .

(٤) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْثَتْ سَبْعَ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مَائَةً حَبَّةً وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٤) ﴿ [البقرة] .

وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهى النفعية التى يعاملنا بها الله سبحانه ، وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سبولة الانتفاع فى المجتمع .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرننا عنها عرفنا أن شعباً قال لأهل مدين :

﴿ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُمْ بِخَيْرٍ ۖ ۞ (٨٤) ﴾ [هود]

أى : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشتري إنما يملك نقوداً ، فاكثفوا بالخير الذى عندكم ، وليأخذ كل ذى حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ؛ فالذى يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش فى الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره فى الأصناف الأخرى التى تلزمه لحياته .

وإن اشتغل واحد فى إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك فى كل ما يخص حياته ؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقى مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب عليه السلام : ما الذى يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير ؟ ثم يقول محذراً :

﴿ ۞ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ ۖ يَوْمٌ مُحِيطٌ ۖ ۞ (٨٥) ﴾ [هود]

لأنك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشتري ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك .

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشتري ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشتري فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/٣٤٠٥) : اختلف فى ذلك العذاب فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة . وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا . وقيل : فلاه السعر .

يحاول المشتري أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة في البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأي شيء مهما كثر ، فهو موقوت بعمر الإنسان في الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذي يغش ويخدع إنما يُعرض نفسه لعذاب الله سبحانه في الآخرة ^(١) ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلّم الإنسان نفسه لفائدة قليلة في الدنيا الزائلة ، ثم يلقي عذاباً لا ينتهى في آخرة غير زائلة .

والعذاب في الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت في الدنيا بإمكانك أن تَحْتال في النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك في الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة ^(٢) ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

وَيَقُولُوا أَتَوْا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ^(٣)

(١) وهناك عذاب آخر في الدنيا جاءت به أحاديث رسول الله ﷺ ، فقد أورد القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٠٥) عن رسول الله ﷺ : « ما أظهر قوم البخس في الكيال والميزان إلا ابتلاه الله بالقسط والغلاء » .

(٢) الخلّة : الصداقة الخالصة المثينة التي تخللت القلب ، وجمعها : خلالات . [القاموس القويم] . وقال تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ لِيهِ وَلَا يَشْتَرِي فِيهِ خِلَالٌ ﴾ [إبراهيم] .

(٣) بالقسط : بالعدل ، بلا زيادة ولا نقصان .

لا تبخسوا : لا تنقصوا .

لا تعثوا : لا تفسدوا أشد الإنساد . [كلمات القرآن] . والعثر في الأرض هو الإتلاف والإضرار .

وفى الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ (٨٤)﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص فى الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشتري .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين]

ذلك لأن البائع قد يقول لك : أنت مأمون فزن أنت لنفسك أو كل أنت لنفسك ، وقد تخذع البائع فتأخذ أكثر من حقتك ؛ وقد يفعل البائع عكس ذلك ، وفى مثل هذا يؤس للثنين .

وهنا يقول شعيب عليه السلام :

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ (٨٥)﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ۚ (٨٦)﴾ [هود]

(١) ويل : عذاب أو هلاك أو وادى جهنم . للمطففين : المنقصين فى الكيل أو الوزن .
اكتالوا : اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن . يستوفون : يأخذون حقهم كاملاً .
كالوهم : أعطوا غيرهم الوزن . وزنوهم : أعطوا غيرهم الوزن .
بخسرون : ينقصون الكيل والوزن . [كلمات القرآن] بتصرف .

وهذا كلام عام لا ينحصر في مكيل أو موزون ، فقد يأتى مشتر ليخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطف ما ليس حقاً له ، أو يفتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور نعنى : أخذ غير حق بوسائل متعددة .

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعنى أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجرى ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشيء ، لكن المغتصب يأخذ الشيء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شيء فاختمسه ، والمرتشى هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هي حق لمن يطلبها .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ.. (٨٥)﴾

[هود]

تضم أشياء متعددة .

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كم ، أو كيف .

وكلمة «أشياء» مفردتها : «شيء» ، ويقولون عن الشيء : «جنس الأجناس» فالشجرة يقال لها : «شيء» ، وكل الثمر يقال له : «شيء» .

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا نغرنا أى شيء مهما كان قليلاً .

ونحن نلاحظ هنا أن كلمة «الناس» جمع ، وكلمة «أشياءهم» جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع افتضت القسمة أحاداً . أى : لا تبخس الفرد شيئاً ، وإن قل .

ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطية^(١) من خان^(٢) ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذي يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها . فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؟ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصل بها إلى مكان في اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقي مع صاحبها أن أبحث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس في ذلك الزمان يجفون الخبز الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المكتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار . ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوم^(٣) فقال صاحب الجدار : والله لورعك^(٤) لا أقوم ، أي : أنه قد تسامح في هذا الأمر .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٥٥) [هود]

(١) المطية من الدواب : ما يُستطى أي : يُركب [تذكر وتوت] فالبعير مطية ، والناقة مطية . والجمع : مطايا ، ومطى . [المعجم الوسيط] .

(٢) الخان : الخجر ، أو الخانوت ، وقد تطلق على الفندق ، أو الأمير ، أو غيره . وهي كلمة معربة . [المعجم الوسيط] .

(٣) التقويم هنا ممتد : تقدير ثمة ليشره منه . والقيمة : ثمن الشيء بالتقويم . ويقال : كم فامت ناقتك ؟ أي : كم بلغت ؟ [انظر لسان العرب - مادة قوم] .

(٤) الورع : انقضاء الشبهات ، ولا يتم الورع إلا بحفظ اللسان واجتناب سوء الظن واجتناب السخرية وغض البصر عن المحارم وصدق اللسان والاعتراف بمخز أنه وإنفاق المال في الحق ، وترك الكثير والمحافظة على التكاليف والاستقامة ، الغبة للجيلاني ص ١٣٤ يتصرف .

وكلمة عشا^(١)، يَعْشَى، ويعشوا، وعشى. يعشى؛ كلها تعنى: زاول فساداً، أى: أن يعمد الإنسان إلى الصالح فى ذاته فيفسده، مثل طمر بشر ماء، أو حفر طريق يسير فيه الناس، وهو كل أمر يخرج الصالح - فى ذاته - عن صلاحه.

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاوله الفساد، ولو طبق كل واحد ذلك لصار المجتمع كله صالحاً، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيره غير مفسد، ولكنه هو نفسه يفسد، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(٢)﴾

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ^(٣) ﴿٨١﴾

أى: ما يبقى لكم من الأمر اخلال خير لكم؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطئ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه.

وأنت تسمع من يقول: «فلان هذا إنما يحيا فى بركة»، أى: أن دخله قليل، ولكن حالته طيبة، ويربى أولاده بيسر، على عكس إنسان آخر قد يكون غنياً من غير حلال، لكنه يحيا فى ضنك^(٤) العيش.

(١) عشا يعشو ويعشى، وعشى يعش، عشوا وعشياً: أفسد أشد الإفساد. قال تعالى: ﴿... وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ الْمُقْسِدِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [هود] ومفسدين حال مؤكدة لمعنى تعشوا، [القاموس القويم ٧/٢].

(٢) البقية: ما يبقى من الشيء أو ما استبقى أن يبقى لما فيه من النفع والخير للناس. وتطلق البقية على الشيء الباقي. قال تعالى: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ...﴾ ﴿٨١﴾ [هود] أى: ما أبقاء الله وأخبره لكم من الثواب خير. [القاموس القويم ١/٧٩].

(٣) حفيظ: رقيب عليكم ويجازيكم بأعمالكم. [كلمات القرآن] بتصرف.

(٤) ضنك الشيء: ضائق. والضنك: الضيق من كل شيء وهو مصدر يوصف به؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً...﴾ ﴿٦١﴾ [طه] أى: ضيقة غير متسعة. [القاموس القويم ١/٣٩٥].

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جرّأ عليه مصارف سوء متعددة .

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً^(١) .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَفِيتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ .. ﴾ (٨٦) [هود]

أى : أن الله تعالى يُذهب - عمن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء .
وسبق أن قلنا قديماً : فلنتظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ، لأن الناس في غاليبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذي جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يراعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء^(٢) .

ومن يُربون أولادهم من سُحت^(٣) أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ، لأن هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً . فتجد - على سبيل المثال - ابن المرتشى يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المتضبط والملتزم بتحصيل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥) [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. ﴾ (١٣٣) [النساء] ، ويقول عن وجل : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يُخَادِعُوا اللَّهَ فَالْإِنِّ حَسْبُكَ اللَّهُ .. ﴾ (١٦) [الأنفال] .

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى ﴾ (١٧٤) قال رب لم حكرتني أعنى وقد كنت بصيراً (١٧٥) قال كذلك أتتك آباءنا فآسفينا وكذلك اليوم نسئ (١٧٦) [طه] .

(٣) السحت : المال الذى يكسب من وجه حرام كالرشوة وما أخذ بالفسخ والخداع . قال تعالى : ﴿ سَخِرُونْ لِكُذِّبِ أَكْأَلُونَ لِسُحْتٍ .. ﴾ (١١) [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ إِلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْثُهُمْ السُّعْتُ .. ﴾ (٣١) [المائدة] . [القاموس القويم] يتصرف .

الكسب الحلال مقبل على العلم ونجاح . أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أى شيء ، بل تطمع فى المزيد دائماً ، بينما يعطى الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيوم ؛ فلا تأخذ حقاً غير حقك ؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَمَا آتَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن شعبياً عليه السلام قد أوضح لأهل مدين : أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمتعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ بَقِيَّتُ^(١) اللَّهُ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة .

وهذه هى فائدة الإيمان : ما يأمر به وما ينهى عنه .

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى ؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته . . أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية .

(١) جاءت التاء فى (بقيت) فى رسم القرآن مفتوحة التاء ، قال الزركشى فى «البرهان ١/ ٤٩٣ : «مدت نازده ، لأنه بمعنى ما يبقى فى أموالهم من الربح المحسوس» لأن الخطاب إنما هو إليها من جهة الملك» .

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
وَلَا تَتَّقُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَقْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة في المجتمع كله ،
والمجتمع إن لم تُصنَّ حركته يفسد ؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه
حركة تكاملية ، لا تكرار فيها ؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى
مواهب غيره .

والمصلحة العامة تقتضى أن يحتاج كل إنسان إلى مواهب الآخر ، فمن
يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكتسب الشارح ، ومن يعالج الناس
ليشفهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجارى .
وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَا أَنتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾

(١) الحليم . من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٧٢) ﴾ [البقرة] ووصف الله
خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِهٌ ﴾ [هود] وأما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ
لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم
شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ١٧٠] .

أى: أيا مارك إلهك ودينك أن تترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولفائل أن يقول: ولماذا قالوا: «أصلاتك» ؟

نقول: لأن الإسلام بُنى على خمس^(١): أولها شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ويكفى أن يقولها الإنسان مرة واحدة فى حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكى به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة فى حياته ، ولا يبقى فى أركان الدين إلا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها: «عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين»^(٢) ؛ لأنها الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً فى الولاء لله .

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أى إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛^(٣) فله أن يصلى بزموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك زموش عينيه فليجبر الصلاة على قلبه ، حتى فى حالة الحرب والمسايفة^(٤)

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخرجه للإحياء (١/ ١٤٧) : «رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث حماد . وقال الملا على القارى فى الأسرار المرفوعة (حديث ٥٧٨) : «قال ابن الصلاح فى «مشكل الرسيطة» : إنه غير معروف . وقال التروى فى التقيق: إنه مشكور باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ج ٢٧٩) .

(٣) من حصل له عذر من مرض ونحوه لا يستطيع معه القيام فى الفرض يجوز له أن يصلى قاعداً ، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه يومئذ بالركوع والسجود . راجع فقه السنة (١/ ٢٣٤) .

(٤) إذا اشتد الحرف والتحمت المعروف صلى كل واحد حسب استطاعته واجلاً أو راكباً مستقبلاً أقبلة أو غير مستقبلها يومئذ بالركوع والسجود كيفما أمكن ، ويجعل السجود أخفض من الركوع ويسقط عنه من الأركان ما عجز عنه . [فقه السنة - ١/ ٢٦٠] .

فالإنسان المسلم يصلى صلاة الخوف^(١).

إذن: فالصلاة هي الركن الذى لا يسقط أبداً، ويكرر في اليوم خمس مرات، وقد أعطاها الحق سبحانه في التشريع ما يناسبها من الأهمية.

وكل تكليفات الإسلام جاءت بوحي من الله سبحانه وتعالى، فجبريل عليه السلام يحمل الروحى إلى الرسول ﷺ، ويبلغنا الرسول ﷺ إياه، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلف بها النبي ﷺ فى أثناء وجوده فى الملأ الأعلى، عند سكرة المنتهى^(٢)، وذلك لفرط أهميتها.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الرئيس فى أى موقع من مواقع العمل، وهو يستقبل البريد اليومى المتعلق بالعمل، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقتراح بخصوصه اقتراحاً، وإذا وجد الرئيس أمراً مهماً قادماً من أعلى المستويات، فهو يستدعى الموظف المختص، ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها، وإذا كان هذا يحدث فى الأمور البشرية، فما بالناس بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة - لأهميته - هو التكليف الوحيد الذى نال تلك المنزلة، لأنها الركن الذى يتكرر خمس مرات فى اليوم الواحد، ولا متاخص^(٣) منه.

(١) ثبت صلاة الخوف بكتاب الله، فقال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ لَهُمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ إِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلِبُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِنَتِكُمْ فَيُجِبُوكُمْ عَلَيْهِمْ مِثْلَ بَاحِيَةٍ...﴾ [النساء: ١٠٤] قال الإمام أحمد: أثبت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز. وذكر الشيخ السيد سابق ست كفيات لصلاة الخوف فى فقه السنة (١/ ٢٠٨ - ٢١٠) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣).

(٢) فرضت الصلاة مباشرة ليلة الإسراء والمعراج لشرفها، ولأنها جماع العبادات، ففيها الشهادة والزكاة والصوم والحج، لذلك لم تسقط عن المكلف. من مفهوم خواطر الشيخ.

(٣) لا متاخص: لا يد ولا يهرب. وناسخ، ينقض: فرهاوياً. وناسخ من المكروه: نجاة منه وخلص. قال تعالى: ﴿...وَلَا تَجِدُ حِينَ مَنَاصٍ...﴾ [ص: ١٠٠] أى: ليس الحين حين فرار وهروب من العذاب المحيط بهم، أو ليس الحين حين نجاة وخلص من العذاب. [القاموس القويم] بتصرف.

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها في كل صلاة .

وفي الزكاة تضحى ببعض المال ؛ وأنت لم تولد ومعك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت في بطن أمك ؛ ولا بد أن تزكى من مالك ؛ والمال لا يأتي إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت في الصلاة تضحى بالوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة .

وفي الصيام أنت تمتنع عن شهوتي البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة ؛ أما في الصلاة فأنت تصوم عن شهوتي الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك في الصيام .

وفي الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت في كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام .

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام في الصلاة .

وأهل مدين هنا - في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواتمها - قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فعل كفار قريش مع رسول الله ﷺ .

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام :

﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. ﴾ (٨٧)

[هود]

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتهمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم - كفار قريش - يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى .

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ^(١) وَالْمُنْكَرِ^(٢)﴾ [المنكرات]

إذن: فللصلاة^(٣) أمر، وللصلاة نهى، وما دام قد ثبت لشيء حكم؛ ثبت له مقابله، وأنت تسمع من يقول لآخر: أنت تصلى لذلك فأنا أثق في أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله: كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة؟^(٤)

وكثير من الناس يتفكرون عن أن التقابل في الجهات إنما يحل مشاكل متعددة؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى.

ولذلك أقول: ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير^(٥).

ومثال آخر: مجده في قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون:

﴿فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ^(٦)﴾ [الدخان]

(١) الفحشاء: الفحش هو العمل القبيح المنكر. قال تعالى: ﴿الظُّلُمَاتُ يَمُدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ...﴾ (٢٤٥) [البقرة] أي: يأمركم باليخل أو فعل القبيح - عامة - ومنه البخل. والفاحشة: الفعلة القبيحة. والقواحش: الأمور القبيحة. وقد فحش وفحش فحشاً فهو فاحش: أي: جاوز الحد، وفعل القبيح. [القاموس القويم ٧٣/٢].

(٢) لأن الصلاة فعلت استجابة لأمر الأمر، وهي تشمل على آيات القرآن الكريم، والآيات إما آيات أمر، وإما آيات نهي، وما فيها من إحرام وركوع وسجود يدل على استقبالها بقلب منيب في استجابة خاشعة، فكل ما فيها هو نافع لك أمراً لو نهياً؛ لذلك كانت الصلاة مدرسة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً» أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٥٤/١١) وعزه ابن كثير لابن أبي حاتم في تفسيره، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٢) وقال: فيه نيت بن أبي سليم ثقة مدلس.

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن قلاتاً يصلى بالليل، فإذا أصبح سرق. قال: «إنه سينهاه ما تقول». أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٢) والبيهقي (٣٤٦/١) - كشف الأستار وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمان). قال الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٢): «رجاله رجال الصحيح».

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففي المقابل فلا بد أنها تبكى على قوم آخرين^(١) ؛ لأن السموات والأرض من المسخرات للتسييح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .. ﴾ (٧٧)

[الأحزاب]

وبهذا القول اختسارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبحة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴾ (١٤٤)

[الإسراء]

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسَبِّحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً ، معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبك على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكى إلا على المهديين .

وقد حلّ لنا الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - هذه المسألة ؛ فقال : « إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في الأرض ، وموضع

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكى عليه وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ .. » [البدخان] - وذكر - أنهم لم يكونوا يعملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد

لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتقعدهم فتبكي عليهم .
(٢) الأمانة : مصدر آمن فهر أمين ، « تطلق الأمانة على الرديعة نفسها . قال تعالى : ﴿ إِنْ أَلَّفْتُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَعْيُنِهَا .. ﴾ [النساء] أي : الودائع . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [الأحزاب] فالأمانة هنا مستعارة للتكاليف الشرعية من أوامر ونواه وأحكام وعقائد وعبادات وأخلاق . [القاموس القويم ١/٣٥] .

(٣) إن - هنا - نافية بمعنى «ما» أو «ليس» . أي : ما من شيء خلقه الله إلا يسبح بحمد الله تعالى .

فى السماء ، أما موضعه الذى فى الأرض ؛ فمصلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله ^(١) .

لأن موضعه الذى كان يصلى فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلى فيه ، وأما موضعه الذى كان يصعد منه عمله ؛ فيقتقد رائحة عبور العمل الصالح .

فإن أردت بالصلاة الدين ؛ وهى رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين ، وهى الأمر بالإيمان الحق ، لأن الإيمان المقلد لا نفع له .

إذن : فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا :

﴿ أَصْلَاتُكَ فَأَمْرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألا يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألا ينقصوا الكيل والميزان ؛ وألا يخسوا ^(٢) الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبنى عند الله هو الخير لهم ، وألا يعثوا ^(٣) فى الأرض مفسدين .

وقالوا : أتنهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل تبنى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شيء ما سألتنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عباد إلا له مُصَلًى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا يصل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا يَكُنْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْقَرِينَ ﴾ [الدخان] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [هود] . [القاموس القويم ١/٥٦] .

(٣) عثا يعثو : أفسد أشد الإفساد . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَقُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٦١) [البقرة] ، تكونهم لا يوفون المكيال ولا الميزان بل يخسروته ، ويخسبون الناس أشياءهم هذا هو قمة الإفساد فى الأرض .

فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ ومستصطلم المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧) [هود]

استمرار في التهم الذي بدءوه بقولهم :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

مثلهم في ذلك مثل منافق المدينة الذين قالوا للأنصار :

﴿ لَا تَنَافِقُوا عَلَيَّ مَنْ (١) عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْقَضُوا (٢) .. ﴾ (٧) [المنافقون]

وكانوا يريدون أن يضربوا المواخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا : ﴿ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ تهكماً ؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم - أيضاً - مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفاحشة ؛ فقالوا تهكماً منه وعن آمن معه :

﴿ .. أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ (٣) ﴾ (٨٢) [الأعراف]

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع في حياتنا من يقول : « لا تستعن بفلان لأنه حنبلي » .

(١) المقصود بهم : المهاجرون الذين كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهم وبين الأنصار بعد قدومه إلى المدينة ، وكان زعيم هذه المفاة هو عبد الله بن أبي بن مسلول ، وكان من مقتضى هذه المواخاة أن يشارك المهاجر الأنصاري في ماله وداره ، بل إن بعض الأنصار وصل به الأمر أن عرض أن يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المهاجري . انظر كتب السيرة وتفسير ابن كثير (٤ / ٣٧٠) .

(٢) أي : حتى ينقضوا من حول رسول الله ﷺ وينصرفوا عنه . يقال : انقضت الناس : تفرقوا وانصرفوا . [راجع القاموس القويم ٢ / ٨٤] .

(٣) قال مجاهد : أي : إنهم ينظفرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . قالوا هذا استهزاء بهم . وقال قتادة : عابوهم بغير عيب ، وذموهم بغير ذم . انظر : الدر المنثور للسيوطي (٣ / ٤٩٦) .

هم - إذن - قد قالوا:

﴿.. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾ [هود]

وهذا منطق السخرية منه ؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله ؛ ولم يوافقهم على إنقاص الكيل والميزان ؛ ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم .

وإذا قيل حُكْمٌ وهو حق ؛ ويقولونه من لا يؤمن به ؛ فهو يقصد به الهُزء والسخرية .

وهو لون من التهكم جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن نجبر وطغى في الدنيا ؛ ويلقى عذاب السعير في الآخرة :

﴿ذُقْ^(١) إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَسْتَغْفِرُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ^(٢).. (٦٩)﴾ [الكهف]

(١) ذاق الشيء بذوقه ذوقاً وذواقاً : أدرك طعمه في فمه وتستعمل مجازاً في الإحساس العام ، كقول تعالى : ﴿لِيَذُقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء] ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْعَذَابِ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ .. (١٢٢)﴾ [الأعراف] . القاموس القويم ص ٢٤٧ ج ١ .

(٢) استغاث : طلب العوث والمساعدة ؛ واستغاث فلاناً واستغاث به : استنصره واستعان به . قال تعالى : ﴿لَاَسْتَغَاثُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ .. (٥٥)﴾ [القصص] أي : استنصره . وغاثه الله بغوثه غوثاً : نصره وأعانه . وأغاثه ، وغاثه : نصره وأعانه . والمهلي (بضم الميم) : المعدن المذاب ، والقطران ، وعكر الزيت المغلي ، وانقيح . قال تعالى : ﴿وَلَا يَسْتَغْفِرُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٦٩)﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢ / ٦٢] .

وفى كُلٍّ مِنَ الْقَوْلِينَ تَهْكُمْ وَسَخِرِيَّةٌ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ
بَصْدَةٌ خَوَاطِرُنَا عَنْهَا :

﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم :

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ ^(١) الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود]

يعنى التساؤل : كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تشورط
وتقول لنا :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على
دعوته لهم بعدم إتقاض الكيل والميزان .

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف فى المال ، والعلة التى
برروا بها كل هذا السَّفَه أن شعيباً حليم رشيد ؟ فكيف يدعوهم إلى
ما يخالف أهواءهم ؟

ويأتى الحق سبحانه بما قاله شعيب - عليه السلام - فيقول جلّ شأنه :

(١) الحليم : الأَبْلَغُ وَضَبَطَ النَّفْسَ وَالْعَقْلَ ، فَهُوَ حَلِيمٌ أَيْ : مَتَانٌ عَاقِلٌ ضَابِطٌ لِنَفْسِهِ بَعِيدٌ عَنِ الْجَهْلِ وَالْحَمَى وَالطَّيَشِ .

والحليم : من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٣٢٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) ﴾

[هود] أما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على

سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ١٦٩ ، ١٧٠]

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَىٰ يَشْعُرَانِ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْنَفٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ بِكُمْ
عَنِّي إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨)

وهنا يعلن لهم شعيب - عليه السلام - أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فأمر حياته ميسورة ^(١) .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ بِكُمْ عَنِّي .. ﴾ (٨٨) [هود]

أي : أنتى أطبق ما أدعوكم إليه على نفسى ؛ فلا أنقص كيلاً أو أخسر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً شيئاً ؛ لأننى لا أعبد غير الله .

(١) بيعة : حجة وبرهان . وبان الشيء بين يدينا : ظهر واتضح فهو بين ، وهي بيعة ، أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيعة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسر قوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ أَنْتُمْ مِّنْ آيَةِ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (٢٧) [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها . أو هي بيعة للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره . [القاموس القويم] .

(٢) إن - هنا - تاقية ، بمعنى «ما أو لا» أى : ما أريد - أو لا أريد - [الإصلاح] .

(٣) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . وقوله تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨) [هود] أى : إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم] .

(٤) الرزق الحسن : اتواسع الخلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة . قاله القرطبي في تفسيره (٣٤٠٨/٤) .

وكلمة «أخالف»^(١) تدل على اتجاhein متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «إلى» كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «عن» كذا .

فشعيب - عليه السلام - يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذي لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بالألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالمنهج ، وهو الذي أنزل عليه الرسالة .

وشعيب - عليه السلام - لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يروثه خيراً ؛ فليس في نقص الكيل والميزان ؛ أو الشرك بالله أدنى خير ، فكل تلك الأفعال هي الشر نفسه .

ويوضح لهم شعيب - عليه السلام - مهمة النبوة ؛ فيقول :

﴿ إِن أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. ﴾ (٨٨) [هود]

فالتبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم^(٢) الفساد ، ويأتى النبي المرسل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال «افعل» و «لا تفعل» ويكون النبي المرسل هو الأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بتجوة^(٣) ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه .

(١) قال أبو حيان في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ فِي مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ .. ﴾ (٨٨) [هود] المعنى : لست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه ، من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال . قال ابن عطية وقتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم أرتكبه ، فعلى هذا الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَخَالِفَكُمْ .. ﴾ (٨٨) [هود] في موضع المفعول لأريد ، أى : ما أريد مخالفتكم ، أى أكون خلفاً منكم ، ويكون خالف بمعنى خلف نحو جاوز وجاز وتعلق إلى ما خالفكم ، وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم منه (تفسير البحر المحيط ١٩٨/٦ باختصار) .

(٢) طم الشيء : عظم وعلا . وطم الماء إذا كثر ، وجاء السيل لطم كل شيء أى : علاه . والمقصود أن يكثر الفساد ويتشر ويصبح فساداً عاماً يعم البلاد والعباد ، وانظر [لسان العرب - مادة : طم] .

(٣) التجوة : ما ارتفع من الأرض فطم يعلو السبل ، أى : أنه مكان مرتفع . والمقصود : أنك بعيد عما تأسر به . [وانظر لسان مادة : تجو] .

ولذلك قال شعيب - عليه السلام - :

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ.. (٨٨)﴾ [هود]

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما يدخل في طوعها.

ويقول شعيب - عليه السلام - بعد ذلك :

﴿.. وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق في العمل ؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله.

أما إن أقبلت على العمل ؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوب لك أي خطأ تقع فيه ؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفي الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : ﴿تَوَكَّلْ﴾ ؛ أي : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول قلت «على الله توكلت وعليك» ؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله^(١).

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام :

﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.. (٥٦)﴾ [هود]

(١) عن حذيفة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤ / ٥) وأبو داود في مسنده (٤٩٨٠) والحاكم في مستدركه (٤٦٢ / ٣) : قال النووي في الأذكار (ص ٣١٨) : «هذا إرشاد إلى الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك، وثم للعطف والتراخي، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه».

ويجوز لك هنا أن تعطف .

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين ^(١) : «اللهم إني أستغفرك من كل عمل قصدتُ به وجهك فخالفتني فيه ما ليس لك» .

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلتك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تنيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب عليه السلام : «وإليه أنيب» .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿وَيَقْوِمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ

يَبْعِيدُ ٨٩

يقول لهم شعيب عليه السلام : أرجو ألا تحملكم عداوتكم لي على أن تجرموا جرماً ؛ يكون سبباً في أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم

(١) هو : مطوف بن عبد الله بن الشيخير ، كان يلبس الصوف ويجلس مع المساكين ، وقد أورد أبو نعيم هذا الأثر في حلية الأولياء (٢/ ٢٠٧) وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم (ص ٢٧) . وقد أوردناه ناماً والعطف فيه من ثام الدعاء ، وليس عطفاً مغايراً .

(٢) جرم الشيء جرماً : قطعه ؛ وغلّب على فعل الشر . يقال : جرّم : أذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أي وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جرّم . قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاذُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَعْدِلُوا ..﴾ [المائدة] أي : لا يحملكنم بغض قوم على عدم العدل ، أي : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أي : اعدلوا دائماً ، فالعدل أقرب للتقوى .

وأجرمه : دفعه وحمله على فعل الجرم والشر . وقرئ : (وَلَا يُجْرِمَنَّكُمْ) - بضم الياء من الرباعي المزيد بالهزة - أي : لا يحملكنم على فعل الجرم والظلم . [القاموس القويم] .

(٣) شاقه مشاقة وشقاقاً : خالفه . ومنه قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴾ [الأنفال] . وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا لَنُلَاقِيَنَّكُمْ فِي شِقَاقِكُمْ ..﴾ [البقرة] أي : في خلاف ونزاع . [القاموس القويم ١/ ٢٥٣] .

الذين سبقوكم ؛ من الذين خالفوا رسلهم ؛ فأنزل الله - عز وجل - عليهم العذاب كالغرق ، والرجفة ، والصيحة ، والصاعقة ^(١) ؛ فاحذروا ذلك .

وشعيب عليه السلام ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكونون له العداة ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدها أبائهم ؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان ، وألا ييخسوا الناس أشياءهم ؛ وسبق أن عذب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب - عليه السلام - بأقرب من عذبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ

رَحِيمٌ رُوْدٌ﴾ ^(٢)

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصي - حتى المصير - على شيء من المعصية - باب التوبة .

ويقول رسول الله ﷺ : «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط ^(٣) على بعبيره وقد أضله في أرض فلاة ^(٤)» ^(٥) .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتِ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن حَسَقَ بِهِ الْأَرْضُ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٧] .

(٢) الرودود : من أسماء الله الحسنى ، وهو صيغة مبالغة أى : كثير الود ، [القاموس القويم ٣٦٦/٢] والود : الحب ، قال تعالى : ﴿... سَجَّعَ لَهُمُ الرُّوحَيْنِ وُدًّا﴾ [١٧] [مريم] أى : محبة منه تعالى ومحبة في قلوب الناس .

(٣) سقط على بعبيره : أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به ، ومنه قولهم : على الخير سقطت . قاله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١٠٨/١١) .

(٤) الفلاة : الصحراء ليس بها ماء ولا أنيس . ومعنى : القفر من الأرض لأنها غابت عن كل خير أو فطمت وعزلت . [لسان العرب] .

(٥) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٤٤) عن عبد الله بن عمرو ، واللفظ للبخاري .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بعيره ؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورحله ؛ ثم يعثر الرجل على بعيره هذا .

لا بد - إذن - أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه .

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب - عليه السلام - لقومه :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. ﴾ (٩٠) [هود]

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتتوبون إليه ؛ بالألا تعودوا إلى ارتكابها مرة أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد من قصد بابه ؛ ﴿ .. ﴾ إن ربي رحيم ودود ﴿ ٩٠ ﴾ لأن مغفرته تستر العذاب ، ورحمته تمنع العذاب .

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعاني : المغفرة ، والرحمة ، ومعهما صفته «الدود» ؛ وهي من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضى العطف على قدر حاجة المعطوف عليه .

ولله المثل الأعلى : نرى الأم ولها ولدان ؛ أولهما قادر ثرى يأتي لها بما تريد ؛ وثانيهما ضعيف فقير ؛ فنجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضعيف الفقير ؛ وتحسن قلب القوي القادر على الفقير الضعيف .

وتجد المرأة العربية القديمة تحب على من سألها : أى أبتائك أحب إليك ؟ فتقول : الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى .

إذن : فالحب يقتضى العطف على قدر الحاجة .

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

«يا بن آدم ؛ لا تخافن من ذى سلطان ؛ ما دام سلطاني باقياً ؛ وسلطاني لا ينفد»^(١) . يا بن آدم لا تخش من ضيق رزق ؛ وخزائني ملائكة ، وخزائني

(١) لا ينفد : لا ينتهي . ونقد ينفد نقداً ونقاداً : فنى وانقطع ولم يبق منه شيء . قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ .. ﴾ [النحل] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ رِزْقِهِ مَا لَهُ مِنْ خَازِنَةٍ ﴾ [ص] ، أى : أنه رزق دائم لا انقطاع له . [القاموس القويم] .

لا تنفذ أبداً . يا ابن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب ، وضمنت لك رزقك فلا تتعب ، فوعزتي وجلالي إن رضيت بما قسمته لك أرحمت قلبك وبدنك ؛ وكنْتَ عندى محموداً ؛ وإن أنت لم ترض بما قسمته لك ؛ فوعزتي وجلالي لأسلطنَّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض^(١) الوحوش في البرية^(٢) ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعنى^(٣) بخلقهنَّ ؛ أيعينى رغيْف عيش أسوقه لك ؟ يا ابن آدم لا تسألنى رزق غد كما أطلب منك عمل غد . يا ابن آدم أنا لك مُحبٌ ؛ فبحقى عليك كن لى مُحباً .

وهذا الحديث الكريم يبين مدى مودة الله سبحانه لخلقه ؛ تلك المودة التي لا تستوعبها القلوب المشتركة .

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - بعد ذلك بقول أهل مدين ردّاً على شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝١١﴾

(١) الركض : الجرى والعدو . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذْ هُمْ عَلَيْهَا يَرْكَضُونَ ۝١٧ ﴾ [الأنبياء] أى : يجرّون ويفرون كناية عن الفرع والخوف الشديد . والركض : الضرب بالرجل ، قال تعالى : ﴿ أَرْكَضُوا بِرَجُلَيْهِ ۝١٤ ﴾ [ص] أى : اضرب بها . [القاموس القويم] .

(٢) البرية : الصحراء . والجمع : البرارى . والنز : ضد البحر . [راجع : مختار الصحاح - عادة : برأ] .

(٣) لم أعنى بخلقهنَّ : لم أعجز عنه ولم أطق إحكامه . والإعياء : الكلال والتعب . [من لسان العرب] .

(٤) النفق : الفهم . وفقه يفقه فهو فقيه ؛ صار هنأً قاهماً . والنفق في الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات ، وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ لَا تَقْفُوهُنَّ تَسْبِيحَهُنَّ ۝١٤ ﴾ [الإسراء] أى : لا تفقهوهن . وقال تعالى : ﴿ لِيَقْفُقُنَّ إِلَى النَّبِيِّ ۝٢٢ ﴾ [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليعلموها . [القاموس القويم ٢ / ٨٦] .

(٥) الرهط : جماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۝١١ ﴾ [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ تَفْعَلْ رَهْطٌ ۝١٨ ﴾ [النمل] من إضافة الشئ إلى ما يبيته . [القاموس القويم ١ / ٢٧٨] .

وهذا يُضاهي قول مشركي قريش لرسول الله ﷺ ، فقد قالوا :

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ۖ ۝ (٥) ﴾

[فصلت]

والإيمان يتطلب قلباً غير ممثليء بالباطل ؛ ليُحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل ، فهي غير قادرة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقول تلك القلوب من الباطل ، وناقشت العقول كلاً من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل هددوا شعبياً وقالوا :

﴿ .. وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝ (٦) ﴾

[هود]

وهذا التهديد يحمل تحدياً ، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم ينفضون حياته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهي أن رهطه - أي : قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأي ضرر يصيب شعبياً ؛ وتناسوا أن الذي أرسل شعبياً - ﷺ - لا بد أن يحميه ، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله - عز وجل - بأن يُسخر الكفر لخدمة الإيمان .

ومثال ذلك : هو بقاء عم النبي ﷺ أبي طالب على دين قومه ؛ وقد ساهم هذا الأمر في حماية محمد ﷺ في ظاهر الأسباب .

ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك برّد شعيب عليه السلام على قومه ؛ فيقول :

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا رَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذَتْكُمْ رِءَاءَ كُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٩ ﴾

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار : أوضعتم رهطى فى كفة + ومعزة الله تعالى فى كفة ؟ وغلبتم خوفكم من رهطى على خوفكم من الله ١٩ ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه ؛ لأنه أعلن - من قبل - توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً .

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا التفكير فى الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم :

﴿ وَاتَّخَذَتْكُمْ رِءَاءَ كُمْ ظَهْرِيًّا .. ﴾ (٩٢) ﴿ [هود]

أى : لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله ؛ ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزة فوق معزة الله .

ولم يقل : (ظهيرياً) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمن نقول : يمنى ، ونقول : يمانى ، فالنسب هنا إلى الظهيرى ، وهى المنسى والمثروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، يعنى جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً . [ذن : فهناك تغييرات تحدث فى باب النسب (٣) .

(١) الظهيرى : المنسى المثروك وراء الظهر ، يقال : جعله ظهيرياً ، أى : جعله نسبياً منسياً ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَتْكُمْ رِءَاءَ كُمْ ظَهْرِيًّا .. ﴾ [هود] (٩٢) أى : نسيتم الله وحقوقه عليكم . [القاموس القويم ١/ ٤١٩] .

(٢) للحيط : من أسماء الله الحسنى ، أى : المسيطر على كل شئ . وقال تعالى : ﴿ .. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] . أى : مسيطر عليهم لا يملكون منه هرباً ولا فراراً . [القاموس القويم ١/ ١٧٨] .

(٣) النسب باب من أبواب علم الصرف .

ويذكرهم شعيب عليه السلام بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٩٢)

[مرد]

أى : أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل فى نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال له : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال .

وقد شرف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه .

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ^(١) إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ
وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٩٣)

إذن : فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه ؛ وباعتزازه بربه قد أوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم : افعلوا ما فى وسعكم ، وما فى مكنتكم هو ما فى مكنة البشر ، وسأعمل ما فى مكنتى ، ولست وحدى ، بل معى الله سبحانه وتعالى ؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة .

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذى أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلنى الذى أرسلنى ؛ وما دمتم تريدون الوقوف فى نفس موقف الأمم السابقة التى

(١) المكانة : رفعة الشأن والريانة والنودة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴾ (١٢٥) [الأنعام] أى : برزانة ونودة وتبصّر . وقرئ : «على مكاناتكم» بالجمع . [القاموس القويم ٢ / ٢٣٢] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٣١

تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر^(١) ، وبالقذف بأى شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكاتكم ، وإياكم أن تتوهموا أنى أتودد إليكم ؛ فأنا على بينة من ربي ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يقل شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله رداً على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا هَظُّكَ^(٢) لَرَجِمْنَاكَ .. ﴾ (٩١) [هود]

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ﴾ (٩٢) [هود]

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدي ، لأنى سأعمل على مكاتى ، و﴿ .. سَرَفٌ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَأَرْتَبُوا إِنِّي مِنْكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٩٣) [هود]

أى : أن المستقبل سوف يبين مَنْ مَنَّا على الحق وَمَنْ مَنَّا على الضلال ، ولن سيكون النصر والغلبة ، ومن الذى يأتية الخزي ؛ أى : أن يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ وَمَنْ مَنَّا الكاذب ، وَمَنْ على الحق .

وكان لا بد أن تأتى الآية التالية :

(١) الريح الصر والصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . قال الزجاج : الصر والصرة شدة البرد . [قاله ابن منظور فى اللسان] .

(٢) الهظ : الجماعة دون العشر من الرجال ، ورمط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا هَظُّكَ لَرَجِمْنَاكَ .. ﴾ (٩١) [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ لِي الْعُدَّةُ تِسْعَةً رَّمَطٍ .. ﴾ (٩٢) [النمل] من إضافة الشيء إلى ما يبينه . [القاموس المعتبر] . [٢٧٨/١] .

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ^(١) فَأَصْبَحُوا
فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ^(٢)﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد أورد في هذه السورة : أسلوبيين منطوقين
أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩٤)﴾ ، في قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثاني : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩٦)﴾ [هود]

في قصة اثنين من الرسل^(٣) .

وقصة شعيب هي إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾
ولم يأت بـ «الفاء» لأنها - كما نعلم - تقتضى التعقيب بسرعة ، وبدون
مسافة زمنية ، وتسمى في اللغة «فاء التعقيب» ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ^(٤)﴾ (٢٦)﴾ [عيس]

(١) الصيحة : اسم مرة من الصباح ، وهو الصوت الشديد . والصيحة : المذاب الذي يصحبه صوت
شديد . قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٩٦)﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

(٢) جثيماً : لزم مكانه لا صفياً بالأرض ، قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَالِعِينَ (٩٦)﴾ [هود]
كتابة من موتهم بحالتهم فهم ممدودون لا صفون بالأرض . [القاموس القويم] .

(٣) هما نبي الله صالح ، ونبي الله لوط عليهما السلام . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
مَعَهُ .. (٩٥)﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجَابِلِ
مُنْهَوْدٍ (٩٦)﴾ [هود] .

أما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فقد جاءت في نبي الله هود في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مَعَهُ .. (٩٤)﴾ [هود] ، وكذلك نبي الله شعيب في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مَعَهُ .. (٩٥)﴾ [هود] .

(٤) قبیره وأقبره : دفنه في قبر . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ
(٢٦)﴾ [عيس] وجمع القبر : قبور . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُخِرَتْ (٤)﴾ [الأنفطار] . [القاموس
القويم ٩٥/٢] بتصريف .

أما «ثم» فتأتى لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾^(١) (٢٢) ﴿عَبَسَ﴾

وقد جاءت «الفاء» مرة فى قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذى ينزل فيه العذاب ، وقال :

﴿.. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) ﴿مُودَ﴾

فكان لا بد أن تسبق «الفاء» هذا الحديث عن عذابهم ، فقال :

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ﴾^(٢) ﴿مَنْصُودٍ﴾ (٨٢)

أما هنا فى الآية التى نحن بصدد نحواطرنها ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَبًا وَآلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ..﴾ (٩٤) ﴿مُودَ﴾

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ..﴾ (٩٤) ﴿مُودَ﴾

وكل أمر يقتضى أمراً ؛ ويقتضى مأموراً ؛ ويقتضى مأموراً به .

(١) أنشره : أحياء وأوجده . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ (٢٢) ﴿عَبَسَ﴾ أى : بعثه من قبره . وقال تعالى : ﴿فَأَنْشَرْنَاهُ يَوْمَ ثَلَاثَةِ مِائَاتٍ ..﴾ (١١) ﴿الزَّحْرَفِ﴾ أى : أحييناها بماء المطر ؛ لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم] .

(٢) السجّيل : الطين المتحجر . والمنصود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . ويقول تعالى : ﴿وَالنَّجْلُ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّعِيدٌ﴾ (٦٤) [ق] أى : مرضوع بنظام ، [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

والأمر هنا هو الله سبحانه ؛ وهو القادر على إتفاذ ما يأمر به ، ولا يجزئ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه ؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه .

إذن ؛ فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم ؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر ؛ ولم يتخلف العذاب عن المجيء ؛ لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر لمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجزئ العذاب على المخالفة لأنه مُسَخَّر ، لا اختيار له .

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكوني والأمر التشريعي ؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله في القرآن ؛ فتيقن من أنه حادث لا محالة ؛ لأن القضية الكونية هي من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعي يسعد به مَنْ يُطِيقه ؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالا لهذا في قصة أم موسى . . يقول جلّ شأنه :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأُلقِيهِ فِي
الْيَمِّ ۖ﴾ .. (٧) ﴿[التقصير]

فمنطق البشر يقول : كيف نقول لامرأة : إذا خفت على ابنك ألقيه في البحر ؟ كيف ننجيه من موت مظلون إلى موت محقق ؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتي لها معارض في الذهن .

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها في اليم ، فقال :

(١) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿فَأُلقِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ﴾ [طه] [النهر العذب] [القاموس الغريب ص ٣٧٢ ح ٢] .

﴿إِذْ أَرْحَبْنَا إِلَىٰ أَمْرِكَ مَا يُرْحَىٰ (٢٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي
الْيَمِّ .. (٢٩)﴾ [طه]

كذلك أمر الحق - سبحانه وتعالى - اليم باللقاء الثابت - وفي داخله
موسى - للساحل ، ولذلك فيقين أم موسى في أن أوامر الله لا تتخلف ،
جعلها تسارع في تنفيذ ما أمرها الله به .

والحق سبحانه يريد أن يُرَبِّبَ الإيمان ، أى : يزيده في قلوب عباده ،
فَهَبْ أَنْ الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر
الله ، فماذا يكون موقف الناس ؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما
يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غلبوا فافهموا أن شرط الجندية
لله قد تخلف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة .

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ في البقاء على الجبل يوم
أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع
هذه المخالفة ؟

إذن : فقد انهزم المسلمون الذين اختلت فيهم صفة من صفات
جنديتهم لله .

ولا بد أن تلتقى القضيتان : القرآنية والكونية ، لأن نازل القرآن هو
صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ، فلا بد أن يأتيهم العذاب .

وسمى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال :

﴿..وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٩٤)﴾ [هود]

وسمى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب الذي لحق بهم :
«الرجفة» ؛ فقال :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (٩١)

[الأعراف]

وسماه في قصة قوم عاد :

﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٦١)

[الحاقة]

وسماه بالخسف في عذاب قارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان يتقى القوم الكافرين فقط ؛
ولا يصيب الذين آمنوا ؛ بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴾ (٩٤)

[هود]

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر ؛ يُصرف الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة «نجينا» : من النجاة ؛ أي : أن يوجد بنجوة ؛ وهي المكان
العالى ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ؛ فقد كانوا يقيمون في اليمن
ثم بعثهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ^(١) فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

(١) النصر ، والصرصر : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا سَبْأٌ .. ﴾ (١١٧) [آل عمران] . والريح :

الهواء المتحرك في الجو ، وأصلها «روح» ثبت الولاية لكسر ما قبلها . والجمع : رياح ، وتجمع أيضاً
على «أرواح» - على الأصل - وقال تعالى : ﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة] أي : شديدة
ملمرة - على سبيل الاستعارة - كأنها إنسان جبار طاغى عات . [القاموس القويم] .

(٢) سبأ : اسم رجل بجمع عدة قبائل نشأت في اليمن ، وسميت باسمه مدينة كبيرة باليمن ، كانت عاصمة
ملك اليمن . قال تعالى : ﴿ .. وَجَنَّاتٍ مِنْ سَبَأٍ يَنْفِرِينَ ﴾ (٥٧) [النمل] . [القاموس القويم ١/ ٢٩٩] .

الْعَرِمِ ^(١) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىٰ أُكُلٍ خَمْطٍ ^(٢) وَأَثْلٍ ^(٣) وَشَيْءٍ مِّنْ
سِدْرٍ ^(٤) قَلِيلٍ ^(٥) ﴿١٦﴾

[سبأ]

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا في الجزيرة العربية ، وكانوا
يخافون من الماء - رغم أنه سر الحياة ؛ وفضلوا التعب في البحث عن الماء
للشرب لهم ولأنعامهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء
جاءت كلمة «نجأ» أي : صعد إلى مكان مرتفع .

واستخدمت كلمة «نجأ» في كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر
الداهم ^(٦) ، فيقال : «نجأ من النار» ؛ «نجأ من العدو» ؛ «ونجأ من الحيوان
المفترس» ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أي : المكان المرتفع . ويقال في
الفعل (نجأ) : نجأ فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب .

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى
مَنْ يُنْجِيهِ ، ويُقال : «النجاة» ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة
صعبة ليتحقق الفوز .

(١) السيل : الماء الكثير يجري ويسيل على الأرض - وسيل العرم : أي : سيلان العرم ، وهي سدود اليمن ،
أو سيل المطر الشديد . [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٢) الخَمْطُ : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس . قال تعالى : ﴿ ذَوَاتَىٰ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ
سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] لما غضب الله على سبأ جعل طعامهم هذه الأشياء ، وذلك كناية عن شدة الفقر .
[القاموس القويم ١/ ٢١١] .

(٣) الأَثْلُ : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان ، أوراقه دقيقة ، وثمره حَبُّ أَحْمَرٍ مُرٌّ لَا يُوْكَل . قال
تعالى : ﴿ ذَوَاتَىٰ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] كناية عن ضيق العيش وشدة الفقر .
[القاموس القويم ١/ ٧] .

(٤) السدر : شجر النبق ، وهو شجر شائك له ثمر ، لونه حلابة قليلة ، ولحيته مدرة ، وهو كناية عن ضيق
العيش ، فقد ضيق الله عليهم الرزق لعدم شكرهم . [القاموس القويم ١/ ٣٠٧] .

(٥) كل ما غشيك فقد دهمك . ويقال : يدهمهم أي : ينجوهم . راجع لسان العرب .

ونسب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال «نجينا» .

ويأتى الحق سبحانه فى مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ^(١) ۝ (١١) ﴾ [القدر]

فكل شيء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتى الله فيه بضمير الجمع : إنا .
أما إذا كان الشيء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتى بضمير الأفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ۝ (١٤) ﴾ [طه]

وقد ألقى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعيباً عليه السلام قال لقومه :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ۝ (٥٣) ﴾ [هود]

وكان عمل شعيب عليه السلام فيه صحة وعزيمة التوكل ؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهدى سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أى عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة . . والمفتاح فى يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال فى الحديث القدسى :

«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملائكتى منه» ^(١) .

(١) أنزلناه : ابتدأنا أنزال القرآن العظيم ، ليلة القدر : ليلة الشرف والعظمة . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .

(٢) تمام الحديث : «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسي ، وإن ذكرني فى ملائكتى منه ، وإن اقترب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » من حديث أبي هريرة .

إذن: فالفتاح في يد العبد.

والحق سبحانه هو القاتل:

«ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً».

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد ، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى ، فإنه سبحانه يتقرب إلى العبد أكثر وأكثر .

ثم يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي :

«ومن جاءني يمشي أتيتُه هرولة»^(١) لأن المشي قد يُتعب العبد ، لكن لا شيء يُتعب الحق سبحانه أبداً ؛ لأنه مُنزهٌ عن ذلك .

إذن: فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية في الالتحام بمعية الله تعالى ، ليضفي علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله^(٢) .

وانظروا إلى سيدنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار . . يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. ﴾ (٤٠) [التوبة]

أي: أن رسول الله ﷺ ينهي صاحبه عن الحزن بعلّة معية الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن ؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه ، بل من قانون كوني ، حين قال لرسول الله ﷺ : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » لكن رسول الله ﷺ لا يتكلم عن القانون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) والإمام أحمد في مستدركه (٣٦٥ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) صفات الجمال هي الصفات المعبرة عن الرحمة والمغفرة والأمن والسلام مثل: الرحيم ، الغفور ، السلام ، المؤمن . أما صفات الجلال فهي الصفات المعبرة عن القهر والجبروت والضر مثل: القهار ، الجبار ، الضار ، المغيث .

الكوني ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكون سبحانه ، فقال : « ما ظنك
بأثنين الله ثالثهما؟ »^(١) .

فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه
لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار^(٢) .

وقد ألجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ،
والرحمة ألا يصيبك شيء .

ومثال ذلك : إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من
الداء .

ولذلك اتبهاوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين : شفاء ، ورحمة ،
فإذا كان هناك داء وترجمه إلى منهج الله ، فالحق سبحانه يشفيه ،
والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية .

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ۖ ﴾ (٦٧) [هود]

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ۖ ﴾ (٦٨) [هود]

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعلى قريشاً ، ولكن
لأن لغة قريش كانت مُصفاة من جميع القبائل العربية ، فهي تملك صفوة
لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعني أن نطمس بقية القبائل .

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٢) ومسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر
الصديق رضي الله عنه .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ
(٦٧) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الظَّهِيرُ الْخَبِيرُ ﴾ (٦٨) [الأنعام] .

ولذلك جاء في القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطى لقريش سيادة في الإسلام كما كان لها سيادة في الجاهلية ، لذلك يأتي بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتي بقاء التأنيث ومرة لا يأتي بها .

والتأنيث إما أن يكون حقيقياً^(١) أو مجازياً^(٢) . والتأنيث الحقيقي هو المقابل للمذكر ، مثل : المرأة . والتأنيث المجازي مثل : «الصبيحة» و«الحجرة» . وكانت القبائل العربية تتجاوز في المؤنث المجازي ، فمرة تأتي «التاء» ومرة لا تأتي^(٣) .

وإن كان هناك فصل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التأنيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٧) [هود]

(١) المؤنث الحقيقي هو الذي يلد ، ويتناسل ، ولو كان تناسله من طريق البيض والتفريخ . ولا بُدَّ في لفظ المؤنث الحقيقي من علامة تأنيث ظاهرة أو مقدرة مثل : فاطمة ، ليلي ، هند ، عصقورة ، بقرة . . . إلخ . قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَوْتُ لَكَ مَا لِي بَعَثَنِي مِنْهُ ﴾ (٣٥) [آل عمران] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَعَلَّةُ يَسْأَلُهَا الْمَلَأُ أَذْخَرُوا مَا كُنْتُمْ .. ﴾ (١٨) [النمل] .

(٢) المؤنث المجازي هو الذي لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان لفظه مختوماً بعلامة تأنيث ظاهرة ، مثل : ورقة ، وسفينة . . . أم مقدرة ، مثل : دار ، وشمس . ولا ميل لمعرفة المؤنث المجازي إلا من طريق السماع الوارد عن العرب .

(٣) يجوز التأنيث وتركه إذا كان الفاعل حقيقياً التأنيث ولم يتصل بالفاعل - أي : فصل فاصل بين الفعل والفاعل المؤنث - مثل قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَعْشِيًى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِذَا أَبَى بِدَعْوِكَ .. ﴾ (١٢) [القصص] . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُلُكُنَاتُ مِنْهَا جَرَأَتِ فَأَمْحُوهُنَّ .. ﴾ (١٠) [الممتحنة] . وإذا كان الفاعل مؤنثاً مجازياً ، كقوله تعالى : ﴿ فَبَلَّ يَهُودُؤُنَ إِلَّا السَّاعَةَ أَذْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَفُتَّ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. ﴾ (١٥) [محمد] ، وأن يكون الفاعل جمع تكسير ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. ﴾ (١١) [الحجرات] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ بَشْرَةُ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴾ (١٠) [يوسف] . وهناك تفصيلات كثيرة أخرى انظر ما في

[النحو الوافي للعباس حسن (٤/ ٥٨٦ ، ٥٨٧) ، وهو البحر المصنوع للدكتور محمد عبد (ص ٤٠٢ - ٤٠٦)] .

فكان الصبيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرْسِل الصبيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد .

وَيُنْهِى الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ يَقُولُهُ تَعَالَى :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴾ (٩١)

[هرد]

ونلاحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

[هرد]

ومثل قوله الحق :

﴿ .. فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (١٧٧)

[المصافات]

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذي لم يغادره النوم بعد ^(١) ، مثل زُؤار الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴾ (٩١)

[هرد]

ولم يقل سبحانه : « فأصبحوا في دارهم جائمين » ؛ لأن بعضهم قد لا يكون في بيته ، بل في مكان آخر لزيارة أو تجارة .

ومثال ذلك : قصة أبي رغال ، وكان في مكة ، لكن الحجر الذي قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه في البقاع ولم يتزل عليه الحجر في مكة ؛ لأن

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ (٢٥) [القمر] والبكرة أول النهار . ويستعا للإسراع إلى الأمر في أي وقت . [القاموس القويم] .

الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر في البيت الحرام ، الأمن ، وكان الحجر قد تبعه ، مثلما تتبع الصبيحة الكفار من أهل مدين^(١) .

ونلاحظ في الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي «جائمين» أن حرفي «الجيم» و«الشاء» حين يجتمعان معاً - بصرف النظر عن الحرف الثالث - ففيهما شيء من الهلاك ، وشيء من الفتاية . ومعنى «جائمين» أي : مُلقون على بطونهم بلا حراك .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً^(٢) .. (٤٨)﴾ [الجاثية]

أي : يركع كل من فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : «الجثة» .

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ «الجثة» تعبيراً عن أي «ميت» عظيماً كان أم وضيعاً^(٣) ، ثم توضع جثته في القبر ، لتحتضنه أمه الأولى : الأرض .

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تسألوا الآيات فقد سأناها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ثرد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صبيحة أحمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله . فقاتلوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : أبو رغال ، فلما أخرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٩٦) والحاكم في مستدركه (٢/٣٢٠) ، ٥٦٧ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) جنا يجنو جنواً ، وجنى يجنى جنياً : جلس على ركبتيه فهو جاث وهي جاثية . قال تعالى : ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً^(٤) .. (٤٨)﴾ [الجاثية] كناية عن المعجز والنفوس والشرق كالسجين ينتظر المحاكمة . وقال تعالى : ﴿.. ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا^(٥)﴾ [مريم] تصويراً لحالهم في ذل ومهانة ينتظرون العذاب الشديد . [القاموس القويم : مادة (جنى)] .

(٣) الوضيع : الدنى من الناس ، وهو ضد الشريف . والضعة : الذل والهوان والذناء . [لسان العرب - مادة : وضع] .

ومن يرغب في تهدئة إنسان ملئناغ^(١) وغاضب لموت عزيز عليه ، فليقل له : هل تتحمل جسمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : « لا » .

إذن : فبمجرد أن يتزع الله سبحانه السر الذي به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يرم^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل مدين^٢ :

﴿ كَانُوا يَمُرُّونَ عَلَيْهَا لَا يَبْعُدُونَ الْمَدِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ^(٣) ﴾

أى : أن من يمر على أهل « مدين » بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا .. ﴾ (٦٤) ﴿ [يونس]

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقه الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يبعده الإنسان لولده وحميمه من الحرقه وشلة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوع] .

(٢) الرميم : البالى من كل شيء . رم الميت : بلى جسمه ، قال تعالى : ﴿ .. مَنْ يُجِبِ الْعِطَامَ رَبِّهِ رَمِيمٌ ﴾ (٥٥) ﴿ [يس] والرمة : العظم البالى . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) هنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا فِي دِيَارِهِمْ جَالِسِينَ ﴾ (٦٤) ﴿ كان لم يبقوا فيها .. ﴾ (٦٥) ﴿ [هود] [القاموس القويم مادة : هنى] .

(٤) بعد بَعْداً وبُعْداً : هلك . قال تعالى : ﴿ .. أَلَا بَعْدُ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٦٥) ﴿ [هود] [أى : هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود . [القاموس القويم : مادة (بعد)] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهي غير الجنة التي ينال فيها الإنسان ما يشتهي بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَانَ لَمْ يَفْقَرُوا لَهَا .. ﴾ (١٥) [هود]

ومادة «الغنى» منها : الغناء - بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدي إلى الشيء الذي يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكتفى عما في أيدي الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذي يعجبه ، والملحن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذي يغنيك عن غيره .

والغناء ، أى : الإقامة فى مكان إقامة تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : يقول الحق سبحانه :

﴿ كَانَ لَمْ يَفْقَرُوا فِيهَا .. ﴾ (١٥) [هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواء .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠٠) [هود]

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَسْبَحُوا فى ديارهم جالسين ﴾ (١٠) كَانَ لَمْ يَفْقَرُوا لَهَا .. (١٥) [هود] وقد غشيت الدار بأهلها : عَمَرَتْ بهم . قال تعالى : ﴿ لَبِثْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفْنِ بِالْأَنْسِ .. ﴾ (٢٠) [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة (غنى)] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿ وَفَوْقَ قَائِمٌ يَعْلَى فى الْمِحْرَابِ .. ﴾ (٢٠) [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَانِ نَفْصٌ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (٢٠) [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزروع ، ومنها ما هلك فصار كالزروع الحصيد . [القاموس القويم : مادة (قوم)] .

أى: أن الأطلال^(١) قائمة بما تحويه من أحجار ورسوم^(٢)، مثل معابد قدماء المصريين، وأنت حين ترورها لا تجد المعابد كلها سليمة، بل تجد عموداً منتصباً، وآخر ملقى على الأرض، وباباً غير سليم، ولو كانت كلها حصيداً؛ لاختفت تماماً، ولكنها بقايا قائمة، ومنها ما اندثر^(٣).

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات، لأنها لو ذهبت كلها؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿.. أَلَا بَعْدُ لِمَدَّيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفتاح» ليلفت السامع وينصت، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد.

وكلمة «بُعْدُ» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد؛ لأنها هلكت بالفعل، ومادة كلمة «بُعْدُ» هى: «الباء» و«العين» و«الدال» ونستعمل استعمالين: مرة تريد منها الفراق؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون، ولذلك جاء بعدها:

﴿.. كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة.

(١) الأطلال: جمع طلل، وهو ما شُيِّد من آثار الديار القديمة. وقيل: طلل كل شيء شخصه. [انظر: لسان العرب].

(٢) الرسوم: جمع الرسم. وهو بقية الأثر. وقيل: هو ما نُصق بالأرض منها. ورسم الدار: ما كان من آثارها لا صقاً بالأرض.

(٣) اندثر: الدروس وأمعاء الذكر، وكل شيء أمحى وذهب أثره فقد دثر. [اللسان بتصرف].

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٤٧

والشاعر^(١) يقول:

يَقُولُونَ لَا تَبْعِدْهُمْ يَدْفِنُونَنِي وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَائِبًا
فهذا هو البعد الذي يذهب إليه الإنسان ولا يعود^(٢).

ولماذا خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ، وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين : «ألا بعداً؟»

لأن الصيحة قد جاءت لثمود^(٣) ، وبذلك اتفقوا في طريقة العذاب .

وتنتهى هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين ، ونلاحظ أن لها مساساً برسل مثل موسى عليه السلام ، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام .

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت ، أى : أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين . ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم ، لذلك أرسل لكل بيئة رسلاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة .

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام ، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام . وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون .

(١) الشاعر هو : مالك بن الربيع الذؤني ، شاعر من انظرقاء الأدباء الفُشَنَّاك ، اشتهر في أوائل العصر الأموي ، شهد فتح سمرقند وتسلق ومرض في مرو وأحس بالثوب فقال قصيدته التي منها هذا البيت وعندها ٥٨ بيتاً أوردها أبو علي الفارسي كاملة في أماليه (٣/ ١٥١ - ١٥٤) توفي عام ٦٠ هجرية . انظر الأعلام للزركلي (٥/ ٢٦١) .

(٢) البعد : الهلاك . بعد : ملك . فقوله تعالى : ﴿... أَلَا بَعْدَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ (٥٥) ﴿[مرد] أى : هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود . والبعد : خلاف القرب ، قال تعالى : ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْفُتْرَيْنِ...﴾ (٥٥) ﴿[الزخرف] أى : مقدار بعد أحدهما عن الآخر . [القاموس القويم] .

(٣) قال رب العزة سبحانه : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ (٥٦) ﴿[الحاقة] أى : أملكوا بالطبيعة التي تجاوزت الحد في قوتها . والطغيان : تجاوز الحد ، قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْعَارِيَةِ﴾ (٥٧) ﴿[الحاقة] أى : زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد . [القاموس القويم ١/ ٤٠٢] .

ونحن نعلم أن الأماكن في الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش في موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى .

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه أولاً أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن في أي مكان في العالم ، يتنقل إلينا عبر الأقمار الصناعية في ثوان معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ .

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون ؛ لأن الأصل في القصص القرآني أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسل ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحي لتناسب الموقف الذي يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد^(١) .

وبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم في النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوبة جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس في القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسول ﷺ .

ولنا أن نلاحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهي إلا بأن تأتي فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَأَلَّا نَفْسُ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ مَا نَقَبْتَ بِهِ نَوَافِلَ وَمَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَرْغَبَةٌ وَذِكْرُنَا لِلْمُزْمِنِينَ ﴾ [هود] . ثبت الأمر : وسخ واستقر ضد تزول واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ تَبَيَّنَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [١٧] ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي : يقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك ثبت معنوي . [راجع : القاموس القويم ١ / ١٠٥] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٤٩

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطعتين:
اللقطة الأولى: هي الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية: هي خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى:

﴿ يَاقُومُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدْهُمْ النَّارَ وَيَتَّسِعُ الرُّودُ الْمُرُودُ (٩٨) وَأَنْتَبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِشَرِّ الرِّقْدِ الْمَرْقُودِ (٩٩) ﴾ [مرد]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه في قوله:

﴿ .. نَجَّوْتِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبتته وهياً له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثماني حجج أو أن يتمها عشر حجج^(١) ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي^(٢) ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

(١) الحجة - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً ، وجمعها : حجج - قال تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] أي : ثماني سنوات كاملة . [القاموس القويم] .

(٢) أجر فلان فلاناً أجراً : أثابه على عمل أو صار أجيراً له ، وبالوجهين فُسر قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسمي المنهر أجراً مجازاً . وقال تعالى : ﴿ فَأَتَوْهُمْ أَخْرَ مِنْ .. (٢٨) ﴾ [النساء] أي : مهودهم . وقال تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (٢٩) ﴾ [البقرة] أي : ثواب عمله .

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة في قصة موسى عليه السلام.

ومن هذا ومن ذاك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنيات قد تلتقى مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قسّ الحق سبحانه الطلاق في الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مرّة المعاناة .

ومثلما حرّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل في القرآن قانون السماء الذي بقي الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى في كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه .

وفي قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرّة عين له ^(١) ، رغم أن فرعون كان يُقتل أطفال تلك الطائفة ^(٢) .

ثم نلاحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه ^(٣) .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَوْلَا لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) [التقصير] .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِيعُ خَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَتَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي بَنَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) [التقصير] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لَوَدَاعِ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنَّ كَذَاتٍ تَعْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَإِتَّكَنَ مِنَ الْمُزْمِنِينَ ﴾ (٣) وَقَالَتِ لَأَخَذَنَّ لِفَضْلِهِ لَمَحْرُوبَةً بِهِ عَنِ حَبِّ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (٥) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنُنَبِّئَنَّ أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) [التقصير] .

وقد صورَّ الشاعر هذا الموقف بقوله :

إِذَا لَمْ تُضَادِفْ فِي بَيْتِكَ عَنَابَةً

مِنْ اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبَ الرَّاجِي وَخَابَ الْمَأْمُلُ

فَمُوسَى "الَّذِي رَبَّاهُ جَبْرِيلُ كَافِرٌ"

وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة ، في البداية وفي النهاية ؛ ليبين لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل ، وهو موسى عليه السلام .

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث - هو ماء مدين ، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهي رأس الحرية التي تُوجِّه إلى المجتمعات الإسلامية ؛ لأن البعض يريد أن تبذل المرأة في مفاتنها ، لإغواء الشباب في أعز أوقات شراسة المراهقة .

لكن القرآن حلَّ هذه المسألة في رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ (٢١) . . (٢٢) [القصص]

أى : تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه ، وكان هذا المشهد مُلفتاً لموسى عليه السلام ، وكان من الطبيعي أن يتساءل : ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية ؟ وقال القرآن السؤال الطبيعي :

(١) موسى السامري الذي رباه جبريل خالف أمر ربه بقتلة ، فعزل اجتماعياً وكتب عليه العذاب ، بخلاف موسى الرسول عليه السلام .

(٢) ورد يرد وروداً : حضر أو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله . وورد الماء : قصده وبلغه ووصل إليه . واسم الفاعل منه : وارد . واسم المفعول : مورود . [القاموس القويم] .
أمة من الناس : جماعة كثيرة منهم . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .
تلفذان : تمنعان أختاهما عن الماء . [كلمات القرآن] .

[القصص]

﴿ مَا خَطَبُكُمَا ^(١) .. (٢٣) ﴾

فتأتيه الإجابة من المرأتين:

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ ^(٢) وَأَبُونَا شَيْخٌ ^(٣) كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظننا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى ﷺ ليمارس مهمة الرجل :

[القصص]

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. (٢٤) ﴾

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قري ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام .

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضى الرجل المسلم لها حاجتها .

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام ١٩٥٠م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التي لم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما خطبكما: ما شأنكما ؟ أو ما مطلوبكما ؟ . [كلمات القرآن] .

(٢) يصدر الرعاة: يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء . [كلمات القرآن] .

والصدور: الرجوع والانصراف . يقال: ورد إلى البشر ثم صدر عنها أي: رجع . وصدر دوابه: أرجعها بعد ورودها . [القاموس القويم] .

(٣) شيخ الإنسان يشيخ: أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من تجاوز الخمسين من عمره . وله جموع كثيرة منها: أشياخ ، وشيوخ ، ومشايخ ورد منها في القرآن جمع واحد هو: شيوخ . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَبِثُوا أَكْثَرُكُمْ ثُمَّ لَنُكُونُوا حِجَابًا .. (٢٥) ﴾ [غافر] . [القاموس القويم ١/ ٢٦٣] .

وهذا كله مأخوذ من كلمة :

[القصة]

ويُنهى شعيب عليه السلام هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول
لهم :

القصة:

وهكذا يعلم موسى - ﷺ - أن شعباً لا يلتقي بآبته هكذا دون مهر^(٢)،

(٢) المهر: الصداق، والجمع: مهرور. وهو الصدقة جمعها صدقات. قال تعالى: ﴿وَأُولُوا النِّسَاءِ صَدَقَاتُهُنَّ نِكَاحًا﴾ [١]. (١) ﴿النساء﴾. قال في فقه السنة (٢/٢١٨): «لم تجعل الشريعة حداً لظفته، ولا لكثرة، وإن الناس يختلفون في الغنى والفقر، ويتفاوتون في السعة والضيق، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها، وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة، يقطع النظر عن القلة والكثرة، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم».

لا . . بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه ^(١) .

وهذه القصة وضعت لنا مبادئ تحل كل المشكلات التي يتشدد بها
خصوم الإسلام .

وها نحن نجد في الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء
في المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال
المرأة في أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهي تربية الأبناء .

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل
الكائنات ، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم .

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ^(١) ﴾

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت في القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء :

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراهما كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار
والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

(١) الجمع بين الاثنين من المحرمات محرماً مؤقتاً ، يزول التحريم بزوال أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت
طلاقاً باتناً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثنية هي وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ .. ﴾ (٢٢) إلى قوله : ﴿ .. وَأَن تَحِبُّوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴾ (٢٣) [النساء] . وانظر فقه السنة (٢/ ١٦٩) .

(٢) سلطان مبين : برهان بين على صدق رسالته . [كلمات القرآن] .
والسلطان : الملك والقوة والفهر والحجة والبرهان . يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ ..
(٢٤) ﴾ [النحل] أي : قهر الشيطان برغبته وتسلطه على الذين يتولونه ويتبعونه ، وقال تعالى :
﴿ هَٰذَا عَلَى سُلْطَانِهِ ﴾ (٢٥) [الحاقة] أي : قوتي زالت وغلبني وقهرني فلا أستطيع الدفاع عن نفسي .
[القاموس المفهرج] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٦٥٥﴾

وربت^(١) ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر في أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتي لبيان صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات مثل : ناقة لؤود المبصرة^(٢) ، وشفاء عيسى عليه السلام^(٣) للأكمه والأبرص^(٤) بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التي تبين مطلوبات المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٩٦) [هود]

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تقنع العقل .

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يقهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قوالب ؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ نَعْلَمُكَ بِأَخِيْعٌ ^(١) نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٤) [الشعراء]

(١) يقول تعالى : ﴿ .. وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ﴾ (٢) [الحج] ، (أى : فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وربت أي : ارتفعت ، ثم أتبنت ما فيها من الأكوان والقوت من ثمار وزروع) قاله ابن كثير في تفسيره (٢/٢٠٨) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَأَنبَأْنَا لُؤُودَ الْتَافَةً مَبْصُورَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴾ (٢٥) [الإسراء] .

(٣) قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْمِزْنَا الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأَخْبَسَ الْمُتَوَكِّلِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (١٥) [آل عمران] . والكمه : أن يولد أعمى ، أو يفقد بصره ، والأبرص : من أصابه مرض جلدي يحدث بقعا يفضله في الجلد تشوّهه [القاموس القويم] .

(٤) يخع نفسه بخعاً وبخوعاً : قتلها ممأً وغيقاً وحزناً . قال تعالى : ﴿ فَعَلَّكَ بِأَخِيْعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ نَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَلْنَا ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ نَعْلَمُكَ بِأَخِيْعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) [الشعراء] [القاموس القويم ١/ ٥٦] بتصرف .

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتي إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه .

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجّة ؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل . . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطانٌ من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجّة ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ ^(١) عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ^(٢) ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ^(٣) لِلنَّاطِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية في موسى عليه السلام ، وطائفة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالنهباق مثلاً ، يدلل الاحتياط في قوله تعالى :

﴿ وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ^(٤) .. ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

أما العصا فهي الحجّة التي دفعت فرعون إلى أن يأتي بالسحرة ، ليغلبهم موسى أمام الفرعون والملأ ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون ^(٥) .

(١) حقيق على أن: حريص على أن ، أو علق بأن . [كلمات القرآن] .

(٢) مبين : أى : ظاهر أمره لا يشك فيه . [كلمات القرآن] .

(٣) ونزع يده : أخرجها من طرق قميصه . بيضاء : غلب شعاعها شعاع الشمس . [كلمات القرآن] .

(٤) إلى جناحك : إلى جنبك تحت العضد الأيسر . [كلمات القرآن] .

(٥) قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُدًّا فَأَلْزَمُوا رَبَّهُمْ فِرْعَوْنَ وَمُوسَىٰ ^(٥) ﴾ [طه] .

ونحن تعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى ﷺ بتسع آيات هي :
العصا التي تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير
سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص في الأنفس والشمرات ، لأن
الجذب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق
سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقمل والضفادع ، هذه هي
الآيات التسع ^(١) التي أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم
إيمانهم برسالة موسى ﷺ .

وهناك آيات أخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى
ﷺ ، هي تنق الجبل ^(٢) ، وضرب البحر بالعصا ^(٣) ، ثم ضرب الحجر
بالعصا لتنفجر اثنتا عشرة ^(٤) عيناً ، وكذلك نزول التوراة في ألواح ^(٥) .

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّبَنِي إِسْرَآءِيلَ ۖ ۞ (٤٥) ﴾ [الإسراء] . وقال تعالى :
﴿ فَالْقُرْآنُ عَصَا إِذْ آتَىٰ تَمِيمٌ ۖ ۞ (٤٦) وَتَرَىٰ يَدَهُ إِذْ آتَىٰ نِجَافَ الْمُنَافِرِينَ ۖ ۞ (٤٧) ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى :
﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۚ ۞ (٤٨) ﴾ [التين] .
وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ۖ ۞ (٤٩) فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لِمَ لَمْ يَأْتِهِ وَإِنْ تُبْعَثْهُمْ سَبْعَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ يَخْرُجُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا نَحْنُ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ۞ (٥٠) وَقَالُوا مِنْهُمْ أَتَيْنَا بِدِينٍ آيَةٍ لِّسَحَرَاتِنَا فِيهَا مَا نَحْنُ بِرَآئِيٍّ ۖ ۞ (٥١) فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۖ ۞ (٥٢) وَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ
لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ رَبِّكَ ۖ كَشَفْتُمْ عَنَّا الرِّجْزَ لِتُؤْمِنُوا لَكَ وَتَرْسِلَٰنَا مَعَكَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ ۖ ۞ (٥٣) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجْلِ هُمْ بِالْقُوَّةِ إِذَا هُمْ يَكْفُرُونَ ۖ ۞ (٥٤) فَانظُرْنَا بِهِمْ فَأَعْرَفْنَا هُمْ فِي الْيَوْمِ بِأَنَّهُمْ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ ۖ ۞ (٥٥) ﴾ [الأعراف] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَفَخْنَا فِي السَّحَابِ لُوقْمَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ۖ ۞ (٥٦) ﴾ [الأعراف] . ونسقه : رفعه من مكانه وحركه
وجذبه . [القاموس اللغوي] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَأَوْعَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ احْزِبْ بِضُكِّ السَّحَرِ فَإِنِ اتَّفَقُوا فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ ۞ (٥٧) ﴾ [الشعراء] . والطود : الجبل الثابت العالي [القاموس اللغوي ٤٠٨/١] .

(٤) قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا احْزَبَ بِضُكِّ السَّحَرِ لَا تَعْمَرُ مِمَّا أَتَيْنَا بِهِنَّ عَذَابٌ ۖ ۞ (٥٨) ﴾ [البقرة] .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ۖ ۞ (٥٩) ﴾ [الأعراف] . والألواح : جمع لوح ،
وهو الصفحة العريضة من خشب أو غيره يكتب عليه . [القاموس اللغوي ٢٠٦/٢] .

إذن: فالكلام في الآيات التسع المقصود بها الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل .
ولذلك نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا في آخر السورة بالخلاف بين موسى ﷺ وبنى إسرائيل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ۚ ۝١١٠ ﴾ [هود]

إذن: فقصة مع بنى إسرائيل تأتي بعد إتيائه الكتاب ، أى : التوراة .
وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى ﷺ مع فرعون فيقول :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَمُلْكُنَا مُبِينٍ ۝١١١ ﴾ [هود]

أى : سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاً^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّي فَرَعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ
وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝١١٢ ﴾

والملا: هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس .
ويقال : « فلان ملء العين » أى : لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر .

(١) الفكاك: فكاك الرهن والأمير: ما قك به . والمراد به هنا : الهروب [العجم الوسيط] يتصرف .
(٢) الرشد: ضد الغى والضلال ، وضد السفه وسوء التدبير . ورشد فلان: أصاب وجه الصواب والخير والحق . ونفى الرشدين للحق والخير والصواب . [القاموس التويم ١ / ٢٦٥] يتصرف .

فالملا - إذن - هم أشراف القوم ، وهم - عادة - الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْتَخَفَّ ^(١) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملا والقوم ، نجده يبين ويفصل بين الملا من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملا من جهة ، والقوم من جهة أخرى . . فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبين لنا الله سبحانه أن الملا قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذى يصفه الحق سبحانه بقوله :

﴿ .. وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [هود]

والرشد يقابله الغى ، وهذا القول يدلنا على أن الملا من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأن ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

ويبين الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى :

﴿ يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ
وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ^(٢) (٩٨) ﴾

(١) خف الحمل : قل ولم يكن ثقیلاً . ومن اللجاز : خف عقله : طاش وحمق . ومنه : استخفه : أى : استضعف عقله وسخره وسبّره على هواه وحيله على الطيش والحمق . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف] [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] .

(٢) يقدم قومه : يتقدمهم كما يتقدم الوارد . فأوردهم النار : أدخلهم فيها بكفره وكفرهم . الورد المورود : المدخل المدخول فيه ، وهو النار . [كلمات القرآن] .

ركلمة «يُقدم» هي من مادة «القاف» و«الدال» و«الميم». وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابةً ، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: «قدم فلان» دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: «أقبل فلان» فهذا يعنى الإقبال بشيء من العزم، و«قدم القوم يقدمهم» أى: أنهم يتقدمون فى اتجاه واحد ، ومن يقودهم يتقدمهم.

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملا ، والقوم اتبعوا الملا وفرعون ، وما داموا قد اتبعوه فى الأولى ؛ فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة.

ويأتى القرآن بآيات ويبيّنُها ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿قَوْرَيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ﴾ (٦٨)
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَظَرُ عَلَيْهِمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ
بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا (٧٠) ﴿ [مرم]

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة ، ويلقيه فى النار ، لأنه أعلم بمن يجب أن يصلّى السعير.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۖ كَانَ عَلَىٰ رَيْكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ (٧١) ثُمَّ نَنْجِي
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا (٧٢) ﴿ [مرم]

(١) جثياً: ياركبن على ركبهم لشدة الهول. عتياً: عصياناً ، أو جرأة أو فجوراً. صلياً: دخولاً أو مقاساة لحرها. [كلمات القرآن].

(٢) واردة: أى: بالغ النار ، وواصل إليها ، فمنهم من يردّها ليدخلها ، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها وروقيتها ليدرك مقدار نعمة الله سبحانه عليه بالنجاة منها. [القاموس القويم ١/ ٢٣٠] ، وورد فى [كلمات القرآن]: واردة ، أى: بالمرور على الصراط الممدود عليها.

(٣) حتم الله الأمر حتماً: أرجبه ، وهذا أمر حتم: أى: لازم لا بد منه ولا فكلك منه. والحتم: القضاء النافذ. قال تعالى: ﴿.. كَانَ عَلَىٰ رَيْكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مرم] أى: أن ورود المخاطبين من الكفار النار ليعذبوا فيها هو قضاء نافذ لازم. وقيل: يردّها المؤمنون أيضاً ليدركوا مقدار نعمة الله عليهم بالنجاة منها. مقضياً: أى: محكوماً به مفروغاً منه ، لا راد له ، ولا معقب عليه. [القاموس القويم ١/ ١٤١].

ولم يقل الحق سبحانه : « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » .

وإنما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴾ (٧١) [مریم]

وبذلك عمّم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل .

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون :

﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ^(١) ﴾ (٩٨) [هود]

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن «الورود» ، وهو الكتاب الذي نزل بلسان عربى مبين ، لمجد أن الورود يأتي بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت : «ورد يرد وروداً» ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل : «ورد يرد وِرْدًا» بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ .. وَيَسَّ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ^(٢) ﴾ [هود]

أى : أنهم يشعرون باليسر لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه .

إذن : فكلمة «الورد» تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله :

﴿ وَتَسْأَلُ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ^(٣) ﴾ (٨٦) [مریم]

(١) يس الورود المورود : أى : يس الموضع الذى يرده الإنسان ليلقى فيه العذاب الأليم . [القاموس القويم ٢٣٠ / ٢] .

(٢) الورد : الماء أو موضعه ، أو الإبل الواردة على سبيل اللجاز . قال تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ^(١) ﴾ [مریم] أى : جماعة يردونها ويدخلونها كما تزد الإبل الماء . [القاموس القويم ٢٣٠ / ٢] .

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى^(١) في معلقته :

فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَامُهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ^(٢)

والشاعر هنا يصف الركب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أي شيء يعكرها أو يكدرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً في يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَرَكْتُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَّارِبٌ
أُخْرَى^(٣) ﴾ (١٨) [طه]

ويقول الشاعر^(٤) :

فَأَلْقَيْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى^(٥) كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ^(٦) الْمُسَافِرُ

(١) حكيم الشعراء في الجاهلية ، من قبيلة مضر ، ولد في بلاد «مزيثة» بنواحي المدينة ، كان أبوه وخاله وابناه كعب ويجر شعراء ، وكذلك أخته سلمى والحساء . توفي عام (١٣ ق هـ) . [انظر : الأعلام لخير الدين الزركلي] .

(٢) الجمام : ما اجتمع منه في البئر والحوض وغيرها . ووضع العصي : كناية عن الإقامة ، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم . والمتخيم : ابتداء الحيمة . [راجع : شرح المعلقات السبع للزوزني - ص ٨٢] . والمعلقة من بحر الطويل .

(٣) هــ الشجر بهش هــاً : ضربه بعضاً ليسقط ورقه لتأكله الغنم . قال تعالى : ﴿ وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي .. ﴾ [طه] أي : أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها .

ومارِب أخرى : أي : حاجات وأغراض كثيرة أخرى كالتقاء ضرر أو غير ذلك . [القاموس المقوم ١٧/١] يتصرف .

(٤) هو : محقر بن حماد . [قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة : نوى] .

(٥) النية والنوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . والنية والنوى جميعاً : البعد . والنوى : الدار . والنوى : التحول من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . وقد أورد ابن منظور هذا البيت في اللسان مادة : نوى .

(٦) الإياب : الرجوع والعودة . أب يروب : يرجع . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهًا لَّهُمْ ﴾ [الغاشية] أي : رجوعهم . والمآب : المرجع ، اسم زمان واسم مكان . [القاموس المقوم ٤٢/١] .

فساعة رأى الراكب المياه زرقاء ، فهذا يعنى أنها مياه غير مكذّرة .
ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقَة إن كانت خالية
من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتعكس عليها صورة السماء الزرقاء .
والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافى وتوقفوا وأقاموا
فى المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعنى الذهاب إلى الماء دون الشرب منه ، والورد
للماء يُقرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء
لا شك أنه يعانى من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها .
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَبَشِ الْوَرْدَ الْمُرْوَدُ ٩٨ ﴾ [هود]

وفى هذا تهكم شديد ، لأنهم - قوم فرعون - ساعة يرون الماء يشعرون
بقرب رى الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبش
ما يشربون ، فهو يطمعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك .
كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يَقَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ٢٩ ﴾ [الكهف]

فهم ساعة يسمعون كلمة «يقاثوا» يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ،
فإذا ما علموا أنه ماء كالمهل يشوى الوجوه ، عاثوا من مرارة التهكم .

ولله المثل الأعلى : فأنت قد تجد من يدعوك لأطياب الطعام ، وبعد ذلك
تنسل يديك ، فيلج عليك من دعاك إلى تناول الحلوى ، فتستشرف نفسك

(١) كالمهل : مثل ددى الزيت أو كالمذاب من المعادن . [كلمات القرآن] . والمهل : المعدن المذاب والقطران
وعكر الزيت المثللى ، والقيح . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٢] .

إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دعاك قد أوصى الطباخ أن يخلط
الحلوى بنبات «الشطة» فيلتهب جوفك ؛ أليس في هذا تهكم شديد ؟
والحق سبحانه يبين لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن
أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذي
يأكله أهل النار .

والحق سبحانه يقول :

[الحاقة] ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ^(١)﴾ (٢٦)
وهكذا نصير النكبة نكتتين .

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه :

[مرهم] ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ..﴾ (٢٦)
بمعنى أنهم جميعاً سوف يَردون جهنم .
ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

[مرهم] ﴿ثُمَّ لَنَعْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا﴾ (٢٧)
إذن : فالحق سبحانه يعطى لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون
النار وتسعرها^(٢) ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف لُجَّتْهم كلمة الإيمان منها
فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) الغسلين : غسالة إبدان أهل النار ، أو ما يسيل من جلود أهل النار من الفحيح وغيره مما تعافه النفس وتكرهه . قال تعالى : ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ (٢٦) [الحاقة] . [القاموس القويم ٥٤ / ٢] .
(٢) سمرت النار : اشتعلت ، وأسعرها ؛ أوقدها وميجها . وسعرها - بالشدديد - : هيجها . قال تعالى :
﴿وَإِذَا الْجُحُومُ سُفِرَتْ﴾ (٢٧) [التكوير] أي : أوقدت بشدة . [القاموس القويم ٣١٣ / ١] .

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾^(١)

أى : أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ،
ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهى لعنة يوم القيامة : ﴿يَكُونُ الرِّفْدُ
الْمَرْفُودُ﴾^(٢) والرقد : هو العطاء ، فهل تعد اللعنة فى الآخرة عطاء ؟

إن هذا تهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه :

﴿.. وَبَشِّرِ الثَّوَدَّ الْمَرْفُودَ﴾^(٣) [هود]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^(٤)

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب ؛ لأنها كذبت أنبياءها .
والخطاب موجّه لرسول الله ﷺ لتثبيت فؤاده ، والحق سبحانه إغما يبين
له أن الكافرين لن يكونوا ينجون من العذاب ؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم
السابقة الكافرة بالعذاب .

وقول الحق سبحانه :

(١) وفده يرفده وفداً : أعطاه وأعانه . والرفد : العطاء والمعونة . قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
يَكُونُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودَ﴾^(١) [هود] أى : العطاء المعطى لهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ،
وسمى اللعنة رفداً تهكماً وسخرية . [القاموس القويم ١/ ٢٧١] .

(٢) قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^(٢) [هود] أى : منها باقى ، ومنها
هالك . وقال تعالى : ﴿.. عَمَّنْ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِئِينَ﴾^(٣) [الأنبياء] أى : جعلناهم كالزروع
المحصود ، أى : أهلكناهم . [القاموس القويم ١/ ١٥٦] .

[هود]

﴿ نَقْصَةُ عَلَيْكَ ۖ ۝١١٠ ﴾

يتطلب أن نفرّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقي لها ، فبعض الناس يقول : إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تُمثّل بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحكمة .

ولهؤلاء نقول : أنتم لم تفهموا معنى كلمة «القصة»^(١) في اللغة العربية ، لأنها تعني - في لغتنا - الالتزام الحرفي بما كان فيها من أحداث ، فهي مأخوذة من كلمة : «قص»^(٢) «الأثر» ، ومن يقص الأثر إنما يتتبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشيء المراد .

إذن : فقصاص^(٣) القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُلح عليه في عرف العامة أنه قصص ، بما في تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمّى - لغوياً - بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً .

وقصاص الإهلاك للآم التي كفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التي اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر .

(١) قص الكلام أو الأخبار ، يقصها قصاً وقصاصاً : تتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ ۝١١٠ ﴾ [القصص] أي : قص عليه أخباره وحديثه بها . وقال تعالى : ﴿ وَرَسُولًا قَدْ قُصَّصَتْهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ رُوسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۖ ۝١١١ ﴾ [النساء] أي : ورسلاً ذكرنا لك أخبارهم ، ورسلاً لم تذكر لك أخبارهم . [القاموس القويم ١/ ١٢٠] .

(٢) قص الأثر قصصاً : تتبعه . ومنه قوله : ﴿ ۖ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ ۝١١٢ ﴾ [الكهف] أي : بتتبع آثارهما تتبعاً . [القاموس القويم ١/ ١٢٠] .

(٣) القصص : مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار . قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لِنَاسٍ قِصَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ يُوسُفَ ۖ ۝١١٣ ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ۖ ۝١١٤ ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۖ ۝١١٥ ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ١/ ١٢٠] .

سُورَةُ هُودٍ



ونحن نجد في آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة
وتقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم .

ولذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٢٧) وَبِاللَّيْلِ أَقْلًا تُعَظِّقُونَ (١٢٨) ﴾

[الصفحات]

أى : أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم .

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ
عَنَّهُمُ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ
أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ (١٠١) ﴾

وبين الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم ؛
لأن معنى الظلم أن يكون لإنسان الحق ، فتسلبه هذا الحق .

وفى واقع الأمر أن تلك الأمم التى كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هى
التي ظلمت نفسها بالشرك ، وكذبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفى
يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة .

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق
سبحانه مُتَرَه عن أن يظلم أحداً .

(١) التتبيح : الإهلاك والتخدير . والتبأب : الهلاك . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا كُنَّا لِنُعْزِلَ إِلَّا لِي تَبَّ (٢٧) ﴾ [غافر] . وتبَّه تبيهاً : أهلكه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ (١٠١) ﴾ [هود] . [القاموس القويم

وهم حين أشركوا بالله - تعالى - آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك
الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمي مَنْ آمنوا بها ١٢

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التي عبدوها تلعنهم ، وهم في النار ،
وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار .

والحق سبحانه يقول عن النار :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ ۞ (٢٤) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجنّوا ،
بالجهل على هذا الإنسان الذي عبده أو تلك الأحجار التي صلّوا لها
أو قدّسوها .

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور - وكلاهما من الأحجار -
فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحي على الرسول ﷺ ، وغار ثور
حمى رسول الله ﷺ حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر في أثناء الهجرة
من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ يَرَى الرُّوحَ آمِيناً يَغْزُوكَ بِالْأَنْوَارِ

فَحِرَاءُ وَثُورٌ صَارَا مَسَوَاءَ بِهِمَا تَشْفَعُ لَأَمَّةِ الْأَحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد ﷺ ، لكن
غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول في الهجرة .

(١) الوفود : ما تشتعل به النار من حطب وغيره . قال تعالى : ﴿ النَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ (٥) ﴾ [الروج] أي : ذات
الحطب الذي يلتق فيها ليزيدها اشتعالاً ، وذلك يدل على حرص الكفار القاعدين حولها على زيادة
اشتعالها ليعذبوا بها المؤمنين أشد العذاب - كما حدث في قصة أصحاب الأخدود - ولكن النار في
الآخرة يكون وقودها الناس والحجارة ، والمراد بالناس هنا : الكفار والمعصاة الذين يكون مصيرهم إلى
النار . قال تعالى : ﴿ .. وَأُولَئِكَ هُم وَقُودُ النَّارِ (١٦) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٨] يتصرف .

ويقول الشاعر على لسان الأحجار:

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لِلَّهِ مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ^(١)
قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلًا كَمَا قَدْ تَجَنَّوْا عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِي^(٢)
لِلْمُعَالَى جَزَاؤُهُ وَالْمُعَالَى فِيهِ تُنَجِّيه رَحْمَةُ الْقَفَّارِ

وهكذا لا تُغنى عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء آكانت بشراً أم حجارة ،
لم تُغنى عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذى تلقوه عقاباً فى الدنيا
وسعيراً فى الآخرة ، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله فى الدنيا ، فحين
جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميمهم من العذاب .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابٍ ۚ ﴾ (١٠١) [عود]

أى : أن تخلّى تلك الآلهة التى أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من
دون الله .. هذا التخلّى يزيدهم إلماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً ، لأن التتّيب
هو القطع والهلاك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴾ (١٠٢) [المسد]

(١) الأسحار : جمع السحر ، يفتح السين والحاء . وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال
تعالى : ﴿ .. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۚ ﴾ [آل عمران] ، وقال : ﴿ رِبَاً أَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۚ ﴾
[الذاريات] . [القاموس القويم ٢٠٥/١] .

(٢) الحواري : هم الحواريون ، وهم الخلفاء والأصفياء والأنبياء . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَعْبَادُ
اللَّهِ .. ﴾ [آل عمران] والحواري : الخالص النقي من كل شىء . [القاموس القويم ١٧٧/١] .

(٣) تب يتب تباً وتبأباً : خسرو هلك . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴾ [المسد] وهو دعاء عليه
بالخسران والهلاك . ودعا عليه أولاً بأن تهلك يده لأنهما آلة البطش والإيذاء . [القاموس القويم
٩٦/١] .

كذلك الأخذ الذي أخذ الله به القرى التى كذبت أنبياءها .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ
إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١١٢)

أى : أن الأخذ الذى أخذ به الله القرى الكافرة ، إنما هو مثل حى لكل من يكفر .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥﴾ [الفجر]

أى : أن الحق سبحانه يقسم لكل صاحب عقل يستوعب ضرورة الإيمان ، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب ، فيقول سبحانه :

(١) الأليم : المؤلم شديد الإيلام والوجع . قال تعالى : ﴿... وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة] . والأليم : الوجع الشديد . [التغابن القويم ٢٦/١] بتصرف .

(٢) والفجر : قسم من الله تعالى بالوقت المعروف (وقت الفجر) .

وليل عشر : العشر الأول من ذى الحجة .

والشفع والوتر : يوم النحر ، ويوم عرفة .

والليل إذا يسر : إذا يمضي ويذهب أو يسار فيه .

هل فى ذلك : أى : فى المذكور الذى أقسمنا به .

قسم لذي حجر ؟ : مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء - نعم - (وجواب القسم) لتعذيب الكافرين .

[كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد مخلوف .

سُورَةُ هُودٍ

﴿١٦٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصُّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ بِالْمُرْسَادِ (١٤)﴾ [النجر]

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر.

وقوله سبحانه هنا :

[هود]

﴿وَكَذَلِكَ .. (١٠٢)﴾

أى : مثل الأخذ الذى أخذت به القرى التى كذبت رسلاً ، فظلمت نفسها ، والأخذ هنا عقاب على العمل ، بدليل أنه أُنْجِيَ شَعِيباً عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخَذَ قَوْمَهُ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذى يستحق العقاب .

ومثال ذلك : لجده فى قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه :

[هود]

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤١)﴾

فالذى وضع ابن نوح فى هذا الموضع هو أن عمله غير صالح ؛ لذلك فلا يقولن نوح : إنه ابنى .

(١) عَاد : قوم هود ، سُمُوا بِاسْمِ آبَائِهِمْ .

إِرَمَ : هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة .

ذات العِمَاد : الشجرة ، أو الأبنية الرابطة المحكمة بالعمد .

جَابُوا الصُّخْرَ : قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم .

ذِي الْأَوْتَادِ : الجيرش الكثيرة التى تشد ملكة .

سَوْطَ عَذَابٍ : عذاباً شديداً مولماً دائماً .

إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ بِالْمُرْسَادِ : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها . [كلمات القرآن] .

فليس الإهلاك بعلة الذات والدم والقرباة ، بل الإهلاك بعلة العمل ،
فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن تعلم
أن النبوة للأنبياء ليست بنوة الذوات ، وإنما بنوة الأعمال .

وكذلك نجد الحق سبحانه ينبه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين
كرم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال :

﴿ وَإِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ (١٦١) ﴾ [البقرة]

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ ۞ (١٦٢) ﴾ [البقرة]

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله
سبحانه :

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۚ ۞ (١٦٣) ﴾ [البقرة]

وظلت هذه القضية في بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن النبوة
للأنبياء ليست بنوة ذوات ، بل هي بنوة أعمال .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ (١٦١) ﴾ [البقرة] أي : قدوة يقتدى بك الناس . ويقول تعالى :
﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَانِهِمْ ۚ ۞ (٧٦) ﴾ [الاسراء] أي : برسولهم فيقال : يا أتباع إبراهيم ، وأمة موسى ،
ويا أمة محمد - أو بكتابهم ، فيقال : يا أمة التوراة ، ويا أمة الإنجيل ، ويا أمة القرآن . [القاموس القويم
٣٣/١] .

(٢) الذرية : للمفرد والثنى والجمع والمذكر والمؤنث من نسل الإنسان . قال تعالى : ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ مِّمَّنْ ۚ ۞ (١٦٣) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۚ ۞ (١٦٤) ﴾ [الحديد] وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنِّي أَعِزُّهَا بِكَ وَفَرِّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۚ ۞ (٤٥) ﴾ [آل عمران] وقال
تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ ۚ ۞ (١٦٥) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَمَا هَبْنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ ۚ ۞ (٧٤) ﴾ [الفرقان] بالجمع ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ وَأَعْرَافِهِمْ ۚ ۞ (١٦٦) ﴾ [الأنعام]
بالجمع ، ورسمت بغير ألف في المصحف . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسْلَىٰ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَتَمَنَّنَ فَقَالَ إِنِّي
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۚ ۞ (١٦٧) ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم
٢٤٢/١] ينصرف .

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله في وادٍ غير ذي زرع ،
وقال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. ﴾ (١٢٦) [البقرة]

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ .. ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس ؛ لأن الرزق عطاء ربوبية يستري فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية ^(١) وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فأنت يا إبراهيم دعوت برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعي الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية في التكليف ، وعطاء الربوبية في الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر .

إذن : فأخذ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف التناول لمخالف ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الأخذ ، فإذا كان الأخذ هو الله سبحانه ، فهو أخذ عزيز مقتدر .

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق ؛ لأن الحق سبحانه حين يحرم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرم عليك أيضاً ظلم نفسك .

(١) عطاء الربوبية عام ، وعطاء الألوهية خاص ، فإلغاء العام لكل مخلوق ، وإلغاء الخاص لأهل التكليف من الإيمان بالسخر واليقين النقي . من حكم الشيخ .

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله :

﴿ .. إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ ﴾ [هود]

أى : أن أخذه موجه على قدر طلاقة قدرته سبحانه .

وهب أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ۝١٢٦ ﴾ [النحل]

حتى لا تبیت انفعالاتك عندك قهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر في قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ۝١٣٤ ﴾ [آل عمران]

إذن : فلما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، وإما أن تكظم غيظك ، أى : لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوعى ، وإما أن ترتقى إلى الدرجة الأعلى وهى أن تعفو ، لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو^(١) .

(١) صاقه عقاباً : جازاه سوءاً بما فعل . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ۝١٢٦ ﴾ [النحل] .

والعقاب والمعاقبة : إيقاع الجزاء على المذنب . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ ۝١٢٥ ﴾ [فصلت] . [القاموس القويم ٢/٢٩] .

(٢) الكاطمين الغيظ : الخاضعين غيظهم في قلوبهم . [كلمات القرآن] . وكظم الغيظ : إمساكه وحبسه في النفس والصبر عليه . [القاموس القويم ٧/١٦٣] .

(٣) يقول الله سبحانه : ﴿ وَاسْأَلُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلَ عَرْشُهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٧ ﴾ الذين يتفكرون في السراء والعراء والكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٢٨ ﴾ [آل عمران] . ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٥٥ ﴾ [فصلت] .

ولذلك حين سألوا الحسن البصري : كيف يُحسِن الإنسان إلى من أساء إليه ؟

أجاب: إذا أساء إليك عبد ، ألا يُغضب ذلك ربه منه ؟ قالوا: نعم. قال: وحين يغضب الله من الذي أساء إليك : ألا يقف إلى جانبك ؟ أفلا تحسِن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك ؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين ^(١) أنه سمع أن شخصاً اغتابه : فأهدى إليه - مع خادمه - طبقاً من بواكير ^(٢) الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً: لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك ؟ قال العارف بالله: بلغة شكرى وامتنانى لأنه تصدَّق علىَّ بحسناته عندما اغتابنى ، وحسناته - بلا شك - أنفَسُ من هذا الرطب.

ولذلك يقال: إن الذى يعفو أذكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذى يعاقب إنما يعاقب بقوته ؛ والذى يعفو فهو الذى يترك العقاب لقوة الله تعالى، وهى قوة لا متناهية.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ ^(٣) وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

[هود]

(١) هو الحسن البصري ، روى أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد يلغنى أنك هديت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فأعذرني لمانى لا أقدر أن أكافئك على التعمام . أورده البغالى فى الإحياء (٣/ ١٥٤) .

(٢) البواكير : جمع باكور أو باكورة، وهى أول ما يدرج من الثمر، وهى أيضاً المعجل من كل شىء. [المعجم الوسيط : مادة (ب ك ر)] بتصرف.

(٣) القرى: جمع قرية وهى البلدة الكبيرة وتكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا . . .﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، محاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا مِنْ قَرْيَةٍ مِمَّنْ أَنْشَأْنَا مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ مِنْهَا لَمْ نَصِرْ لَهُمْ﴾ [محمد] والمراد أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ . . .﴾ [هود] أى: أخذ أهلها وهم ظالمون. [القاموس القويم : مادة (ق ر ي)].

أى: أَخَذَ موجِعٌ على قدر قوة الله سبحانه ! وهو أَخَذَ شديد ! لأن الشدة تعنى: جمع الشيء إلى الشيء بحيث يصعب انفكاكه ؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبضهما بحيث يصعب تحلل أى منهما عن الآخر.

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ^١

ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ^٢﴾

من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التى تخبر عن الذى حدث للامم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل.

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة ؛ ويعتبر بما جاء فيها ؛ وينتفع بالخبرة التى جاءت منها ؛ فهو صاحب بصيرة نافذة ؛ فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملفتة.

ولذلك يقال: «إن لكل آية مواليد ؛ هى العبر بالآيات» ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

(١) مجموع: اسم مفعول من جمع والامر الجامع: الامر العظيم الذى يجمع الناس له. والجامع: اسم فاعل من جمع، وهو من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿وَمَا إِلَهُكَ جَمِيعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَمِيعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْأَلُوهُ...﴾ [النور] [القاموس القويم: ملحة (ج م ع)].

(٢) مشهود: اسم مفعول، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود] أى: حضره الناس، وشاهدوا هولاء أو حضرته ملائكة العذاب، وقوله: ﴿إِنْ أَقْرَأْتَ فَقَجِّرْ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء] أى: إن قرأت انفجر تشهده الملائكة وتسجل ثوابه. ومشهد: اسم مكان، واسم زمان ومصدر بمعنى: كما فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم] [القاموس القويم: يتصرف من ٢٥٩ ج ١].

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ٦٦٧٧ ﴾

﴿وَكَايْنِ^(١) مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّنَّ عَلَيْهَا وَهَمَّ عَنْهَا
مَعْرُضُونَ^(٢)﴾ (١٠٥)

[يوسف]

إذن: فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من
أولى الألباب^(٣)؛ فلا ندخل في دائرة من لا يخافون العذاب؛ أولئك
الذين يتلقون العذاب خزيًا في الدنيا وجحيمًا في الآخرة؛
وعذاب الآخرة لا نهاية له؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿.. ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (١٠٢)

[هود]

أي: أن الفضيحة في هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر؛ من
لدى آدم إلى آخر البشر؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم
الإنسان؛ وأمام من لا يعرفهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ..﴾ (١٠٢)

[هود]

وكلمة «مجموع» تقتضي وجود «جامع»؛ وهـ «المجموع» يتناسب مع قدرة
«الجامع»؛ فما بالناس والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى.

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه؛
فالحق سبحانه يقول:

(١) ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ ..﴾ (١٠٥) [يوسف]: أي: كم من آية، أو كثير من الآيات. [كلمات للقرآن للشيخ
حسني مخلوف].

(٢) معرّضون: اسم فاعل من «أعرض»، وأعرض عن الشيء، ولمي متصرفاً عنه غير راقب فيه. قال
تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَتَأَتَّى بِجَانِبِهِ ..﴾ (٨٧) [الإسراء]. [القاموس القويم: مادة: (ع ر ض)].

(٣) الألباب: جمع لب، وهو العقل. وقد وردت في القرآن ١٦ مرة. يقول تعالى: ﴿.. إِنَّمَا يَذْكُرُوا ثَوْرًا
الْأَلْبَابِ﴾ (٥٣) [الرعد].

﴿ .. إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (١١٤) [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٩٧)

[الأنبياء]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (١٠٣) [هود]

أي: أن كل الخلق سيشهدون هذا الفضيحة المخزية لمن لم يعتبر بالآيات.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك في ميعاد هذا اليوم:

﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ^(١) ﴾

وهكذا نعلم أن تأخر مجيء يوم القيامة ؛ لا يعنى أنه لن يأتى ؛ بل سوف يأتى - لا محالة- ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم فى كتاب مواليدكم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ .. ﴾ (١٠٤) [هود]

يتطلب أن نعرف أن كلمة «الأجل» تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته.

(١) معدود: اسم مفعول من الفعل (عد). قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُعَدَّدُونَ .. ﴾ (١٥٠) [البقرة] أى: محسوبة قليلة، هي أيام شهر رمضان. وقال تعالى: ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ (١٠٤) [هود] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ (١٠٠) [مريم]. والأجل: مدة الشيء وغاية الوقت ووقت الحياة أو وقت الدين أو وقت الموت. والمراد به هنا يوم القيامة. [القاموس القويم: (مادة ح د د) - و(مادة أ ج ل)] بتصرف.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٧٩

والحق سبحانه يقول:

﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ^(١) ﴾ (٣٨) ﴿ [الرعد]

وتطلق كلمة «الأجل» مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ .. فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ^(٢) ﴾ (٣٩) ﴿ [الاعراف]

وانعرف جميعاً أن كل أجل - وإن طال - فهو محدود ، وكل محدود قليل مهما بدا كثيراً ؛ لذلك قلنقل أن كل محدود قليل، ما دُمنا قادرين على إحصائه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ^(٣)

وَسَعِيدٌ ^(٤) ﴾ (٤٠) ﴿

(١) الكتاب: له عدة معانٍ منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والرسالة، ومصدر كتب، ويسمى به ما كتب وسجل في صحفه ومصدر كاتب. قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ بِهِ .. ﴾ (٧) ﴿ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ أَذْهَبَ بِكُنَازِيهِ هَذَا فَاتَّخَذَهُ مِنْهُمْ .. ﴾ (٤٥) ﴿ [النمل] ، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثُوا الْأَرْحَامَ مِنْهُمْ أَوْلَىٰ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٦) ﴿ [الأحزاب] أي: في حكمه وتقديره أو في القرآن الكريم في آيات المواثيق. وقال تعالى: ﴿ تَوَلَّوْا كِتَابَ رَبِّ اللَّهِ مَتَى .. ﴾ (٤٨) ﴿ [الأنفال] أي: ولولا قضاء من الله من قبل سجله سبحانه عنده؛ فلا تغيير له، وهو إباحة الغداء. وقال تعالى: ﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (٣٨) ﴿ [الرعد] أي: موعود مكتوب مسجل عند الله. وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (٢٣٨) ﴿ [النساء] أي: لرضاً مسجلاً عنده سبحانه، كل صلاة في وقت وفي ميعاد محدد معين. [القاموس القويم: مادة (ك ت ب)] يتصرف.

(٢) تأخر واستأخر ضد تقدم. قال تعالى: ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٩) ﴿ [سبا] أي: لا تستأخرون ولا تطلبون التأخير ولا التأجيل، ولا تستقدمون لأنه محدد بوقت معلوم يستعمل تقديمه أو تأخيره. [القاموس القويم: مادة (أ ج ر)] -

(٣) شقى شقاً وشفقاء وشفقاء: ساءت حاله المادية أو المعنوية، قهر شقى واسم التفضيل لشقى. قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمُوا فُؤَادَهُ لَبِيقَاتٍ عَلِيمًا شَفِيعًا .. ﴾ (٤٠) ﴿ [المؤمنون] أي: حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس والشقى: المحروم من الخير. قال تعالى: ﴿ .. وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّي شَفِيعًا ﴾ (٤١) ﴿ [مريم] ، أي: لم يسبق لي أن كنت محروماً من الخير حين أدعوك. [القاموس القويم: مادة (ش ق ي)] -

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة في حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا ۖ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يعنى: لا تتكلم أى نفس^(١) إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون فى الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التى منحهم إياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم . وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح؛ فتجد الأخرس الذى لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذى لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذى لا يبصر ، وغير ذلك.. وبذلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هى أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسألة ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ ۖ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يبين لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا فى الدنيا ، فهى ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا فى إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح. وقد سلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٢٨) ﴾ [النبا]

(١) النفس: الروح وذات الشيء وحقيقته محسناً لقبوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ .. (١٥٩) ﴾ [الأعراف] هى نفس آدم عليه السلام. وقوله : ﴿ نَفْسٌ مَّا لِيْ نَفْسِي ۖ .. (٥١٣) ﴾ [المائدة] أى: ما أستره فى ضميرى. وقوله : ﴿ وَمَا أَرَىٰ نَفْسِي ۖ .. (٤٢) ﴾ [يوسف] أى: ذاتى وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَإِنِ ارْتَمَىٰ لَهَا ۖ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] أى: إنساناً والنفس لها حالات، فتكون أمارة، وتكون نوامة، وتكون مطمئنة وراحمية، وترتفع برجتها لتكون مرضية قد رضى الله عنها وأرضاها، وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَكُمْ اللَّهُ نَفْسًا ۖ .. (٢٥) ﴾ [آل عمران] أى: غضيه [القاموس القويم ص ٢٧٨ ج ٢]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٦٨١﴾

ويقول الحق عز وجل في آية أخرى:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧)﴾ [الصافات]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ (١) عَنْ نَفْسِهَا .. (١١١)﴾ [النحل]

وفي موضع آخر يقول سبحانه:

﴿وَقِفُّهُمْ (٢) إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ (٢٤)﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها ؟ فهناك آيات

تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفي القدرة على الكلام.

وأقول: يجب أن نفهم أن الكلام الذي سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم

القيامة هو الكلام المجدي النافع (٣) ، وسيتركهم البعض كلام السفسطة الذي

لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ؛ وذكره لنا القرآن في قوله سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّهَ الَّذِينَ أَضَلَّانَا (٤) مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ تَجْعَلُهُمَا

تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٤٩)﴾

[فصلت]

(١) جادل: خصم بالحق، وبالباطل، واستعمل في الباطل في قوله تعالى: ﴿هَذَا أَنْتُمْ مَوْلَاؤُكُمْ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤)﴾ [النساء] ، واستعمل في الحق في قوله تعالى: ﴿وَجَادَلْتُمْ بِالْحَقِّ هِيَ أَحْسَنُ ..

(١٠٥)﴾ [النحل] ، وقد نهى الله سبحانه عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم، قال

تعالى: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. (١٢٧)﴾ [البقرة] [القاموس القويم: مادة (ج د ل)].

(٢) قفؤهم: حبسهم في موقف الحساب. [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف].

(٣) أي: أنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح

بعضهم الذنوب على بعض، فأمّا التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً،

وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، تسمى من يتكلم بلا حجة فيه له

غير متكلم. قاله القرطبي في تفسيره (٢٤١٧/٤).

(٤) أضل فلان غيره: أوقعه في الضلال. والضيال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿... وَخَلَّ عَنْهُمْ مَا

كَانُوا يَفْعَلُونَ (٥٠)﴾ [يونس] أي: غاب عنهم ما عبثوه. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

.. (١٠٠)﴾ [الكهف] أي: ضاع عقلهم ولم يحقق الرجاء منه، أو لم يجدوا ثواباً يوم القيامة.

[القاموس القويم: مادة (ض ل ل)] بتصرفه.

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى.

إذن: فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفارقة؛ فوقت يتكلمون فيه ؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون، ويأمر الحق سبحانه الجوارح المنفصلة أن تتكلم وتشهد عليهم^(١).

ويقسم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين، كما فى قوله تعالى فى آخر الآية:

﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ^(١) وَسَعِيدٌ ^(٢) ﴾ [هود]

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين: «شقى» و«سعيد» ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نُعت بالشقى ؛ والسعادة ثابتة لمن نُعت بالسعيد^(٣).

ثم يبين لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شَقُوا ، ومنازل مَنْ سَعِدُوا ؛ ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ^(١) ﴾

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢)﴾ [النور] وقد أورد السيوطى فى الدر المنثور (١٦٥/٦) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُرفَ الكافر بحمله فمسد وخاصم. فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول: كذبوا. فيقال: اهلك وعشيرتك . فيقول: كذبوا. فيقال: اخلقوا . فيخلقون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم، ثم يدخلهم النار، عزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه.

(٢) شقى - من باب فوج - شَقًا وشَقَاءًا وشَقَاوَةً: ساءت حاله المادية أو المعنوية فهو شقى. راسم التفضيل: أشقى.. وسَعِدَ: كفرح وسَعَدَ [ككرم] يسعد ويسعد سَعْدًا وسَعْدًا وسعادة قال الخير:

﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ^(١) ﴾ [هود] [القاموس القويم: (٢٥٣/١)، (٣١٢/١)] ينصرف مختصر.

(٣) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ^(١) ﴾ [هود] سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله فعلام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «بل على شيء قد فرغ وجرت به الأقدام يا عمر، ولكن كل مُبَسَّر لما خُلِقَ له» أخرجه الترمذى فى سنته (٣١١١) وابن أبى عاصم فى السنة (٧٤/١) وأحمد فى مسنده (٦/١) قال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(١) زفير: إخراج بشديد للنفس من الصدر. وشهيق: رد النفس إلى الصدر. [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف].

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٦٦٨٢﴾

والذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله ؛
يجمعهم الشقاء ؛ لكنهم يدخلون النار أفراداً وزُمراً.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ﴾ (٧١) .. ﴿

[الزمر]

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ ۖ﴾ (٢٨) .. ﴿

[الأعراف]

وهكذا نفهم أن الكافرين - في الوصف الثابت - أشقياء ؛ لكنهم لحظة دخول
النار إنما يدخلونها أفراداً ؛ بل ويدخل معهم بعض من المسلمين العصاة، ويتلقى
كل واحد منهم عقابه المناسب لما ارتكب من الذنوب والمعاصي ؛ ويعاني كل
منهم من شقاء يتناسب مع آثامه ؛ وبذلك يجتمعون في الشقاء ويختلفون في
نوع وكمية العذاب ؛ كلٌ حسب ذنوبه، ولا يظلم ريك أحداً.

وجاء الحق سبحانه هنا بالفعل «شقاء» ليبين لنا أنهم هم الذين
اختاروا الشقاء ؛ وأتوا به لأنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه خلق عباده
وترك لكل منهم حق الاختيار ؛ وأنزل لهم المتنج ؛ ليصونوا أنفسهم ؛
وأعان - من اختار الإيمان - على الطاعة.

ثم يذكر الحق سبحانه في نفس الآية موقف مَنْ أدخلوا على أنفسهم
الشقاء ؛ فيقول عنهم:

(١) الزمر: جمع زمرة، وهي لفوج والجماعة. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ﴾ (٧١).

[الزمر]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْعَذَّةِ زُمَرًا ۖ﴾ (٧١) [الزمر]. [القاموس القويم: مادة

(ز م ر)] بتصريف.

(٢) اللعنة: السخط والإيذاء من الرحمة. فاللعن: السب والدعاء بالطرد من رحمة الله. [القاموس

القويم: مادة: لعن].

﴿ ١٠٦ 》 فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿ ١٠٦ 》 [هود]

وتحن نعلم أن الذي يتنفس في النار سيخرج الهواء من صدره ساخنًا مثلما يأخذ الشهيق ساخنًا .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصَفَ ما يتلقاه أهل الشقاء في النار . فيقول سبحانه:

﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿ ١٠٧ 》 ﴾

وكلمة «الخلود» تفيد المكث طويلاً ؛ مكوثاً له ابتداءً ولا نهاية له ؛ وإذا أيد فهو تأكيد للخلود.

والذين شقوا إنما يدخلون النار ؛ بدءاً من لحظة:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ ۞ ﴿ ١٠٥ 》 ﴾ [هود]

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين.

وأما عذاب المسلم العاصي على ما ارتكب من آثام ؛ فبدايته من لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهي فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ؛ ويدخل الجنة من بعد ذلك ^(١).

(١) فعل يفعل فهو فاعل. وفاعل. اسم فاعل من فعل. وفعلال، صيغة مبالغة من فعل، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكَاتِ فَاعِلُونَ ﴾ (٢٤) [المؤمنون] ، وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّنَا قَالَ لِمَا تُرِيدُ ﴾ (١٠٧) [هود] . [مره] . [القاموس القويم : مادة (ف ع ل)] بتصرف.

(٢) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يميون، ولكن ناساً أصابتهم النار بدوئهم أو قال بخطاياهم فأصابتهم الله إماتة حتى إذا كانوا لحمًا أذن لهم في الشقاعة فيجىء بهم ضيلتر ضيلتر فيثبوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبئون نبات الجنة تكون في حميل السيل». أخرجه مسلم في صحيحه حديث (١٨٥) ، وأحمد في مسنده (٢ / ٥ ، ٦١) .

ولهذا قال الحق سبحانه:

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٧)﴾ [هود]

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لانصاف المؤمنين، فالحق سبحانه ﴿.. فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧)﴾ ولا يحكمه أى شىء.

وياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ؛ فالقدر فعله ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عما يفعل ، لأن ذات الله هي الفاعلة ؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاص في النار ؛ فالنقص يكون في النهاية ؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده في الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفى عقابه.

وبهذا التصور ينتهى الإشكال الذى اختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يخلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يكحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأى إنما يسوئ بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رايه بالآية الكريمة التى جاءت في سورة الجن ، والتى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿إِلَّا بِلَاغٍ مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

فنحن نقول: إن الحق سبحانه يربب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصي حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأبيد الخلود في العذاب لم

يرد إلا في آيتين^(١) ، وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسعة عقوبه سبحانه.
ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ إنه رحمة الله للعالمين ؛ وكلمة
«العالمين» جمع «عالم» والعالم هو ما سوى الله تعالى.
ولذلك هناك رحمة للكافر ؛ هي عطاء الله له في الدنيا.

ومكنا نعلم أن الله سبحانه هو الذي يملك نواويس الكون ،
ولم يتركها تفعل وحدها ، بل يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام
القدر هو فعله سبحانه ؛ فهو يغير فيه كما يشاء.

فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة، ومادام هو رب كل شيء
فإنه فعال لما يريد، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيئته.
وقول الحق سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (٦٠٧)

[هود]

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما
ويظللهما ، ولا بد أن يوجد فوق أرض ما.

وإذا قال قائل: إن الحق سبحانه قد ذكر في القرآن أن السماء
سوف تمور^(٢) وتنفطر^(٣).

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٢١) خالدين فيها أبداً لا يمدون ولها ولا نصيراً (٢٢) [الأحزاب] وكذلك في سورة الجن: ﴿... وَمَنْ يَنْصُرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نُجُوتَهُمُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا...﴾ (٢٥) [الجن].

(٢) سار الشرى يمحور موراً: تحرك وذهب وجاء في سرعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٤) [الطور] [القاموس القويم: مادة (مور)].

(٣) يتفطر الشرى وينفطر: يتشقق. قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١٠) [الانفطار] أي: انشقت يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ...﴾ (٤) [مريم] أي: يتشققن من هول كفرهم وادعائهم أن لله ولداً - كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٢٨) لقد جثم ثبثاً إذا (٢٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَغِيرُ الْمَجَالُ هَذَا (٤) [مريم] ، [القاموس القويم: مادة (فطر)] بتصرف.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٧

نقول رداً عليه: لا تأخذ آية في القرآن إلا بضميمة ^(١) مثيلاتها.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ^(٢) ..﴾ (٤٨) [إبراهيم]

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ؛ لأنه سبحانه هو القاتل على لسان المؤمنين يوم القيامة:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبَوْا ^(٣) مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ..﴾ (٧٤) [الزمر]

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار.

ومن العجيب أن الإنسان المخدم بالمادة الجامدة ؛ وبالنبات النامي؛ وبالحيوان الذي يحس ويتحرك ؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخرة لخدمته ؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر.

(١) الضميمة: المضموم، أو المضموم إلى غيره. [المعجم الوسيط: مادة (ضمم)]. والمراد ضم الآيات المتماثلة وفيها لهما شاملاً.

(٢) بَدَّلَ الشيء: غَيَّرَهُ، وبَدَّلَ الكلام: غَيَّرَهُ أو حَرَّفَهُ بحيث يؤدي معنى غير المراد منه. قال تعالى: ﴿تُبَدَّلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ..﴾ (٥٢) [البقرة] أي: غَيَّرَهُ بكلام آخر، أو حَرَّفَهُ ليؤدي معنى آخر غير المراد منه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا نَسَبًا يَعْزُبُ عَنْهُمْ ..﴾ (٥٥) [النمل] أي: عمل الخير والحسن بعد عمل السوء. وقال تعالى: ﴿.. وَإِذْ أَخْبَرْنَا مَلَكُهُمْ تَبْدِيلًا ..﴾ (٥٦) [الإنسان] أي: جعلناهم بدلاً منهم. بكفوله تعالى: ﴿.. إِنْ يَشَاءُ يُغَيِّرْكُمْ وَهَاتِ يَخْلُقْ جَدِيدًا ..﴾ (٥٧) [إبراهيم] [القاموس القويم: مادة (بدل)].

(٣) يَوَارَثُ: اسْكَنَهُ، وَبَرَّاهُ فِي الْأَرْضِ: مَكَّنَ لَهُ فِيهَا. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَوَارِثُ الْإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾ (٦٦) [الحج] أي: هيأناه له ومكنناه منه. وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿يَسْأَلُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ..﴾ (٦٦) [يوسف] أي: ينزل في أي مكان يريد من أرض مصر، وهذا كناية عن إشباع حاجه، [القاموس القويم: مادة (ب و ا)] [يتصرف].

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان في الآخرة : فكانه سبحانه يعطى الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار : ولذلك قال سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

وإذا علق الله سبحانه شيئاً على شيء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق.

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى:

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ^(١) .. (١٠٨) ﴾ [الأعراف]

فهو سيلج الجمل في سمّ الخياط ؟ إن ذلك محال.

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات في نطاق أنه سبحانه:

﴿ .. فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

وقد جاء في الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام:

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم.

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، يعقول البشر ، أما ببلاغة

(١) السم - مثناة السمين - : الشغب الضيق ، قال تعالى: ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. (١٠٨) ﴾ [الأعراف] أى: ثقب الإبرة. [القاموس القويم : مادة (م م م)] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٩

الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فامر التعذيب أو الغفران موكول لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لِمَ فعل هذا ؟ ولمَ ترك هذا ؟ لذلك كان هذا هو معنى العزة ؛ ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم في أى أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة. لذلك جاء سبحانه بالخاتمة التى تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة.

ففى تعذيب الكافرين قال سبحانه: ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ﴾ .

وفى الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ۝١٠٨ ﴾

فالحق سبحانه يعطى المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم فى الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع ،

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا كَمَا يَعْْبُدُ

ءَابَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ۝١٠٩ ﴾

(١) جذ الشيء: يحدّه جذاً: قطعه أو كسره . أو فنته. والجذأ: القطع المكسرة المفتتة والحطام. قال

تعالى: ﴿ لَنَجْطِغُنَّ جُذَافًا لَا كَبِيرًا لَهُمْ ۝١٠٨ ﴾ [الأنبياء] والمجذوز: المقطوع. قال تعالى: ﴿ .. عَطَاءٌ

غَيْرَ مَجْذُورٍ ۝١٠٨ ﴾ [هود] أى: أنه عطاء دائم غير مقطوع. [القاموس القويم: مادة (جذذ)].

(٢) المرية - بكسر الميم، وبضمها - ، الجدل والشك. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ أَحَقُّ مِن رَّبِّكَ

۝١٠٧ ﴾ [هود] وقرئ: مرية - بضم الميم. [القاموس القويم: مادة (م ر ي)].

(٣) النقص. مصدر نقص. قال تعالى: ﴿ وَلَيَبْرَزَنَّكُمْ مِن فَتْنٍ مِّنَ الْعُرُفِ وَالْعُرُفِ وَنَقَصُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

وَالْمَرْأَتِ ۝١٠٥ ﴾ [البقرة]. ومنقوص: اسم مفعول منه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ

مَنقُوصٍ ۝١٠٩ ﴾ [هود] أى: كاملاً ، لا تنقص منه شيئاً. [القاموس القويم: مادة (نقص)].

فهل كان الرسول ﷺ فى مرية ؟

هل كان الرسول ﷺ فى شك؟

لا ، ولكم قول الأمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله ﷺ فى صدد هذا الأمر ؛ وبذلك ينصرف أمر الحق سبحانه إلى الدوام.

مثلاً قال الحق سبحانه للنبي ﷺ :

[الإسراء] ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ .. (٧٨) ﴾

وكان الرسول ﷺ يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع.

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه فى خطاب النبي ﷺ:

[الاحزاب] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (٦) ﴾ [الاحزاب]

فهل كان رسول الله ﷺ لا يتقى الله ؟

نقول: لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر، وهو خطاب للرسول وأمته، فللرسول الدوام والترقى والحصانة، ولأمته الاتباع لمنهج الله.

ومثل هذا قوله تعالى:

[البقرة] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٥٢) ﴾

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٩١

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين، فإذا نُودي عليهم بهذه الصفة فهي علامة السمو المقبول.

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها، وفي الاستمرارية ارتقاء.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ .. (١٠٩) ﴾

[هود]

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة^(١) : لأن معنى العبادة ائتمار عابد بأمر معبود. وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسير عليه من آمنوا بها.

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (٢) .. ﴾

[الزمر]

(١) عِبَادَةُ اللَّهِ يعبد، عبادة وعُبُودَة: أطاعه فهو عابد اسم قاعل. وعَبَدَ بالتضعيف: سَخَّرَهُ وأَذَلَّهُ. يقول الحق سبحانه: ﴿وَبَلَّغْنَا نِعْمَتَنَا نُحْمًا عَلَى أَنْ عَمِدْتَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ (١٢٢)﴾ [الشعراء] والعبد يانحسب للناس الرقيق المملوك، ويجمع على جموع منها: عِبَاد، وعبيد وعَبْد - وَعَبْدٌ والعبد بالنسبة لله: الإنسان الحر أو الرقيق، فكلامنا مملوك لله خاضع لحكمه وإرادته. وعِبَادُ الأصنام هم عباد لأفكار هي تخريف وتحريف عن الطهارة التي فطر الله الناس عليها، وكل عابد لفكرة منحرفة، فهو منحرف عن الحقيقة [القاموس القويم ١/ ٣٠١ - بتصرف].

(٢) الزُلْفَى: القرب ، والمنزلة، والدرجة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْزَأَكُمُ وَلَا أَوْلَادَكُمُ بِالَّذِي تَقْرَبُونَ عِدَّةً زُلْفَى .. (٢٥)﴾ [سبا] أى: قريبا، مفعول مطلق مرادفه أو تقربكم درجة ومنزلة قربية منا. [القاموس القويم: مادة (ز ل ف)].

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي: أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الآباء ، فأيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا يتفع .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النُسَب في الكون إما ليثبت نسبة إيجابية ، أو نسبة سلبية ^(١) .

﴿ مَا يَعْبُدُونَ .. (١٠٩) ﴾ [هود]

أي: على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ . وعبادتهم هي عبادة تقليدية للآباء : ولذلك قالوا:

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا ^(٢) عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ولذلك يقرر الحق سبحانه هذا جزاءهم ، فيقول تعالى:

﴿ .. وَإِنَّا لَمُوقِنُوهُمْ ^(٣) نَصِيْبُهُمْ ^(٤) غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود]

(١) فالكون فيه الكسافات مفردة تعرف معانيها مثل: السماء، والأرض، ونفهم تصور الشيء، أما عندما نذكر لهذا الشيء صفة فهذا معناه النسبة، مثل قولنا: الأرض كروية. [مستنبط من كلام فضيلة الشيخ].

(٢) ألفى الشيء: وجده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَفْرَآ آيَاتُهُمْ ضَالِّينَ (٢٢٩)﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا سِدْرًا لَّهُ الْآبَابَ .. (٢٢)﴾ [يوسف] أي: وجدناه. [القاموس القويم: مادة (أل ف ي)].

(٣) وقى إليه حقاً: أوصله إليه كاملاً. ويتعدى لمفعولين فيقال: وقاه حقاً. واسم المفعول مؤقاً: اسم منقوص، [القاموس القويم: ٢/٢٤٧].

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٢/٢٤٢٣):

«فيه ثلاث أقوال:

أحدها: نصيبهم من الرزق، قاله أبو العالية.

الثاني: نصيبهم من العذاب، قاله ابن زيد.

الثالث: ما وعدوا به من خير أو شر، قاله ابن عباس.

أى: سنعطيههم جزاءهم كاملاً ؛ لأنهم يفسدون فى الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار فى أن يفعل الشيء أو لا يفعله ، وإن لم تنتضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعى يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذى يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا فى طريق إفساد الكون ؛ لذلك يؤثيهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة «النصيب»^(١) ، أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفى هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾

(١) النصيب: القسم والعصاة من الشيء. قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا .. ۝١٠٧﴾ [البقرة] أى: لهم حظ وقسم وحصاة هى حق لهم من كسبهم. [القاموس القويم: مادة (ن ص ب)].

(٢) سبق: يسبق سبقاً: تقدم، فهو لازم. وسبقه: تقدمه، فهو متعد. واسم الفاعل: سابق. واسم المفعول: مسبوق. قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ .. ۝١٠٨﴾ [الأنفال] أى: تقدم وثبت فيه الحكم من قبله وهو اللوح المحفوظ. [القاموس القويم ٢٠١/١]. والكلمة: قضاء الله وحكمه السابق فى اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ .. ۝١١٠﴾ [هود] أى: قضاؤه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (س ب ق)]. (ك ل م) بتعريف.

(٣) الريب: الشك. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَرْجُونَ .. ۝١٠٩﴾ [البقرة] ورايه الأمر يريبه ريباً وريبية: شك فيه. والريب: حادث الدهر المفاجيء. وريب المنون: الموت. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّعُ بِهِ رَبُّهُنَّ الْمُتُونِ ۝١٠٨﴾ [الطور] أى: حادث الموت. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ يَتَرَبَّعُ الْإِنْسَانُ عَلَى رِيبَةٍ مِّنْ قُرْبِهِمْ .. ۝١١٠﴾ [التوبة] أى: مصدر شك وتفاق. ورايه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه. واسم الفاعل: مريب. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾ [هود] على سبيل التوكيد أى: فى شك مرصع إلى شك. وأرب الرجل: فهو مريب: صار موضع ريبه وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِّلْخَيْرِ مَعَهُ مُرِيبٌ ۝١٠٩﴾ [ق] [القاموس القويم: مادة (ر ي ب)].

وسورة هود هي السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد ^(١) ، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه:

﴿ يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٩٨)

[هود]

أي: أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذي انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورِد قومه النار.

ثم يأتى الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته ؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. ﴾ (١١٠)

[هود]

وتحن نعلم أن ذكر موسى عليه السلام في البداية كان بمناسبة ذكر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد مرسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذكر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون.

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هي أن يرسل معه بنى إسرائيل ^(٢) ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كامر تبعي ، لأن

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَمُطَاعِنٍ مُّبِينٍ ﴾ (٩٨) إلى فرعون ومعه قاتلها أمر فرعون وما أمر فرعون برشده. [هود].

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩٨) حقيق على أن لا أنول على الله إلا الحق قد جعلكم بيته من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل. [الأعراف].

رسالة موسى ﷺ لم تكن إلا لبني إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بني إسرائيل منهجاً ، أما في الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون.

وتحسّن تعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل: نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم - عليهم جميعاً السلام - وجاء الحديث فيها عن موسى ﷺ مرتين: مرة في علاقته بفرعون ، ومرة في علاقته ببني إسرائيل.

وفي كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهي للناس عموماً ، من أول آدم ﷺ إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتي باللقطة التي تعالج داءً موقوتاً عند القوم.

فالقدر المشترك في دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ ۝ (٥٩)﴾ [الاعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمتهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد في كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات ^(١) تلك

(١) ما - هنا - نافية بمعنى ليس. أي: ليس لكم إله غيره.

(٢) الداء: المرض ظاهراً أو باطناً، والعيب ظاهراً أو باطناً. ويقال: فلان ميت الداء: لا يصدق على من يسه إليه. وداء الأسد: الحمى. وداء النمل: الحسرة والنشاط. وداء الملوك: النقرس. وداء الكرم: الدين والفقر. وداء الشرائع: الشر الدائم. وداء البطن: الفتنة العمياء. وداء الثوب: الجوع. والجمع: أدواء. [المعجم الوسيط مادة (د و آ)] ويجوز التأنيث فيقال: داءة وجمعها: داءات. وهي الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية.

الامة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة في القرآن كمنهج للبشرية^(١).

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآني للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنتلقت العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التي بحث إليها ليعالج داءها.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر^(٢) ، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ۖ ۝ (١١٠) ﴾ [مؤد]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما.

وقوله سبحانه: ﴿ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ۖ ۝ (١١٠) ﴾ يصح أن يكون الاختلاف في أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب ، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى ﷺ ، والكتاب الذي أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان: أمر الرسالة في الكتاب ، وأمر الرسول في الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

(١) يقول الحق . ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۖ ۝ (١٣) ﴾ [الشورى] [إن] : جمعت قيم الأديان في الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والخير والسلام.

(٢) مقصود فضيلة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم منذ بعث محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل.

سُورَةُ هُودٍ

6697

واحد : لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه.

وقوله الحق: ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١٠) ﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، والله^(١) ذات ، والله صفات ، والله أفعال.

وهو سبحانه مُنَزَّه في ذاته عن أى تشبيه ، والله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلي لا ينعدم ، وأنت موجود طارئ ينعدم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعل صدر عنه بقوة سبحانه غير النهائية.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١٠) ﴾ [هود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرت ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل: وما دام موسى عليه السلام قد أوتي الكتاب ، واختلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقاليم الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

(١) توحيد الذات هى لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتجريد لله يقول الحق: ﴿ قُلْ إِنْ سَأَلْتُمْ مَنْ سَلَّمَ لَنْقُولَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٦٦) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٧) ﴾ [الأنعام] وللذات عطاءات كلما ذكرته موحداً فانت فى رقى دائم وتستحق من الله عطاء الصفات - فتستحق الرحمة من الرحيم، والرزق من الرزاق، والجبر من الجبار، فمن أحب الذات وهبت له عطاءات الصفات، ومن أسأته الحسنى الزاد المطلوب - [من مفهوم الخواطر].

ونقول: ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم ؛ بل لأن الحق سبحانه قد جعل عذابهم أجلاً^(١) ، وهو يوم الحساب.

ولذلك قال سبحانه في الآية نفسها:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (١١٠) [هود]

وبذلك حكم الحق حكماً فاصلاً ، كما حكم على الأمم السابقة التي كانت مهمة رسلهم هي البلاغ ، ولم تكن مهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ؛ ولذلك كانت السماء هي التي تتدخل بالأمر النهائي.

لكن اختلف الأمر في رسالة موسى عليه السلام ، فقد سبق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١١١) [هود]

كانتهم في شك من يوم القيامة ، وفي شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه في أول الآية عن الاختلاف في الكتاب وموسى عليه السلام.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقُ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴾ (١١١)

(١) وهذه هي الكلمة التي ذكرها الله سبحانه هنا: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (١١٠) [هود] قال

القرطبي في تفسيره (٢/٤٢٢): «الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم من ذلك من الصلاح. ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر».

(٢) الخبير: من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (١٢٨) [الأنعام]. والخير: العالم ببواطن

الأمور. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٥١) [الفرقان] [القاموس القويم: عادة (خ ب ر)].

إذن: فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى ﷺ فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة.

وبيّن الحق سبحانه: لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعني الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه أت - لا محالة ^(١) - وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفرًا أو إيمانًا ، صلاحًا أو فسادًا ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة.

وهنا وقف في أسلوب النص القرآني، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كملّكة ^(٢)، كما فهمها العرب الأقدمون.

ونحن نعلم أن العربي القديم لم يجلس إلى معلم، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ؛ لأنه من أمة مفطورة ^(٣) على الأداء البياني الدقيق ، الرقيق ، الرائع .

فاللغة - كما نعلم - ليست جنسًا ، وليست دما ، بل هي ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذي ينشأ فيه الطفل هو الذي يحدد لغته ، فالطفل الذي ينشأ في مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ،

(١) المحال: ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد والمحال من الأشياء: ما لا يمكن وجوده والمحال من الكلام: ما عدل به عن وجهه. والمَحَالَة: الحيلة. والجمع: مَحَال، ومُحَاوَل - بفتح الميم فسيما - ويقال: لا محالة من ذلك، أي: لا بد منه، [المعجم الوسيط: مادة (ح و ل)] يتصرف.

(٢) الملكة - بفتح الميم واللام والكاف - : صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحدق ومهارة ، مثل الملكة العددية، والملكة اللغوية. [المعجم الوسيط: مادة (ملك)].

(٣) فطر الشيء: فطرًا: شقّه. والجمع: فطور. والاسم: الفطرة. قال تعالى: ﴿فَطَرْتُ اللَّهَ أَنِّي فَاطِرُ النَّاسِ عَلَيْهَا﴾ [الروم] أي: خلقته التي خلق الناس عليها. وقوله تعالى: ﴿... هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك] أي: من سدوح، أي: هل ترى من خلل أو فساد في الخلق ، والاستفهام هنا للنفير، أي: لا ترى أي خلل. [القاموس القويم : مادة (فطر)].

والطفل الذي يوجد في مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ؛ لأن اللغة هي ما ينطق به اللسان حسياً تسمع الأذن.

وكانت غالبية البيئة العربية في الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة.

أما العربي الذي عاش في حاضرة مثل مكة ، ومكة - بما لها من مكانة - كانت تستقبل أغراباً كثيرين ؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية ؛ حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية.

ولنقرب هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك في حياتنا الآن لغتين: لغة نتعلمها في المنازل والشوارع وتُخاطب بها، وتسمى «اللغة العامية»، ولغة أخرى نتعلمها في المدارس، وهي اللغة المصقولة ^(١) المميزة بالفصاحة والخطب.

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتلتقط الآن الفصاحة ^(٢)، وكانت اللغة الفصيحة هي «العامية في البادية» ، ولم يكن الطفل في

(١) المصقول اسم مفعول من الفعل «صقل». وصقل الشيء صقلاً وصقلاً: جلاّه . يقال: صقل السيف والرمح ونحوهما. ويقال: صقل كلامه: هذبه وتمقه. وصقل الدابة: تعيدها بالتربية. وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن إجادة شيء مثل اللغة ، والمرغوبة ، فيقال: صقل لغة . أي: تدرب عليها حتى أجادها. وصقل موهبته بالدراسة ، أي: تدرب على استخدامها حتى أجادها. [المعجم الوسيط : مادة (صقل)] يتصرف.

(٢) ومما يبين أن اللغة العربية في الجزيرة العربية مصاحبة للفطرة السليمة والملكة الراسخة ما حكى أن سقياً أمر ابنه أن يمسك بقم قرية الماء، فقال الغلام لأبيه: «يا أبت إن القرية غلبت قوما أدركنا لا طاقة لى بغيرها» وفي هذا المنطق قواعد لإعراب الأسماء الخمس أو الست فهي تُعرب بالواو ولها، وبالألف نصباً، وبالياء جرّاً، والأمثلة لا حصر لها وفي المراجع مزيد لكل من أراد.

البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها ؛ لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة.

وكانت هذه هي اللغة التي يتفوق فيها إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهي تختلف عن السلفه التي نكتسبها الآن ، ونصقلها في مدارسنا ، وهي لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالناس بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين، ويتعلمون اللغة على كبر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا في القرآن ، وادعى بعض من أغبيائهم أن في القرآن لحنًا ^(١) ، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله ﷺ وهم أهل الفصاحة، لم يجدوا في القرآن لحنًا ، ولو أنهم أخذوا لحنًا على القرآن في زمن نزوله ؛ لأعلنوا هذا اللحن ؛ لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة ، صناعتها الكلام.

ولامر ما أبقي الله سبحانه صناديد ^(٢) قريش وصناديد العرب على كفرهم لفتره ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحنًا في القرآن لأعلنه.

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً

(١) لحن لفلان يلحن لحنًا. كَلَمَهُ كَلَامًا يَنْهَمِي دُونَ غَيْرِهِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَوْرِيَةٍ، أَوْ تَعْرِيفٍ، أَوْ إِشَارَةٍ خَفِيَّةٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعْرِفَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد] أي: إنك ستعرف المنافقين في أسلوبهم في القول بإخفائه وتحريفه، أي: ستعرفهم في خطأ القول وزلات اللسان. ولحن في كلامه: أخطأ. وفي «المعجم الوسيط» : لحنُ القول: فحواه، وما يفهمه السامع المتأمل فيه من وراء لفظه، ويمكن أن يفسر بذلك أيضاً، والمراد باللحن في اللغة: الخطأ فيها والخروج عن قواعدها. [القاموس القويم : مادة (لحن) بتصرف].

(٢) الصناديد: الشديد. والجمع: صناديد. ويقال: يوم حامي الصناديد؛ شديد الحر. ويقال: بره صناديد.

وريج صناديد، ومطر صناديد، أي: شديد. وصناديد القدر: دواهيته. [المعجم الوسيط : مادة

(صناديد)] بتصرف.

فيه. ولو كان عند أحدهم مَهْمَزٌ لما منعه كثره أن يبين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين عاشوا في القرن العشرين أن يجدوا لحنًا في القرآن ، وهم لم يمتلكوا ناصية اللغة ملكة ، بل تعلموها صناعة، والصنعة عديمة الإحساس الذوقي.

ومثال ذلك: عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة في الآية التي نحن بصددها خواطرننا عنها ، فالحق سبحانه يقول:

﴿وَإِنْ كُنَّا لَمَا لِيُرَوِّفَهُمْ^(١) رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^(٢)﴾

[هود]

أى: أن كل واحد من الذين صدّقوا أو من الذين كذّبوا ، له توفية في الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصي العقوبة.

وكلمة «إِنْ» - كما نعلم - هي في اللغة «حرف توكيد» في مقابلة مَنْ يَنْكَرُ ما يجيء بعدها.

والإنكار - كما نعلم - مراحل ، فإذا أردت أن تخبر واحداً بخبر لا يعلمه ، فأنت تقول له مثلاً: «زارنى فلان بالأمس».

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالي، فإن قال لك: «لكن فلاناً كان بالأمس في مكان آخر»، فأنت تقول له: «إن فلاناً زارنى بالأمس».

(١) وَفَى الشَّيْءُ بِفَى وَفِيًّا: تم ولم يذهب منه شيء. وَفَى الرجل بالعهد ولاء: قام به وفقده، فهو وافي. واسم التفضيل: وُفَى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ...﴾ [التوبة] أى: أن الله أعظم وأساءه ممن سواه. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ [النجم] أى: الجزاء الاثم الاكمل. وَفَى إليه حقه: أوفى له إليه كاملاً. ويتعدى هذا الفعل لمفعولين فيقال: وفّاه حقه. واسم الفاعل: موفٍ واسم منقوصه. قال تعالى: ﴿... وَإِنَّا لَنُوقِرُهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود] [القاموس القويم: مادة (وفى)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧.٢

وحين يرد عليك السامع: «لكننى قابلت فلاناً الذى تحدث عنه أمس فى المكان الفلانى».

وهنا قد تؤكد قولك: «والله لقد زارنى فلان بالأمس».

إذن: فانت تاتى بالتوكيد على حَسَبِ درجة الإنكار^(١).

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس فى الدنيا ، قد يقول غافل: لعل الله لم يعد يعذب أحداً.

ولذلك بين الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع المصدق ، والعاصى المكذب ، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤَيِّنْهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۖ ۝١١١ ﴾ [هود]

والذين لم تستقم لهم اللغة كاملة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا: لماذا جاء بالتنوين فى كلمة «كلًا» ؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين^(٢) يغنى عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه:

(١) إن التوكيد المنكر من فنون البلاغة، يقول الإمام السيوطى فى الإتقان (٣/ ١٩٣): «ويقتضون التاكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه. كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا فى المرة الأولى ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ [يس] ، فاكد بلن وإسمية الجملة ، وفى المرة الثانية : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس] ، ساكد بالقسم وإن واللام وإسمية الجملة، لمبالغة المخاطبين فى الإنكار حيث قالوا: ﴿وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْفُرُونَ﴾ [يس]».

(٢) التنوين فى اللغة : هو ثون ساكنة تتبع آخر الاسم لفظاً وتفاوته خطاً، وهو أنواع منها تنوين التمكين والتثنية والعرض والترنم . [راجع . شرح الأشعرى على الألفية (١ / ١٨)].

﴿ قُلُوبًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ^(١) وَأَنْتُمْ حِينًا تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٤) [الواقعة]

وهكلاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجز أن كلاً من الطائع المؤمن ، والعاصي الكافر ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً.

أما قوله سبحانه: ﴿لَمَّا﴾ في نفس الآية، فنحن نعلم أن لَمَّا تستعمل في اللغة بمعنى «الحين» و«الزمان» مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ^(٢) وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ..﴾ (١١٣) [الاعراف]

ومثل قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ ^(٣) يُوسُفَ ..﴾ (٩٤)

[يوسف]

أي: حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..﴾ (٩٤).

(١) الحلقوم: الحلق . والحلقوم علمياً الآن: هو تجويف خلف تجويف الفم، وله ست فتحات: فتحة الفم، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة، ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المريء، أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة. قال تعالى: ﴿قُلُوبًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ^(١)﴾ [الواقعة] كناية عن الاحتضار للموت، أي: بلغت الروح الحلقوم وهي خارجة من الجسد، [القاموس القويم: مادة (ح ل ق)].

(٢) الميقات: الوقت المحدد لعمل من الأعمال. قال تعالى: ﴿فَمِ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ (١١٣) [الاعراف] أي: تم الزمن المحدد لمناجاة ربه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ^(٢)﴾ [الدخان]، أي: وقتهم المحدد لبعثهم وحسابهم. والجمع: موافيت. [القاموس القويم: مادة (وقت)].

(٣) فصل عن المكان: جاوزته. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ..﴾ (٩٤) [يوسف] أي: خرجت وجاوزت المدينة. [القاموس القويم: مادة (فصل)].

(٤) قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..﴾ (٩٤) [يوسف] أي: ريحاً تحمل رائحته، أو الريح بمعنى الرائحة، أي: رائحته. [القاموس القويم ١/ ٢٨٠].

ولهاء تأتي أيضاً للنفي مثل قوله سبحانه:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ (١١)

[الحجرات]

أى: أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، وتحمل كلمة «لما» الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك.

وحين تستخدم كلمة «لما» فى النفي تكون «حرفاء» مثلها مثل كلمة «لم» ، ولكنها تختلف عن «لم» لأن «لم» تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف. أما «لما» فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيذان بأن يحدث ما تنفيه.

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ كُنَّا لَأَيُّكُمُ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١)

[هود]

أى: أن كلاً من الطائفتين والعاصى سيوفى حسابه وجزاءه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتى أجل التوفية ، وهو يوم القيامة.

وقد جاءت «لما» لتخدم فكرة العقوبة التى كانت تأتى فى الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو «لما».

وحين تقرأ ﴿لَيُوفِّيَنَّهُمْ﴾ تجد اللام ، وهى لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفىهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً.

(١) الخبير : من أسعاه الله الحسنى. قال تعالى: ﴿... وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام] . وخبير الأمور، وخبير بالأمور كعلمه، وعلم به - وزناً ومعنى - فهو به خبير. والخبير: العالم بواطن الأمور. قال تعالى: ﴿... فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان] . [القاموس القويم : مادة (خبير)].

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسى أو تذهب أدراج الرياح ؛ لأن من يعلمها هو «الخبير» صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالم الذي قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرب على التخصص.

ولذلك غالباً ما تأتي كلمتا «اللطيف والخبير» معاً ؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

ومثال هذا: أنك قد تعرف مكان اختباء رجل في جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفوذ إلى مكانه، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللفظ.

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلّي رسوله ﷺ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا: ما دام الله يأتي بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتي لنا العذاب^(١)؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك - يا رسول الله - في شيء.

(١) إن وعد الله له توقيته المواء له مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿مَسْتَدْرَجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل] وأما لهم إن كيدي من ﴿[القلم]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٠٧﴾

أو يسأوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلِهتنا سنة ^(١) .

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل:

﴿قُلْ يَسْأَلُهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات الثام في تلك المسألة التي لا تقبل المساومة، وهي العبادة.

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبي، لا يمكن المساومة فيه، وقطع العلاقات في مثل هذا الأمر أمر واجب؛ لأنه لا يمكن التفاوض حوله؛ فهي ليست علاقات ظرف سياسي، ولكنه أمر رباني ، يحكمه الحق سبحانه وحده.

وقول الحق سبحانه:

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)﴾ [الكافرون]

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سسيظلون على

(١) ذكر الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦٦) «أن رمطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونعبد دينك، تعبد آلِهتنا سنة وتعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك، فقال: «ماذا الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَسْأَلُهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة، فبدأ رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيمسوا منه عند ذلك».

عبادة غير الله ، وأن محمداً سيقبل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَأَسْتَقِيمُ ۚ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين تروى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وستجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : «إنا جاءك نصر الله - يا محمد - على قومك من قريش» والفتح: فتح مكة، ورأيت الناس: من صفوف العرب وقبائلها يدخلون في دين الله أفواجا: أي: في دين الله الذي أبتحك به. أفواجا: يعني: زمرا (جماعات) ، فجاء فوجاً ، فسبح بحمد ربك أي: فسبح وبك وعظمه بحمده وشكركه، واستغفره: وسله أن يغفر ذنوبك، إنه كان تواباً: أي: ذا رجوع لعبده المتطيع إلى ما يحب. [مختصر تفسير الطبري - بتصريف].

(٢) استقام الشيء: خلا من العوج. واستقام المؤمن: سلك الطريق القويم. قال تعالى ﴿لَمَّا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۖ﴾ [التوبة] أي: حافظوا على الوفاء لهم بعهدكم ما داموا هم يحافظون على عهدكم، ولم ينكروا العهد معكم. [القاموس القويم: مادة (قوم)].

(٣) طغى يطفو طفوفاً وطفوى: فعل وأوى، بمعنى: تجاوز الحد في الجور والتعدي. وطفى يطفى وطفياً: فعل يأتى، بمعنى: تجاوز الحد. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الفجر]. أي: ظلموا وتجاوزوا الحد في المعصيان. [القاموس القويم: مادة (طفى)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٠٩

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيبستى هود وأخواتها»^(١).

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ^(٢) .. (١٦) ﴾ [التغابن]

قلولا نزول هذه الآية لتعجب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ^(٣) .. (١٢) ﴾ [آل عمران]

وعز ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، لما نزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ^(٤) .. (١٦) ﴾ [التغابن]

إذن: فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا تميل إلى جهة دون جهة.

(١) عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شبت؟ قال: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه ابن نعيم في الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٢٧/٧) من حديث عقبة بن عامر وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، وأخوات سورة هود التي شيبت رسول الله هي سورة الواقعة والموسلات والنبأ والتكوير. انظر الترمذي في سننه (٢٢٩٢).

(٢) اتقى: أصله (آرتقى) على وزن (افتعل) ، قلبت واو الفعل تاء ، وأدغمت في تاء الالتماع. واتقى الله: تجنب ما يقضيه، وما يسبب عذابه، وذلك بطاعة الله، وبالبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿ .. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٥٥) ﴾ [البقرة] أي: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وترك معصيته. [القاموس القويم: مادة (ت ق ي)].

(٣) التقى: الالتقاء والتقوى، وأصلها: وقية، قلبت الواو تاء، وإلياء ألفاً، وجمعها: تقى، قال تعالى: ﴿ إِنْ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا .. (٥٤) ﴾ [آل عمران] . أي: [لا أن تخافوا منهم شراً، وتحذروا منهم مكرماً، لا تريدون أن تنفسكم، [القاموس القويم: مادة (وقى)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ .. ﴾ (١١٢) [هود]

وهذا إيذان بالأمر بيبأس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ : لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١١) [هود]

يعنى ألا تتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي : فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ^(١) .. ﴾ (٢٢٩) [البقرة]

وهذا القول في الأوامر ، أما في النواهي فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ^(٢) .. ﴾ (١٨٧) [البقرة]

(١) اعتدى: ظلم وجار. قال تعالى: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. ﴾ (٢٩١) [البقرة] أي: فعاقبوه على اعتدائهم. وسُمِّي عقاب المعتدين اعتداءً: للمعاشاة. وعدا: يعدو، عدواً، جرى. وعدا عليه عدواً وعدولاً. ظلمه وصال عليه، مثل: اعتدى عليه. والله راد بعدم الاعتداء هنا: عدم تجاوز حدود الله التي نهى سبحانه عن اقترائها. [القاموس القويم: مادة (عدا) يتصرف]

(٢) قربت الأمر، أقربه قرباناً وقرباً: فعلته أو دانيته. ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى .. ﴾ (٢٢) [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴾ (٢٠) [البقرة] أي: لا تانهاها ولا تلمسها ولا تأكل منها والنهي من باب أولى عن الشيء. وكذلك: ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى .. ﴾ (٢٢) [الإسراء] فإنه نهى عن القرب منه، وهو نهى عن التمسس ومن القبلة ونحوها معاً يقرب الإنسان من الوقوع فيه. [القاموس القويم: مادة (ق ر ب)].

أى: أن تبعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ: «من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى^(١) يوشك أن يرتع^(٢) فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»^(٣).

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هي استقامة الاحتياط ، وهى قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخل فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أى: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر في مكان.

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة في مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول:

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٤) .. (١٤١)

[الأنعام]

(١) قال النووي في شرحه: «معناه أن الطوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله ارتفع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفاً من الوقوع فيه، (٢/١٢٢٠) ط. فؤاد عبيد الباقي.

(٢) الرتع: الأكل بشره. والرتع في الخصب هو الرعى فيه. وارتع القوم: وقعوا في خصب ورجوا. [اللسان: مادة رتع].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث الثعمان بن بشير.

(٤) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، فهو سرف، ويكون في المال وفي غيره. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٥) ﴿[الفرقان] أى: مستمداً في إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ..﴾^(٦) [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ﴾^(٧) .. [الإسراء] أى: لا يقتل أكثر من القاتل، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، فيقتلون بالشريف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُظْهِرُوا أَمْرَ الْمُرْجَيْنِ﴾^(٨) [الشعراء] والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين: لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف. [القلموس القويم: مادة (سرف)].

والنهي عن الإسراف هنا : ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة فتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود^(١) فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول : «يا ليتني لم أعط». وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سدّدوا»^(٢) وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل»^(٣) : لأن الدين قوى متين^(٤) ، وإن يشاد الدين أحد إلا غلبه^(٥).

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحل أيضاً ، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهيأة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه سُكُنَةً الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى في ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ في مزاولة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه.

(١) الأود : أي ما يكون قوتاً ضرورياً له ، فنقوم به حيات.

(٢) سد الشيء سدّاً وسدوداً : استقام. يقال سد السهم. وسد لأن أصاب قوله وفعله. وسد قوله وقوله : استقام وأصاب. فهو سديد. والسداد : الاستقامة والقصد. والصواب من القول والفعل. [المعجم الوسيط : مادة (سد) بتصريف].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٣).

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» أخرجه الترمذي في سننه (١٢٧/٨).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ؛ استقامة في تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بَيْنُ^(١) ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ^(٢) لدينه وعرضه»^(٣).

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا في الاحتياط أن نحيط مرة بالزيادة ، وأن نحيط مرة بالنقص ، فحين تصلي خارج المسجد الحرام ، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلي في المسجد الحرام ، فانت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنياته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»^(٤) وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقته أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه^(٥).

لذلك فانت تتجه ببصرك إلى البناء العالي المقطوع يكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

(١) بَيْنُ: صيغة مبالغة من البيان: أي: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من الدين والذنب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشئ: نقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار، وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهري الذي فيه المزاب: وإنما سمي حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك محطوماً. [اللسان : مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم الخفة. قلت: فما شأن باب مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. ولولا أن تتكر أبوابهم لفتحت أن أدخل الجدر في البيت وأن ألزق بابي بالأرض. متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٥٨٤) ومسلم في صحيحه (١٢٢٢ - رواية رقم ١٠).

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك: هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد.
وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.
وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة.

ويُنهِى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٢)

وفى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ .. إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١١)

[هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرتبة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١١٣)

(١) ركن يركن وكنا وركونا: مال إليه وسكن. وركن الشر: جانبه الاقوى. قال تعالى: ﴿ .. أَوْ أَرَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٨٧) [هود] أى: ألجأ إلى حصن قوى يحمينى، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم، كأنه ركن معتنح حصين. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ .. ﴾ (١١٢) [هود] أى: لا تميلوا إليهم وتعتمدوا عليهم. وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لَا أَنِجَالَهُ لَقَدْ كُنْتُمْ تَرْكَبُونَ إِلَهُمُ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (٧٦) [الإسراء] أى: تميل إليهم. [القاموس القويم : مادة (ركن)].

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد
آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع
وفصل في هذا الأمر.

ويأتى هنا تأكيد هذا الأمر : فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ^(١) ، (١١٣) ﴾ [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وانت إذا ركنت
للاظالم : أدخلت في نفسه أن لقوته شائناً في دعوتك.

والركون أيضاً يعنى: المجاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن
تزين للناس ما فعله هذا الظالم.

وأفة الدنيا هي الركون للظالمين ؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم
على التماهى في الظلم ، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى
الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن
تزين له هذا الظلم ؛ وأن تزين للناس هذا الظلم.

وانت إذا استقرات وضع الظلم في العالم كله لوجدت أن آفات
المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم ؛ لكذلك حين
تبتعد عن الظالم ، وتقاطعته أنت ومن معك ؛ فلسوف يظن أنك لم
تعرض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر ؛ فيتزلزل في نفسه ؛
حاسباً حساب القوة التي تركز إليها ؛ وفي هذا إضعاف لنفوذه ؛ وفي
هذا عزلة له وردع ؛ لعله يرتدع عن ظلمه.

(١) الظلم ، مجاوزة الحد ومفارقة الحق أو غرضه وانتقاصه، وهو ضد العدل، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٣) [النحل] والظالم اسم فاعل يقول الحق: ﴿ رَغْوًا لَّيْسَ بِهِ (١١٤) ﴾ [الكهف]، والظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِمْ كَنَافَرٌ ﴾ (١١٥) [إبراهيم] وظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلنَّاسِ ﴾ (١١٦) [ق] ، ومظلوم اسم مفعول يقول الحق: ﴿ وَمَنْ قَبْلَ مَظْلُومًا .. ﴾ (١١٧) [الإسراء] [القلموس القويم ١/ ٤١٦ ، ٤١٧].

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار يقدر آثار هذا الركون ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسْكُمُ^(١) النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أولِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصرون (١١٢) ﴾ [هود]

فأنتم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون في عداد مع منهج الله ؛ فيدخل الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى. ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا^(٢) مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ (١١٣) ﴾

وهذا أمر بالخير ؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ . ونحن نلاحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي ؛ الأوامر بالخير دائماً ؛ والنواهي عن الشر دائماً. ونلاحظ أن الحق سبحانه قال:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابٍ مَّعَكَ .. (١١٤) ﴾ [هود]

(١) مسّه يمسّه مساً : أجرى يده عليه من غير حائل. ومسّه النار : أصابته وباشتت جلده؛ فآذنته. ومسّه المرض - على المجاز - : أصابه. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الشُّرَكَاءُ يَتُومًا (٨٦) ﴾ [الإسراء]. [القاموس القويم : مادة (مس)].

(٢) زلف (إليه) يزلف زلفة وزلفى: قُربٌ وبُعدٌ. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زُلِفًا^(١) زُلْفًا .. (١٢٧) ﴾ [الملك] أى : قريباً. وهو وصف بالمصدر بلفظه، ويعرب خالاً، أى: ذا قرب، أى: قريباً قريباً شديداً. والزلفى: القرب والمنزلة والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي نُهُنَّكُمْ عَنْهَا زُلْفًا .. (٢٧) ﴾ [سبا] أى: قريباً، مفعول مطلق مرادف ، أو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منها. والزلفة: الطائفة من الليل. وجمعها: زلف. قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٣) ﴾ [هود] أى: أوقلتاً وساعات من الليل. قيل: في أوله. وقيل: في أى وقت فيه. [القاموس القويم : مادة (زلف)].

سُورَةُ هُودٍ



ثم وَجَّهَ النهى للامة كلها: ﴿وَلَا تَطْفَرُوا.. (١١٢)﴾ [هود] ولم يقل: «فاستقم ولا تطغى» لان الامر بالخير يأتى للنبي ﷺ وأمره معه: وفى النهى عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الامة، وفى هذا تأكيد لرفعة مكانة النبي ﷺ.

ونرى نفس الامر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى امة محمد ﷺ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا.. (١١٣)﴾ [هود]

ولم يقل: «ولا تركن إلى الذين ظلموا».

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنها عنها يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ ولأمره:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ.. (١١٤)﴾ [هود]

والإقامة تعنى: أداء المطلوب على الوجه الأكمل، مثل إقامة الدينان؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه.

ويقال: «أقام الشيء» أى: جعله قائماً على الامر الذى يؤدى به مهمته.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ^(١) النَّهَارِ.. (١١٥)﴾ [هود]

أى: نهايته من ناحية، ونهايته من الناحية الأخرى؛ لان طرف الشيء هو نهايته.

(١) الطرف - بفتح الراء - : الجانب، ومتشبه الشيء. قال تعالى: ﴿لِيَفْطَحَ طَرَفًا مِّنَ الدِّينِ كَفَرُوا.. (١١٧)﴾ [آل عمران] أى: يهلك جانباً منهم، أى: طاقة منهم. وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ.. (١١٥)﴾ [هود] أى: صباحاً ومساءً والمراد: جميع الاوقات. ويؤيده قوله تعالى: ﴿.. وَمِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٢٧)﴾ [طه] أى: جميع الاوقات [القاسوس الغويم، مادة: طرف].

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو
الفاصل بين الطرفين ؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً ؛ وما على
يسار الوسط يعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف.

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم
إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل
قسم بين تلك الأجزاء الثى على اليمين والتي على اليسار يعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. ﴾ (١١٤)

يقتضى أن تعرف أن النهار عندنا إنما نعرف عليه من بواكير الفجر
الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتي الظهر؛
فإن وقع الظهر قبل الزوال ^(١) حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن
كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط.

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر ^(٢) .

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ .. ﴾ (١١٤)

يقتضى منا أن نفهم أن كلمة ﴿زُلْفًا﴾ هي جمع: زلفة، وهي مأخوذة
من: أزلقه ، إذا قرَّبه.

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة

(١) الزوال: الوقت الذي تكون فيه الشمس في كبد السماء، [المعجم الوسيط : مادة (زول)].

(٢) قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر، واختاره ابن
عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب. قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني
العصر وحده. وقال قتادة والضحاك. نقله القرطبي في تفسيره (٢٤٢٨/١).

العشاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة يعتبر الوتر واجباً ^(١) ، فقال: إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب ^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة:

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ^(٣) .. (١١٤)﴾

[هود]

وهذا التعقيب يضع الصلاة في قمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا بأن قال: « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر » ^(٤) .

(١) قال الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٣٠) : «ذهب الجمهور إلى أن الوتر غير واجب بل سنة، وخالفهم أبو حنيفة فقال: إنه واجب ويروى عنه أنه فرض. قال ابن المنذر: ولا أعلم لهما وافق أبا حنيفة في هذا. ومن الأدلة الدالة على عدم وجوب الوتر ما اتفق عليه الشافعيان من حديث طلحة ابن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات في اليوم والثيلة. قال: هل على غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع».

(٢) الفرض: ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه ويكثر جاحده ويُعذب تاركه، وهو على نوعين: فرض عين وفرض كفاية، وفرض العين ما يلزم كل واحد إقامته، ولا يسقط عن البعض بإقامة البعض كالإيمان ونحوه، وفرض الكفاية ما يلزم جميع المسلمين إقامته، ويسقط بإقامة البعض عن الباقيين كالجهاد وصلاة الجنازة. أما الواجب: فهو اسم لما لزم علينا بدليل فيه شبهة كخير الواحد والقياس والعام المقصوص والآية المؤولة كصدقة الفطر والأضحية. [التعريفات للجرجاني - صفحات ١٤٤ ، ٢٢٢] .

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٤٢٠) أن سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار خلا بامرأة فقبّلها وتذوّذ بها فيما دون الفرج، روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إنني عالجت امرأة في أقصى المدينة. وإنني أصيبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فأقضي في ما شئت. فقال له عمر: لقد متبرك الله أو ستوت على نفسك. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فامتلق الرجل فأنشبهه رسول الله ﷺ رجلاً ندعاه، فتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ فَلَيْتَ لَوْلَا كَرِيمٌ (٢٤)﴾ [هود] فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة» قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٢) وأحمد في مسنده (٤٨٤/٢) وابن ماجه في سننه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة.

واختلف العلماء في معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم: الحسنة هي ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هي ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات في الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر : لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذي ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد في النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أقلأ تذهب ما دون الكفر ؟.

وهكذا يخفف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوي بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله. والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتسأل بعض العلماء: هل الفرائض هي الحسنات التي تذهب السيئات؟ وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله ﷺ عن حسنات في غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات ^(١).

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذي رزقني من غير حول ^(٢) مني ولا قوة ، والحمد لله الذي

(١) عن قتادة بن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صام يوم عرفة غفر له سنة إمامه وسنة بعده.

(٢) المول: العذل ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف في الأمور [المعجم الوسيط : مادة (حول)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢١

كسأني من غير حولٍ مني ولا قوة^(١). وهذا القول يكفر السيئات.

ألم يقل ﷺ إنك إذا قلت: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٢) ؛ فهذا القول كفارة^(٣) ؟

إذن: فالحسنات مطلقه سواء أكانت قرصاً أم غير قرص ، وهي تذهب السيئات . والسيئة هي عمل توعد الله - سبحانه - من يفعله بالعقوبة.

وتسأل أيضاً بعض العلماء: إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجل ، فكيف تذهبها الحسنة ؟

وأجابوا: إن ذهب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك ؛ فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهب العمل في ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع ؛ أو يحفظها الله إن وقعت ؛ لأنه هو سبحانه القائل:

(١) عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام وورقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذي كسأني هذا الثوب وورقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٢٢) وكذا ابن ماجه (٣٢٨٥).

(٢) عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : «قل: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن ألباسيات الصالحات. وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهي من كنوز الجنة».

قال المنذرى في الترغيب (٢/٢٤٨) : «رواه الطبراني بإسنادين أصحهما فيه عمر بن راشد، وبقيته رواه محتج بهم في الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد في المتابعات ورواه ابن مساجه من طريق عمر أيضاً باختصار».

(٣) الكفارة: ما شرعه الله من القربات لمحور الذنوب وغفراتها، مثل كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿كَفَّارَةٌ﴾ [طعام عشرة مساكين .. (١١٢)] [المائدة] [القاسموس القريم : مادة (كفر)]. وقال ابن منظور في اللسان (مادة : كفر): «تكرر ذكر الكفارة في الحديث، وهي عبارة عن الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي . تمحوها وتسترها».

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨) [ق]

ويقول سبحانه:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (١١) [الانظار]

وهكذا يكون إذهاب السيئة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ (٣) إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ .. ﴾ (٣٢) [التجيم]

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (٣) .. ﴾ (٤٥) [العنكبوت]

(١) لفظ التواة يلفظها لفظاً : رماها. ولفظ الكلمة: قالها. قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨) [ن] أي: كل كلمة يتكلمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد، وعتيد: أي: حاضر مستعد لإثبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم : مادة (لفظ ، عتد)].
(٢) اللمم: صغائر الذنوب. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ (٣٢) [التجيم]. [القاموس القويم : مادة (للم)].

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ (٣٢) [التجيم] : كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٢٥٦).

(٣) الفحشاء : الفحش، وهو العمل القبيح المنكر . قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَهْدِكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ .. ﴾ (٤٨) [البقرة] أي: يأمركم بالبخل أو لفعل القبيح عامة، ومنه البخل، والفواحش هي الأمور النجسة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

والمنكر : ما يستقيبه الشرع الشريف، وما تستكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (٦٤) [آل عمران] [القاموس القويم : مادة (نكر)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢٢

وحين ننظر إلى مراقبت الصلاة ، نجد ما خمسة مراقبت ، فمن تعلق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدة ، ولو لم يات له وقت صلاة لأحس بالضيق ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة ، فقلبه يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة.

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينم على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ؛ فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة.

وهناك أعمال كثيرة من الفروض والحسنات وهي تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات؛ لأن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة^(١).

ويُنهي الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ أُكْرِمُوا ﴾ (١١٤)

[هود]

أي: أن إقامة الصلاة طرفي النهار ، وزلفاً من الليل هي حسنات تذهب السيئات ؛ وفي ذلك ذكرى وتنبية للنفس إلى شيء ثَقُلَ عنه ، أي: أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لتُنسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثاني يذكرك

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له عشرة إلى سبعمئة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت» أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٠) كتاب الإيمان.

بالحكم ؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التي تمر به من المرائي والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التي في بؤرة ^(١) الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار في حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكر بما غاب في حاشية الشعور.

ومثال ذلك: إنك إذا ألقيت حجراً في بحر ، فهذا الحجر يستقر في بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفي من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة في حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ في تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هي قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التي تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصابف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكرى ؛ لأنها تستدعي ما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التي تتبع المعصية ، وهي العقاب.

(١) بؤرة الشيء: مركزه، أو وسطه. وبؤرة الشعور: مركزه، أي: داخل مركز الإحساس والشعور (الإدراك) في المخ، والبؤرة في اللغة: الحفرة، وهي مأخوذة من البشر، أما البؤرة في «علم الطبيعة» فهي نقطة التلاقى أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض دونها شيء. [المعجم الرسيط: مادة (بار) بتصرف وإضافة].

ولذلك يقال: «لا خير في خيرٍ بعده النار ، ولا شر في شرٍ بعده الجنة».

والحق سبحانه يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ .. ﴾ (١١٤) [هود]

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، والركن الثاني ، وهو الصلاة ، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهي كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكّي ببعض الوقت ليبارك لك الله - سبحانه وتعالى - فيما بقى لك من وقت ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام.

ففي الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس.

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ؛ فلك أن تصلي قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فلك أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلي^(١).

وهكذا تجد في الصلاة كل أركان الدين ، ولاهيتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمق في حياته ، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله

(١) عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٤) والبخاري في صحيحه (٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ - الفتح). قال الشيخ سيد سابق في فقه السنة (١/١٠١) ، «من عجز عن القيام في الفرض صلى على حسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وله أجره كاملاً غير منقوص».

سبحانه رسوله ﷺ إليه ليفرض عليه الصلاة ^(١) وهي تحية لامة محمد ﷺ نظراً لأنها شرعت في قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى. لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب امة رسوله ﷺ جميعاً ؛ ولذلك فهي الباقية.

وَيُحَكِّى أَنْ الْإِمَامَ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَرَضَى عَنْهُ - أَقْبَلَ عَلَى قَوْمٍ وَقَالَ لَهُمْ: أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْجَى عِنْدَكُمْ ؟

أى: ما هي الآية التي تعطي الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم: هي قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. (١١٦)﴾

[النساء]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها. أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التي يعنيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)﴾

[النساء]

فكرر الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هي قول الحق سبحانه:

(١) وذلك في ليلة الإسراء والمعراج عند سورة المنتهى، ذكره البخاري في أول كتاب الصلاة (٤٥٨/١) فيه: قال النبي ﷺ: «ثم خرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعتى فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي حديث ٣٤٩».

سُورَةُ هُودٍ

﴿٧٧٢٧﴾

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا^(١) عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا^(٢) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. ﴿٥٣﴾﴾
[الزمر]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعضهم: هي قوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً^(٣) أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ^(٤) .. ﴿١٣٥﴾﴾
[آل عمران]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا ، فقال الإمام علي كرم الله وجهه: ما بالكُم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتُم ؟.. فقالوا: لا شيء.

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال ويكون الإسراف في المال وفي غيره. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] أي: جاوزوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء] والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إنفاق المال وحده. ومن حكم الصالحين: لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف. [القاموس القويم: مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط: يقنط قنوطاً: انقطع أمه في الخير، أو يشرب منه فهو قنط. وقرا حلس يفتح النون في الماضي في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْفِتْنَةَ مِنْ بَيْنِنَا مَا نَطُورُ^(١) .. ﴿٥٤﴾﴾ [الشورى] وفي قوله تعالى: ﴿.. فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحجر] ، وقرئ: «من القسطين» - بكسر النون - كما قرئ به بالحركات الثلاث في النون في قوله تعالى: ﴿.. وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر]. وقنوط: صيغة مبالغة. قال تعالى: ﴿.. وَإِنْ شَاءَ الشُّرُفُوسُ قَرِيطٌ^(٢)﴾ [فصلت] أي: شديد اليأس معدوم الأمان. [القاموس القويم: مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فاحش: فحش، فهو فاحش: أي: جاوز الحد وفعل القبيح والفاحشة: الفعل القبيحة. قال تعالى: ﴿وَأِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً .. ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ .. ﴿٥٣﴾﴾ [النساء] أي: الزنا. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ .. ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام] أي: لا تقربوا الأمور القبيحة المتكررة. [القاموس القويم: مادة (فحش)].

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساساً يبنى عليه ما سوف يقول لهم: واشرباًبت^(١) أعناقهم ، وأرهقوا السمع ، فقال لهم الإمام علي: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ هِيَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكْرٌ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١٤) [هود]

يا علي إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا يفتل^(٢) - أي: لا يلتفت - إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثم عدّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال: بين الصبح والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ : «يا علي إنما الصلوات الخمس لأمّتي كنهر جار بباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد منكم درن^(٣) ثم اغتسل في البحر ، أبقى على جسده شيء من الدرن؟ قال: فذلكم والله الصلوات لأمّتي » .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان. ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥)

(١) اشرب إلى به ، أو اشرب له ، اشرباًباً، وشرشبية: مد عنقه، أو ارتفع لينظر. [المعجم الوسيط : مادة (شرب)].

(٢) انفتل: التوى، وانصرف. ويقال: انفتل عن رأيه، وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم. [المعجم الوسيط : مادة (فتل)].

(٣) درن الشيء درناً . وسخ وتلطخ. يقال: درن الثوب. ودرنت يدها بكذا. فهو درن، ودرن، وهي درناء. وأم درن: الدنيا. [المعجم الوسيط : مادة (درن)].

وجاءت كلمة «اصبر» لتخدم كل عمليات الاستقامة.

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ^(١) عَلَيْهَا .. (١٢٢)﴾ [طه]

والصبر نوعان: صبر «على» ، وصبر «عن» وفي الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلي الفجر ، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين: في الإيجاب للطاعة ، وفي السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ^(٢) بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها^(٣).

وأفرض أن واحداً يرغب في أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستدين.

(١) اصطبر: على وزن افتعل، ويقيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٢٢)﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿فَاعْتَصِرْ صَبْرَ إِيمَانِهِ .. (٥٥)﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا آتَاةٍ لَّهُمْ فَارْتَفِعْهُمْ وَاصْطَبِرْ^(٢)﴾ [الأنعام]. [القاموس القويم: مادة (صبر)] بتصرف.

(٢) حف الغوم بالبيت، أو من حوله: أطافوا به وأحْدَقُوا حوله. قال تعالى: ﴿وَحَفَّتَا بِنُحُلٍ .. (٥١)﴾ [الكهف] أي: جعلنا النخل يعيط بالجنة. [القاموس القويم: مادة (حف)].

وحف الشيء حفاً وحفافاً: استدار حوله وأحْدَقَ به. ويقال: حف الشيء بالشيء، وحوله، ومن حوله. [المعجم الوسيط: مادة (حف)].

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٢) قال النووي في شرحه: «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعقر والحلم والصدقة والإحسان إلى المسكين والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالنظر فيها إلى الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهي وشعر ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى الشهوات المحرمة أو يقسى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها».

ولذلك يقول الزهاد: ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول: إذا غلا شيء على تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَأَصْبِرْ^(١) عَلَى مَا أَصَابَكَ .. (١٧)﴾ [لقمان]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾ [هود]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبیت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابد لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه.

وحاول ألا تدخل في مقام الإحسان نذراً^(٢)؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في ودّ إحسانى ثم تفتقر عنه ، وكأنك - والعيان باله -

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات، وهي الطاعة. وإما صبر على الممذورات، وهي النواهي. وإما

صبر على المقدورات، وهذا الصبر على القضاء والقدر فإذا تحققت الثلاثة كنت من أهل الفلاح، مصداقاً

لقول الحق: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَكَرِهَهَا اللَّهُ لِقَوْمٍ أَصَابَتْ مِنْهُمُ ضَلَالَةٌ مِنْهُمُ الْمُنَافِقُونَ (١٠٥)﴾ [آل عمران]

(٢) من أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتذكروا فإن النذر لا يخفى من القدر شيئاً، وإنما

يستخرج به من البخل». أخرجه مسلم في صحيحه (١٦١٠). والترمذي في سننه (١٥٣٨) وكذا

الشمسني (١٧/٧). قال النووي في شرحه: «معناه أنه لا يأتي بهذه القرية تطوعاً محضاً مستنداً

وإنما يأتي بها في مقابلة شقاء المريض وغيره مما تعلق النذر عليه».

قد جُرِّيت مودة الله تعالى ، فلم تجده أهلاً لها ، وفي هذا طغيان منك .
وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا
تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما قُرِضَ عليه ، وبين
من تجاوز ما قُرِضَ عليه من جنس ما قُرِضَ الله .

وجرب ذلك في نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ،
وقم لتصلّي الفجر في المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عمرك ،
وحين يجيئ الظهر قم إلى الصلاة في المسجد ، وحاول أن تزيد من
ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك ،
وامتلأت بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر
على مَنْ يرتاض ^(١) هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد
أثار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية.

ولذلك لا تجد واحداً من أهل النور والإشراق يدّعي ما ليس له ،
والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها
له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّه بأشياء وصفات لا يجب أن
يضعها موضع التباهي والمראה.

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض
ولغير المرتاض ، في قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وقتاده
عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى:

(١) راضه روضاً ورياضاً ورياضة. ذلك. يقال: راض المهر، وراض نفسه بالتقوى، وراض القواني
الصعبة، وارتاض: صار مروضاً. يقال: ارتاض المهر: ذل. وارتاضت القوافي: ذلت. والرياضة -
عند الصوفية - : تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات، والتخلي عن الشهوات. [المعجم
الوسيط : مادة (روض)] بتصرف.

سُورَةُ الْكَهْفِ

٦٧٣٢

﴿.. عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ دُنَا^(١)﴾

عِلْمًا (٦٥) ﴿

[الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿.. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧)﴾

[الكهف]

وبين العبد الصالح لموسى - بمنتهى الأدب - عذره في عدم الصبر، وقال له:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا^(٢) (٦٨)﴾

[الكهف]

ورد موسى عليه السلام:

﴿.. سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)﴾

[الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿.. فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا^(٣) (٧٠)﴾

[الكهف]

(١) لدن: ظرف مكان، أو ظرف زمان، بمعنى (عند) مبنى على السكون، وإنا أضعف إلى بناء المتكلم فصلت بينهما تون الوقائية وأدغمت في نونها مثل قوله تعالى: ﴿.. قَدْ بَعَثَ مِن لَّدُنِّي عُسْرًا (٧٦)﴾ [الكهف]، وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب، في قوله تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً.. (٨٠)﴾ [آل عمران]، وإلى ضمير المتكلمين (نا) في قوله تعالى: ﴿.. وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ دُنَا عَلِيمًا (٦٥)﴾ [الكهف]، وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿لَنُبَيِّرَنَّ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَنُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ.. (٦٢)﴾ [الكهف] [القاموس القويم: مادة (لدن)].

(٢) خير الأمر، وخير بالأمور، مثل: علمه، وعلم به - وزنا وبمعنى - فهو به خير، قال تعالى: ﴿.. فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا (٢٩)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿سَأَتَّبِعُكُمْ مِنْهَا بِخَيْرٍ.. (٦٠)﴾ [النمل] أى: ينبا. وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (٦٨)﴾ [الكهف] أى: علما. [القاموس القويم: مادة (خير)].

(٣) الذكر: القرآن، والكتب المنزلة كلها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَعَزُّ تَوْلَا الْبُكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٢٠)﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقال تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدًا زَكِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] أى: قصة رحمة الله لعبده زكريا. وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٢٠)﴾ [الشرح] أى: شرفك وحدث الناس عنك بالخير. [القاموس القويم: مادة (ذكر)].

وجاء في [مختصر تفسير البطري: ص ٢٣٧] في تفسير هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾ [الكهف]: يقول: «حتى أذكر أنا لك ما ثرى من الأفعال التي أفعليها وتستكرها أنت، وبين لك شأنها، وأبديتك الخير منها».

ولكن الأحداث تواتر ؛ فلم يصبر موسى ؛ فقال له العبد الصالح :

﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ .. (٧٨) ﴾ [الكهف]

وهذا حكم أزلى بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقى مع غير المرتاض على ذلك، ويلزم غير المرتاض الأدب مثلاً يلتزم المرتاض الأدب، ويقدم العذر في أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه.

ولو أن المرتاض قد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض تادب مع المرتاض لاستقر ميزان الكون.

والحق سبحانه يبين لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين، في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

ويبين الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، في قوله سبحانه:

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف في الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، وللمسلم أن يصلي العشاء ، وينام إلى الفجر.

وتستمر مدارج الإحسان، فيقول الحق سبحانه:

(١) هجع يهجع هجوعاً ، نام ليلاً ، قال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات] .
[القاموس القويم : مادة (هجع)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٣٤

﴿وَبِالْأَسْحَارِ^(١) هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ^(٢)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف المسلم بذلك ، ولكن الذي يرغب في الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ^(٣)﴾ [الذاريات]

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم. وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليؤدَّ الحق سبحانه.

ولله المثل الأعلى: نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ؛ فهو يعطيه من خصوصياته ، ويقيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالناس ممن يدخل في ودِّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

(١) السَّحَر - يفتح السين والحاء - : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. وجمعه: أسحار. قال تعالى: ﴿.. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ^(١)﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ^(٢)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (سحر)].

(٢) السائل: الفقير، أو من يسأل عن شيء. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ^(٣)﴾ [الضحى] يحتمل المعنيين : السائل الذي يطلب الصدقة، والسائل المستفهم عن شيء. وقوله تعالى: ﴿فَقَسَّاسُ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ^(٤)﴾ [الأعراف] أى: للنحاسبين الناس والرسل يوم القيامة. [القاموس القويم : مادة (سأل)].

والمحروم: الممنوع من الخير. قال تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ^(٥)﴾ [الواقعة] أى: حُرِّمْنَا ثمر الحديقة وحُرِّمْنَا الخير كله. والحرمان: المنع. والمحروم أيضاً : اسم مفعول ويطلق على الفقير. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ^(٦)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (حرم)].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا بِحُرْمَتِ﴾ (١١٦)

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لفعل
لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه ،
تكون «لولا» للتحسر والتأسف.

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَبَنَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس]

وذكرهم بالآيات. ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان في اللغة ،
فهى إن دخلت على جملة اسمية ، فهى تدل على امتناع لوجود ، كقول
إنسان لأخر: «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أدنيت» وتسمى «لولا»
في هذه الحالة «حرف امتناع لوجود».

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهى أداة تحضيض ،
وتحميس، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً، مثلما تشجع طالباً على
المذاكرة ، فنقول له: «لولا ذاكرت بجد واجتهاد فى العام الماضى لما
نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية».

-
- (١) أولو البقية : أصحاب التعمير والعقل والنظر فى العواقب وأصحاب الفضل الباقي والخير الثابت.
قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود] .
والبقية : الباقية والشيء الباقي. [القاموس القويم : مادة (بقى)].
- (٢) ترف : ترفاً ، تنعم . وأترفه الله : نعمه وأعطاه مما يشتهى . قال تعالى: ﴿وَأَتَرْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون] . وقال تعالى: ﴿وَأَتَّبَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ﴾ [هود] أى: جروا وراء
شبهواتهم وتمادوا فى الترف قابضهم وأطفاهم. [القاموس القويم : مادة (ترف)].

وفى هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لرأسب :
«لولا ذاكرت لما رسبت» فهذا توبيخ ونأسيف له على ما فات ،
وشحن طاقته لما هو آت ؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛
لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ^(١).

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت
أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشئ التافه أولاً ،
ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشئ القوي ؛ لأنه ثابت على
أحداث الزمن ؛ وبقية الأشياء دائماً خيرها.

والحق سبحانه قد بيّن لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت ؛ لأنه لم
توجد فئة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع
من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف
الخبر وجوباً إذا كان كونه عاماً، وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصل مثل : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا] ، وجملة الجواب (فعلية) وتقرن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب، وتجرد عنها
إذا كانت منفية، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ﴾ [النور] تجرد
الجواب من اللام لأنه منفي بالحرف (ما) ، وقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل
كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ ذَرِيمٌ﴾ [النور] ، وتقدير الجواب :
«المسكم فيما أنقضتم فيه عذاب عظيم» ، كما وضحت الآية التي بعدها فى نفس السورة.

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتمضيض مثل (هلاً) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى :
﴿لَوْلَا نَسْتَعِزُّ بِاللَّهِ﴾ [الأنمل] ، وتدخل على ماضى فى تأويل المضارع كقوله تعالى : ﴿لَوْلَا
أَخَّرْتَنِ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون] أى : لولا تؤخرنى - وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتشديد
فتختص بالماضى، كقوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَى بَارِيَةٍ شَهِدَاءُ﴾ [النور] وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا
إِذْ سَبَحْتُمْهُ فَغَنِمْتُمْ مَا كُنْتُمْ بِهِدَاءُ﴾ [النور] وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا
﴾ [الأنعام] ولولا هنا بمعنئى (هلاً) للتوبيخ، ويؤيده قراءة : «هلاً إذ جاءهم بأسنا»
[القاموس القويم : مادة (لولا)].

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية في كل شيء ، وأنها هي التي تبقى أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٦﴾ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور.

ولذلك قال شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) وَلَا تَبْخَسُوا ^(٢) النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [هود]

فأنت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخراً لك باقياً.

ولنا المثل في موقفه رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حينما سألها عن شاة أهديت له ، وكانت تعرف أن

(١) أقيست : عدل. وأزال الظلم أو الجور. قال تعالى: ﴿ .. وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١١) [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القسط) - بكسر القاف وسكون السين - بمعنى العدل كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَسِرُّوا رَبِّي بِالْقِسْطِ .. ﴾ (٢٩) [الأعراف] أي: بالعدل. وقال تعالى: ﴿ وَأَنْهَضُوا أَوْدَانَ بِالْقِسْطِ .. ﴾ (٤) [الرحمن] أي: بالعدل. وقال تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. ﴾ (٨٥) [هود] أي: بالعدل. [القاموس القويم : مادة (قسط)].

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفقه. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (بخس)].

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها ^(١) ، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلما سألها: ما فعلت بالشاة ؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنها - هذا المنظور الواقعي ؛ بأن الباقي من الشاة هو كتفها فقط ، وأنها تصدقت بباقي الشاة ، ويلفتها رسول الله ﷺ لفنة إيمان ويقين ، ويقول لها: «بقي كلها إلا كتفها» ^(٢).

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقي من الشاة من خير.

ويؤيد ذلك حديث قاله ﷺ: «هل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيته، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت» ^(٣).

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه:
﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ ^(٤) الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا .. (٤٦)﴾ [الكهف]

ويعصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

(١) أخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص ٢٠١) عن ابن عباس «كان أحب النعم إلى رسول الله ﷺ الكتف»، وأخرج البخاري في صحيحه (٤٧١٢) عن أبي هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٦) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذي : «حديث صحيح» .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤ ، ٢٦) ومسلم في صحيحه (٢٩٦٨) والترمذي في سننه (٢٣٤٢) وصححه.

(٤) بقى بقاء: ضد فنى. وباق: اسم فاعل، مؤنثه: باقية. قال تعالى ﴿وَيُفَوِّضُ رَجَدَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٤٧)﴾ [الرحمن] وقال تعالى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٥١)﴾ [النحل].

والبقية: الباقية، والنشء الباقي. وجمع بقية: بقيات. وجمع باقية: باقيات، قال تعالى ﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً (٤٦)﴾ [الكهف] أى: الأعمال النافعة الباقية التى يبقى خيرها فى الناس هى خير ثواباً عند الله. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٣٩﴾

﴿.. ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا^(١)﴾ [الكهف]

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مُرَدًّا^(٢)﴾ [مريم]

إن: لا بد أن تنظر إلى الباقيات في الأشياء ! لأنها هي التي يُعَوَّل عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(٣)﴾ [الاعلى]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(٤)﴾ [النقص]

إن: فباياك أن تنظر إلى الداهي ، ولكن أنظر إلى الباقي.

وإذا عَصَتْ الإنسان الأحداث في أى شيء ، نجد أن سطحي الإيمان يقزع مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكرًا لله تعالى على ما بقى.

وها هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حينما

(١) أمل يامل أملاً واملاً وأملاً : رجا يرجو. والامل. الرجاء. قال تعالى: ﴿..وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا^(١)﴾ [الكهف] لأنه رجاء عند الله متحقق، لا شك فيه [القاموس القويم : مادة (أمل)].

(٢) مردّ: اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمي. قال تعالى: ﴿وَأَنْ مُرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ..﴾ [غافر] أى: رجوعنا إليه - على المصدرية - أو مرجعنا إليه - على أنه اسم مكان أو زمان. وقال تعالى: ﴿وَأِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ^(٣)﴾ [الرعد] أى: لا صرف له ولا إرجاع له - على المصدرية - فهو واقع بهم حتمًا. [القاموس القويم : مادة (ردد)]. وجاء في [كلمات القرآن للشيخ محمد حسين مخلوف] أن كلمة (خير مردًا)، أى: مرجعًا وعاقبة.

جُرِّحت ساقه جرحاً شديداً، وهو في الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء: لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين.

وكان هذا القول يعني أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلما قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسبقه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو ؛ فقد عافيت^(١) في أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقي.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقى الإيمان يقول مرة :

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. ﴾ (١٠) [غافر]

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴾ (١٥٧) [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة.

وهكذا تجد في كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه:

(١) على الثبت: كثر وطال. وعفا القوم كثرناه يقول الحق : ﴿ ثُمَّ يَدُلُّنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْعَسَنَةِ حَتَّىٰ نَعْفُو .. ﴾ [الأعراف] أي: كثروا وعزوا واغتفروا. والعفو في المال ما زاد عن النفقة. يقول الحق: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْفَقْرُ .. ﴾ (١٣٣) [البقرة] وعفا عن الذنب عفو: تجاوز عنه. وعفو صيغة مبالغة أي: كثير العفو. يقول الحق: ﴿ إِنْ أَلَّهَ تَعَفُّوْهُ ﴾ (١٤) [الحج]. ويقول الحق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ .. ﴾ [الأعراف] أي: خذ ما عفا عنه الناس وسمحوا به عن طيب خاطر، ومن دعاء القرآن الكريم: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨٦) [البقرة] القاموس القويم (١/٢٧، ٢٨).

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٤١

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ ^(١) مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ ^(٢) فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ .. ﴾ (١٦) ﴿

[هود]

أى: لولا أن كان فى الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكانوا ينهون عن الفساد فى الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها .
والبقايا فى كل الأشياء هى نتيجة الاختيار ، والاختيار : مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ ^(٣) فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^(٤) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ ^(٥) فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) ﴿

[الرعد]

(١) القرن من الناس : أهل زمان واحد . قال تعالى : ﴿ فَأَمْكُنَّاهُمْ بَدْرَبِهِمْ وَأَنفَعْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْنَا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام] ، وجمعه : قرون . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا .. ﴾ (١٧) ﴿ [يونس] . [القاموس القويم : مادة (قوت)] .

(٢) فسد فساداً ، والفساد : ضد الصلاح . وأفسده غيره : جعله فاسداً . قال تعالى : ﴿ .. وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُسْتَبِدِينَ ﴾ [البقرة] ، وكلمة مفسدين حال مؤكدة لمعنى الفعل « تعنوا » أى : لا تفسدوا فى الأرض لفساد . [القاموس القويم : مادة (فسد)] .

(٣) زبد الماء : ما يعلوه - عند جيشائه واضطرابه - من الرغوة وحطام الأشياء . وزبد المعادن : خبثها ونفاياتها . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَلِ السَّلْ زُبْدًا رَابِياً .. ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد] وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد] شبه الله - سبحانه - لباطل بالزبد الذى يلقى ويرمى : لأنه لا ينفع الناس . [القاموس القويم : مادة (زبد)] .

(٤) جفأت القدر : رمت زبدتها عند الغليان . وجفأ السيل سخامه . رماء وقذفه . ومن عادة الطهارة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد] أى : لا يتلف به . ويلقى بعيداً ، أو يذهب ضياعاً كالجفاء . [القاموس القويم : مادة (جفأ)] .

(٥) مكث مكثاً ومكثاً : أقام فى مكانه ، وتفيد الثبات وعدم العجلة . قال تعالى : ﴿ فَيَمْكُثُ غَيْرَ بَعِيدٍ .. ﴾ (١٧) ﴿ [النمل] أى : استمر الهدى فى غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى : ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد] أى : يبقى مدة طويلة فيها : قسريدها خمسين . وقال تعالى : ﴿ أَمْكُثُوا إِنِّي أَنْتَ نَارًا .. ﴾ (١٧) ﴿ [طه] أى : أقيموا فى مكانكم منتظرين . وقال تعالى : ﴿ وَفَرَأْنَا فِرْعَانَ يُفْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ .. ﴾ (١٧) ﴿ [الإسراء] أى : على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمة متطاولة . [القاموس القويم : مادة (مكث)] .

وفى العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إنّ: فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ! لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء.

ومكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذى كَوَّنَ الكون بكماله.

واقراً إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَرُوا (٨) فِي الْمِيزَانِ (٩)﴾

[الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ؛ فلکم أن تعدلوا فى الكون فى الأمور الاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاقل خير الكادح ، ويرى الناس العاقل ، وهو يحيا فى ترف من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد.

(١) طغى يطفو طغواناً وطفوى، بمعنى تجاوز الحد فى الجور والتعدى وطفى يطفئ طغياناً، تجاوز الحد . و«طفوى» من الواوى، و«طغيان» من اليائى. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا إِلَى الْبِلَادِ (٥٥)﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا نَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغَةِ (٥٦)﴾ [الحاقة] أى: بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. [القاموس القويم: مادة (طغى)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسين مخلوف]: ﴿.. وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]: شرع العدل وأمر به الخلق. و﴿أَلَّا تَطْغَرُوا .. (٨)﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

وينزوي أصحاب المواهب ، فلا يعمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهي غير مصونة بالعدالة.

وهكذا تفسد حركة الحياة ، وتختل الموازين ، وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١١٦)

[هود]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد ﷺ خير الأمم بشرط أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر.

قال الله تعالى:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ^(١) وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ^(٢) .. ﴾ (١١٠)

[آل عمران]

وجعلها الحق سبحانه الأمة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتي بعد أن يتقلص الخير في المجتمعات ، وفي النفوس.

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق في النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية في الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع

(١) المعروف: ضد المنكر. وهو الذي تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن. قال تعالى: ﴿قُلْ مَعْرُوفٌ وَسَفْهُةٌ غَيْرَ مِنْ صُدُقَةٍ بِشَيْءٍ أَذَى .. ﴾ (١١٦) [البقرة] . وقال تعالى: ﴿ .. وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١١٥) [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (عرف)] بتصريف.

(٢) المنكر ما يستقيج الشرع الشريف وما تستنكر العقول السليمة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (١١٠) [آل عمران] . [القاموس القويم: مادة (نكر)].

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوامة» ، ويستسلم للنفس الأمارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقرمه ، فإذا ما فسد المجتمع ، قالسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد آمنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهي عن المنكر^(١)؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى: «علماء امتي كأنبياء بنى إسرائيل»^(٢).

والعالم: هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها ، وأدأها إلى من لم يسمعها ، قرب مبلّغ أوعى من سامع»^(٣).

ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١١٦)

[هود]

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض.

(١) من معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من امتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٧٢).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال: «قال السيوطي في الدرر لا أصل له» وكذا قال ابن حجر والعميري والزرزقي.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٤٥

ونرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت حاضرة البحر ، وكانت تاتيهم حياتهم شرعاً ^(١) يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تاتيهم .

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ ^(٢) قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذْرَةٌ ^(٣) إِلَيْنَا رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْقُونَ ^(٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ^(٥) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٦) ﴾ (١٦٥)

[الأعراف]

(١) شرع: ظهر وأشرف فهو شارع أى: بارز ظاهر، وجمعه شرعٌ ﴿وَإِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَوَّاهُمْ ضَرْعًا ..﴾ [الأعراف] بارزة واضحة في الماء. [القاموس القويم: ١/٣٤٦].

(٢) وعظه يعظه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح، وأرشده إلى الخير. قال تعالى مصوراً عذاب الكافرين: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ^(٣٦١)﴾ [الشعراء] لهم لشدة عتابهم وكفرهم يستوى عتابهم الامران: الوعد، وعدم الوعد.

والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿... وَمَوْعِظَةُ لِمُذُنِّ ^(٣٦٢)﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ..﴾ ^(٣٦٣) [التحل]. [القاموس القويم: مادة (وعظ)].

(٣) المعذرة: مصدر ميمي، واسم للعتذار، وللحجة، وعذره: قبل عذره وسامحه. قال تعالى ﴿مَعذِرَةٌ إِلَيْنَا رَبِّكُمْ ..﴾ ^(٣٦٤) [الأعراف] أى: اعتذاراً له ببذل الجهد في السعي لهداية الناس. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَى مَعَاذِرُهُ ^(٣٦٥)﴾ [القيامة] . [القاموس القويم: مادة عذر].

(٤) يؤس يؤس يأساً: شجع واشتد، فهو بئيس، أى: شديد، ويقال: فارس بئيس، أى: قوى شجاع. قال تعالى: ﴿... وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٣٦٦)﴾ [الأعراف] أى: عذاب شديد. [القاموس القويم: مادة (بؤس)].

(٥) فسقت الرطبة فسوقاً وفسقاً: خرجت من قشرتها، ومن هذا المعنى المأذى أخذ المعنى المعنوي، فقبل: فسق الرجل: خرج من طاعة الله خروجاً فاحشاً، والفسق أعم من الكفر، فقد يكون فاسقاً ولا يكون كافراً، كالمسلم العاصي. قال تعالى: ﴿... إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَخَبِّرُوا ..﴾ ^(٦١) [الحجرات]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانُوا مُؤْمِنًا كُنْ كَانُوا فَاسِقًا ..﴾ ^(٦٢) [السجدة] أى: كافراً غير مؤمن، فالفسوق هنا - في الآية الأخيرة - بمعنى: الكفر. [القاموس القويم: مادة (فسق)] يتصرف.

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن السوء في تلك القرية ، وقد نرى في بعض المجتمعات عنصريين:

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد.

والعنصر الثاني: أن يفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه، وفي انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلة للبشر ؛ لأنك قد تجد إنساناً لا تترفع إمكاناته ؛ فيزيد هذه الإمكانيات بالرشوة والسرقة والغصب.

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتعمون بنعيم لا تؤهله إمكانياته أن يتنعم به.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ^(١) .. ﴾ [الإسراء]

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها ؛ فهم يفهمون الفسق على أنه نشيئة لأمر من الله - سبحانه وتعالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ^(٢) لَهُ الدِّينَ .. ﴾ [البينة]

أي: أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهي مختارين ؛ ففسقوا عن أمر ربهم.

(١) أمرنا مترفيها، أمرنا متعميها بطاعة الله، ففسقوا، فمردوا، وعصوا. [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوق].

(٢) أخلص دينه لله: طهره وصفاه من شوائب الشرك والرياء. قال تعالى: ﴿ .. فَأَعَدَّ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [سورة ص] أي: إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خالصة خاصة هي ذكرى الدار الآخرة، فذكرها والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل، وفي فضيلة عظيمة خاصة بهم. [القاموس القويم مادة (خلص)].

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرها عنها:

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (١١٦)﴾ [هود]

وقوله سبحانه: (ظلموا) تبين أن مادة الترف التى عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتناع دماء الكاذبين .

ومادة (ترف) تعنى النعمة يتنعم بها الإنسان . ومنها: أترف ، وأترف ، وكلمة «أترف» أى: أطفته النعمة ، وأتسته المنعم سبحانه . وأترف ، أى: مد الله له فى النعمة لياخذه أخذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ^(١) كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً^(٢) .. (١١٤)﴾ [الأنعام]

فمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظن ظان أنه يدله ، ولكنه يوقعه ليلقيه من عل ، فيزداد ويعظم ألمه . وكان الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليظفروا .

ولنا أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التى تجعل النفس متشروحة ، وعليها أن تنتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

(١) الباب: مدخل المكان، وجمعه: أبواب. ويستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره ، قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٢٥٢)﴾ [البقرة] هو باب حقيقى للبلد.

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٢٥٣)﴾ [المؤمنون] أى: أصبناهم بعذاب شديد، كأنه خلف باب مغلق ففتح وتدفع العذاب عليهم. وقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١٤)﴾ [الأنعام] أى: منحناهم أصناف النعم من صحة ومال وجاه وغير ذلك، كأنها كانت خلف أبواب مغلقة ففتحت. [القاموس القويم مادة ب و ب].

(٢) يغتبه بغتاً وبغتة: فجاءه على غرة وغفلة. قال تعالى: ﴿.. فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥٥)﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (بغت)].

إن فُتِحَ عليك ؛ فافهم أن النعمة جاءت لتطفيك ، ولكن إن فُتِحَ لك ،
فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ^(١) لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم في هذه الآية التي نحن بصدد
خواتمها ؛ قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر ؛ لأنهم غفلوا عنه.
ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۖ ﴾ [هود]

أى: كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل ؛ وهو اتباع منهج
السماء ؛ لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» ^(٢) وتعنى:
«قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء ؛ والغفلة عن الإيمان بالخالق
سبحانه ، والاستغراق فى الترف الذى حققوه لأنفسهم بظلم الغير ،
وأخذ نتيجة عرق وجهد الغير.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

(١) فتح يفتح فتحاً: ضد أغلق. وسمى النصر على العدو فتحاً لأنه يفتح بلاده للمنتصر. قال تعالى:
﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ﴾ [٢٧] [الأعراف] أى: انصربنا عليهم، ويجوز أن يكون المعنى:
ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التقام والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم. وقال تعالى:
﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ .. ﴾ [٤٤] [الأعراف] أى: لا يرضى عنهم الله، ولا يبالغون رحمته كأن
السماء مغلقة أمامهم كما تغلاق أبواب الملوك فى وجه الذين لا يرغبون فى لقاءهم. [القاموس
القيوم : مادة (فتح)].

(٢) جرم الشرع جرماً: قطعه، وغلب هذا الفعل على عمل الشر. يقال: جرم: أذنب، وجنى جناية. وجرم
المال كسبه من أى وجه. وجرمه: حملة على فعل شر أو ذنب وجرم. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمُكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ الْآخَرِينَ ۖ ﴾ [٢٨] [المائدة] أى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل، أى: التزاموا
العدل حتى مع من شكروهم. أى: اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى. [القاموس القويم - مادة :
جرم].

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١١٧)

وساعة تقرا أو تسمع (ما كان) يتطرق إلى ذهنك : ما كان ينبغي .
ومثال ذلك : هو قولنا : « ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا » . وقولنا
هذا يعنى أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغي أن يصدر منه .
وهناك فرق بين نفى الرجود : ونفى انبغاء الرجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. ﴾ (٦٩) [يس]

وهذا لا يعنى أن طبيعة الرسول ﷺ جامدة ، ولا يستطيع - معاذ
الله - أن يتذوق المعانى الجميلة ؛ لانه ﷺ جبل ^(١) على الرحمة ؛ وقد
قال فيه الحق سبحانه :

(١) ملكه يهلك ملكاً وملكوكاً وهلاكاً ومهلكاً - يفتح اللام ويكسرهما - وتهلكة : مات ونفى، فهو هالك .
قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿ لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ .. ﴾
(١١) ﴿ [الأنفال] وقال تعالى : ﴿ مَا شَهِدْنَا مِنْهُ لَكَ أُهْلٌ .. ﴾ [النمل] . وقوله تعالى : ﴿ هَلْكَ عَلَىٰ
مُلْكَيْنِيَّةٍ ﴾ [الحاقة] اى : ذهب وضاع ولم يبق لى عز ولا سلطان ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَمْثَرَ هَلْكَ
نَبِيٍّ لَهُ وَلَدٌ .. ﴾ [النساء] اى : مات وليس له ولد يرثه ، وأهلكه : أمانته وأفسده ، أو كان سبباً فى
هلاكه . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴾ [النجم] اى : أفتاهم وأبادهم . [القاموس القويم :
مادة هلك] بتصريف .

(٢) قال الإمام أبو يحيى زكريا الانتصارى فى «فتح الرحمن» (ص ١٦٥) : «نفى الله الظلم عن نفسه
بإبلاغ لفظ يستعمل فى النفى، لأن اللام فيه لام الجحود، والمضارع يفيد الاستمرار، فمعناه :
ما فعلت الظلم فيما مضى، ولا أفعله فى الحال، ولا فى المستقبل فكان غاية فى النفى» .
(٣) جبل لله الخلق جبلاً : خلقهم . ويقال : جبله على كذا : طبعه . وفى الأثر : «جبلت القلوب على حب من
لصنن إليها» . وجبل الشيء : شده وأوثقه . وجبل فلاناً على الشيء والأمر : جبره ، [المعجم
الوسيط : مادة (جبل)] .

﴿قَبِيْمًا رَحْمَةً مِّنَ اللّٰهِ لَئِنْ لَّمْ يَنفُتُوْا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾
[آل عمران]

ولهذا تفهم قوله الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِيْ لَهُ .. (٦٩)﴾
[يس]

أى : أن الحق سبحانه لم يشأ له أن يكون شاعراً.

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين «نفى الوجود» وبين «نفى انبغاء الوجود».

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. (١١٧)﴾
[هود]

أى: لا يتأتى ، ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم ؛ لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير لينتفع به ؛ ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً؛ لأنه سبحانه وأهب كل شيء ؛ لذلك فالظلم غير وارد على الإطلاق في العلاقة بين الخالق سبحانه وبين البشر.

وحين يورد الحق سبحانه كلمة «القرى» - وهى أماكن السكن - فلنعلم أن المراد هو «المكين» ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً ^(١) الْبَحْرِ .. (١٦٣)﴾
[الاعراف]

وقوله الحق أيضاً:

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ ^(٢) الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾
[يوسف]

(١) حاضرة البحر، أى مشرفة عليه، مجاورة له غير بعيدة عنه. [القاموس القويم ١/ ١٥٩] يتموضع.

(٢) القرية: البلدة الكبيرة، تكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى: ﴿وَأَدْعُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ .. (٨٢)﴾ [البقرة] ، ثم قال: ﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَمْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (٦٥)﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. [القاموس القويم ٢/ ١١٥].

والحق سبحانه في مثل هاتين الآيتين ؛ وكذلك الآية التي نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المكين.

والله سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ۖ ﴾ (١١٧)

[هود]

أى: أنه مُنْزَهٌ عن أن يهلكهم بمجاوزة حدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدلٍ ؛ لأن العدل ميزان، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران، ومن العدل العقاب، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب.

وفي مجالنا البشرى ؛ لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة ؛ فنحن نتعبه فعلاً ؛ لكننا نريح كل المظلومين ؛ وهذه هي العدالة فعلاً.

ومن خطأ التقنيات الوضعية البشرية هو ذلك التراخي في إنفاذ الحقوق في التقاضى ؛ فقد تحدث الجريمة اليوم ؛ ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما هو واحد من أخطاء التقنيات الوضعية ؛ ففي هذا تراخٍ في إنفاذ حقوق التقاضى ؛ لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة.

ولذلك حرص المشرع الإسلامى على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، لعقاب المجرم في حموة^(١) وجود الأثر النفسى عند المجتمع ؛ يجعل المجتمع راضياً بعقاب

(١) حموة الألم: سوريته، وشدته، سواء أكان الألم مادياً أم معنوياً. [المعجم الوسيط : مادة. (حمر)] بتصرف.

المجرم، ويذكر الجميع ببشاعة ما ارتكب ؛ ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها.

ويقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ^(١) ﴾ (هود)

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ .. لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ^(٢) ﴾ (الأنعام)

إذن: لا بد من إزاحة الغفلة أولاً ، وقد أزاح الله سبحانه الغفلة عنا

(١) أصلح الأمر إصلاحاً، أزال إفساده. قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ..﴾ (الأعراف). وأصلح بين الرجلين: أزال ما بينهما من خلاف وخصام. قال تعالى: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ..﴾ (الحجرات). ومصْلِحون: جمع مصلح، والمصلح: اسم فاعل، من الفعل «أصلح». قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْتِمُ الْمُقْسِدِينَ مِنَ الْمُصْلِحِ ..﴾ (البقرة) [. وقال تعالى: ﴿ .. قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (البقرة) [. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود) . وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف). [القاموس القويم : مادة (صلح)] [بتصرف].

(٢) غفل عن الأمر، يغفل غفلاً؛ تركه عمداً، أو عن غير عمد. وأغفله - متعمداً بالهمزة -: تركه من عمد. وأغفل غيره عن الأمر: جعله يغفل عنه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ..﴾ (الكهف) [أى: جعلناه غافلاً عن ذكرنا، والغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ..﴾ (ق) [أى: غافلاً عن إدراك القيامة، وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلَبُونَ عَنْ آلِبَيْتِكُمْ ..﴾ (النساء) [أى: تسبون عنها وتترك حراستها فينتفضون عليكم. وقال تعالى: ﴿ .. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة) [أى: أن الله عالم، يعلم بكل ما تعملون، لا يسهو عن شيء منه. وقال تعالى: ﴿ .. أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف) [أى: الذين لا يدركون الحق ولا يهتدون إليه فيعرضون عنه. [القاموس القويم : مادة (غفل)] [بتصرف].

بإرسال الرسل وبالبيان وبالنذر ؛ حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق التشريع لها ^(١).

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى البيان اللازم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١١٧) [هود]

والإصلاح في الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا في الكون من ضروريات لننتفع بها ، وقد كفانا الله ضروريات الحياة ؛ وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل الترف في الحياة.

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة في الكون ، والتزاوج متاح بوجود الذكر والأنثى في الكائنات المخلوقة ، أما ما نصنعه نحن من تجويد لأساليب الحياة ورفاهيتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا.

وسبق أن قلنا: إن المصلح هو الذي يشرك الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدي إلى ترفه وإلى راحته ، وإلى الوصول إلى الغاية بأقل مجهود في أقل وقت.

والقرى التي يصلح أهلها ؛ لا يهلكها الله ؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى ؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات ؛ بل تتساند وتتعاوض، ويتواجد المجتمع المنشود.

(١) يقول الحق سبحانه. ﴿... وَمَا كُنَّا مُنذِرِينَ حَتَّىٰ تَبُوءَ بِمِثْلِ صَمُودَ﴾ [الإسراء].

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوى ، ولكنهم اهتموا إلى أسلوب عمل يريحهم، مثل الأمم الملحدة التى اهتمت إلى شيء ينظم حياتهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشرى أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس.

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوى فقد شاء به الله سبحانه أن يقى الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعرضهم للأحداث.

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهى تعالج بعض الداءات التى يعانى منها البشر ، لا تعطى عائد الكمال الاجتماعى، أما قوانين السماء فهى تقى البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ ﴾ (١١٢)

[مزد]

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوى، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوى ، لكنهم يصلحون أنفسهم.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة ؛ بل يبقيها كافرة ما دامت تضع القوانين التى تنظم حقوق وواجبات أفرادها ؛ وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام.

ولكن على المؤمن أن يعلن لهم منهج الله ؛ فإن أقبلوا عليه ففى ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا ؛ فعلى المؤمنين أن يكتفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيمانى.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٥

ولذلك نجد - في البلاد التي فتحها الإسلام - أناساً يقرأون على دينهم ؛ لأن الإسلام لم يدخل أى بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التي تحمي حق الإنسان في اختيار عقيدته.

يقول الله جلّ علاه :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) [المستحنة]

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومصلحة : فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه في الحياة الدنيا ؛ لأنه سبحانه القائل:

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُزَتْ مِنْهُ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢٠) [الشورى]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ

مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١٨)

(١) حرث الأرض: يحرثها حرثاً: أثارها وميهاها للزرع، أو ألقي فيها الحب للزرع. وحرث الأرض: زرعها. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا نُزِّلْنَاهُ مِنْ ثَوْبٍ وَأَنَّا نَحْمِلُهُ غَوًى ﴾ (٥٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا نُزِّلْنَاهُ مِنْ ثَوْبٍ وَأَنَّا نَحْمِلُهُ غَوًى ﴾ (٥٣) [الواقعة] . وبطلق الحرث على الزرع. قال تعالى: ﴿ وَبِهِدَايَتِكَ الْخَرْدَ وَالْأَسْلَ . . ﴾ (٥٥) [البقرة] أى: بهدلك المزدروعات، والنسل من الإنسان والحيوان. وقال تعالى: ﴿ بِأَسْوَاقٍ حَرْثُكُمْ . . ﴾ (٦٧) [البقرة] على التشبيه بالأرض المهيأة للزرع فمن بلدن لكم الذرية، ومن المجاز قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ . . ﴾ [الشورى] أى: فى ثواب الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ . . ﴾ [القلم] أى: على زرعكم أو حديقتكم المزروعة، [القاموس القويم : مادة (حرث)].

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله - سبحانه - في هذا الكون كل مقومات الحياة ! المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان ؛ ليمارس مهمة الخلافة في الأرض ؛ ولم تنأب^(١) تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ؛ لأن الحق - سبحانه - هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه؛ فهو - سبحانه - لن يضمن عليه بمقومات هذا الوجود ؛ من بقاء حياة ، وبقاء نوع.

وهذا هو عطاء الربوبية الذي كفله الله - سبحانه - لكل البشر: مؤمنهم وكافرهم ، وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل في المنهج الإيماني: «افعل» و «لا تفعل».

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعادة الدنيا والآخرة^(٢).

إذن: فقدرة الله - سبحانه - قد أرغمت الكون - دون الإنسان - أن يؤدي مهمته ، وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام إرادته الله - سبحانه وتعالى^(٣) - كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أي من الكائنات الأخرى المسخرة عن إرادته.

(١) أبى إياة وإيابة، وتابى عليه: استمضى. وأبى الشيء: كرهه ولم يرضه. وفي التنزيل العزيز ﴿وَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَمَنَّوْهُ...﴾ (٢٤) [التوبة] ، وفي المثل: رضى الخصمان وأبى القاضى، يضرب

لعم يطالب بحق نزل أصحابه عنه. [المعجم الوسيط : مادة (أبى)] بتصريف.

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا تَزُولُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَهَافُوا وَلَا تَمْرُقُوا وَأُبَشِّرُوا بِالْحَيَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣) نَحْنُ أَرْثَاؤُكُمْ فِي الْحَيَةِ الدُّنْيَا وَلِىَ الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٤) قُلْ مَنْ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ [فصلت] .

(٣) يقول تعالى : ﴿... وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)﴾ [النحل] . ويقول : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهْلَكْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾

(٤٥) [الأنعام] . ويقول أيضاً : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهْلَكْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ لِي رَحِيمٍ...﴾ (٥٤) [الشورى] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٧

لأن الحق - تبارك وتعالى - أثبت لنفسه طلاقة القدرة في تسخير
أجناس لمراده : بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله - سبحانه -
القدرة ولا يثبت له المحبوبة.

أما الذي يثبت له المحبوبة فهو أن يخلق خلقاً ؛ ويعطيهم في
تكوينهم اختياراً.

ويجعل هذا الاختيار كل واحد فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن
يعصى ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبة الله - تعالى.

وهكذا تعلم أن الكون المسخر المقهور قد كشف لنا سيال^(١) القدرة،
والجنس الذي وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبة.

والحق - سبحانه - هو القائل:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (٢٩) [الكهف]

ولكن أترك الإنسان حتى يأتي له الغرور في أنه يملك الاختيار دائماً؟

لا .. فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار ؛ لأن في طيِّك
قهراً^(٢) ، وما دام في طيِّك قهر فعليك أن تتأدب ؛ ولا تتوهم أنك
مختار في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن ؛ ولا تتوهم أنك مُنفلت من
قبضة الله - تعالى - فهو يملك زمامك^(٣) في القهريات التي تحفظ لك

(١) سأل يسيل مسيلاً، ومسيلاً، ومسيلاً، فسر سائل، وسَّيَّال: جرى وطفى، ويقال: سالت الأرض ونحوها، وسالت بما فيها، وسالت عليه الخيل وغيرها: جرت من كل وجه وتدفقت. وسال بهم السيل، وجاش بنا للبحر. وتعوأ في أمر شديد، ووقعنا نحن في أشد منه. وسالت الغرة: استطلعت وعرضت في الجبهة والحمية الأنف.

وسَّيَّال القدرة الإنسية: ظهور آثارها في جميع المخلوقات، وانتشارها وتعمولها لكل شيء في الكون، ما علمنا منه وما لم نعلم. [المعجم الوسيط: مادة (سيل)] بتصريف.

(٢) لأن الإنسان مختار فيما يستطيع التبدل فيه ، مقهور فيما لا يستطيع إبداله ، إذن : للاختيار حدود مقرونة بالاستطاعة ، والطاقة البشرية.

(٣) الزمام: الخيط الذي يشد في البرة أو في الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود. ويقال «هو زمام قومه» : قائدهم ومقدمهم وصاحب أسرهم. وهو زمام الأمر: ملاكته، وألقى في يده زمام أمره: فوضه إليه. ويملك الله زمامك أي: يملك أمورك كلها. [المعجم الوسيط: مادة (زمم)] بتصريف.

حياتك مثل: الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه - سبحانه - مَيُزَك بالعقل.
وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطى الأسماء معانى ضد مسمياتها ،
فكلمة «العقل» مأخوذة من «عقل»^(١) وتعنى : «ربط» ؛ فلا تجمع^(٢)
بعقلك فى غير المطلوب منه ؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك. وتذكر
دائماً: فى قبضة من أنت ؛ وفى زمام من أنت ؛ وفى أى الأمور أنت
مقهور^٩

وما دُمْتَ مقهوراً فى أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله
سبحانه واحفظ أديك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء
ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه.

وانظر إلى من سلبهم الحق - سبحانه - بعض ما كانوا يظنون أنها
أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ،
أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع.

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية فى الإنسان لما عصته ، وهذا دليل
على أنها أمور موهوبة من الله ، وإن شاء أخذها، فهو - سبحانه -
ياخذها ليؤدب صاحبها.

ومادام الإنسان بهذا الشكل، فليقل لنفسه: إياك أن تغتر بأن الله

(١) عقل يعقل عقلاً: أدرك الأشياء على حقيقتها. وعقل البعير: ضمّ وسّع يده إلى عضده وربطهما معاً
بالعقال: ليبقى باركاً. والعقل: ما يكون به التفكير وتصور الأشياء على حقيقتها، كقوله تعالى:
﴿ مِنْ بَيْنِ مَا عَقِلَهُ .. ﴾ [البقرة] أى: أدركوه على حقيقتهم وعلومهم علماً ثابتاً. قال تعالى:
﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ لَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك] أى: لو كنا ندرك الأمر على
حقيقته. وقد نعى القرآن كثيراً على من لا يستعملون عقولهم. وحث على استعمال العقل، فمن ذلك
قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة] [القاموس القويم: مادة (عقل)] بتصرف.

(٢) جمع: أسرع. والجموح: الرجل يركب هواه فلا يمكن رده. [مختار القاموس - مادة جمع].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٩

جعل فيك زاوية اختيار، وتذكر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقى التكليف من الله بـ «افعل»^(١)، و«لا تفعل»؛ لأن معنى «افعل كذا» أنك صالحٌ ألا تفعل؛ ومعنى «لا تفعل كذا» أنك صالحٌ أن تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة قَهْرٍ وتسخير، فتأديبٌ في منطقة الاختيار، كما تأديبٌ في منطقة الاضطرار والقهر.

وقد وصف الحق - سبحانه - الإنسان بأنه كنود، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ^(٢)﴾ [العاديات]

لأن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده، وأن يقول لنفسه: مادامت الحيوانية في مقهورة، ومادامت الجعادية في مقهورة؛ فلأكن مؤدياً مع ربي، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله.

وأنت إن أردت أن تضع إحصائية لـ «افعل» ولا «تفعل» لوجدت ما لم يرد فيه تكليف بـ «افعل» و«لا تفعل» لا يقل عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة، وهو المباح.

وأنزل الله - سبحانه - التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها - إن جعلت التكليف هو مرادك - وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة - ويعود خير ذلك عليك.

(١) وكلمة افعل ولا تفعل تدور حول مطلوبات المنهج أسراً ونهياً، فالفروض والواجب والستة والمستحب ماورد بهم. والحرام والمكروه منهي عنهما، والأمور عظامه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَنْ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِیَ الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت] والنهي مقابله أو المغفرة من الله.

(٢) كند النعمة يكرها : جحدما ولم يشكرها، فهو كاند وصيغة العيالة «كنود». قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات] أي : كفور شديد الجعود . [القاموس القويم مادة (كند)].

لساعة يقول لك التكليف: عليك أن تزكى عن مالك، فلا بد لك من أن تقدّر المقابل، لأنك إن اشتقرت واحتجّت! سيأتيك من زكاة الآخرين ما يلبي احتياجاتك، فمن «افعل» التي تلتزم بها ويلتزم بها غيرك تأتي الثمرة التي تسدّ عجز أي ضعف في المجتمع الإيمانى بالتراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج.

وحين يقول لك التكليف: لا تعتمد على حُرّمات الغير، فهو يقيد حريتك في ظاهر الأمر، لكنه يحمي حُرّماتك من أن يعتدى عليها الغير، وحين تتعقل أوامر التكليف كلها ستجدها لصالحك؛ سواء أكان الأمر بـ «افعل» أو «لا تفعل».

وهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا نَاسًا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (١٨٠) ﴿

و لو » تفيد الامتناع^(١) . أى : أن الله - تعالى لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين.

(١) لو : حرف شرط غير جازم، ومعناه: امتناع الشرط لامتناع الجواب. قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ قَوْمًا وَاحِدًا﴾ [الواقعة]، ويقترب جوابها باللام للتوكيد، وقد لا يقترب باللام، كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الواقعة] ويقول اقترب جوابها باللام إذا كان منفياً كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الواقعة]، ثم قال: ﴿مَا نَفَعْنَا كَلِمَاتُ اللَّهِ ..﴾ [الزمر]، وقد يُحذف جواب لو كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الزمر]، لكن هذا القرآن العظيم يفعل ذلك، ولكن الله لم يجعل قرائنا بهذه الصفة. [القاموس القويم ٢٠٦/٢].

وقد تستعمل «لو» حرفاً مصدرياً مثل «إن» ويكثر ذلك بعد كلمة «وَدَّ». وكلمة «أحبب». وما يشبههما، كقوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحِبَّاهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة] أى: يود التعمير ألف سنة، والمصدر المؤول مفعول به للفعل «يود».

وقد تستعمل «لو» للتمنى. مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فِثْرًا مِثْمُ كَمَا يُبْرَأُوا مِنَّا ..﴾ [البقرة] أى: لو أن لنا كرامة فثراً مِثْمُ كَمَا يُبْرَأُوا مِنَّا .. ليخبروا من الكبراء الذين كانوا يتبعونهم في الدنيا ثم تنكروا لهم في الآخرة. [القاموس القويم: مادة (لو)].

وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا: ألا تتعارض هذه الآية مع قول الله : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ .. (٢١٢) ﴿[البقرة]

وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية ؛ ثم بعث الله الانبياء ليلقئهم إلى المنهج.

ونقول لهؤلاء : لا ، فقد ضمن الحق - سبحانه - للناس قوتهم وقوام حياتهم، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيماني منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها، وقال الله - سبحانه: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَايَ^(١) فَلَا يَضِلَّ^(٢) وَلَا يَشْقَى^(٣)﴾ .. (٢٢٣) ﴿[طه]

ولو استقصى هؤلاء الآيات التي تعالج هذا الأمر، وهي ثلاث آيات؛ فهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ .. (١١٨) ﴿[هود]

(١) هذاه الطريق يهديه هدياً وهداية وهُدًى، أعلمه إِيَّاهُ، وعَرَّفَه له، وأرشده إليه، فهو هادٍ. ومن المجاز المعنوي: هذاه الحق، أو هذاه إلى الحق: دَلَّةٌ عليه وأرشده إليه.

والهَدًى : مصدر الفعل «هَدًى» رِيَّاتِي بِمَعْنَى الرِّشَادِ ويوصف به للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة] أي هاد للمتقين، وذلك إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿وَلَا رَيْبَ فِيهِ﴾ .. (١٢) ﴿[البقرة] فالكتاب هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ أي : هاد لهم، وأما إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿وَلَا رَيْبَ﴾ .. (٢١) ﴿[البقرة] فيكون هُدًى مصدراً بمعنى هداية أي: هي الكتاب هداية للمتقين لا ريب في ذلك. [القاموس القويم مادة (هدى)] يتصرف.

(٢) ضلُّ الكافر. غاب عن الحجة المقنعة وعُدل عن الطريق المستقيم، ولم يعرف الحق. والضلال- النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ .. (١٠٩) ﴿[سبأ] . [القاموس القويم : مادة (ضل)] .

(٣) شقى شقاً شقاءً وشقاوة ساءت حاله المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ. قال تعالى : ﴿قُلُّوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ .. (١٠٩) ﴿[المؤمنون] أي : حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. وقال تعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه] أي لتحزن وتتألم أسفاً على عصيانهم. [القاموس القويم: مادة (شقى)] يتصرف.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٦٢

وفى الآية التى ظنوا أنها تتعارض مع الآية التى نحن بصدد
خواتمها عنها يقول - سبحانه :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ
الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم -
عليه السلام - ثم طرأت الغفلة^(١)؛ فاختلف الناس ، فبعث الله الانبياء
ليحكموا فيما اختلف فيه الناس.

إذن : فقول الله - تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً..﴾ (١١٨) [هود]

يعنى أنه - سبحانه - لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية؛ لأنه
بعد أن خلقهم؛ وأنزلهم إلى الأرض؛ وأنزل لهم المنهج ؛ كانوا على
هداية، ولكن بحكم خاصية الاختيار التى منحها الله لهم، اختلفوا.

ثم يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ..﴾ (١١٨) [هود]

أى : أنهم سيظلون على الخلاف.

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - فى الآية التالية بالاستثناء فيقول:

(١) الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التمعن وعدم اليقظة ، يقول الحق: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ
هَذَا..﴾ (٦٢) [ق] وتأتى بمعنى عدم الإتيان للحق ، وعدم الاعتماد إليه يقول الحق: ﴿أَرَأَيْتَ هُمْ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ ثُمَّ خَلَفُوا بِمَنْ دُونِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَا
يَنْصُرُونَ﴾ (١٧٧) [الاعراف].

وغفل عن الأمر غفولاً تركه عمداً أو عن غير عمد، والغفلة متعد بالهمزة: تركه عن عمد . والغف
غيره عن الأمر: جعله يفعل عنه ، يقول الحق: ﴿وَلَا تُطِيعُوا مَنْ أَغْفَلُوا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا..﴾ (٢٨) [الكهف]
أى : جعلناه غافلاً عن ذكرنا. [القاموس القويم بتصريف وترتيب ص ٥٧ ج ٢].

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩)

أى : أن الحق - سبحانه - قد خلقَ الخلقَ للرحمة والاختلاف.

وساعة نرى «اسم إشارة» أو «ضميراً» عائداً على كلام متقدم.
فنحن ننظر ماذا تقدم. والمتقدم هنا : ﴿وَلَا يَرَالُون مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) **إِلَّا مَنْ رَحِمَ
رَبُّكَ.. (١١٩)** [هود]

والحق - سبحانه وتعالى - حين تكلم عن خلق الإنسان قال :
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) [الأنبياء]

ومعنى العبادة^(١) هو طاعة الله - سبحانه - فى «افعل» و «لا
تفعل» وهذا هو المراد الشرعى من العبادة ؛ ولكن المرادات الاجتماعية
تحكمت فيها خاصية الاختيار، فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف
عن تعدد الأهواء.

فلو أن هوائاً كان واحداً ؛ لما اختلفنا ، ولكننا نختلف نتيجة
لاختلاف الأهواء ، فهذا هواء يمينى ؛ وذاك هواء يسارى ؛ وثالث هواء
شيعوى ؛ ورابع هواء رأسمالى ؛ وخامس هواء وجودى، وكل واحد له
هوى^(٢) .

(١) عبادة يعبد عبادة وعبودة: أطاعة، فهو عابد. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا إِلَّا نَعْبُدُونَ﴾ (٢٥) [القصص]
وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعْبُدُ..﴾ (٢٥) [الفاطحة]. [القموس القويم: مادة (عبد)] يتصرف.
(٢) يقول تعالى : ﴿وَلَا تَطْعَمْنَ مِنْ أَعْفُلًا فَلَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطَاسًا﴾ [الكهف] .

ولذلك قال الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ^(١) لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧٦)﴾ [المؤمنون]

ولم يكن العالم ليستقيم! لو اتبع الله - سبحانه - أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم! إذا صدرت حركته الاختيارية عن هوى واحد! ولذلك قال النبي ﷺ :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»^(٢) .

وفي حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التي تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها : نجد فيها اختلافاً لا محالة : لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة في كل مناحي الحياة : أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة.

ولو شاء - سبحانه - ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ! فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها؟

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكاملي وضرورة : لا ارتباط تفضلي.

(١) هَوِيَّةٌ يَهْوَاهُ هَوًى : أَحَبَّهُ. وأكثر ما يستعمل في الباطل وفي الشهوات الضارة. قال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ .. (١٢٠)﴾ [النساء] أى : ما تهواه أنفسكم وما تشتهي به فيضلكنم ذلك عن الحق. وقال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا .. (١٣٣)﴾ [المائدة]. [القاموس القويم. ٢/ ٣٦٠ ، ٣٦١].

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في: كتاب «السنة» (١٢/١) من حديث عبادة بن عمرو، وأورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم» (ص ٤٦٠) ووضفّه.

ولذلك يقول الحق - سبحانه:

﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ^(١) لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا ^(٢) .. (٢٢) ﴿

[الزخرف]

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعنى تلك النظرة الحمقاء الرعناء ^(٣)، والتي تدعى أن فى ذلك التقسيم رقعة للغنى وتقليلاً لشأن الفقير ؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع فى جهة بسبب ما يُحسنه فيها ؛ ومرفوع عليه فى جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره مكمل له.

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم ^(٤)، واختلاف المواهب هى مقومات التلاحم.

ولذلك قلنا: إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى ؛ وقيمة كل امرئ ما يُحسنه.

(١) الدرجة : المرواة يرقى عليها المساعد إلى أعلى، ويهبط عليها النازل من أعلى، وهى واحدة درجات السلم، تستتعار للمنزلة والمكانة المعنوية فى الفضل والنماء، وفى الأجر والثواب عند الله. قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ .. (١٣)﴾ [آل عمران] أى: أنهم منازل مختلفة فى الفضل وفى الثواب كلٌ بحسب عمله. قال تعالى: ﴿وَرَبِّعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ .. (٥٣)﴾ [غافر] أى: أن الله عتده المنازل العالية ينزل فيها من يشاء من عباده المقربين، والله على متعين لسوق أعلى الدرجات طيُّ القدر، جلُّ شأنه. [القاموس التوحيدي. ٢٢٥/١].

(٢) سَخَّرَهُ يَسْخَرُهُ : أذلّه وقهره وأخضعه. قال تعالى - ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخًا .. (٢٢)﴾ [الزخرف] وسَخَّرَهُ بالتشديد: أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر، ومنه قوله تعالى : ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٦١)﴾ [البقرة]

[القاموس التوحيدي. ٣٠٦/١]

(٣) الرعونة : الحمق. والأرعن: الأهوج فى منطقته. [لسان العرب. مادة : رعن].

(٤) إن اختلاف المواهب هو للتكامل الإنسانى نحو تيسير حركة الحياة، بخلاف اختلاف الأهواء ففيها فساد لحركة الحياة.

وقد ترى صاحب السيارة الفارغة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذي يرتدى ملابس رثة^(١) ومتسخة ! ليصلح له سيارته؛ فيقول له العامل: لا وقت عندي لإصلاح سيارتك ! فيلج صاحب السيارة الفارغة بالرجاء ! فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارغة ويذهب لإصلاحها.

لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك في أى مظهر من مظاهر الحياة؛ فلا تغترَّ بما تفوقتَ وتميزتَ به عليه ! ولكن قلْ لنفسك : لا بد أن هذا الإنسان متفوق في مجال ما.

ونحن نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - هنا: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٥) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وإن كان الاختلاف^(٢) في المقدرات والمنهج ؛ فهذا ما يولد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان ، ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله.

وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان ؛ مثلما يعاون الألم العافية ، فلو لا الألم لما جئنا بالطبيب ليشخص الداء ، ويصف الدواء الشافي بإذن الله.

ولذلك نقول : الألم رسول العافية.

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٥) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وأنت إن دققْتَ النظر في الاختلاف لوجدته عين الوقاف.

(١) الرُّث: القديم البالي من كل شيء. وارث الثوب: أخلق. [اللسان: مادة رثث].

(٢) إذا كان الاختلاف في المقدرات والمنهج، ينتج ذلك الشيء وضده.

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٦٧﴾

ومثال ذلك: اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام، فتجد ابناً يفضل صدر الدجاجة، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها «الورك»، وتضحك أنت لهذا الاختلاف، لأنه اختلاف في ظاهر الأمر، ولكن باطنه وفاق، لو اتفقنا جميعاً في الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة.

ولمن يسأل: هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟

نقول: إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً، لأن الجهة مُنفكة.

ثم يقول - سبحانه - في نفس الآية: ﴿وَوَقَّعْتُ^(١) كَلِمَةً رَبِّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ^(٢) وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٣)﴾ [هود]

والحق سبحانه قد علم أولاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر، وهذا من صفات العلم الأزلي لله - سبحانه وتعالى - ولذلك قال - سبحانه: ﴿وَوَقَّعْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ أَي: علم - سبحانه - مَنْ مِنْ عِبَادِهِ سَيُخْتَارُ أَنْ يَعْمَلَ فِي الدُّنْيَا عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ سَيُخْتَارُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ لَسَبَقَ عِلْمُهُ الْأَزْلِيُّ بِمُرَادَاتِ عِبَادِهِ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ.

وسبق أن ضربنا مثلاً - والله المثل الأعلى - بعميد الكلية الذي

(١) ثُمَّ الْأَمْرُ يَتِمُّ نَمًا وَتَمَامًا: كَمَّلَ وَتَحَقَّقَ وَهُوَ تَامٌ وَتَمِيمٌ، وَيَكُونُ حَسْبًا وَمَعْتَبَرًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَقَّعْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ مِدْقًا وَعَدْلًا..﴾ [الأنعام] أَي: كَمَلْتُ وَتَحَقَّقْتُ. وَتَمُّ الشَّيْءِ: كَمَلْتُ أجزأؤه. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَمُّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً..﴾ [الاعراف] أَي: كَمَلْتُ الْعِدَّةَ الْمَحْدُودَ لِمَتَاجَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَتَمُّ الشَّيْءِ: أَكْمَلَهُ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي..﴾ [المائدة] أَي: عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ، لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ. [القاموس القويم: ١/١٠١، ١٠٢] بتصرف.

(٢) الْجِنَّةُ - بكسر الجيم - : الْجِنُّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يُؤَسِّرُ لِي عُسْرِي وَالنَّاسِ^(٤) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ^(٥)﴾ [الناس]. [القاموس القويم: ١/١٢٢].

يعلن للأساتذة ضرورة ترشيح المتفوقين في كل قسم ؛ لأن هناك جوائز في انتظارهم، فيرشح كل أستاذ أسماء المتفوقين الذين لمس فيهم النبوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعتهم أن يضعوا امتحانات مفاجئة لمجموع الطلاب ؛ ويُفاجئ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ؛ وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته.

ولكن قد تحدث مفاجأة : أن يتخلف واحد من هؤلاء الطلبة لمرض أصابه أو طارئ يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ؛ وبهذا يختل تقدير أستاذه ؛ لكن تقدير الحق - سبحانه - مُنزه عن الخطأ، وما علمه أزلًا فهو مُحقق لا محالة؛ لذلك بين لنا أنه علم أزلًا، ويتحدى الكافر به أن يغيره.

وكلنا يعرف أن الحق - سبحانه - أنزل قوله الكريم :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) ﴾ [المسد]

وسمعا أبو لهب ولم يتحدهما بإعلان الإيمان - ولو نفاقًا.

وقول الحق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ تبين لنا أن الحق - سبحانه -

(١) تَبَّ يَتَّبُ تَبًّا وَتَبَابًا : خَسِرَ وَهَلَكَ. قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) ﴾ [المسد] دعاء عليه بالخسران أو بالهلاك - ودعا عليه أولاً بأن تهلك يده؛ لأنهما آلة البطش والإيذاء.
والتبَاب : الهلاك . قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْزُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَابٍ ۝ (٣٧) ﴾ [غافر] وَتَبَّتْ تَبْتًا شَبَّيًّا أَهْلَكَ. قال تعالى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَبَدُّلًا ۝ (٣٧) ﴾ [هود] أي : إهلاك وتخيير. [القاموس التوحيدي ١/ ٩٦]

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٦٩﴾

إِنْ قَالَ شَيْئًا فَهُوَ قَدْ تَمَّ بِالْفِعْلِ ؛ فَلَا رَادَّ لِمَشِئَتِهِ ، أَمَا نَحْنُ فَعَلِينَا
أَنْ نُسَبِّقَ كُلَّ وَعْدٍ نَعْمَلُ سَنَقُومُ بِهِ يَقُولُ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (٦٨)

[الكهف]

لأن الحق يقول لنا : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا إِنَّمَا أَنَا فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٦٩) إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (٧٠) [الكهف]

وفي هذا احتراماً لوضعنا البشري، وإيماناً بغلبة القهر، ومعرفة
لحقيقة أننا من الأغيار ؛ لأن كل حدث من الأحداث يتطلب فاعلاً ؛
ومفعولاً يقع عليه الفعل ؛ ومكاناً ؛ وزماناً ؛ وسبباً ؛ ولا أحد منا
يملك أي واحد من تلك العناصر.

فإن قلتُ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ تكون قد عصمت نفسك من أن
تكون كاذباً، أو أن تعد بما لا تستطيع، لكن إذا كان مَنْ يقول هو
مالك كل شيء، ولا قوة تخرجه عما قاله فهو وحده القادر على أن
ينفذ ما يقول.

ولذلك قلنا : إن كل فعل يُنسب إلى الله - تعالى - يتجرد عن

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٧١/٢) عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن جماعة من
قريش سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أمور وذلك بعد مشورة اليهود سلوه عن قتية ذهبوا
في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم فإنهم قد كلن لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل
ملأف بلغ مشارق الأرض ومغاريها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو ؟ فقال رسول
الله ﷺ : « أخبركم غدا عما سألتكم عنه ولم يقل : إن شاء الله » ، ومكث رسول الله ﷺ
خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة ،
وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يغيرنا بشيء عما سألناه
عنه ، فنزلت هذه الآية وهذه السورة (الكهف) فيها خير ما سألوا عنه.

الزمن: فلا تقول: «فعل ماضٍ» أو «فعل سيحدث في المستقبل» أو «فعل مضارع»؛ لأن تلك الأمور إنما تُقاسُ بها أفعال البشر، لكن أفعال الله - سبحانه - لا تُقاس بنفس المقياس، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل.

والحق - سبحانه - يقول:

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ^(١) فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ^(٢) .. (١) ﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ أَتَىٰ ﴾ بمعنى : تقرر الأمر ولم يُنفذ - بعد - فلا تستعجلوه؛ وهذا هو تحدّي القيومية القاهرة، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله - سبحانه وتعالى - فهو يحكم فيما يملك، ولا منازع له سبحانه.

وقوله الحق : ﴿ لَا مَلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .. (١١٩) ﴾ [مرد]

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان ^(٣) المكلفان .

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

(١) أمر الله : عقابه لمن إقام على الشوك وتكذيب رسوله، [قوله الفرطبي ٢٧٨٩/٥] وقال ابن كثير في تفسيره (٥٦٩/٢): «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودورها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة».

(٢) استعجل الأمر: طلبه عاجلاً سريعاً. قال تعالى : ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ أَقْضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ .. (١١) ﴾ [يونس] . [القاموس القويم: ٩/٢].

(٣) الثقلان: الإنس والجن لأنهما كالحاملين الثقيلين على ظهر الأرض. قال تعالى: ﴿سَوَّغْنَا لَكُمُ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]. وهو خير المقصود منه التمهيد والوعيد. [القاموس القويم: ١٠٨/١].

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

﴿وَجَاءَ لَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

وساعة ترى التنوين في قوله الحق ﴿وكلا﴾ فاعلم أن المقصود

هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - في القرآن الكريم.

وحين يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن فعل قد أحدثه ؛ فلنا

أن ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له - سبحانه - أم مأخوذ

من اسم موجود ؟ فيحق لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله-

تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ (٧٠) [النحل]

نعلم منه أنه - سبحانه - خالق ؛ ولكن إن جاء فعل ليس له

أصل في أسماء الله الحسنى، فيأياك أن تشتق من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله - سبحانه : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ﴾ (١٢٠) [هود]

والذي يقص هنا هو الله - سبحانه - لكن لا أحد في إمكانه أن

(١) ثَبَّتَهُ : جعله ثابتاً مُتَمَكِّناً . قال تعالى : ﴿وَقُلْنَا إِنْ تَنَادَّ لَقَدْ كُنتَ تَرْكَبُ إِلَيْهِمْ شَيْبًا قَلِيلًا﴾ (٧٠)

[الإسراء] أى : جعلناك ثابتاً ودفننا عنك أسباب الضعف [القاموس القويم: ١٠٥/١].

(٢) قوله تعالى : ﴿فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ (١٢٠) [هود] : أى هذه السورة. قاله ابن عباس ومجاهد

وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: في هذه الدنيا . والصحيح : في

هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك

الكافرين . جاء فيها قصص حق، ونبا صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر

بها المؤمنون. قاله ابن كثير في تفسيره (٤/٤٦٥).

(٣) يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْفَأُكُمْ﴾ (٢٧) [النحل]

(٤) قَصَّ الكلام أو الأخبار : يقصها قصاً وقصصاً تتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى ﴿فَلَمَّا

جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَغِبْ﴾ (٢٥) [القصص]. وقص الأمر قصاً تتبعه ، ومنه قوله

تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَرِهِمَا نُصْبًا﴾ (٦٤) [الكهف] . والقصص مصدر يُطلق على ما يروى من

الأخبار. ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (٢٧) [يوسف]. [القاموس

يقول: إن الله قصاص ، مثلما لا يحق لأحد أن يقول: إن الله ماکر ، رغم أن الله - سبحانه - قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ ^(١) ﴾ (٤٠) ﴿ [الأنفال]

وكذلك لا يصح لأحد أن يقول : الله المخادع ، رغم أن الحق - سبحانه - قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ^(٢) .. ﴾ (١٤٢) ﴿ [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال ؛ وأن نكتفي بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة ^(٣) ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

(١) مَكَّرَ يَمْكُرُ مَكْرًا: دَبَّرَ الشَّرَّ لغيره في خفية واحتيال. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِ كَيْدٍ مَكْرُورٍ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴾ (١٤٢) [الاعراف]. وقال تعالى: ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. ﴾ (١٥) [يونس] أي تدبير سييء بقصد صرفها عن وجهها وصنَّ الناس عنها. وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون. كقوله تعالى ﴿ وَمَكْرُؤُاٍّ وَعَمْرُؤُاٍّ وَاللَّهُ حَبِيرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٤٠) [آل عمران] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤُاٍّ مَكْرًا وَمَكْرُؤُاٍّ مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٠) [النمل]. [القاموس القويم: ٢٣٩/٢ ، ٢٣٢].

(٢) خدعه يخدعه خدعاً وخديعة: أظهر له خلاف ما يخفيه ليوقعه في مكروه من حيث لا يعلم. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. ﴾ (٥٢) [الأنفال] وخادعته: خدعه أو حارل ذلك. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. ﴾ (١٤٢) [النساء] أي : يُظهرون الإيمان فلما لُغِيَ ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله حبلٌ خداعهم. وكاشف أمرهم. ومعلقهم على خداعهم. [القاموس القويم: ١٨٨/١].

(٣) المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تدبيراً . فالأول : كقوله تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. ﴾ (١١٦) [المائدة] ، وقوله: ﴿ وَمَكْرُؤُاٍّ وَمَكْرُؤُاٍّ وَاللَّهُ .. ﴾ (٥١٣) [آل عمران]. فإن إطلاق النفس والمكر في جانب الباري تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه ومثال التقديرى قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ .. ﴾ (٥٢٨) [البقرة] أي : تطهير الله ؛ لأن الإيمان يظهر النفوس، فعبّر عن الإيمان بـ : صبغة الله ، للمشاكلة بهذه القرينة، الإتيان للسيوطي (٢٨٢/٢).

وهنا يقول الحق - سبحانه :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ .. (٢٢٥)﴾ [هود]

و « أنباء » جمع « نبأ » وهو الخير العظيم الذي له أهمية ، والذي يختلف به الحال عند العلم به ، وأخبار الرسل - عليهم السلام - تتناثر لقطات مختلفة عبرَ سور القرآن الكريم ، موضحة ما جاء به كل رسول معالجا الداء الذي عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عنت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الأنباء في القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول سيصادف في الدعوة المتاعب والصعاب.

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف، يقول الحق - سبحانه:

﴿وَزَلْزَلُوا^(١) حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ^(٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

ويقول الحق - سبحانه - مصوراً حال المؤمنين^(٣) :

(١) زلزل الشيء: حركه حركة عنيفة مكررة. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَلَهَا (١)﴾ [الزلزلة] أى: أصابها الزلزال عند قيام الساعة. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقَرَاءً وَرَكْمًا إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (٢)﴾ [الحج]. وقوله تعالى: ﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا (٣)﴾ [الأحزاب] أى: أزعجوا وخافوا وقلقوا واضطربوا اضطراباً شديداً - على التشبيه بالشيء الممادى، [القلموس للقيوم، ١/٢٨٨].

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١/٩٤٩): «الرسول هنا شعبياً في قول مقاتل ، وهو اليعقوب. وقال الكلبي: هذا في كل رسول بُعث إلى أمته واجهد في ذلك حتى قال: متى نصر الله؟ وروى عن الضحاك قال: يعنى محمداً ﷺ وعليه يدل نزول الآية. والله أعلم».

(٣) وذلك في غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وفيها تحالفت قريش ومن تابعها مع يهود بني النضير وبني قريظة، فكان مجموعهم عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف، وظل المسلمون محاصرين داخل المدينة قسرياً من شهر. [باختصار من تفسير ابن كثير (٢/٤٧٠)].

﴿ اِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ اَسْفَلَ مِنكُمْ وَاِذْ زَاغَتِ ^(١) الْاَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ^(٢) وَتَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا ^(٣) ﴾ [الاحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد : بمعنى تسكينه على متطق اليقين الإيماني برّب أرسله رسولا ليبلغ منهجا . وما كان الله سبحانه ليرسل رسولا ليبلغ منهجا ثم يُسلمه لأعدائه .

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التي تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التي يتعرض لها ، ويثبت فؤاده .

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه : «القلب» ، وهو وعاء العقائد ، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس - وسائل الإدراكات من عين ترى ، ومن أذن تسمع ، ومن أنف يشم ، ومن فم يستطعم ، ومن كفّ تلمس -

(١) زَاغَ يَزِيغُ زَيْغًا وَزَيْفَانًا : مال عن القصد . وزَاغَ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئا . قال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ^(١) ﴾ [النجم] أي : ما انصرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى لرأى أكثر مما أمامه ، بل رأى الملك رؤية صادقة . وقوله تعالى في وصف نزع بعض الناس في المدينة حين أحاطت بهم الأعداء في غزوة الأحزاب : ﴿ وَاِذْ زَاغَتِ الْاَبْصَارُ .. ﴾ [الاحزاب] أي : اضطربت لشدة الفزع . [القاموس القويم : ١/ ٣٩٤] بتصريف .

(٢) الحنجرة - في اللغة - : الحلقوم والحنق . وهي علمياً تسمى القصبة الهوائية ، ويمر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. ﴾ [الاحزاب] كناية عن شدة الكرب والضيق .

(٣) الظنون : ما يحصل في النفس عن أمانة فهو شك وأجر ، وفعله من أفعال الرجحان - من باب نصر والظن : مصدر . والظن : اسم لهذا الضمير الذي يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿ هُوَ اِنْ يَّهْمُونَ اِلَّا الظَّنُّ وَاِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ^(٢) ﴾ [النجم] وجمعه : ظنون ، وقرئ : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا ^(٣) ﴾ [الاحزاب] الظنون - بالكسرة في الوصل وفي الوقف - وبغير ألف قراءة . [القاموس القويم : ١/ ٤١٧] .

فتترك المعلومات التي يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصبح القضية العقلية صحة لا يأتي بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ في القواد لتصبح عقيدة ؛ لا تطفر بعدها إلى العقل لتناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها «عقيدة» - من العقدة - فلا تتذبذب بعد ذلك.

إذن : فالقواد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى المخ من تمحيصها^(١) تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، واسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مقتضاها.

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذي يفكر في مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذي يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسّات التي استقبلها بحواسه ليُمحّصها بعقله ؛ وما ينتهي إليه عقله يسقطه في قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا : أنه قد استقر في وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرقة، ولكن من أين جاء هذا اليقين في أن النار محرقة ؟ نقول : جاء من أمر حسي بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقته.

لا بد - إذن - أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب.

(١) مَحْصَنُ الشَّيْءِ وَمَحْصُهُ : خَلَصَهُ مِنْ عَيُوبِهِ . يُقَالُ : مَحَصَ الْمَعِينُ بِالنَّارِ : خَلَصَهُ مِنْهَا . وَشَوَّبَهُ . وَمَحَصَ السَّيْفُ : جَلَّاهُ . وَمَحَصَ اللَّهُ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ : طَهَّرَهُ مِنْهَا . وَمَحَصَ فَلَانًا : أَمْلَأَهُ وَاجْتَبَرَهُ . [المعجم الوسيط].

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ ۝ (١٢٠)﴾ [هود]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذى من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق - سبحانه - وما يأتى من الحق - سبحانه - هو الحق أيضاً ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير.

وحق الحق ينبوع العقيدة الذى ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولا بد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة المكلف قبل أن يُثَبِّلَ على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتى الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قمة الوجود الأعلى - قبل أن تاتى الموعظة^(١) ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذى لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجيء تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهى هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذى خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه - سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه لن يعطك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذى يعطيه ؛ فالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلًا : فلتعظ نفسك أولاً.

(١) الموعظة : ما يُوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ ۝ (٢١) ﴾ [النحل] . ووعظه يعظه وعضاً وعظته : نصحه بالطاعة وأرشده إلى فعل الخير [القاموس القويم بتصرف ٢/ ٢٤٥].

ولذلك نجد قول الحق - سبحانه:

﴿كَبُرَ مَقْتًا^(١) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف]

لأن الواعظ الذي يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطي الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ! وليقول لنفسه : « لو كان في هذا الأمر خير لطبقه على نفسه ».

وهكذا بيّنت الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كَمْثُتٍ ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالاته كمذكّرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التي سيعاني منها مَنْ لا يأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلفين - مثلاً - أن الأمر يغضُّ الطرف^(١)

(١) مَقْتًا يعقته مقتاً : ابغضه بغضاً شديداً؛ الأمر قبيح فعلة.

وَمَقْتٌ الله : بغضه وانتقامه وعذابه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَمَقْتٌ اللَّهُ أَكْثَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ [غافر] أي : أن غضب الله عليكم أكبر من بغض بعضكم بعضاً، وانتقام بعضكم من بعض. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٥٦)﴾ [النساء] أي: أن زواج من سبق أن تزوجها الأب يعتبر فعلة فاحشة شديدة الفجح، وتكون سبباً في مقت الناس وبغضهم الشديد لمرتكبها، وسبباً في مقت الله وغضبه وانتقامه من فاعلها؛ لأنها حقوق بالآباء وخلط للأنسب. [القاموس القويم: ٢٢١/٢].

(٢) الطرف : جانب العين، ويطلق على الحين وعلى البصر، قال تعالى : ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ...﴾ [الشورى] أي: من جانب العبد لى خفاء. وقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ (٦٧)﴾ [الصافات] أي: غاضات البصر من العفة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنبَأُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾ [النمل] أي: بصره أي مقدار غمضة العين وفتحها. [القاموس القويم، مادة: طرف].

حرماناً من شهوة طارئة ولا يَسْتَبِرْ غُوراً^(١) الفهم بأن في غَضِّ الطرف أمراً لكافة المؤمنين أن يَغْضُوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى في الزكاة أنها أَخَذَ من ماله ، ولا يَسْتَبِرْ غُور الفهم بأن في الزكاة تأميناً له إنْ مَرَّتْ عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيمانى الخامين الاجتماعى الذى يحميه وعياله من مَغْبَةِ السَّوَالِ.

وعمق الفهم أمر مطلوب؛ لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ^(٢) الْقُرْآنَ .. (٨٧) ﴾

[النساء]

لأنك حين تتدبر المعانى ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛ وستقول لنفسك : « ما كلفنى الله إلا لخير نفسى ؛ وإن ظهر أنه لخير الناس » .

(١) سَبَرٌ سَبَرًا : حَزْرُهُ ، أو خَبَرُهُ . يقال : سَبَرٌ لَجْدَحٍ : قَاسَ غَوْرَهُ بالمسيار . وَسَبَرٌ قَلَانًا : خَبَرَهُ ليعرف ما عنده . وَالْفَوْرُ : كل منخفض من الأرض ، والغور من كل شيء : قعره وصفه . يقال : سَبَرٌ غُورُهُ : ثَبَّتَ حَقِيقَتَهُ وَسَمَرَهُ . ويقال : قَلَانٌ يَمِيدُ الْفَوْرُ : دَامِيَةٌ . وماء غُورٍ : غائر . وفى التنزيل العزيز : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مُّعِينٍ (٨٧) ﴾ [المك] . [المعجم الوسيط : مادة (سجر) ، (غور)] .

(٢) دَبَّرَ الأمر : نظر فى هوائيه وأدبارهِ ليضع على ما يرى فيه الخير له ، وشوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُذَكِّرُ الْأَمْرَ .. (٣) ﴾ [يونس] أى : يقضيه ويقدِّره ويتفكره على حسب حكمت وإرادته . وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُذَكِّرَاتِ أَمْرًا (٤) ﴾ [النازعات] هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله ويمقتضون حكمته وإرادته .

وتدبَّر . تأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور . قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٩٣) ﴾ [محمد] أى : هل عجزوا وعُشُّوا فلا يتأملون معانى القرآن . ويصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين هزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف نائماً فسَوْنَاهُ هنا بقولنا : أعجزوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُذَكِّرَاتِ أَمْرًا (٤) ﴾ [النزعات] أى : أمجزوا نلم يدبروا ، والاصل : يتدبروا فقلت التاء نالاً ، واشتمت فى الدال . [القاموس القويم : ٢٢١/١] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٧٩

ومن المتساعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيعين من الفساد ؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد ؛ لأن الفساد فى الأرض لا يعيش إلا إذا وُجد منتفع بهذا الفساد ؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكل مقاوم له .

إذن : قموقف خصوم النبى ﷺ موقف طبيعى لمصالحهم ، ولكنهم - لحققهم - حددوا الصالح بمصالحهم الآتية^(١) فى الحياة الدنيا ؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم فى الآخرة نعيماً أو عذاباً^(٢) .

ولو أنهم امتلكوا البصيرة ؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد من يقوّمهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شركاً يوجد لهم فى الآخرة .

ولو أنهم قطنوا ؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لصالح المستضعفين المستغلين بالفساد ؛ جاء أيضاً لمصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شىء من التعقل ؛ لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ ؛ ولكن

(١) المصالح الآتية : العاجلة . نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال ، وهو ظرف الوقت الحاضر معرف بال داتمة ومبنى على الفتح . قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ . (البقرة) [القاموس القويم ٤٥/١] .

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٧) [الروم] ثم يلفت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكتبين ليقول : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (٨) أَرَأَيْتُمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَبَذُوا كَيْفَ كَانَ غَافِلَةً الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَلَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١٠) [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد : وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد : أن يتبعوه وأن يشكروه ؛ لأنه خلّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق سبحانه - لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل^(١) ، وكل رسول تعرض للمتعاب مثلاً تتعرض أنت لمثلها^(٢) ، وأنت الرسول الخاتم ؛ ولأن الدين الذي جئت به لن يأتي بعده دين آخر ؛ لذلك لا بد أن تتركز المتاعب كلها معك ؛ فكنْ على ثقة تماماً أنك مُصَادِفٌ للمتعاب .

ولذلك تثبت فؤادك بما نقصه عليك من أنبياء الرسل ؛ لأن هذا الفؤاد هو الذي سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تذكرك والمؤمنين معك.

وهكذا بينت الآية موقف الرسول ﷺ كمثبت ؛ وموقف المؤمنين كمذكّرين من الرسول ؛ لأنهم سيتعرضون للمتعاب أيضاً.

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للأَنْصار حين بايعوه في العقبة على نصرته ، وقالوا : إن نحن وفينا بما عاهدناك عليه ؛

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ [الاحقاف] أى ما كنت مبدعاً من تلقاء نفسى ما ادعوا إليه، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ.

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿لَقَدْ سَلِمْتُ أَنْ يُسْرَنَ لَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُمُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْعَلُوهُنَّ (٣٢) وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرْ عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَرْذِلُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا يُبَدِّلْ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَا الْمُرْسَلِينَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم ﷺ : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة القُرُس والروم » . بل قال لهم : « لكم الجنة »^(١) .

لأنه ﷺ يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات ؛ لذلك وعدمهم بالقَدَر المشترك الذي يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات .

وهكذا تبيننا كيف تضمنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه .

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثاني ؛ الطرف المكذِب للرسول ؟

كان ولا بد أن يتكلم الحق - سبحانه - هنا عن المكذِبين للرسول : لأن استدعاء المعانى يجعل النفس قابلة للسمع عن الطرف الآخر .

وما دام الحق - سبحانه - قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال ،

(١) كُنْ ذلك في بيمة العقبة الثانية وهي الكبرى، وذلك أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الأنصاري: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام قبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم قبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرفاكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوم، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن ولفينا؟ قال: «الجنة»، قالوا: أبسط يدك، فبسط يده قبايعوه، [سيرة النبي لابن هشام ٥٥/٢] .

والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور^(١) منهم العزائم ، فلا بُدَّ - إذن - أن يتكلم - سبحانه - عن القسم الآخر ؛ وهو القسم المكثَّب ، فيوضح - سبحانه - لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيب.

يقول الحق - سبحانه :

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٧)

أى : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه ﷺ مستندٌ إلى رصيد قويٍّ من الإيمان بالله لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو ﷺ والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم ؛ ولا بعدتهم وعددهم ؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذى يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى.

ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن أى قائد فى معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذى

(١) الخَوْر : الضعف. خار للرجل ضعف وانكسر. والخَوَار : الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة. [لسان العرب - مادة : خور].

(٢) المكانة: رتبة الشأن والرياسة والتؤدة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..﴾ (١٧). [الأنعام] أى: برزاة وتؤدة وتيسر، وقوى: «على مكاناتكم بالجمع» [القاموس القويم ٢/٢٢٢].

والمكانة: الحالة التى يكون عليها امرء من قسوة أو عجز أو إيمان أو كفر .. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..﴾ (١٧) [هود] أى: على الحالة التى أنتم عليها، وقوله تعالى ﴿لَمَسْخَنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ..﴾ (١٧) [يس] أى : على الحالة التى هم عليها حين عنادهم وكفرهم. [القاموس القويم: ٢/٢٢٩ . ١٨٠].

يحارب من أجله؛ لأنه سيعزز من قوته، فما بالناس بالمدد الذي يأتي ممن لا ينقذ ما عنده^(١)؛ وممن لا يُجِير عليه أحدٌ؛ فهو يُجِير ولا يُجَار عليه.

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة، قموسى - عليه السلام - حين كاد الفرعون أن يلحق به؛ ورأى قومه أن لا نجاة لهم؛ قالبحر أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا:

﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾^(٢) .. (٦١)

[الشعراء]

لكن موسى - عليه السلام - يطمئنهم :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢)

[الشعراء]

فموسى - عليه السلام - يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه، وأمدّه الله - سبحانه - بمعجزة جديدة:

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ .. ﴾ (٦٣)

[الشعراء]

فينفلق البحر؛ ليفسح بين مياهه طريقاً يابسة؛ وسار موسى عليه السلام وقومه، وفكر موسى فى قطع السبيل على عدوه حتى

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْتَدَّوْا إِلَيْهَا مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلِهِ

جَنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح] ، ويقول تعالى فى شأن غزوة

حُتَيْنَ : ﴿ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُرَدًا لَمْ تَرَوْهَا .. ﴾ [التوبة]

(٢) أدركه : لحقه. قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ الْفِرْقَ .. ﴾ [يونس] على المعجاز، كان الفرق

عدو مطارد لحق فرعون غافلًا.

والدرك - بفتح الداء ، ويسكنونها - : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللاحاق. قال تعالى :

﴿ لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه] أى : لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده. [القاموس

القديم : ٢٢٦/١].

لا يسير في نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا، وأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى، فيقول له الله - سبحانه: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا^(١) إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

أي : أتركه على ما هو عليه ؛ ليتخذ فرعون ويسير في الطريق اليابسة، ثم يعيد الحق - سبحانه - البحر كما كان ، وبذلك أنجى الحق - سبحانه - وأهلك بالشىء الواحد^(٢) ؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله - سبحانه وتعالى وحده.

وهكذا يَهَبُ الحق - سبحانه - المؤمنين به القدرة على تحدى الكافرين، والإيمان كله معركة من التحدى ؛ تحدّى فى صدق الرسول كمبلغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته، وتحدّى فى نصرته الرسول ومنّ معه من قلة مؤمنة ؛ فيغلبون الكثرة الكافرة.

والحق - سبحانه يقول: ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة]

وهكذا يشيع التحدى فى معارك الإيمان.

وقد تميّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ؛ ثم ينتهى دورها؛ لينزل له بعدها منهج من السماء ؛ ليبشّر به قومه، لكن رسول الله ﷺ

(١) رها البحر يرهو رهوًا - سَكَنَ فهو رَاهٍ، وَرَهَوٌ : مصدر يرصف به بلفظه ، قال تعالى : ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا (٢٤)﴾ [الدخان] سَأَكُن الأمواج: ليغتروا، فينزلوا فيه ، أو سَأَكُن النفس، لئى حال من للمفعول به وهو البحر، أو من الفاعل وهو الشصير المستتر مائة وهو موسى عليه السلام. أى: يكون هائلاً عظيماً إلى النجاة. [القاموس القويم: ٢٧٩/١].

(٢) قاله سبحانه وتعالى أنجى موسى ومنّ معه ، وأهلك فرعون وجنوده بالشىء الواحد ، وهذا دليل على طلاقة القدرة.

تميز بمعجزة لا تنتهى ، وهى عينٌ منهجه : لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الامكنة^(١) ؛ فكان لابد من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة.

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة.

والحق سبحانه - يقول هنا: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ۚ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن كل كائن مثلاً له مكان ، أى : له حيّز وجِرم^(٢). ويقال : فلان له مكانة فى القوم ، أى : له مركز مرموق ؛ إذا خلا منه لا يستطيع غيره أن يشغله ، وهو مكان يدل على الشرف والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن.

فقول الحق : ﴿ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ۚ ﴾ [هود]

أى : اعملوا^(٣) على قدر طاقتكم من عُدّة ومن عَدَد، فإن لمحمد ﷺ رباً سيّديه وينصره، وفى هذا تهديد لهم؛ وليس أمراً لهم؛ لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر من عدوهم.

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست. أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض شهراً ومسجداً، وأرسلت لى الخلق كافة، وختم بى النبوة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢٢) كتاب المساجد.

(٢) الجِرم : الجسد أو الجسم. وهو مُجَسَّم تياخذ مكاناً وحيّزاً فى الوسط الذى هو فيه.

(٣) الأمر هنا للتهديد . وهو لون من ألوان علوم البلاغة.

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين؛ بل
لأصبحوا من الطائعين.

وحين يقول لهم - سبحانه - في آخر الآية :

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ (٦٧٨) [مود]

فمعنى ذلك أن كل ما في قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار
الأحداث^(١)؛ أما فعل الله - تعالى - فهو غير محدود؛ لأنه -
سبحانه- قديم أزلي لا تحده حدود، ولن يناقض عمل المحدث
الحادث عمل القديم الأزلي، فبقوة الحادث المحدث موهوبة له من
غيره، أما قوة الحق - سبحانه - فهي ذاتية فيه.

ونحن نعلم أن أي عمل إنما يُقاس بقوة فاعله، وخطأ المستقبلين
لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل؛ نَسُوا مَنْ الذي عَمِلَ العمل. ولو كان
العمل من فعل البشر لَحَقَّ للإنسان أن يتكلم، لكن إذا ما كان العمل
من الله - تعالى - فليُلْزَم الإنسان حدوده.

ومثال ذلك: هؤلاء الذين جادلوا في مسألة الإسراء التي قال فيها
الحق - تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى^(٢) بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

(١) الأحداث : الأشياء الحادثة، أي لم يكن لها وجود ثم وجدت، وتأتي عليها عوامل الغناء والتغير.
(٢) أسرى به : جعله يسرى، أو حمله معه على السير ليلاً. قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ .. ﴾ (١) [الإسراء] وهذا يشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ﷺ ومُعيذاً له في
إسراءه. وقوله تعالى : ﴿ فَاسْرِ بِمَا دَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مَعْرُونٌ ﴾ (٢) [الدخان] أمر الله سبحانه موسى
عليه السلام أن يحمل قومه على الإسراء ويكون لهم دليلاً ومعيذاً وهادياً. [القاموس القويم:
٢١٢/١] بتمت.

الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ^(١) .. ﴿٥﴾ [الإسراء]

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، فكيف يقول إنه آتاهما في ليلة؟

وكان الرد عليهم: إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو، بل أُسْرِيَ به، والذي عمل ذلك هو الله - سبحانه - وليس محمداً، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد.

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾^(٢)

في هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد : فالكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم^(٣).

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة : ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا

(١) البركة: زيادة الخير والنعاء والسعادة . قال تعالى : ﴿فَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

.. ﴿٥٠﴾ [الأعراف] . وبارك الله الشراء، وبارك فيه وعليه وحوله . قال تعالى . ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ لَدُنَّا وَقَدْ حَوْلَهَا .. ﴿٥١﴾ [النمل] . وقوله تعالى : ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

مُأَرَّكَةٍ زَيْتُونَةٍ .. ﴿٥٢﴾ [التور] أي : عظيمة الخير، كبيرة النفع، [القاموس القويم: ٦٥/١].

(٢) انتظرو: ترقبوه وتوقعوه . وقال تعالى : ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْظِرْ إِنَّهُمْ مُنْظَرُونَ ﴿٥٣﴾ [السجدة]

أي: ترقب ما سيحل بهم، إنهم متوقعون. [القاموس القويم . ٢٧٢/٢].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

.. ﴿٥٤﴾ [إبراهيم]

وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا .. (٤٤) ﴿ [الاعراف]

وفي انتظار الكفار تهديد لهم ، وفي انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم ، ولو لم تأتِ الأحداث المستقبلية كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا مِنْ واثق بأن ما في هذا القول سوف يتحقق.

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التي جاءت في القرآن.

آلم ينزل قول الحق - سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ^(١) (٤٥) ﴾ [القمر]

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية ^(٢) ، حتى قال عمر - رضى الله عنه - ^(٣) : أَيْ جَمْعٌ يَهْزِمُ ؟ لَأَن عَمْرٍ حِينئذٍ كَانَ يَلْمَسُ ضَعْفَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَدِمَ قُدْرَةَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى

(١) وكلى المحارب دبره : كناية عن فراره . قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] أَيْ : وَيَفْرُونَ ، وَجَمْعُ الدُّبُرِ : أَدْبَارُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَفْقَهُوْكُمْ يُوَلُّوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا بُصْرَةَ (٤٦) ﴾ [آل عمران] أَيْ : يَفْرُونَ مِنْكُمْ مُتَهْزِمِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] أَيْ : سَيُهْزِمُ الْجَيْشُ الَّذِي جَمَعُوهُ ، أَوْ سَيُهْزِمُ جَمَاعَتُهُمْ . [القاموس القويم: ١/١٢٧] بتصرف.

(٢) قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . نقله الفريابي في تفسيره (٦٥٤٦/٩).

(٣) أورده ابن كثير في تفسيره معزواً إلى ابن أبي حاتم. قال عمر: أَيْ جَمْعٌ يَهْزِمُ ؟ أَيْ جَمْعٌ يُغْلِبُ؟ قَالَ عُمَرُ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَشِي فِي الدَّرْعِ ، وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فَعَرَفْتُ ثَاوِيلَهَا يَوْمئِذٍ.

حماية نفسه، ثم تأتي غزوة بدر ! ليرى المؤمنون صدق ما تنبا به رسول الله ﷺ .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين^(١) ، بل وأماكن إصابتهم، وجاء ذلك قرآنًا يُتلى على مر العصور، مثل قوله الحق: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ^(٢) ﴾ [النمل]

وهكذا شاء الحق - سبحانه - أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، كما شاء - سبحانه - أن يُنزل على الرسول لقطات من قصص الرسل الذين سبقوه لشدة أثره ، وليثبت فؤاده ، ويذكر المؤمنين فيزدادوا إيمانًا.

ثم يختتم الحق - سبحانه - سورة هود بقوله الكريم :

﴿ وَاللَّهُ غَيَّبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ^(٣) ﴾

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٧٢) من أنس بن مالك قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة، وأنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأسمر، يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود للتي حد رسول الله ﷺ، وكنا أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢١٩، ٢٥٨) وفيه أن رسول الله ﷺ كان يضع يده على الأرض ههنا وههنا، فما أطاق أحدهم عن موضع يد رسول الله .

(٢) الخرطوم: الأنف أو مقدم الأنف والأنف رمز العزة عند العرب، ويقال: شتم الأنوف أي: أعزاء . والتوسم على الأنف: إزدلال وإهانة. قال تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ^(٢) ﴾ [النمل] أي: سنذله نهاية الإزدلال . قيل: إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقد ضرب على أنفه بالسيف يوم بدر ، قبل مقتله ، فصنعت عليه الآية، وأُخبرت بما سيحدث له قبل حدوثه، وقد أسلم من ابنائه اثنان، أحدهما سيدنا خالد بن الوليد سيف الله وفاتح العراق وقاهر الروم. [القاموس القويم: ١/ ١١٩].

(٣) غاب الشيء يغيب غيباً: استتر عن العين أو عن علم الإنسيان في المعنوي. والغيب: مصدر، ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ^(٤) ﴾ [البقرة] والغيب: هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن، وجميعه: غيوبه قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَمَّا غُلُوبُ ^(٥) ﴾ [المائدة] ، [القاموس القويم: ٢/ ٦٤].

أى : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم، يخبركم به الله - سبحانه - من خلال ما يُنزل على رسوله ﷺ .

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يحفظ هذا الذِّكْر الحكيم ، ثقةً منه - سبحانه - أنه إذا أخبرنا في القرآن بخبر لم يجيء أوانه ، فلنَقْهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجرى فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المُخْتَار من الكائنات - مؤمنهم وكافرهم - فإذا حدثنا القرآن بشيء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق.

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدْرَكَات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زَمَنٍ ، فإذا أخبر الله - تعالى - عن أمر لم نشهده من قديم قد أُوعِلَ^(١) في الزَمَنِ، ولم يقرأه النبي ﷺ في كتاب ولم يسمعه من معلّم^(٢) ؛ فهذا كُشِفَ لحجاب الماضي.

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء «ماكُنات القرآن»

(١) وَعَلَى فِي الشَّيْءِ وَغَوْلًا : دخل فيه. وَعَوَّلَ : ذهب وأبعد. وتَوَعَّلَ فِي الْأَرْضِ : ذهب فأبعد فيها. وكذلك أُوْعِلَ فِي الْعِلْمِ. [لسان العرب - مادة : وعل].

(٢) وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَا كُنْتَ تَكَوِّنُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِمِمْبِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُظْلَمُونَ﴾ [الأنبياء] قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية. قال النحاس: بليلاً على نيسوته لقريش؛ لأن لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم. وزالت التريبة والشك. [انظر: تفسير القرطبي - ٥٢٤١/٧].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٩١

مثل قوله الحق: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ^(١) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ^(٢) مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ^(٣)﴾ [آل عمران]

وغير ذلك من الآيات^(٤) التي تبدأ بقوله الحق: ﴿مَا كُنْتَ﴾.

وقد كان هناك أناس في ذلك الماضي يدركون ما صار غيباً عن الرسول وَمَنْ مَعَهُ؛ لكن الحق - سبحانه - أظهر هذا الغيب للرسول

(١) الأعلام: جمع قلم، وهو السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يُعطى لمن يخرج باسمه، وكانوا يستعملونه في القرعة، ومن استعمله في القرعة قوله: ﴿إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ..﴾ [آل عمران] ، فالأعلام هنا سهام الاقتراع، وقد أجريت القرعة لفاز سهم زكريا فكفل مريم. [القاموس القويم: ١٢٢/٢].

(٢) كفله يكفله كفلاً وكفالة: أواه ورعاه ورباه. وأكفله اليتيم، وكفله اليتيم: أسند إليه كفالته ورعايته، كقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..﴾ [آل عمران] جعله كفالاً لها. وقال تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفُلْنِي وَغُزِّي فِي الْخِطَابِ^(١)﴾ [ص: أي: قال: اجعلني كفالاً لها راعياً شئونها، مالكا لها. [القاموس القويم: ١١٧/٢].

(٣) هي تسع آيات في القرآن الكريم ، منها آية آل عمران التي ذكرها الشيخ هنا، ومنها:

- ﴿فَإِنَّكَ مِنَ آبَاءِ الْقَبِيلِ لَوْحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ..﴾ [هود]
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْحَمْلِ وَالْكَافِرِينَ﴾ [يوسف]
- ﴿وَمَا كُنْتَ بِمَحَابِبِ الْقُرْبِيِّ إِذْ نُصِبْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ^(١)﴾ [القصص]
- ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ نَازِئًا فِي أَعْيُنِ مُنْقَلَبٍ تَقُولُ لَوْ أَنِّي كُنْتُ أَشَاءُ كُنْتُ مُرْسِلِينَ^(٢)﴾ [القصص]
- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنَّا فَتُحَذِّرُ قَوْمًا مِمَّا أَنذَرْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِكَ تَعْلَمُهُمْ بِتَذَكُّرُونَ^(٣)﴾ [القصص]

- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ^(٤)﴾ [القصص]

- ﴿وَمَا كُنْتَ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِن مَّحَابٍ وَلَا تَخْطُ بِسَبِيلِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُطْفَرُونَ^(٥)﴾ [المنكوث]

- ﴿وَمَا كُنْتَ تَنْذِرُ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مِنْ لُثُغَةٍ مِّنْ عِبَادِنَا ..﴾ [الشورى]

[الشورى]

الذي لم يجلس إلى مُعَلِّم بشهادة أعدائه ، وكذلك كشف الحق - سبحانه - لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان.

وَمَنْ يَنْكَشِفْ لَهُ حِجَابُ الزَّمَانِ وَحِجَابُ الْمَكَانِ؛ إِنَّمَا يَنْكَشِفْ لَهُ حِجَابُ الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضاً ، وَالَّذِي كَشَفَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ - سَبْحَانَهُ - الَّذِي قَدَّرَ مَجِيءَ هَذَا الْعَالَمِ، وَمَا سَوْفَ يَحْدُثُ فِيهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وقد طُعم^(١) الحق - سبحانه - في القرآن أموراً لو كُشِفَ عنها في زمن بَعَثَةِ الرُّسُولِ ؛ لَكَانَ الْحَدِيثُ عَنْهَا فَوْقَ مَسْتَوَى الْعُقُولِ وَالْإِدْرَاكِ ؛ وَتَحَدَّثَ - سَبْحَانَهُ - عَنْ وَقَائِعِ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُعَاصِرِينَ لِرُّسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَوَقَّعُهَا.

وَكَانَتْ هُنَاكَ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ أَرْقَى حَضَارَتَيْنِ مُعَاصِرَتَيْنِ لِلْإِسْلَامِ ؛ حَضَارَةُ فَارَسَ وَحَضَارَةُ الرُّومِ ، وَكَانَتِ الْحَضَارَتَانِ تَتَنَازَعَانِ السَّيْطَرَةَ وَتُوسِّعُ مَنَاطِقَ النُّفُوذِ - وَهَزَمَتِ فَارَسَ - الَّتِي لَا تُؤْمِنُ بِإِلَهِ - إِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومِ الَّتِي تَعْتَنُقُ الْمَسِيحِيَّةَ ، وَلَا تُؤْمِنُ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ الْخَاتَمَةِ.

لِذَلِكَ حَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِهَزِيمَةِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِإِلَهِ فِي السَّمَاءِ؛ فَيُسْرَى^(٢) اللَّهُ - سَبْحَانَهُ - الْأَمْرَ عَلَى رَسُولِهِ، وَيُنْزِلُ الْحَقَّ - سَبْحَانَهُ -

(١) طعم الشيء: خيَّاه. والمطمورة حَفيرة تَمُتُّ الْأَرْضَ أَوْ مَكَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ قَدْ هُبِيَ خَفِيًّا يُطْعَمُ فِيهَا لِلطَّعَامِ وَالْمَالِ، أَيْ: يُخَيَّاهُ. [لسان العرب - مادة: طعم].

(٢) إِنَّ فِي حَزَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَزِيمَةِ الرُّومِ ، وَهَمِ أَهْلِ كِتَابٍ لَدَيْلًا عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ جَمَاعُ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَأَنَّ الْأَدْيَانَ جَمِيعًا كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى إِلَيْهِ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى - الْحَدِيثُ إِنَّ [حَسَّاسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْهَزِيمَةِ وَحَزْنِهِ عَلَيْهَا لَدَيْلًا عَلَى رَحَابَةِ الْإِسْلَامِ وَعَالَمِيَّةِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفَرَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَمَنْى بِهِ نَوْعًا وَالَّذِي أَوْفَرْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَفَّرْنَا بِهِ إِبرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبَمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا لِحِبِّهِ ..﴾ (١٣٦) ﴿[الشورى]

(٣) يسرى: يَكْشِفُ عَنْ فَوَائِدِهِ الْإِلَهِيَّةِ وَيُزِيلُهُ. وَسُرِّى عَنْهُ: أَيْ: كُشِفَ عَنْهُ الْخُوفُ وَتَمَّ تَكَرُّرُ ذِكْرِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي الْحَدِيثِ، وَخَاصَّةً فِي ذِكْرِ تَزُولِ الْوَجْهِ عَلَيْهِ، وَكُلِّهَا بِمَعْنَى الْكُشْفِ وَالْإِزَالَةِ [لسان العرب - مادة: سرى].

سُورَةُ رُومٍ

﴿٦٧٩٢﴾

قرآنًا يُتْلَى عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَكُلِّ الْأَزْمَانِ؛ يَحْمِلُ نَبِوءَةَ انْتِصَارِ الرُّومِ
بَعْدَ هَزِيمَتِهِمْ مِنَ الْفَرَسِ.

ويقول سبحانه : ﴿الَّذِينَ هُتِفُوا فِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ﴾ (١) فِي بَضْعِ سِنِينَ (٢) لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ (٣) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤) ﴿[الروم]

هكذا تأتي النبوءة في القرآن تحمل التحديد لميعاد نصر الروم في
بضع سنين ؛ و «البضع» يقصد به من ثلاث لتسع سنوات.

(١) أدنى الأرض: أقربها، قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بالدرعات - بين بلاد العرب والشام -
فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة. وإن كانت الوقعة بالمزيرة - موضح بين العراق
والشام - فهى أدنى الأرض بالقياس إلى أرض كسرى.

وإن كانت بالأردن فهى أدنى إلى أرض الروم، [نقله القرطبي في تفسيره (٧/٤٦٦)].
(٢) البضع : هو ما بين اثلاث إلى التسع. أخرج الترمذى في سننه (٢١٩٤) عن نيار بن
مكرم الأسلمى قال: لما نزلت : ﴿الَّذِينَ هُتِفُوا فِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَافِلُونَ﴾ (١) فِي بَضْعِ سِنِينَ (٢) [الروم] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم،
وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفى ذلك قول الله
تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤) [الروم]
فكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بهم، فلما أنزل
الله تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصيح فى نواحي مكة : ﴿الَّذِينَ هُتِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ﴾ (١) فِي بَضْعِ سِنِينَ (٢) [الروم]
قال ناس من قريش لأبى بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستطلب فارساً فى
بضع سنين، أفلا تراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تصريح الرهان، فسأتهن أبو بكر
والمشركون وتراضوا الرهان، وقالوا لأبى بكر: كم تجعل؟ البضع ثلاث سنين إلى تسع
سنين، فسمم بيننا وبينك وسطاً فتتهى إليه، قال: فسموا بيثم ست سنين. قال: قمضت الست
سنين قبل أن يظهروا فساخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت
الروم على فارس فصاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله تعالى قال: فى
بضع سنين، قال: واسلم منه ذلك ناس كثير، قال الترمذى: هذا حديث صحيح حسن غريب.

وإن قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما علم محمد بأخبار المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما؟

وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هتكا للحجب ، حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله ﷺ .

والغيب المطلق هو الذي لا يعرفه إلا الحق - تبارك وتعالى - وليس له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه، مصداقا لقوله - سبحانه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٦٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ .. (٦٧)﴾ [الجن]

وهذا الغيب^(١) المطلق يختلف عن الغيب المقيد الذي له مقدمات : ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سر من أسرار الكون.

والحق - سبحانه - هو القائل:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وهكذا تعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة في الكون ومطمورة فيه ؛ وجعل الله - تعالى - لكل مستور منها ميلاداً ، قال بخار واستخدامه في الحركات كان له ميلاد ؛ والكهرباء كان لها ميلاد ؛ واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد، وكل مُكتشف ومُخترع له ميلاد ، وتوالي مواليد الغيب مستقبلاً ، وفي ميلادها

(١) الغيب : مصدر ويُسمَّى به ما غاب واستتر ، قال الحق : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٢)﴾ [البقرة].

والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب ، قال تعالى :

﴿إِنَّكَ أَنْتَ غَلَامُ الْغُرُبِ (٥٠)﴾ [الماشئة]. [القاموس للقيوم جـ ٢ / ٦٤].

إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم.

وقد يأتي هذا الميلاد يكشف ويبحث ؛ وقد يُظهره الله بدون بحث ؛
أو يُظهره صدفة؛ مثلما أظهر قانون الطفو التابع من قاعدة «أرشميدس»
ومثلما أظهر الحق - سبحانه - قانون الجاذبية صدفة ؛ أى : أنه سبب
من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث في شيء، فيظهر له شيء لم
يكن يبحث عنه ؛ ولذلك نسب الحق - سبحانه - الإحاطة له - سبحانه.

وهنا يقول الحق - سبحانه : ﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلَّهُ ۖ﴾ (١٧٦) [هود]

ولم يقل : «إليه يَرْجِعُ الأمر كله» ، لأنه سبحانه ضابط كل
مخلوق على قدر.

وشه المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما
يضبط المقاتل القبلة لتنفجر في توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب
على هذا الترتيب.

والله - سبحانه - القائل :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٦) [يس]

فكل شيء إنما يرجع إلى الله في التوقيت الذي شاءه الله.

أو : أن الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حي ؛ لأن الحق - سبحانه - قد
خلق في الكون أشياء وترك ملكيتها له - سبحانه - والحق
- سبحانه - لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها
ولا يملكها، مثل: الشمس التي ترسل أشعتها، ويستفيد الإنسان
بضوئها^(١) وحرارتها ، وهي لا تدخل في ملكية الإنسان ؛ لأنها من

(١) وصف الله تعالى الشمس في قرآنه فقال: ﴿مَرَّ الْبَرِّ جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً ۖ﴾ (٤) [يونس]، وقال
عنها: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (٥) [نوح] والسراج: المصباح يعطي ضوءاً ويبعث حرارة.

أساسيات الحياة ؛ لذلك لم يجعل للإنسان الذى خَصَّهُ الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها ؛ حتى لا يعيث بها.

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق - سبحانه - فى سلطته وحده ، ولم يَأْمَنْ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعيث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر.

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات فى يده دون أن يُمْلِكها لأحد ؛ رحمةً منه بنا ، ذلك أنه - سبحانه - عَلِمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسيء استخدام تلك الأساسيات.

وسَخَّرَ الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات^(١) ، وسَخَّرَ بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الآخر لم يستطع الإنسان تسخيرها ، وحتى قوة الإنسان نفسه؛ شاء الحق - سبحانه - أن يجعلها أغياراً ؛ فالقوى يسير إلى الضَّعْف^(٢) ؛ والفقير قد يصبح غنياً.

(١) يقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْغَمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ فَتَجَرِّيَ فِيهِ الْبَحْرُ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٤١) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٤٢)﴾ [إبراهيم] وقد جمعت هاتان الآيتان أساسيات الكون التى تعدت عنها فضيلة الشيخ الشعراوي: السماوات - الأرض - الماء - الغمرات - الفلك - البحر - الأنهار - الشمس - القمر - الليل - النهار.

(٢) وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ مَّعْدِنٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ مَعْدِنٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ مَهْجًا وَخِيفَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٤١)﴾ [الروم].

سُورَةُ مُوْهَبٍ

﴿٦٧٩٧﴾

وهكذا يُكسب لنا أن كل ما نملك موهوب^(١) لنا من الله - تعالى -
وليس هناك ما هو ذاتي فينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية
الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة؛ رجع كل ما نملك لله - سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان؛ لأنها تخرج عن التسخير
الذي كانت عليه في الدنيا^(٢).

وإذا كان الحق - سبحانه - يقول هذا:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٢٣)﴾ [هود]

فهو - سبحانه - يقول في آية أخرى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦)﴾ [طه]

وكان الحق - سبحانه - ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية
ما تحت الثرى من كنوز يمتن^٣ الله - تعالى - بها على عباده أنه يملكها.

(١) يقول الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٥٧) وَذَلَّلْنَا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَهَا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٥٨)﴾ [يس] .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (٥٥) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٥٦) وَقَالُوا لَوْلَا دُعِينَا لَهُمُ النَّارُ أَنْ تُنْفَخَ اللَّهُ الَّذِي أَنْشَأَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٧) وَمَا كُنْتُمْ تَحْشَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ فَتَنَّا أَنْ اللَّهُ لَا يَعْلَمُ خَيْرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٥٨)﴾ [فصلت] .

(٣) الثرى : الثراب الذي أو التراب مطلقاً، قال تعالى : ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦)﴾ [طه] أي :
ما تحت جميع طبقات الأرض. [القاموس الفيوم - ١/ ١٠٧] .

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذي تحت الثرى.

وحين يقول الحق - سبحانه هذا - فى الآية التى نحن بصدد
خراطنا عنها - : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۖ ﴾ (١٢٣) [مرد]

ففى ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُستهدفاً النجاة حين لا يكون
لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة.

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق
الاعلى الذى أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته - سبحانه - وأعطاه
غنى من باطن غناؤه - سبحانه - وأعطاه حكمة من باطن حكمته
- سبحانه - وأعطاه قبضاً^(١) وبسطاً من باطن قدرته - سبحانه -
وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من قبضها ، ثم تظل
الفيوضات للحق - سبحانه وتعالى.

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن
الأمر كله له سبحانه.

فإنْ حَدَّثْتَ فى القرآن بأمر تغيب عنك مقدماته، فاعلم أن الذى أنزل
هذا الكتاب لا يعزب^(٢) عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض.

(١) يستعمل القبض كناية عن شيق العيش، والبسط كناية عن سعة . كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ
يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة) [٢٤٩] أى يضيق الرزق ويوسعه على من يشاء.
[القاموس القويم : ١٦/٢] يتصرفه وبسط اليد: يُمكنى به عن الكرم والسخاء أو عن
الإسراف وكثرة إنفاق المال. ويقول تعالى عن نفسه: ﴿ لَوْلَا إِذْهَابُ عُثْرَةَ ثَعْلَبٍ يَلْفُ يَشَاءُ
... ﴾ (المائدة) كناية عن الكرم والسخاء [القاموس القويم ١٦/١].

(٢) عزب الأمر يعزب: يَعدُّ وغاب وصُفِّىَ مطلبه، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ
فى الْأَرْضِ وَلَا فى السَّمَاءِ وَلَا أَمْتَرٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا فى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس] - أى: لا يغيب
ولا يبعد عنه أى شىء. فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء. [القاموس القويم:
١٨/٢].

ولذلك كان الرسول ﷺ على ثقة أن الحق - سبحانه - حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يطمئنه أن المرجع في كل الأمور إليه - سبحانه.

واطمأن الرسول ﷺ والذين معه أن أعداء الدين إن لم يجازوا في الدنيا، فغداً ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد ملكهم أشياء؛ فسيسلبهم هذه الملكية في الآخرة ، وإن كان قد أعطاهم الخيار^(١) في الدنيا ؛ خيار أن يؤمنوا ويطيعوا ، أو أن يكفروا ويعصوا^(٢) ؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم في الآخرة ، وكل مالك لملك يصير ملكه بعده إلى الله.

ومادام الأمر كذلك فلنعبد الله وحده - سبحانه - لأنه صاحب الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتي.

وهو - سبحانه - الذي شاء، فجعل للإنسان ثلاثة أزمان: زمان سبق وجود آدم ؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أيّ منا ؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ، وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ ؛ وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور في فلك الأحداث^(٣).

(١) الخيار : اسم من الاختيار. وخيرته بين الشيئين أي : تعرضت إليه الخيار. وتخير البشر: اختاره. والاختيار: الاصطفاء وكذلك التخيير. [لسان العرب - مادة : خير] يتصرف.

(٢) وقد جاء هذا في آيات كثيرة منها:

- ﴿وَقُلِ الْخَيْرُ مِنْ رَبِّكُمْ لَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ..﴾ (الكهف)

- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرْنَا وَإِنَّمَا كَفَرْنَا﴾ (الإنسان)

ومبدأ الإسلام العام أنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ (البقرة)

(٣) الحدث من أحداث الدهر: النازلة. وحُتَكَانَ الدهر وحواشي: تَوَيَّه ومصائبه [اللسان - مادة : حدث].

ومن المنطقي بعد أن تستمتع بوجودك في الحياة : وتنضج عقلياً
أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشري.

وأنت - في هذه الحالة - تكون رَهْناً بثقة المحدث : هل يقول
الصدق أم يقول الكذب ؟ خصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل
آدم ، ولا بد أن تقول لنفسك : لا يمكن أن يُحدثني عن ذلك إلا مَنْ
خلقني^(١).

وساعة يُبلِّغُكَ رسول الله ﷺ عن بداية الخلق قائلاً : «كان الله ،
ولم يكن شيء غيره»^(٢).

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذي يمكن أن نقبل منه كلاماً عما
فات قبل آدم هو الله - سبحانه وتعالى.

وإن سألْتَ : لماذا وُجِدْتُ في زمنى هذا ، ولم أوجد في زمن
آخر؟ هنا ستقول لنفسك إن كنت مؤمناً : « إن مشيئة وإرادة مَنْ
أوجدنى هي التي رجحت وجودى في هذا الزمن عن أى زمن آخر ».

ولا بد أن تسأل نفسك : وما المطلوب منى ؟

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ..﴾ (الكهف)
[وقال تعالى عن خلق الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِمَآثًا أَشْهَدُوا
خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف)]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣٦)، والبخارى في صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن
حصين. وتامه: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل
شيء، وخلق السماوات والأرض».

الله وترك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها في الحركة الثانية من حركات الإنسان.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - بعد هذا:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشُرُوا ^(١) فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

ولذلك يقول الحق - سبحانه - في هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود]

أى : أطع الله فى أمره ؛ لأنه - سبحانه - الأعلى منك ، بأن تؤدى المطلوب العبادى من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج إن استطعت لذلك سبيلاً ، لتأخذ من المدد الأعلى ما يعينك فى حركتك الثانية التى تتحركها فى الكون.

ومن العجيب أن حركتك فى الكون الآتى تُعينك على حركتك لاستمداد الطاقة من مُكوّن الكون - سبحانه.

فأنت حين تصلى تحتاج إسْتِثْرَ عورتك بثوب ، وحتى تأتى بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح فى الزراعة ، وحركة

(١) انتشروا الناس. تنزقوا وتصرفوا فى معاشهم. قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ

﴿١٥﴾ [الروم] أى : تنصرفون فى معاشكم وتسعون فى الأرض. وقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ

فانتشروا .. ﴿٥٦﴾ [الأحزاب] انصرفوا كل إلى حال سبيله. [القاموس القويم: ٢٦٦/٢].

العامل في النَّسْجِ ، وحركة التاجر في البيع ، وحركتك في عملك الذي يتيح لك أجراً تشتري منه الثوب.

وبذلك تكون قد أخذت كل علوم الحياة ! لكي تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى.

وهكذا تجد أنك في حركة دائرة ! تأخذ المدد من الأعلى لتعطى الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدي صاحب المدد الأعلى.

وبهذا يثبت لك أن الحركة في الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره في الحياة، هي استقبال^(١) من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ! لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تنظم حركة حياتك على ضوئه منهجه - سبحانه.

واعلم أنه ستصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله ، وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذي تأخذ منه المدد.

ولذلك «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة»^(٢).

(١) فمن طريق عبادتك يكون العون من المدد الأعلى يقول الحق: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُ إِلَهًا تَسْتَعِينُ﴾ [الفتح] فعلى العبد الخالص للفقير بعون السيد الأعلى، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل عند البيت الحرام: قال في دعائه: ﴿رَبِّ إِنِّي مَقَامُكَ فَاجْعَلْ أَقْبَدَ بَنِي النَّاسِ تَهْرِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ..﴾ [إبراهيم] . من مفهوم ماوردت الإمام.

(٢) عن حليفة رضى الله عنه قال : «كان النبی ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٣١٩).

سُورَةُ هُودٍ

٦٨-٤٠

ومعنى «حزبه»^(١) أى خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإن عبدت الله وتوكلت عليه ؛ فهو يعينك ؛ لأنه - سبحانه لا يففل عما نعمل.

وهذه الآية تدلُّ على السعادة فى الحاضر والمستقبل ؛ لأنك إن كنت ترمى الله فسبحانه يكتب لك الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك^(٢) ، وتُكتب السيئة بمثلها.

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان ؛ قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة.

يقول الحق - سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..

[الأنفال]

﴿٢٤﴾

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السوى يعطى للمؤمن حياة الحياة ، وهى حياة تعيش فى معية الله.

(١) حزبه أمر: أصابه، إذا غزل به منهم أن أصابه غم. وأمر حازب برحزب: شديد. وحوازب

الخطوب - وهو جمع حازب - وهو الأمر الشديد. [السان العرب: مادة. حزب].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ

لَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأنعام] ويقول أيضاً: ﴿مَنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَنْتَفِرُونَ مِنْ أَمْرِنَا لَمْ يَكُنْ لِي سَبِيلٌ وَاللَّهُ كَمَلُّ حَيْثُ أَنْتَ

مَنْ سَابَلَ لِي كُلِّ سَلَاةٍ فَإِنَّ حَيْثُ رَأَى اللَّهُ يُعَاقِبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَكْبَرُ الْكُفْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

قد تعرضنا من قبل لفواتح السور^(١) : من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا: إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة :

● سورة يوسف مكية، نزلت بمكة المكرمة. قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (١/١٠٠): «استثنى منها ثلاث آيات من أولها، حكاه أبو حيان، وهو واه جداً لا يلتفت إليه». عند آياتها ١١١ آية. وهي سورة جامعة «لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والآنعام والطير، وسائر الملوك والصمات، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء، وحبيهن ومكرهن» وفيها ذكر التوحيد والفقه، والسيرة وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٤٤١).

(١) قال الإمام السيوطي : «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام: الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان. الأول: التعميد في خمس سور، وتبارك في سورتين، والثاني: التسبيح في سبع سور. الثاني : حروف التهجي في تسع وعشرين سورة. الثالث : الثناء في عشر سور، خمس بثناء الرسول ﷺ، وخمس بثناء الأمة. الرابع : الجمل الخبرية، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ..﴾ [الأنفال]، وذلك في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم ، في خمس عشرة سورة. السادس : الشرط ، في سبع سور مثل : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة]. السابع : الأمر، في ست سور، نحو : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]. الثامن : الاستفهام، في ست سور، نحو: ﴿قَمِ يَسْأَلُونَ﴾ [التنبيه]. التاسع : الدعاء في ثلاث سور: الهمزة للمطققين، المسد. المباشر : التثليل ، في سورة قريش ، انتهى باختصار [الإتقان في علوم القرآن

تنطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف.

فإن لكل حرف اسماً ومُسَمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها.

فإن الامي إذا سئل أن يتهجى أى كلمة ينطقها ، وإن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسَمِّيَّاتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول: إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوى عندك حين تقرأ فى أول سورة البقرة : ﴿الْم ١﴾ [البقرة]

مثلاً تقرأ فى أول سورة الشرح : ﴿الْم .. ١﴾ [الشرح]

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل^(١) - عليه السلام - « ألف لام ميम » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم ».

وأقول ذلك لأن القرآن - كما نعلم - ليس كأي كتاب تُقبل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا. بل هو كتاب تقرؤه بعد أن تسمعه وتصحح

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورة من ضرورات سلامة النطق ، وطهارة الكلمة ؛ لذلك يقول الحق : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] فالتلاوة ابتداء ، والتزكية ارتقاء ، والتعليم صفاء ، ووضع الشرح فى مكانه ووضع للمقال فى مقامه ، وفى الغيب علم يتوالى ، وفى التوالى إعجاب ، والإعجاب توحيد بنزامة ، وتغريد بطهارة ، وتجرید بإخلاص.

قراءتك على قارئ : لتعرف كيف تنطق كل قول كريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفت على كيفية القراءة ؛ لأن كل حرف في الكتاب الكريم موضوع بميزان^(١) وبقدر.

ونحن نعلم أيضاً أن آيات القرآن منها آيات مُحْكَمَات وأُخَر مُتَشَابِهَات^(٢) . والآيات المُحْكَمَاتُ تضم الأحكام التي عليك أن تفعلها لتُشَابَ عليها ، وإن لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما في الآيات المُحْكَمَات واضح.

أما الآيات المُتَشَابِهَات إنما جاءت مُتَشَابِهَةً^(٣) لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، واليد.

ووسائل الإدراك هذه ؛ لها قوانين تحكمها:

(١) قال ابن الجوزي في كتابه والنشر في القراءات العشرة (٢١٠/١) : «لأنك إن هذه الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الإفصحية العويبة التي لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها».

(٢) يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْهُ أَمُ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المتشابهة هنا أي: ما استأثر الله بعلمه، وخفى معناه على الناس، أو هو ما احتمل أوجهاً من حيث المعنى والتأويل. وهذا هو معنى الآية السابعة من سورة آل عمران، أما قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ..﴾ (٢٤) [الزمر] فمعناه: أنه يشبه بعضه بعضاً في الصفة، وعدم التناقض وتأييد بعضه البعض. انظر فتح الرحمن يكشف مايلبس في القرآن: لأبي يحيى الأنصاري (ص ٦٠).

فَعَيْنُكَ يَحْكُمُهَا قَانُونُ إِبْصَارِكَ ، الَّذِي يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ تَلْتَقِيَ خُطُوطُ
الْأَشْعَةِ عِنْدَ بُورَةِ تَمْتَنَعُ رُؤْيَاكَ عَنْهَا ؛ وَلِذَلِكَ تَصَغُرُ الْأَشْيَاءُ تَدْرِيجِيًّا
كَلَّمَا ابْتَعَدْتَ عَنْهَا إِلَى أَنْ تَتَلَّاشِيَ مِنْ حُدُودِ رُؤْيَاكَ.

وَصَوْتُكَ لَهُ قَانُونٌ ؛ تَحْكُمُهُ ذَيْذِبَاتُ الْهَرَاءِ الَّتِي تَصِلُ إِلَى أَدْوَاتِ
السَّمْعِ دَاخِلَ أَذْنِكَ.

وَكَذَلِكَ الشَّمُّ لَهُ حُدُودٌ ؛ لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ شَمُّ وَرْدَةٍ مُوجُودَةٍ فِي بَلَدٍ
بَعِيدَةٍ.

وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ لَهُ حُدُودٌ يُدْرِكُ بِهَا ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ كَيْفَ يَدْرِكُ
الْإِنْسَانُ الْأُمُورَ ، فَلَمْ يَمْنَعْ تَأْمُلَ وَرْدَةٍ جَمِيلَةٍ ، لَكِنَّهُ أَمَرَ بِغَضِّ
الْبَصَرِ^(١) عِنْدَ رُؤْيَا أَيِّ امْرَأَةٍ.

وَهَكَذَا يُحَدِّدُ لَكَ الْحَقُّ الْحَالَالَ الَّذِي تَرَاهُ ، وَيُحَدِّدُ لَكَ الْحَرَامَ الَّذِي
يَجِبُ أَنْ تَمْتَنَعَ عَنْ رُؤْيَاكَ . وَكَذَلِكَ فِي الْعَقْلِ ؛ قَدْ يَفْهَمُ امْرَأَةً وَقَدْ
لَا يَفْهَمُ امْرَأَةً أُخْرَى ، وَعَدَمُ فَهْمِكَ لِذَلِكَ الْأَمْرِ هُوَ لَوْ أَنَّكَ مِنْ الْفَهْمِ أَيْضًا ،
وَأَنْ تَسَاءَلْتَ كَيْفَ ؟

انْظُرْ إِلَى مَوْقِفِ تَلْمِيزِ فِي الْإِعْدَادِيَّةِ ؛ وَجَاءَ لَهُ اسْتِزَادُهُ بِتَمْرِيزِ

(١) غَضُّ بَصَرِهِ وَغَضُّ مِنْ بَصَرِهِ ، يَغْضُو غَضًّا: خَفَضَهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ وَلَمْ يَحْشُرْهُ قِيَمًا أَمَانَةً ، أَوْ
كَفَّ بَصَرَهُ وَلَمْ يَنْظُرْهُ . وَغَضُّ الْبَصَرِ قَالُوا : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَعْيُنِهِمْ ﴾ . (٣٤) ﴿
[النور] ، وَقَالَ : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضِينَ مِنْ أَعْيُنِهِنَّ ﴾ . (٦٥) ﴿ [النور] . وَمِنْهُ غَضُّ صَوْتِهِ:
خَفَضَهُ ، قَالُوا تَعَالَى : ﴿ وَأَغْضَى مِنْ صَوْتِكَ ﴾ [القمان] [القاموس القويم : ٥٦/٢] .

هندسى^(١) مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكى
لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحل مثل هذا التمرين
الهندسى ، هذا القول يعنى أن التلميذ قد فهم حدوده.

وهكذا يُعلِّمنا الله الأدب فى استخدام وسائل الإدراك ؛ فهناك أمر
لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن
تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك.

ودائماً أقول هذا المثل - والله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق
كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ،
وفى كل دور من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتح كل الأدوار ، ولا
يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل
تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله - تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه
الحق - تبارك وتعالى:

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ^(٢) هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ^(٣) وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

(١) أصل هذه الكلمة الهنداز، وهى كلمة فارسية أصلها أنداز فصيرت الزاى سيناً، لأنه ليس فى
شئ من كلام العرب زاء بعد الدال، والاسم الهندسة. والمهندوز: هو الذى يُقدَّر مجازى
القنن والأبنية. [انظر: لسان العرب - مادى: هندز، هندس].

(٢) أحكم الأمر: اتقنه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٢٧) ﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها
متقنة مقننة محكمة. وآيات محكمة: متقنة مقننة واضحة، وقيل: محكمة غير منسوخة أو
محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا أُولِيتْ مُرَّةٌ مُحْكَمَةٌ .. (١٠) ﴾
[محمد] أى: متقنة. [القاموس القويم: ١/١٦٦].

(٣) أم الكتاب: أصله: يُرَدُّ إليها كل ما عداها مما يحتل أوجهاً كثيرة. قال فى التهذيب: أم الكتاب
كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض. [نقله ابن منظور فى اللسان - مادة:
أم] وأم الكتاب: فاتحته؛ لأنه يبدأ بها فى كل صلاة. [اللسان].

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ^(١) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ^(٢) الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) ﴿

[ال عمران]

إذن : فهذا التشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مأربهم^(٣) ، وهو إبطال الدين بأى وسيلة وبأى طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبير على كتاب الله.

ولهؤلاء نقول: لقد أراد الله أن يكون بعض من سور الكتاب الكريم مُبْتَدَأَةً بحروف تُنطق بأسمائها لا بمسمياتها.

وقد أرادها الحق - سبحانه - كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق - سبحانه - للعقل البشرى التفكير فى أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التى تفوق حدود عقله.

(١) زَاغَ يَزِيغُ زَيْغًا وزيفانا: مال عن القصد، وأزاعه: أماله وصرفه عن القصد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ [الصف] أى: فلما انحرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل، صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجبرهم على الإيمان. [القاموس القويم: ٢٩٣/١، ٢٩٤].

(٢) بغى الشرم: طلبه، وابتغاء: طلبه، قال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُكُمْ الْفِتْنَةُ .. ﴾ (٧٩) [التوبة] ، أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَتَّبِعُونَ فُضُلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. ﴾ (٩٩) [الفتح] أى: يطلبون فضلا. وقوله: ﴿ لَقَدْ اتَّخَذُوا الْفِتْنَةَ .. ﴾ (٨٥) [التوبة] أى: طلبوها وسعوا فى بثها ونشرها. [القاموس القويم: ٧٦/١].

(٣) المارب والارباب والارباب : الحاجة والغرض، يقول تعالى عن عصا موسى أن موسى عليه السلام قال عنها: ﴿ وَلَبَّى فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ﴾ (٥٥) [طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى . كاتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم : ١٧/١] بتصريف.

والحق - سبحانه وتعالى - يصنع للإنسان ابتلاءات في وسائل إدراكه؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتي بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق - سبحانه:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ^(١) إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ ^(٢) فِي الْعِلْمِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

قد يفهم منه أنه عطف ؛ بمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله ؛ وبالتالي سيُعلمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتاويل. ولكن تاويل الراسخين في العلم هو قولهم:

﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : فنهاية تاويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به.

وجاء لنا قوله ﷺ ليحل لنا إشكال المتشابه:

« ما تشابه منه فآمنوا به » ^(١).

(١) تاويل الكلام: تفسيره وتبيين المراد منه. قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة: أول]: «التاويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ .. (٧) ﴾ [آل عمران] : التاويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يزول إلى كذا، أي: صار إليه قال الجوهري: التاويل تفسير ما يزول إليه الشيء».

(٢) رَسَخَ يَرْسُخُ رُسُوخاً : ثبت فهو راسخ أي : ثابت، الراسخون في العلم: المتمكنون فيه. [القاموس القويم: ٢٦٤/١].

(٣) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير في تفسيره (٢٤٦/١) لابن مردويه من حديث عبيد الله بن عمرو بن العاص.

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان.

والمثل الذي أضربه هنا هو أمره ﷺ لنا أن نستلم^(١) الحجر الأسود وأن نقبله^(٢)، وأن نرجم الحجر^(٣) الذي يمثل إبليس ، وكلاهما حجر، لكننا نمثل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ^(٤).

وأنت لو أقبلت على كل أمر بحكم عقلك ، وأردت أن تعرف الحكمة وراء كل أمر ، لعبدت عقلك ، والحق - سبحانه - يريد أن تقبل على الأمور بحكمه هو - سبحانه.

وأنت إن قلت لواحد: إن الخمر تهوى الكبد ، ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذي يكشف صورة الكبد ، ثم ناولت الرجل كأس خمر ؟ فرأى ما يفعله كأس الخمر في الكبد ، ورأه^(٥) ذلك ؟ فقال : والله لن أشربها أبداً.

(١) قال الليث : استلام الحجر تناوله باليد وبالقُبْلَة ومسحه بالكف. وقال الجوهري: استلم الحجر لمسه إما بالقُبْلَة أو باليد. [نقله ابن منظور في لسان العرب - مادة: سلم].

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه بيكي طويلاً، فالتفت فإذا هو بعمر بيكي، فقال: « يا عمر، ههنا تُسكِب العبرات ». أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٩٤٥) والحاكم في مستدركه (٤٥٤/١) كلاهما من طريق محمد بن عرون الراساني قال البوصيري في الزوائد: ضعفه ابن معين وأبو حاتم وغيرهما، قلت: قد صححه الحاكم وأقره الذهبي على صحيحه.

(٣) وهو ما يُعرف برمي الجمرات أي يُلْقَى في أيام الحج، وهي ثلاث جمرات: الصفري وهي القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥ متراً، ثم الجمرة الكبرى. كل جمرة تُرمى بـ ٢١ حصاة على ثلاثة أيام: ١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجة. انظر: كتابي «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» أخرجه البخاري في صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) راعه ذلك: أفزع، وارتاع منه وله ورععه لمتروّع، أي: تفزع - والروّع والرواع: الفزع. [لسان العرب - مادة: روع].

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذي نُقِذَ
تعاليم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن
تُؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها.

إذن: فعلة المُشابهة ؛ الإيمان به. وقد يكون للمُشابهة حكمة ؛ لكننا
لن نُؤجل الإيمان حتى نعرف الحكمة.

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانه بربه معاملته لطبيبه ،
فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ؛
ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك ؛ عليه أن ينتهي عند عتبة
إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطية^(١) ،
يُوصِّلُك إلى باب السلطان، لكنه لا يدخل معك.

إذن: فالذي يناقش في علل الأشياء هو مَنْ يرغب في الحديث مع
مُساوٍ له في الحكمة. وهل يوجد مُساوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التي جاءت بالحروف المقطعة
كما جاءت ، واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كَفَّرَ لا ينقد من

(١) المطية: اندابة تُتطلى أي: يُركب ظهرها. والجمع: مَطَايَا والمِطَا : الظهر لاستدانه. وأصل
المِطَا المِطد. وتُعطى للرجل: تعدد. وكل شيء «مدته لفقد مطرته، وتعطى النهار: امتد وطال»
[لسان العرب - مادة: مطا - بتصرف].

العتاء، إلى أن تُحلَّ إنْ - شاء الله - من الله^(١).

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنية على الوصل، ففي آخر سورة هود نجد قول الحق - سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)

[هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة النون ، لكنها موصولة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لذلك جاءت النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآيات مبنية على الوصل، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف «ألفَ لَامُ رَاءَ» لكن الرسول ﷺ عَلَّمَنَا أن نقرأها «ألفَ لَامُ رَاءَ» وننطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن الله - سبحانه - حكيم في هذا وفي ذلك.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل - عليه السلام - وراجعته مرتين في رمضان الذي سبق وفاته ﷺ^(٢).

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢٧/١): «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر عنها أربعة عشر حرفاً، وهي: ال م ص و ك هـ ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قول: «نص حكيم قاطع له سر».

(٢) عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «أسرَّ إلى النبي ﷺ أن جبريل كان يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كل سنة مرة، وإنه يعارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضراً أجلى» أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد في مسنده (٢٨٢/١).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق - سبحانه - على رسوله
الكريم ﷺ.

وهنا يقول الحق : ﴿أَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف]
و «تلك» إشارة لما بَعْدَ (أَلَمْ) ، وهى آيات الكتاب.
أى: خذوا منها أن آيات القرآن مُكَوَّنَةٌ من مثل هذه الحروف ،
وهذا فَهْمُ البعض لمعنى : ﴿أَلَمْ .. ۝١﴾ [يوسف]
لكنه ليس كل الفهم.

مثل : صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من
الخيوط التى تم نَسْجُ القماش منها ؛ ليدلنا على دِقَّةِ الصنعة.

فكأنَّ الله - سبحانه - يُبَيِّنُ لنا أن ﴿أَلَمْ .. ۝١﴾ [يوسف]
أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن
تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ،
لا يستطيع البشر - ولو عاونهم الجن - أن يأتوا بمثله^(١).

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التى تُكوَّنُ الكلام ، ولكن
المعجزة أن المتكلم هو الحق - سبحانه - فلا بد أن يكون كلامه
مُعْجَزاً ؛ وإن كان مُكَوَّنًا من نفس الحروف التى نستخدمها نحن
البشر.

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه ﴿قُلْ لِّغِنِ أَصْحَابَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝١٨﴾ [الإسراء].

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف «ألفاً لام راء» ، وهو ﷺ الأمي^(١) بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نطق أسماء الحروف لا بُدَّ أن يكون مُتَعَلِّماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمَّيات الحروف ولا يعرف أسماءها^(٢) ، وفي هذا النطق شهادة بأن مَنْ علَّمه ذلك هو رب الأعلى.

ويقول الحق - سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم^(٣).

وتجد كلمة «المبين» ، أي : الذي يُبين كل شيء تحتاجه حركة الإنسان الخليفة في الأرض ، فإنَّ بَانَ لك شيء وظننت أن القرآن لم

(١) قال أبو إسحاق: معنى الأمي: المتسوي إلى ما عليه جبلته أمه، مكتسبة، فكانه نُسِبَ إلى ما يُولد عليه، أي: على ما ولدت أمه عليه. نقل ابن منظور في [لسان العرب - مادة: أمم] وقال: «يعتد الله رسولا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخلَّة إحدى آياته المعجزة لانه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارة بعد أخرى، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يُغَيِّرْهُ ولم يُنْثَلِ القافيه، إنَّ: الأمي هو ما كان على الفطرة الربانية ، وتلقاه للإمدادات هو من العظامات النورية ، أما الكتابة فهي اكتساب ، وعلم الأمي من الخصوصيات الاصطفائية.

(٢) الفرق بين الاسم والمسمى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل: (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمي أي كلام (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك : إن هذا الجرق اسمه (ك) أو هذا اسمه (تاء) أو هذا اسمه (باء)، فهو لا يستطيع أن يتهجى الكلمة، ولكنه يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذها من أفواه الناس هكذا، (من مفهوم الخواطر).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» في القرآن (٢٣٠) مرة، ويقصد بها معاني كثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، اللوح المحفوظ، ومن معاني الكتاب أيضاً «الرسالة» مثل رسالة سليمان عليه السلام التي أرسلها مع الهدم إلى ملكة اليمن فقال: ﴿أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم نزل عنهم فانظروا ماذا يرجعون (٢٥)﴾ [النمل]. ومن المعاني أيضاً صحيفة الإنسان التي تعرض عليه يوم القيامة. ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء].

يتعرض له ، فلا بد أن تبحث عن مادة أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غابَ عنك.

ويُروى عن الإمام محمد عبده^(١) أنه قابل أحد المستشرقين^(٢) في باريس ؛ ووجه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال:

مادامت هناك آية في القرآن تقول : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ ﴾^(٣) من شيءٍ . . . (٣٨) ﴿

[الأنعام]

فَدَعْنِي أَسْأَلُكَ: كم رغيفاً ينتجه أردب القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر. واستدعى الإمام خيازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن تصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخياز على السؤال.

هنا قال المستشرق: لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخياز.

(١) هو : محمد عبده بن حسن خير الله من قل التركمانى، مفتى الديار المصرية، ولد في شنوا (من قرى الغربية بمصر) عام ١٨٤٩م ونشأ في مجلة نصر (بالبحيرة)، تعلم بالجامع الاحمدى بطنطا، ثم بالأزهر، أجاد الفرنسية بعد الأربعين، أصدر في باريس جريدة «المروة الوثقى» مع جمال الدين الأفغانى. توفي عام ١٩٠٥م بالإسكندرية، ودفن في القاهرة. [الأعلام للزركلى ٢٥٢/٦].

(٢) المستشرقون: جمع مستشرق ، وهم علماء الغرب المهتمون بعلوم الشرق وآدابه ودياناته وفلسفاته، فهم يتخصصون في هذا دراسة وبحثاً وتنقيباً، ومنهم المنصفون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسعون دراساتهم للظعن في الإسلام.

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٢/٢٥٠٥) «أى: في اللوح المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث، وقيل أى : في القرآن أى: ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دلت عليه في القرآن، إما دلالة معينة مشروجة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القياس الذى ثبت بنص الكتاب».

فرد الإمام : إذا كان القرآن قد قال:

﴿ مَا قُرْطَنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۖ ۞ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

فالقرآن قال أيضاً:

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٢) ﴾ [النحل]

لقد قطن الإمام^(١) محمد عبده إلى أن العقل البشرى أضيق من أن يسمع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق - سبحانه - أن يوزع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق في مجال ما ، هو من أهل الذكر في مجاله.

ونحن - على سبيل المثال - عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص في المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث.

وحين يؤدي المسلم من السحابة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بدء الحج عمن يُعلمه خطوات الحج كما أدأها ﷺ.

(١) الإمام محمد عبده من الأئمة الأعلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته الإصلاحية ، عناصر جليل للدين الاقناني ، وكان للإمام محمد عبده انجازات في تربية الافراد والشعوب ، بحيث تبدأ التربية بالفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً ، وهذا التدرج التربوي انفرد به الإمام عن جمال الدين الاقناني ، وإن كان بينهما عموم وخصوص.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانيات اللازمة لذلك . وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك ودَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملاً الاحتياج ، لا تكاملاً التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلتحماً بالآخرين غصباً عنه .

وبعد ذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ ﴾

وبالنسبة للقرآن نجد الحق - سبحانه - يقول : ﴿ تَرَكْ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ١٦٦ ﴾ [الشعراء]

فتسبب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله ﷺ .
ومرة يقول : ﴿ تَرَكْ .. ٢ ﴾ [محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة .

أما قول الحق - سبحانه : ﴿ أَنْزَلَ .. ١١ ﴾ [البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنُوناً فى اللوح المحفوظ ليياشر مهمته فى الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

(١) «الروح الامين: هو جبريل عليه السلام. قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه. قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٤٧) .

قال الواحدى عن أسباب نزول هذه الآية: لما بنى رسول الله ﷺ بزيئب بنت جحش ولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة. قال أنس: وبعثت إليه أمى أم سليم بحيس فى ثور من حجارة، فأمرنى النبى ﷺ أن أدعو أصحاب إلى الطعام، فجعل القوم يجيئون قياكون فيخرجون - ثم يجرى القوم ويأكلون ويخرجون. فقلت: يا نبى الله قد دعوت حتى ما أجد أحدا لدعوه. فقلت: ارفعوا طعامكم، فرفعوا وخرج القوم وبقي ثلاثة أنفار يتحدثون فى البيت، فأتاها المكث. فتأذى منهم رسول الله ﷺ وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية. (أسباب النزول: ص ٢٠٥).

وفى هذه الآية يقول - سبحانه :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٢)﴾ [يوسف]

وفى الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (٦)﴾ [يوسف]

فمرة يَصِفُه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرة يَصِفُه بأنه كتاب ؛
لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمع^(١) ليكتب ؛ كان كاتب القرآن
لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالاهواء ، أما السطور فمُثَبَّتة
لا لَبْسَ فيها.

وهو قرآن عربي؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية،
وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

(١) قال الحاكم فى المستدرک : جمع القرآن ثلاث مرات:

إحداها : بحضرة النبی ﷺ .

الثانية : بحضرة أبى بكر رضى الله عنه.

الثالثة : فى زمن عثمان رضى الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثانى للقرآن الذى قام به زيد بن ثابت بأمر من أبى بكر رضى
الله عنه: إنك شاب عاقل، لا تهتم، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن
فاجمعه . قال زيد : فتتبع القرآن أجمعه من العُسْبِ واللخاف وسدور الرجال . وكان زيد لا
يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان . قال السيوطى : «وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى
بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تلقاه سمعاً» مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل
ذلك مبالغة فى الاحتياط. [انظر: الإتيان فى علوم القرآن ١/ ١٦٤ - ١٦٧] باختصار.

مِمَّا نَبِغُ^(١) فِيهِ الْعَرَبُ ؛ لِأَنَّ الْمَعِجَزَةَ مُشْرُوطَةٌ بِالتَّحْدِي ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ فِي أَمْرِ لَا رِيَاذَةَ لَهُمْ فِيهِ وَلَا لَهُمْ بِهِ صِلَةٌ ؛ حَتَّى لَا يَقُولَ أَحَدٌ: نَحْنُ لَمْ نَتَعَلَّمْ هَذَا ؛ وَلَرَّ تَعَلُّمُنَاهُ لِحُبِّنَا بِأَفْضَلِ مِنْهُ.

وَكَانَ الْعَرَبُ أَهْلُ بَيَانٍ وَأَدَبٍ وَنَبُوغٍ فِي الْفَصَاحَةِ وَالشَّعْرِ ، وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ^(٢) ، وَتَتَفَاخَرُ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِشُعْرَائِهَا وَخَطْبَائِهَا الْمُفَوِّهِينَ^(٣) ، وَكَانَتِ الْمُبَارَايَاتُ الْأَدَائِيَّةُ تُقَامُ ، وَكَانَتِ التَّحْدِيَّاتُ تَجْرِي فِي هَذَا الْمَجَالِ ، وَيُنْصَبُ لَهَا الْحُكَامُ.

أَيُ : أَنَّ الدُّرْبَةَ عَلَى اللُّغَةِ كَانَتْ صِنَاعَةً مُتَوَاتِرَةً وَمُتَوَارِدَةً ، مُحْكَمَةً عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ فِي الْأَسْوَاقِ ، فَهُمُ أُمَّةُ بَيَانٍ^(٤) وَبِلَاغَةٍ وَفَصَاحَةٍ.

لِذَلِكَ شَاءَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مُعْجِزَةً مِنْ جَنْسِ مَا نَبِغَ فِيهِ الْعَرَبُ ، وَهُمْ أَوَّلُ قَوْمٍ نُزِّلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ ، وَحِينَ يُؤْمِنُ

(١) نَبِغَ الشَّيْءُ : ظَهَرَ. نَبِغَ مِنْهُمْ شَاعِرٌ خَرَجَ، وَتَنَابَعَتْ: الشُّعْرَاءُ الْمَعْرُوفَةُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لظُهُورِهِ. [لسان العرب - مادة: نَبِغَ].

(٢) كَانَتِ لِلْعَرَبِ أَسْوَاقٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا، مِثْلُ عَكَاظٍ، وَذِي الْمِهَاجِ، فَكَانَتِ قَبَائِلُ الْعَرَبِ تَجْتَمِعُ بِهَا كُلَّ سَنَةٍ وَيَتَفَاخَرُونَ بِهَا، وَيَحْضُرُهَا الشُّعْرَاءُ يَتَنَاقَشُونَ مَا أَحْدَثُوا مِنَ الشُّعْرِ.

(٣) الْمُفَوِّهُ : حَسَنُ الْكَلَامِ بَلِيغُ الْمُنْطَقِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْكَلَامِ الْجَيِّدِ فِي بَسَاطَةٍ وَسِلَاسَةٍ. رَاجِعُ بَعْضُ هَذَا فِي [لسان العرب - مادة: فَوَّهَ].

(٤) الْبَيَانُ : إِظْهَارُ الْمَقْصُودِ بِإِبْلَغٍ لُفْظِيٍّ، وَهُوَ مِنَ الْفَهْمِ وَذِكَاةِ الْقَلْبِ مَعَ التَّسَنُّنِ، وَأَصْلُهُ الْكَشْفُ

وَالظُّهُورُ. [اللسان - مادة: بَيَّنَّ]. وَالْبَيَانُ الْكَشْفُ وَالْإِبْضَاحُ وَالْكَلَامُ الْبَلِيغُ. قَالَ تَعَالَى:

﴿فَبَدَّلَ النَّاسَ آلِيَهُمْ...﴾ [آل عمران] أَيْ: كَشَفَ وَإِبْضَاحَ أَوْ هَذَا كَلَامٌ بَلِيغٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَّمَهُ

الْيَانَ (٤٤)﴾ [الرحمن] أَيْ: أَلْطَقَ الْمَعْبَرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ مِنْ مَعَانٍ وَأَفْكَارٍ. [القاموس القويم

- مادة: بَيَّنَّ].

هؤلاء ان يكون التحدى بفصاحة الالفاظ وتسق الكلام ، بل بالمبادئ
التي تطغى على مبادئ الفرس والروم.

وهي مبادئ قد نزلت في أمة مبتدئة^(١)، ليس لها قانون يجمعها،
ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم
بدؤ يرحلون من مكان إلى مكان،

وحين نزل فيهم القرآن عكس أهل قارس والروم أن تلك الأمة
المبتدئة قد امتلكت ما يبني حضارة ليس لها مثل من قبل ، رغم أن
النبي أمي^٢ وأن الأمة التي نزل فيها القرآن كانت أمية.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذي نزل في تلك الأمة تحذاهم
بما نبغوا فيه، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن
هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق - سبحانه - أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن
ليرسل رسولا إلا بلسان قومه ، فهو القائل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ ۝ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

(١) مبتدئة: نسبة إلى البادية. يقال تبتدى الرجل أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضر. وسميت
بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس في الحضر حول الماء وغيره. بتصرف من
[لسان العرب - مادة: بدو].

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَبَنَيْنَا أَرْصَفَيْنِ (٩) ﴾ [البقرة]
[البند] فانه يستن على الإنسان بنعمة البصر والنطق. واللسان: اللغة والكلام. قال تعالى :
﴿ وَأَخْبَىٰ هَرُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا ۖ ۝ (٢٣) ﴾ [القصص] أى: أفصح منى على الكلام الفصيح.
وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقَافُ السِّنِّكُمْ وَأَتْرَافِكُمْ ۖ ۝ (٢٧) ﴾ [الروم]
السنتكم، أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم - مادة: لسن] .

وأرسلَ محمدٌ ﷺ بالقرآن ، الذي تميّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ؛ بأنه كتاب ومعجزة في آنٍ واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه ﷺ مُنفصلة عن كتب الأحكام التي أنزلت إليهم.

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أن تقوم الساعة ، ومادام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا^(١) في العالم، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانتباه بما فيه من أحكام.

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام في تلك المدة الوجيزة، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به ؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مشدوهين^(٢) بما فيه من نُظمٍ تُخلصهم من متاعبهم.

ففي القرآن قوانين تُسعد الإنسان حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث في الكون ؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذي أنزله الله على رسولهم لم يقرط في شيء.

وإذا قال قائل من المستشرقين: كيف تقبولون ؛ إن القرآن قد نُزل

(١) السياحة: الذهاب في الأرض لأغراض مختلفة منها العبادة والدعوة والتجارة. وأصله من

سَبَّحَ الماءَ الجارى على وجه الأرض. [لسان العرب - مادة: سَجَّح] بتصريف.

(٢) شَبَّهَ الرجلَ شَدَهًا: تحيرَ والدَّهَشُ أيضاً: التَّحْيُّرُ. دهش: تحير، أو ذهب عقله من لُعل أو

وَلَهُ فهو مدعوش، وادهشه شيره. [اللسان - مادته: شدة، دهش].-

بلسان عربى مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى تؤمنون^(١) بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية^(٢) ، وأخرى فارسية^(٣) ؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل الألفاظ مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارت هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل فى لغتنا أى لفظ نستعمله

(١) الثامن: قول آمين. وآمين : كلمة تُقال فى إثر الدعاء قال الفارسي: هى جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لى. [لسان العرب - مادة: آمين]. وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا آمن الإمام فأمنوا قبلته من واقق تأمينه تأمين الملاذقة فخر له ما تقدم من ذنبه، أخرجه الإمام مالك فى موطئه (٨٧/١) واحمد فى مسنده (٢٣٨/٢ ، ٢٢١) والبخارى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠)

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم : - (الزقيم) فى قوله تعالى : ﴿وَأَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٣) ﴿[الكهف]. قال السيوطى فى الإتقان (١١٢/٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال: النوح، الكتاب، الدواة.

(الصمراط) : حكى النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم. (طفقا) فى قوله تعالى ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ..﴾ (٤٢٦) ﴿[الأعراف] معناه: قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم . - (أبريق) : حكى الشعالى فى فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجوالقى: الإبريق فارسى مغرب. ومعناه: طريق الماء، أو صيب الماء على هيئة. (دينار) فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ نَأْتَيْنَهُ بِدَنَارٍ لَّا يُوَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ..﴾ (٧٥) ﴿[ال عمران] . ذكر الجوالقى وغيره أنه فارسى. - (سحيل) : عن مجاهد قال: سجيل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على السنننا ، ما دُمنا نفهم المقصود به^(١) .

ويُذيل الحق - سبحانه - الآية الكريمة بقوله :

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ [يوسف]

ليستنهض همة العقل ، ليفكر في الامر ، والمنصف بالحق يُهمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس^(٢) الذي يهمه أن يستتر العقل جانباً ؛ لينفذ من وراء العقل.

وفي حياتنا اليومية حين ينهبك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك مَتَانَتها ومحاسنها ؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصُّنعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلك الأمر تكتشف المدلس وغير المدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

(١) ذكر السيوطي في كتابه الإتقان (١٠٥/٢ - ١٠٨) اختلاف العلماء في عربية هذه الألفاظ وهي أعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندى مذهب أبيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعربتها بالسنننا وحولتها عن ألفاظ المعجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، نحن نال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق» ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون».

(٢) التدليس: إخفاء العيب. والمذالسة: المخادعة. والتدليس قس النبيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري، والتدليس الشئ: إذا خفى [لسان العرب - مادة: دلس].

ويقول الحق - سبحانه - من بعد ذلك:

﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣)

حين يتحدث الحق - سبحانه - عن فعل من أفعاله ؛ ويأتى بضمير الجمع ؛ فسيب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجود صفات متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانات.

ومن غيره - سبحانه - له كل الصفات التى تفعل ما تشاء وقت أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه - سبحانه - وحده صاحب الصفات التى تقوم بكل مطلوب فى الحياة ومُقدِّر.

لكن حين يتكلم - سبحانه - عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتى بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

(١) نصُّ الكلام أو الأخبار: يقصُّها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها، قال تعالى : ﴿ قُلْنَا جَاءَهُ وَقَمِيَ عَلَيْهِ الْقَصصُ قَالَ لَا تَحْمِلْ .. ﴾ (٢٥) ﴿ الْقَصص ﴾ أى: قص عليه أخباره وحديثه بها. والقصص: مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١١١) [يوسف] . [القاموس القويم (١٢٠/٢)] .

وَأَقِمِ^(١) الصَّلَاةَ لِذِكْرِي^(٢) ﴿١٤﴾ [ط]

وهنا يتكلم - سبحانه - بأسلوب يعبر عن أفعال لا يقدر عليها غيره؛ بالدقة التي شاءها هو - سبحانه - فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..﴾ [يوسف]

وحدد - سبحانه - أنه هو الذي يقصُّ، وإننا وُجِدَ فعل الله ؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ؛ ولا نحاول أن نشق منه اسماً نطلقه على الله ؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التي علمناها في أسمائه الحسنى ؛ لأنه الذات الأقدس.

وفي كل ما يتعلق به ذاتاً وصفات وأفعالا إنما نلتزم الأدب ؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشق منه اسماً لله ؛ لأنه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنى بذلك.

(١) أقام الصلاة أداها كاملة. وقوله تعالى : ﴿رَأَيْبُورًا وَجُوعَكُمُ عَذَابُ كُلِّ شَجَرٍ ..﴾ [الأعراف] أي: اخلصوا قلوبكم لله، وعذِّلوا وجوعكم واجعلوها تتجبه لله في المساجد في الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ..﴾ [الروم] أي: ارفعه وعذِّله، والمراد كن مستقيماً متخلصاً للدين. وإقام: اسم مصدر من أقام بمعنى إقامة وحمله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ..﴾ [النور] أي: إقامة الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاموس القويم ٢/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٣] يتصرف واختصار شديدين.

(٢) الذكر: الاستحضار بالقلب مع التأمل والذكر الحديث والقصة. والذكر: القرآن والكتب المنزلة كلها. قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح] أي: شرفك وحديث الناس عنك بالخير.

والواجب أن ما أطلقه - سبحانه - اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهنا يقول - سبحانه:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴾ (٣)

[يوسف]

ونعلم أن كلمة «قص» تعني الإتياع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، وماخوذة من قص الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذي سار فيه مَنْ يبحث عنه.

واقراً قول الحق - سبحانه - ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ^(١) بِهِ عَنْ جُنُبٍ^(٢) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ﴾

[القصص]

و ﴿ قُصِّيهِ .. ﴾ (١١)

[القصص]

أي: تتبعي أثره.

إذن : فالقص ليس هو الكلمة التي تتبع كلمة، إنما القص هو تتبع ما حدث بالفعل.

(١) بصُرَ به: رآه ببصره فهو بصير. وبصُر بالامر: علمه كأنه رآه ببصره.. وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ .. ﴾ (١١) [القصص] أي: رآته من أحد جوانب البيت وهي متخفية. وقوله تعالى عن السامري: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. ﴾ (٥٥) [طه] أي: علمت بما لم يعلموا وهو رؤية أثر الرسول أو غيره. [القاموس القويم ٦٩/١].

(٢) الجنب: قد يراد به البعد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ .. ﴾

(٥٥) [القصص] أي: عن بُعد، أو رآته من جانب من جوانب القصر أو من بعيد. [القاموس القويم ١٣٠/١].

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ^(١) وَمَا أَنَسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ^(٢) ﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ ^(٣)
فَارْتَدُّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ^(٤) ﴿ [الكهف]

أى : تَابَعَا الْخَطَوَاتِ.

وهكذا نعلم أن القصة هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فنكون كل كلمة مُصَوِّرة لواقع ، لا لُبْس ^(١) فيه أو خيال ؛ ولا تَزِيدُ ، وليس كما يحدث

(١) الحوت: السمكة. كبرت أو صغرت، والجمع حيتان. قال تعالى عن موسى قوله: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. ﴾ ^(١٤) ﴿ [الكهف] أى : السمكة، وقال ﴿ إِذْ نَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبِّهِمْ شُرْعًا .. ﴾ ^(١٥) ﴿ [الأعراف] كانت تظهر لهم الحيتان فى الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم. [القاموس القويم ١/١٧٦] قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة حوت] «المحاوتة، المزاوغة. وهو يُحاوتنى أى يُراوِغنى. وجاءت الطائر على الشجر يحوت أى - حلم حوله».

(٢) العجب روعة ودمشة تأخذ الإنسان عند استجسان شيء خفى سره أو استعظامه. وأعجبه الأمر: سره أو عمله على العجب منه. وأمر عجيب وعُجَاب وعُجَاب يتشديد الحميم للمبالغة، قال تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ .. ﴾ ^(٢) ﴿ [ص]. [القاموس القويم ٢/٧٧]

(٣) بنى الشيء: طلبه. وابتغاه: طلبه. قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُكُمْ الْفِتْنَةُ .. ﴾ ^(٣٧) ﴿ [التوبة] أى: يطلبونها لكم وقال تعالى: ﴿ يَتَفَرَّقْ لَصَلًا مِنْ اللَّهِ .. ﴾ ^(٣٨) ﴿ [الفتح] وقوله: ﴿ لَقَدْ ابْتَعَا الْفِتْنَةَ .. ﴾ ^(٣٩) ﴿ [التوبة] أى طلبوها وسمعوا فى بيئها ونشرها. والابتغاء: الطلب. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهَيَّأُوا لِلْحَرْبِ .. ﴾ ^(٤٠) ﴿ [النساء] فى طلبهم لقتالهم، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ هَرَبُوا إِتْعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. ﴾ ^(٤١) ﴿ [الزمر] أى: طلباً لرضاء تعالى عنهم. [القاموس القويم ١/٧٦، ٧٧].

(٤) اللُبْس واللبس اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر أى: اختلط واشتباه، وتلبس بى الأمر: اختلط وتعلق. [لسان العرب - مادة: لبس].

فى القصص الفنئ الحديث ؛ حيث يضيف القصص لقطات خيالية من أجل الحكمة^(١) الفنية والإثارة وجذب الانتباه.

أما قصص القرآن فوضعه مختلف تماماً ، فكل قصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لناخذ منها العبرة^(٢)؛ لأن القصة نزع من التاريخ.

والقصة فى القرآن مرة تكون للحدث، ومرة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تأت قصة رسول فى القرآن كاملة، إلا قصة يوسف - عليه السلام.

أما بقية الرسل فقصاصهم جاءت لقطات فى مناسبات لتثبيت فؤاد^(٣) الرسول محمد ﷺ ، فتأتى لقطة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتى بقصة كاملة

(١) الحكمة : الشد، والحكمة: الحبل يشد به على الوسط. والتحكيم: التوثيق. وجاد ما حكبه إذا أجاد نسجه. وحك الثوب يحكه حكاً أجاد نسجه وحسن أثر الصنعة فيه. [لسان العرب - مادة: حك] ويستعار اللفظ ليستخدم فى الحكمة القصصية كأنها ثوب يُجاد نسجه وصنعه فلا يكون مهكلاً.

(٢) وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِرِ فِصْصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ۚ﴾ (يوسف: ١١١). والعبرة اسم للشيء الذى يقطع به الإنسان. والعبرة: العظة. قال تعالى: ﴿إِن لِّى فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ ۖ﴾ [النور]. وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ ۚ﴾ [الحشر] أى: اعتبروا. [القاموس المقيم ٤/٢].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَرْعَاطٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٥) [هود] أى: تثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. [تفسير القرطبي ٤/٢٤٢٥].

مستوفية؛ فقد شاء الحق - سبحانه - أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُستوفية، ففيها الحدث الذي دارت حوله أشخاص، وفيها شخص دارت حوله الأحداث.

فقصة يوسف - عليه السلام - في القرآن لا تتميز بالحبكة فقط؛ بل جمعت نوعي القصة، بالحدث الذي تدور حوله الشخصيات، وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث.

جاءت قصة يوسف بيوسف، وما سرُّ عليه من أحداث؛ بدءً من الرؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية^(١) له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولي السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن : فقول الحق - سبحانه:

﴿لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾

[يوسف]

يبين لنا أن الحُسن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، لكن أحبار^(٢) اليهود حين قرأوا القصة كما جاءت بالقرآن ترك

(١) للغواية : الضلال والانهمك في الغي والفساد. غوى يغوي: أنهك في الجهل وهو ضد الرشد. قال تعالى : ﴿لَا تُكْرَهُ عَلَى الَّذِينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥١)﴾ [البقرة]. [القاموس الغوي ٢/٦٤].

(٢) الأحبار: جمع حبر، وهو العالم، قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [التوبة] وأصل الكلمة للحبر الذي يكتب به، وهو العدد. وكل ما حُسِّن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حَبِرَ حَبْرًا وحَبَّر. [لسان العرب - مادة: حبر].

بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن في روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمّسات المواجهيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطوّية في النفس البشرية ؛ وتحقيق الرؤى الغيبية كلّ ذلك جاء في حبكة ذات أداء بياني مُعجّز جعلها أحسن القصص .

أو : هي أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعددة ، عبر في الطفولة في مواجهة الشيوخوخة ، والحق الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، والفائه في الجب والكيد له ، ووضعه سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تم له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف - عليه السلام - محبة منه ؛ ليجعل كل من يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرث النبوة ، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة ؛ فعفاً عن إخوته بما روت السورة : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢) [يوسف]

وقالها سيد البشر محمد ﷺ لأهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(١).

(١) ثربه : لاهه وعتب عليه . وثرّبه بالتصنيف : أكثر لومته . ومثّره بذنبه ، وأثب على سوء فعله . قال تعالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ ﴾ (٩٢) [يوسف] أي : لا لوم ولا نانيب . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

(٢) قال ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام في خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما قرؤن أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

هكذا تمتلئ سورة يوسف بعبر متناهية ، يتجلى بعض منها في قضية دخوله السجن مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهي أحسن القصص ؛ إما لأنها جمعت حادثة ومَن دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو : أنها أحسن القصص في أنها أدت المتحد والمتفق عليه في كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمي ، الذي لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عرض الموضوع بأسلوب جذاب مُستميل مُقنع مُمتع.

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطات متعددة تساير : العمر الزمني ؛ والعمر العقلي ؛ والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مغلوباً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكنًا من كل شيء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كقطات موزعة كآيات ضمن سور أخرى ؛ وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها.

إذن : فالحسن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣) [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أمياً، ولم يعرف عنه أحد قبل

نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخَلقية العالية من صدق وأمانة ؛ وهي صفات مطلوبة في المبلِّغ عن الله ؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض ؟

إن الكذب أمر مُستبعد تماماً في رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبي بكر رضي الله عنه له حين أبلغه رسول الله ﷺ أن الوحي قد نزل عليه ، لم يقل له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : صدقت.

وحين حدثت رحلة الإسراء ؛ وكذبها البعض متساطين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها في ليلة ؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك ؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق^(١).

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٢٩٨/١) باختصار أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فأنكروا عليه ذلك ، وقصدوا أبا بكر وهرقوا عليه هذا الأمر في إنكاره . فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى . فهاهو ذاك في المسجد يحدث به الناس.

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يُعجبكم من ذلك . فهاهو إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدق ، فهذا أهد مما تعجبون منه .

وهكذا نجد أن حيثية الصدق قبل الرسالة هي التي دلت على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحى.

مثال ذلك : تصديق خديجة رضى الله عنها وأرضاها له ؛ حين أبلغها بنزول الوحي ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل^(١) ، وتكسب المعدوم^(٢) ، وتقري الضيف^(٣) ، وتعين على نوائب^(٤) الحق^(٥) » .

وكان في صدق بصيرتها ، وعميق حساسية قطرتها أسباباً تؤيد تصديقها له ﷺ في نبوته^(٦) .

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطوق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات ؛ كانت بعض العقول المعاصرة

(١) الكل : هو من لا يستقل بأمره . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ كُلٌّ عَلَى فَرَسٍ ﴾ . (١٦٩) [النحل] . والكل هو : العاجز الثقيل لا خير فيه [الفاموس القويم ١٦٩/٢] باختصار .
(٢) المعدوم : كالميت الذي لا تصرف له . والمعنى : أنك تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك . [فتح الباري ٢٤/١] .

(٣) قري الضيف : أضالته . والقري : طعام الأضياف . [لسان العرب - مادة : قري] .
(٤) النوائب : جمع نائبة ، وهي ما ينوب الإنسان أي : يهزل به من العلل والحوادث . والنائبة : المصيرية من مصائب الدهر تنزل بالإنسان . [لسان العرب - مادة : نوب] بتصرف .

(٥) حديث بدء الوحي أخرجه البخاري في صحيحه (٢) . وكذا مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٦) قال رسول الله ﷺ : « آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بماله إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها إذ تولد دون غيرها من النساء » . أخرجه أحمد في مسنده (١١٨/٦) من حديث عائشة .

لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله ».

مثال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - متسائلاً - ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح - : ألسنا على الحق ؟ علام نعطي الدنيا^(١) في ديننا ؟ ويرد عليه أبو بكر - رضي الله عنه - : استمسك بفقره^(٢) يا عمر ، إنه رسول الله^(٣).

أي : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله ﷺ ، وليس في ذلك انصياع أعمى ؛ بل هي طاعة عن بصيرة مؤمنة.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

والغافل : هو الذي لا يعلم - لا عن جهل ، أو قصور عقل - ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله.

(١) الدنيا. الخصلة المذمومة. ورجل نبي من قوم أنبياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة: دنأ] باختصار .

(٢) الغرز ركاب الرجل ، وكل ما كان مساكاً للرجلين في المركب غرز . والغرز للذاقة مثل الحزام للغرس ، ومثل المركاب لليفل . ومنه حديث أبي بكر أنه قال لعمر : « استمسك بفقره » أي : اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وقطعه ولا تخالفه ، فاستعان له للغرز كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيوره. [لسان العرب - مادة : غرز].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٤ - ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهري وحرمان ابن الحكم وتمامه « أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أو ليس برسول الله؟ أو لستنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه حيث كان» الحديث.

أو : أن يكون المقصود بقوله:

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنك يا محمد لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف ؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى معلم يروى لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك.

بل أنت لم تتلقَّ الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : أسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر^(١) ؟

وكان ضرباً^(٢) من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالى بكل تفاصيل القصة ، كدليل عملى على أن معلم محمد ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو من أوحى بها إليه .

والوحي - كما نعلم - هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحى للملائكة فيقول :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾

[الأنفال]

(١) ذكره القرطبي في تفسيره من قول الشحاس (٢٤٤٠ / ٤) : « يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ ومن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما في التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم » .

(٢) الضرب : الصنف من الأشياء ، ويقال : هذا من ضرب ذلك أى من نحوه وصنّفه ، والجمع : ضروب ، وضرب الله مثلاً أى وصف وبين - وقولهم : ضرب له المثل بكنا - إنما معناه بين له ضرباً من الأمثال أى صنفاً منها ، [لسان العرب - مادة : ضرب] .

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من البشر إلى صفوتهم :
مصدقا لقوله سبحانه :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ^(١) أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(٢)﴾ [المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دفعاً له ،
مثل الوحي لام موسى بأن تلقى طفله الرضيع موسى في اليم^(٣) :
﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى^(٤) (٢٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ^(٥) فَاقْذِفِيهِ فِي
الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ^(٦) يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي
وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي^(٧) (٢٩)﴾ [طه]

ويوحى سبحانه إلى الأرض وهي الجماد ، مثل قوله الحق :

﴿بِأَن رَّبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

(١) الحواريون جمع حواري . وهو : الخالص النقي من كل شيء . وشاع استعماله في
الخلاص والاصفياء للأنبياء . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ .. ﴾ (٢٦) [آل
عمران] ، [القاموس القويم : ١٧٧/١] .

(٢) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ﴾ (٢٢) [الأعراف] ، وهو
خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ .. ﴾ (٢٨) [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم : ٣٧٧/٢] .

(٣) التابوت : الصندوق . قال تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ .. ﴾ (٢٤) [البقرة] والتابوت أيضاً : الأضلاع
وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما ، تشبيهاً بالصندوق الذي يُخزَّن فيه المتاع . [القاموس
القويم : ٩٦/١] ، [لسان العرب - مادة : ثبت] .

(٤) ساحله : شوره ونحته . والرياح تسحل الأرض : تكشف ما عليها من تراب . والساحل :
شاطيء النهر : لأن الموج ياكل منها وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٢٩) ﴾ [طه] اي : بشاطيء
النهر . [القاموس القويم : ٣٠٦/١] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ^(١)﴾ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا^(٢)﴾ .. (٦٩) ﴿[النحل]

والحق سبحانه يوحى لمن شاء بما شاء ، فالكل : جماد ونبات وحيوان وإنسان : من خلقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بـسرٍّ خلقه لهم ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا^(٣) وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

(١) عرش البيت : سقفه . قال تعالى : ﴿فَكَانَ مِن قُرْبَةٍ اٰمَنَّا وَهِيَ غَٰلِيَةٌ لِّهِيَ خَٰوِبَةٌ عَلٰى عُرُوشِهَا﴾ (٤٥) [الحج] . [لسان العرب - مادة : عرش] .

(٢) ذل : لان وانقاد من غير قهر بعد تصعب ، فهو ذلول وجمعه ذلل . وهذه مطايا ذلل او طرق ذلل : سهلة ممهدة . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ ذَلُولًا فَاسْجُدُوا لِحٰكِمِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهٖ وَيٰٓاَيُّهَا الشُّرُوْٓءُ ﴿٤٥﴾﴾ [الملك] ، وقوله : ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ .. (٦٩) [النحل] أى : ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم : ٢٤٥/١ باختصار] .

(٣) قال القرطبي فى تفسيره (٢/٤١١) : « سئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيماً - عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة المزن . والأسيف العبد ، وقد اجتمعا فى يوسف : فلذلك سُمى يوسف » .

(٤) الكوكب : فى تفسير القرآن يشمل الكوكب البارد التابع المستمد نوره من غيره ، ويشمل النجم الملتهب كانه كرة كبيرة من النيران ، قال تعالى : ﴿ كَانَهَا كَوْكَبًا دُرِّيًّا ﴾ (٤٥) [التور] أى : نجم ساطع الضياء ، [القاموس القويم : ١٧٧/٢ باختصار] .

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لآبيه يعقوب عليهما السلام « يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات « أبى » و « أبت » و « أبتأ » و « أبة » وكلها تؤدى معنى الأبوة ، وإن كان لكل منها مَلْحَظ لغوى .

ويستمر يوسف فى قوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٤)

[يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ فى وقت ظهوره ؛ لكن حُلْم يوسف يُبَيِّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة فى السماء ألافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى ؛ وأنه قام بعدّهم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبين أنه رآهم شمساً وقمرًا وأحد عشر كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى ترى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بعلامح الخضوع لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ (٤) [يوسف]

وهى جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان

المقرد عاقلًا ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين ، وأسمى ما في الخضوع للدين هو السجود لله .

وَمَنْ سَجَدُوا لِيُوسُفَ إِنَّمَا سَجَدُوا بِأَمْرِ مِنْ اللَّهِ ، فَهُمْ إِذَنْ يَعْقِلُونَ أَمْرَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ^(١) .

مثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذِنَتْ ^(٢) لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(٣) ﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربها الذي بَنَاهَا .

وَقَالَ عَنْهَا أَنهَا بِلَا قُرُوجٍ ^(٤) :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٤٤٣) : « القول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عن من يعقل » .
ويؤخذ من مفهوم خواطر الإمام أن الآية بيّنت منزلة يوسف بين الأسيرة ، ومنزلته عند ربه وأنه في نهاية المطاف سيُعرفون بفضلِهِ وعظمتِهِ ، وهذا دليل الانتصار بعد الحصار .
ولتعلم أن الرقيا العنصرية لها قناتين تختلف عن الرقبة البصرية . وأن رمزيات الرقيا العنصرية فيها من الأسرار ما يعطي المطلوب ؛ لأنها تحمل إشارات توضيحية للمراد منها مثل رُقيا يوسف في حالة سجدتهم له ، وأنه رأى الجميع في وقت واحد مع حذف الزمن المنوط بهما .

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته : استمع إليه بأذنه وانصت معجباً به مُحبباً له ، وقُسر بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(١) ﴾ [الانشقاق] أي : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم : ١/١٦ باختصار] .

(٣) القروج : جمع قرج ، وهو الخلل بين الشيئين . والفرج : الشق . قال تعالى في وصف السماء : ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ قُرُوجٍ ^(١) ﴾ [ق] أي : شقوق فهي متعاسكة لا خلل فيها ولكنها يوم القيامة تتشقق . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ^(٢) ﴾ [المرسلات] . [القاموس القويم :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق]

وهي أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الانشاق]

أي : أنها امتلكت حاسة السمع ؛ لأن «أذنت» من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تتفعل وتنشئ^(١) .

وهكذا نجد أن كل عالم من عوالم الكون أمم مثل أمة البشر^(٢) ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممن يشتركون معه في اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مترجم ، أو من خلال تعلم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النباتات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبيد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويشكل تسبيحه مع تسبيحها «جوقة»^(٣) من الانسجام مكوّن من إنسان مُسَبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُرْدّد للتسبيح هي الجبال ، وهي من الجماد أدنى الكائنات .

(١) ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَادِيَاكُمْ أَنْ تَخْرُجَا قَالَتَا إِنَّا طَائِعَتَاكَ﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ۚ﴾ [الأنعام] .
(٣) الجَوْقة في اللغة : كل خليط من الرعاء أمرهم واحد . وقال الليث : الجوق كل قطع من الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً : الجماعة من الناس . [لسان العرب - مادة : جوق] .

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسَبِّحُ ، لكننا لا نفقه تسبيحها^(١) ،
ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعَلِّمُهُ مَنطِقَ الكائنات
الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾

[النمل]

وهكذا عَلَّمْنَا أن للطير منطقاً . وَعَلَّمَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ سليمان لغة
النمل : لَانْنَا نَقْرَأُ قَوْلَ الْحَقِّ :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ^(٢) سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي^(٣) أَنْ أَشْكُرَ بِعَمَلِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾

[النمل]

إِذَنْ : فَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ لُغَةٌ ، وَهِيَ تَفْهَمُ عَنْ خَالِقِهَا ، أَوْ مَنْ
أَرَادَ لَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَفْهَمَ عَنْهَا ، وَبِهَذَا نَعْلَمُ أَنَّ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ حِينَ سَجَدَتْ بِأَمْرِ رَبِّهَا لِيُوسُفَ فِي رُؤْيَاهُ : إِنَّمَا
فَهَمَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا .

(١) قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمِنْ مَّنْ شِئَاءِ إِلَّا يُخَبِّرُ بِعَمَلِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غَفُورًا
(١١)﴾ [الإسراء] .

(٢) حَطَمَهُ يَحْطِمُهُ : كَسَرَهُ بِمَنْفٍ ، رَاحِلِ الْعِظَمِ : كَسَرَ الشَّيْءَ الْجَائِفَ ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ أَيِّ كَسَرٍ ،
قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٨)﴾ [النمل] . وَالْحَطَمُ : مَا تَكْسَرُ مِنْ
الْيَاسِ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (١٥)﴾ [الواقعة] .

(٣) ارْزُقْهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا : نَفَعَهُ وَحَثَّهُ وَأَغْرَاهُ ، أَوْ أَلْهَمَهُ وَارْشَدَهُ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْ
أَشْكُرَ بِعَمَلِكَ .. (١٩)﴾ [النمل] أَيْ : أَلْهَمْنِي شُكْرَكَ وَادْعُنِي إِلَيْهِ وَحُبِّهِ إِلَى [الْقَامُوسِ الْقَرِيبِ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَبْنَىٰ لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ وهو خطابٌ تحنّين ، ويدل على القرب من القلب^(١) ، و « بَنِي » تصغير « ابن » .
أما حين يأتي القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابني » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود]

وكلمة « يا بني » بما فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتي من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بني » يفهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلك بالحنان على الفرع ، وفي نفس الوقت نجد أيُّ أب يقول : مَنْ يَأْكُلْ لِقَمَتِي عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَتِي .

(١) كما فلاناً يكيده كثيراً : خدعه ومكر به واحتال لإسحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الرسالة التي يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ١٨٠/٢] .

(٢) ورد هذا الخطاب في القرآن ٦ مرات في سورة هود ويوسف وقصص في ثلاث آيات والصفات ،

ولنعلم أن الكون وما فيه ومن فيه وظيقه أمام الله الطواعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بني ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفرع يوسف مما يُزعجه أو يُسئ إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل^(١)؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو - الأقدَر في نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ۖ ۝٥٠ ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والتجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هي « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤي ؛ فرؤيتك وأنت يقظان يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتَّفَق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهي تأتي للنائم .

وهكذا تجد الالتقاء في « رأى » والاختلاف في الحالة ؛ هل هي حالة النوم أو حالة اليقظة . وفي الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

(١) الأمر المعضل : الصعب الشديد الضيق . عضل عليه في أمره شعضيلاً : ضيق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلماً . وعضل بهم المكان : ضاق . وعضكت الأرض بأهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب - مادة : عضل] .

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة »^(١) .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة « التاء » وهي عمدة التانيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التانيث .

ولا يقدر^(٢) في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن ، حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ^(٣) به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً^(٤) لِلنَّاسِ .. ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ، ولكنه حدث في الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها « فتنة للناس » .

(١) علامات التانيث اللغوية ثلاث هي :

- تاء التانيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للترقية بين المذكر والمؤنث لأنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مريض ، ثيب .

- ألف التانيث المقصورة : وهي ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .

- ألف التانيث الممدودة : وهي مقطع مكون من همزة تسبقها ألف من مفتوح ما قبلها .

وهي تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء - راجع : القواعد الصرفية - الدكتور علي أبو المكارم - طبعة ١٩٧٩ من : ٦٢ - ٦٥ .

(٢) قدح - أُرِج - يقال - قدح الشيء في صدرى : أُرِج - وفي حديث علي كرم الله وجهه : يقدح الشك في قلبه بأول عارضة من شبهة . [لسان العرب - مادة : قدح] .

(٣) عُرِجَ - يفرج عرجاً : سعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع معارج ، قال تعالى : ﴿ وَمَعَارِجُ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف] أي : يركبونها ويسعدون فيها إلى أعلى . [القاموس القويم باختصار : ١٢/٢] .

(٤) قال الأزهري وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [انظر : لسان العرب - مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذبه أحد فيما قال ؛
 لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .
 وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ۖ ۝٥ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كآب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة
 يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو
 سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلّه عليه^(١) .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الاغيار البشرية يحسدون
 أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها
 الشمس والقمر واحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بدُّ أن يعقوب عليه السلام قد عَلمَ تأويل الرؤيا ؛ وأنها نبوءة
 لأحداث سوف تقع ؛ ولا بدُّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة
 إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لفهموا
 المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيئداً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله
 بضيقهم إن عَلموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم مع
 الإخوة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢/٤٤٧) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير
 شقيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط^(١) ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب علو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التي تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسليقة^(٢) ؛ لأن الشرير بالسليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيرُ فتتنزلُ عنده حوادثُ السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب في أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخد ؛ لكنه بعد قليل يفكر في تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يزيد العدوان بأن يصوب عليه مسدساً ؛ وهكذا يصعد الشرير تفكيره الإجرامى .

أما الخير فهو قد يفكر في ضرب إنسان أساء إليه « علقه » ؛ لكنه يُقلل من التفكير في رد الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير في ضربه صفعتين بدلاً من « العلقه » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عمن أساء إليه .

وإخوة يوسف - وهم الأسباط^(٣) - بدعوا في التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

(١) الأسباط : جمع سبط - والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها أغصان كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المنقومة من أصل واحد . والأسباط : هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر . ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ الَّتِي عُثِرَ أَسْبَاطُ آبَاءِ ﴾ [الأعراف] [٣٠٠/١] .

(١) السليقة : الطبيعة والسجية . وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلم . وقيل : بالسليقة ، أى : بطبعه الذي نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب - مادة : سلق] .

(٢) ذكرت كلمة الأسباط في القرآن ٥ مرات عنها ٤ مرات يعنى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبائل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذلك .

[يوسف]

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. ﴾ (٩)

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المؤلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ ^(١) أَرْضًا يَخُلُ ^(٢) لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (١٠) [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؟ واستبدلوا ذلك بإلقائه في الجُب ^(٣) لعل أن يلتقطه بعض السيَّارة ^(٤) . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ^(٥) الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ﴾ (١١) [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزَّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا في نجاته .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها يقول الحق سبحانه :

(١) طرح الشيء يطرحه طرحاً ، نبذه وألقاه ، قال تعالى : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (١٠) [يوسف]
 أي : ألقوه في أرض بعيدة . [القاموس القويم ٢٩٩/١] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخُلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ [يوسف] أي : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

(٣) الجب : البئر التي لم تُبَنّ بالحجارة ، قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّةٌ الجوف إذا كان وسطها أوسع شيء منها مُفْتِيَةً . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . [لسان العرب - مادة : جبيب] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيَّارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيَّارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ رَجَاءُ سَيَّارَةٍ .. ﴾ [يوسف] أي : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَتَاعُكُمْ وَالسَّيَّارَةِ .. ﴾ [المائدة] للمسافرين [القاموس القويم ٢٤٠/١] .

(٥) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ٦٤/٢ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا... ﴾ (٥) [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابته ، ولا يكيد إلا الضعيف : لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقال : إن كيد النساء عظيم ! لأن ضعفهن أعظم .
ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٥) [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذي قبل الله توبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لِيُفْوِيَنَ الْكُلَّ ، واستثنى عبادة الله المخلصين^(١) .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعاننى الله على شيطانى فأسلم »^(٢) .
ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوة مُبِينَةٌ^(٣) .
أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة :

﴿ لَا تَتَّبِعِهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

﴾ (١٧) . [الأعراف]

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿ فَبِمَنْزِلِكَ أَغْوَيْتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢١) إلى عبادك منهم الْمُخْلَصِينَ (٢٢) [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٥/١) .

(٣) بأن الشيء بيمين بياناً : ظهر واتضح فهو بين وهو بينة أى . ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين واليمين بمعنى العظم والظهور والمرضخ والموضحة ، وبالمعنيين يُقَسَّرُ . وبين الشيء وإبان وبين واستبان : لم يُعَدَّ خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٧٨) [البقرة] . [القاموس القريم ٩١/١ ، ٩٢ ، بتصرف] .

ولم يَأْتِ ذِكْرُ الْمَجِيءِ مِنَ الْفُوقِيَّةِ أَوْ مِنَ التَّحْتِيَّةِ ؛ لِأَن مَنُ يَحْيَا
فِي عِبَادِيَّةِ تَحْتِيَّةٍ ؛ وَعِبَادِيَّةِ فُوقِيَّةٍ ؛ لَا يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ أَبَدًا .

ونلاحظ أَن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً
يوسف عليه السلام في هذه الآية :

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. (٥٠)﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضَح^(١) نبوة يعقوب عليه السلام
على لسانه ؛ لِأَن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعنى
أَن الشرَّ المستور الذى يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى .

أما ﴿فَيَكِيدُوا^(٢) لَكَ .. (٥٠)﴾ [يوسف]

فتعنى أَن كيدهم الذى أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ،
ويأتى بالخير لك .

ولذلك تجد قوله الحق في موقع آخر بنفس السورة :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أى : كِدْنَا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) أصل النضح : الرشح . يقال : نضح الرجل يألحق نضجاً : فضَّ به . ونضحت العين :
غارت بالدمع وعيناه تنضجان ونضحت الخافية والجرة تنضح : إذا كانت رقيقة فخرج الماء
من الخرف وورشت . [لسان العرب - مادة . نضح . بتصرف] .

(٢) كاد قلائد يكيد كيداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد مصدر ويُطلق
على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم

﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(١)
 وَيُمِيزُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ
 مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

أى : كما أتسك الله بهذه الرؤيا المفرحة المنبئة بأنه سيكون
 لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتدبك
 ربك : لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ،
 ويُعلمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحاب الجاه والنفوذ يلتفتون
 إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن
 الرؤى تأتي كطلاسم ، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلها إلا مَنْ وهبه
 الله قدرة على ذلك ؛ فهي ليست علماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات
 من الله سبحانه وتعالى .

(١) اجتنى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه . قال تعالى : ﴿يُخَيِّرُ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ
 مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى) [أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلقه .] القاموس القويم
 . [٩١٧/١]

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث . والأحاديث جمع أحديث . وهو الحديث العجيب .
 والحديث قد يُطلق على الرؤى والأحلام . قال تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ . (١)
 [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ . (٢) [المؤمنون] فهو كناية عن الموت
 والهلاك . أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدث الناس عنهم . [القاموس القويم
 . [٩٤٥/١]

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجذب^(١) ، ويعم المنطقة كلها ، وتصيب عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

فكل ما تَسْتَح به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتياه رسولا .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففي حياة يوسف منصب مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أخراك^(٢) .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى آلٍ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦)

يُذكر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوّله إلى عداوة ؛ لأن النعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم آل يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حَقْدَة يعقوب ، وسينالهم بعض من عزّ

(١) الجذب : القحط وهو تقيض الخصب ، والأرض الجدية : التي ليس بها قليل ولا كثير ولا مَرْتَع ولا كلا ، والأرض المجداب : التي لا تكاد تُشعب . [لسان العرب - مادة : جذب] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٥٠) : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ [يوسف] أي : بالنبرة ، وقيل بإخراج إخوتك إليك ، وقيل : بإتجارك من كل مكروه .

يوسف وجاهه وماله ، كما أتمها من قبل على إبراهيم الجد الأول
ليوسف باتخاذ خليلاً^(١) الله ، وأتم سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة .
وهو سبحانه أعلم بمن يستحق حمل الرسالة ، وهو الحكيم
الذي لا يترك شيئاً للعيث ؛ فهو المُقَدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً
للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ (٧)

أى : أن يوسف صار ظَرْفًا للأحداث ، لأن « فى » تدل على
الظرفية^(٢) ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظرف فيه شيء آخر ،
فكان يوسف صار ظَرْفًا ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين
فيها .

و « يوسف » اسم أعجمي ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف »
أى : ممنوع من التثنية فلا نقول : فى يوسف .

و ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ (٧) [يوسف]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يلفت لقدرة الله سبحانه ؛ فقد ألقى
فى الجُبِّ وأنقذ ليتربى فى أرقى بيوت مصر :

(١) قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٢٣٩) [النساء] ، وسُمِّي إبراهيم عليه السلام خليل
الله لشدة محبته لربه من أجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها ، [ابن كثير
٥٦٠/١] .

(٢) قال ابن هشام الأنصارى فى معنى اللبيب (١/١٤٤) . « فى » : حرف جر له عشرة معان
منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية . وقد استعنا فى قوله تعالى : ﴿وَالَمْ يَكُنْ
الرُّومُ﴾ (٢) فى أدنى الأرض وهم من بعد غلهم سيئون (٣) فى بعض مابين .. (٤) [الروم] .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهي
تُرد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات
الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛
فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية ؛ لا بدُّ أن تفكر في
ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هي المعجزات الخارقة للنواميس التي يأتي
بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التي صارت
برداً^(١) وسلاماً على إبراهيم ، ومثل السماء الذي انقلب وصار كالطود^(٢)
العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن
الكريم .

وفي قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (٧)

[يوسف]

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا خَرُّواْ وَانصُرُواْ إِلَهُكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٢٨) قلنا يا قارئ كوفي برداً
وسلاماً على إبراهيم (٢٩) ﴿ [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : نقيض الحرارة . قال علي
ابن أبي طالب : أي لا تضرب به . قال ابن عباس وأبو العالية : قولا أن الله عز وجل قال :
﴿ وسلاماً ﴾ [الأنبياء] لأذى إبراهيم بردهما . وقال جويبر عن الضحاك : ﴿ كُوفِي برداً
وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء] قالوا : ضعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار
من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أضعدوا الله ، [انظر تفسير ابن كثير
١٨١/٢] -

(٢) الطود : الجبل الشايت العالي . قال تعالى : ﴿ فَاَنْطَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَارٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٧)
[الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذي كاد له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كيدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سكرى^(١) لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم في نفيه إلى الشام . ومحاولتهم قتله ، ومحاولتهم مقاطعة ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون في ظلال كنفه .

إذن : فلا تياس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته . ولا تستبطئ نصر الله . أنت ومن معك ، كما جاء في القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ^(٢) وَالضُّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد الظهر الذي أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التي رآها يوسف عليه السلام .

ويقال : إن رؤيا يوسف تحققت في فترة زمنية تتراوح بين

(١) سألني من عمى تسلية وإسلامي أي كشفه عني . وانسلى عني النهم وتسلنى بمعنى آى : انكشف . [لسان العرب - مادة : سلا] .

(٢) البساء : الفقر والشدة ، قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبِاسَاءِ وَالضُّرَّامِ ۝ (١٥٧) ﴾ [البقرة] في وقت الفقر والحاجة . والضراء : طرل العرض أو أى شدة أو نقص الاموال والانس ، وذلك مؤلم محزن وهو ضد السراء . [القاموس القويم ٥٣/١ ، ٢٩٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً^(١) .

ولذلك نجد رؤيا الخير يطول أمدُ تصديقها ؛ ورؤيا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهي ، لأنها لو ظلت دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسةً تخيل الشر بكل صورته.

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله متخيلاً لما سوف يأتيك من الخير بالوان وتأويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ^(٢) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ^(٣) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

- (١) . قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه . . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٩١) .
- (٢) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو فحاه وأزاله . وطمس عينه : أعمىها . وطمس طلى بيته : أعماه . مضممة معني طلى وششى عليها ؛ قال تعالى : ﴿ وَاتَّوَشَّاءَ لَطَمَسًا عَلَى أَعْيُنِهِمْ .. ﴾ [١١٣] [يس] . (القاموس القويم ١ / ٤٠٦ باختصار) .
- (٣) شدّه : قواه . وشد الحبل : ربطه ربطاً مُحْكَمًا . وشد أسره : قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يقلت منه أبداً ، أى : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَخَذَدْنَا أَرْبَعَهُمْ .. ﴾ [١٢٥] [الإنسان] أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرتنا عليهم . وقوله : ﴿ وَخَذَدْنَا مُنْكَ .. ﴾ [١] [ص] أى : قويناه . [القاموس القويم ١ / ٢٤٣ ، ٢٤٤ بتصريف] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسْتَغْنِينَ (٧)﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان في يوسف وإخوته آية للمستغنيين »
أى : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن مثلاً على جمع الأكثر من آية في
آية واحدة ، مثلما قال : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً^(١)... (٥٠)﴾ [المؤمنون]
مع أن كلا منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل
اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه في آخر هذه الآية أن القصة : ﴿آيَاتٌ
لِّلْمُسْتَغْنِينَ (٧)﴾ [يوسف]

والمستغنون هنا إما من المشركين الذين حرّضهم اليهود^(٢) على أن

(١) أى : أنه سبحانه جعلهما آية للناس ، أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق
انسان من غير أب ولا أم ، وخلق جوارح من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ،
وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية (٢/٢٤٦) .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٤/٢٤٥٠) : دأب : لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية
فيما خبروا به ، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبره عن رجل من الأنبياء كان
بالشام أخرج ابنه إلى مصر ، فبيكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل
الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجّه اليهود من المدينة يسألون عن هذا - فأنزل
الله عز وجل سورة يوسف - جملة واحدة . فيها كل ما فى الثوراة من خبر وزيادة ،
فكان ذلك آية للنبي ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الموت .

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العبر من الأمم السابقة ، وجاء الوحي لينزل على الرسول الأُمي ب تلك السورة بالأداء الرفيع المعجز الذي لا يقوى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة ؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة . هات أنت أي إنسان ليتكلم ثلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله ؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك ؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾ [الأعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أنزل إليه من ربه ، ويمليه على صحابته ويصلى بهم ؛ ويقرأ في الصلاة ما أنزل عليه ، ورغم أن في القرآن آيات متشابهات ؛ إلا أنه ﷺ لم يخطئ مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [القمان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٢) ﴾ [الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

(١) عزم الامر : من المجاز أي نفذ بعزيمة قوية من صاحبه . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورَ (١١) ﴾ [ممد] فعل لازم أي : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ (٣٧) ﴾ [البقرة] أي : عقدوا النية على إتمامه . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٨) ﴾ [آل عمران] أي : من الأمور الجادة الرشيدة التي لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التي يفعلها أصحاب العزم القوي . [القاموس القويم ٢٠ / ٢] .

[الحجر]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ﴾ (٤٥)

وفى موقع آخر يقول الحق :

[الطور]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (١٧)

فكيف يتأتى لبشر أمي أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذى أنزل عليه الوحي قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ ۖ﴾^(١)
 إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٢)

ولا بد لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها : فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً : وقد تكون من ناحية الأب دون الأم ، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثناً^(٣)

(١) الغصبة : الجماعة المترابطة ، قال تعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿وَنَحْنُ غُصْبَةٌ﴾ (٤٥) [يوسف] ، غصبه . ربطه ربطاً شديداً ، وقوله : ﴿هَذَا يَوْمُ غُصْبٍ﴾ (٤٥) [هود] أى : شديد الغضب يعصب الناس ويُضيق عليهم أو شديد الحر ، شديد الهول . [القاموس للقيوم ٢٢/٢] .

(٢) الضلال : النسيان والضياع ، وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأولى كقوله فى قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٥) [يوسف] أى : شدة تعلقك بيوسف وحزنت عليه فهو فى ظلمهم ضلال . [القاموس للقيوم : ٢٦٥/١] .

(٣) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٥١/٤) : : أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم . وشمعون ولأوى ويهوذا وزبالون ويساخر ، وأسمهم ليا بنت لبيان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر : دان ونفثالى وجاد وأشر ، ثم تزوجت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل . فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً . قال السهيلي : لم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل عانت فى فلبس بنيامين . وقيل : فى اسم الأمتين ليا وثلتا ، كاشت إحداهما لراحيل والأخرى لأختها ليا .

عشر : سبعة من واحدة ؛ وأربعة من اثنتين : زلفى وبله : واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها :

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ... ﴾ (٨) [يوسف]

وحرف اللام الذى سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبِّه لنا . والتوكيد لا يأتى إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون فى أمر يوسف عليه السلام ؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه فى الجب^(١) ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفى قولهم أُمّحة من إنصاف ؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غفلة البشر ؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صِغَارًا وماتت أمهما^(٢) ؛ ولم يَعدْ لهم إلا الأب الذى أحسَّ بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صِغَارٌ نجد الأب يحنو عليهما بما أودعه الله فى قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخَلَ ليعقوب فيه ؛ بل هى مسألة إلهية أودعها الله

(١) الجيب : البئر التى لم تُبَنِّ بالحجارة . قال النليث : هى البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّية للجوف إذا كان وسطها أوسع شئ منها مُقَبَّية . [لسان العرب - مادة : جيب] .

(٢) ماتت أمهما راحيل فى نفاس بنيامين . ذكره القرطبي فى تفسيره .

فى القلوب بدون اختيار ؛ ويودعها سبحانه حتى فى قلوب
الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة ..
على سبيل المثال .. إن اقترب أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛
تهجم على هذا الذى اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربى القديم قد أجاب على مَنْ سألته « أى ابنائك
أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ،
والمريض حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها فى حياتنا اليومية ، فتجد امرأة لها ولدان ،
واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر
يعيش على الكفاف^(١) أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع
الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛
ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه
يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية^(٢) ؛ فأحب مَنْ شئتَ
وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم
مَنْ أبغضت .

(١) الكفاف : أى ليس لى نفقته فضل إنما عنده ما يكفه عن الناس . قال الجوهري : كفاف
الشئ بالفتح مثله وقِسْهُ . والكفاف أيضاً من الرزق : القوت وهو ما كفَّ عن الناس أى
أغنى فهو لا يفضل عن الشئ ويكون بقدر الحاجة إليه . [لسان العرب - مادة : كف] .

(٢) الطبع والطبيعة : الخليقة والسجية التى جبل عليها الإنسان . والطباع : كالطبيعة . مؤنثة
[لسان العرب - مادة : طبع] .

اقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(١)نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (٨)﴾ [المائدة]

فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ . ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

نقول : اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث ؛ فقد قال عمر رضي الله عنه - بوضوحه وصراحته وجراءته ؛ دون تفاسيق - : أحبك يا رسول الله عن مسالي وعن ولدي أما عن نفسي ؛ فلا . فكرر النبي ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ^(٢) .

(١) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم : آذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أي وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجُرم . قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(١)نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة] أي : لا يميلنكم بغض قوم على عدم العدل ، أي : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أي : اعدلوا دائماً للعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) شناه وشنته شناً وشناً وشناناً : أبغضه وكرهه قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(١)نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة] وشانیه : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ^(٢)﴾ [الكرثر] أي : ميفضك وكارهك . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

(٣) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال : والله يا رسول الله ، لانت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فانت الآن والله أحب إلي من نفسي . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر ، أخرجني أحمد في مسنده (٢٢٦/٤) » .

فقطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدي وتكليفى ؛
وفهم أن المطلوب هو حبُّ العقل ؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل - كما نعلم - هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما
تأخذ الدواء المرُّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبِّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن
يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجيء
رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى^(١) المسلم فى حبِّ
رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا
الخطوط الفاصلة بين مبادئ الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛
حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممن
يجلسون معه ؛ هذا قاتل أخيك . فقال عمر ؛ وماذا أفعل به وقد هداه
الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً ؛
لماذا تزوى وجهك عنى ؟ قال عمر ؛ لأننى لا أحبك ، فأنت قاتلُ
أخى . فقال الرجل ؛ أو يمنعنى عدم حبك لى من أى حق من
حقوقى ؟ قال عمر ؛ لا . فقال الرجل ؛ « لك أن تحب من تريد ،
وتكره من تريد ، ولا يبكى على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

(١) انسمو ؛ الارتفاع والعلو . سماء الشيء يسمو سماءً ؛ ارتفع . وتساموا ؛ تباروا .
وتساميها ؛ تباريها وتفاضلها . والتسامى ؛ الرُّقعة والارتفاع . [لسان العرب - مادة :
سما] يتمرف .

وأخيه هو انفعال طبيعي لا يُؤاخذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛
ولسائل أن يسأل : ولماذا انصب غضبهم على يوسف وحده ؟

ويقال : إنهم لم يرغبوا أن يفجعوا^(١) أباهم في الاثنين - يوسف وأخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ (٨) [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المتكاتفون المتعصبون لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوه ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمنا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يخصنا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبَةٌ ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عُصْبَةً مزيداً من الرعاية ، ولكنهم سددوا^(٢) في غيهم^(٣) ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم :

(١) الفجعة : الرزية الموجهة . فجعت المصيبة ؛ أوجعته . والفجاجع : المصائب المؤلمة التي تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم ، لتواحدة فلجعة ، [لسان العرب - مادة . فجع] .

(٢) السادر : المتحير ، وهو أيضاً الذي لا يهتم بشيء ولا يبالي ما صنع . [لسان العرب - مادة : سدر] .

(٣) الغي : الضلال والخسيرة . غوى : هلك . والغواية : الانهماك في الغي . والقوى : شديد الضلالة والغواية ، وأغواء : أضله وأوقعه في الغي والضلال ، [القاموس القويم ٦٤/٢] .

﴿ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) [يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تتسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا يُدُّ أن يعطف عليهم الأب ؛ وحبُّ لهما لم يتمتع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) [يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشى فيسلك طرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل مَنْ يتنسى شيئاً من الحق .

وسبحانه القائل :

﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .. ﴾ (٢٨٢) [البقرة]

وسبحاته القائل أيضاً :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٧) [الضحى]

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

ومكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حبِّ أبيهم ليوسف

وَأَخِيهِ ؛ وَوَصَلُوا إِلَى نَتِيجَةِ ضَارَّةٍ ؛ لِأَنَّ الْمَقْدَمَاتِ الَّتِي أَقَامُوا عَلَيْهَا تِلْكَ النَّتِيجَةُ كَانَتْ بَاطِلَةً ؛ وَلَوْ أَنَّهُمْ مَحْصُوا الْمَقْدَمَاتِ تَمَحِيصًا دَقِيقًا لَمَّا وَصَلُوا إِلَى النَّتِيجَةِ الْخَاطِئَةِ الَّتِي قَالُوهَا :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٨) ﴾ [يوسف]

وَيَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا جَاءَ عَلَى أَلْسِنَةِ إِخْوَةِ يُوسُفَ :

﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ (٩) ﴾

وَالْقَتْلُ هُوَ قَمْعَةٌ مَا فَكَّرُوا فِيهِ مِنْ شَرٍّ ؛ وَلَئِنْهُمْ مِنَ الْأَسْبَاطِ هَبِطَ الشَّرُّ إِلَى مَرْتَبَةِ أَقْلٍ ؛ فَقَالُوا : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ۝ (٩) ﴾ [يوسف]

فكَانَهُمْ خَافُوا مِنْ إِثْمِ الْقَتْلِ ؛ وَظَنُّوا بِذَلِكَ أَنَّهُمْ سَيَنْفَرِدُونَ بِحَبِّ آبِيهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ۝ (٩) ﴾ [يوسف]

وَالْوَجْهُ هُوَ الَّذِي تَتِمُّ بِهِ الْمُوَاجَهَةُ وَالِابْتِسَامُ وَالْحَنَانُ ، وَهُوَ مَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ الْأَنْفِعَالَاتُ .

وَالْمَقْصُودُ بِـ : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ۝ (٩) ﴾ [يوسف]

(١) طَرَحَ الشَّيْءَ وَطَرَحَ بِهِ : رَمَاهُ . وَالْمَرْحَ بِالتَّحْرِيكِ : الْبُعْدُ وَالْمَكَانُ الْبَعِيدُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ۝ (٩) ﴾ [يوسف] أَيْ : أَلْقُوهُ فِي أَرْضٍ بَعِيدَةٍ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١/٣٩٩] .

(٢) خَلَا فَلَانٌ إِلَى فَلَانٍ : فَرَّغَ لَهُ وَلَمْ يَشْتَغَلْ عَنْهُ بِغَيْرِهِ . قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ إِخْوَةِ يُوسُفَ : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ۝ (٩) ﴾ [يوسف] أَيْ : يَفْرِغْ لَكُمْ وَالْكُمْ وَيُتْبِعْهُ [لَكُمْ] بِكُلِّ عَنَابَتِهِ وَلَا يُشْتَغَلْ عَنْكُمْ بِأَمَدٍ شَبِيحَةٍ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١/٤٠٩] .

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أى : أنهم يُقدِّرون الصلاح : ويعرفون أن الذى فكَّروا فيه غيرُ مقبول بموازنِ الصلاح : لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر الموت قد أبهم حتى لا يرتكب أحدُ المعاصي والكبائر .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنقيص^(١) علاقتهم بأبيهم : فحين يخلو لهم وجهه : سيراتحون إلى أن آياهم سيفعل بينهم ، ويهبهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءاً من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً : فسيراتح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

(١) النقص : كدَّرَ العيش .. وقد نقص عليه عيشه تنقيصاً أى : كثره . ونقص علينا أى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الازدیاد منه فهو مُنْقَصٌ . [لسان العرب - مادة : نقص] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهٖ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ^(١)
يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ^(٢) إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ۝ ﴾

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرقض واحد منهم مبدأ القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القاتل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى ^(٣) ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتي الردم فيسدُّ البئر ؛ ولذلك يبنون حول فُوهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الردم ؛ ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه في البئر في حالة استتراق .

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستتر ما اختبأ فيه . قال تعالى : ﴿ وَالْقَوْهٖ لِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ۚ ۝ ﴾ [يوسف] وقرئ غيايات بالجمع . [القاموس القويم ٦٥/٢] وغيابة كل شيء : لغيره ، ووقعوا في غيابة عن الأرض ، أي : في منهيظ منها . [لسان العرب - مادة : غيب] .

(٢) السيار : الكثير السير - والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ۚ ۝ ﴾ [يوسف] ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۚ ۝ ﴾ [المائدة] أي : للمسافرين . [القاموس القويم ٢٤٠/٢] .

(٣) الطوى : البئر المطوية بالحجارة . يقال : طوى الركية طياً : عرشها بالحجارة والأجر . [لسان العرب - مادة : طوى] .

وكلمة : ﴿ غَيَابَةُ الْجَبِّ (١٠) ﴾ [يوسف]

أى : المنطقة المَخْفِيَّة فى البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ؛ وما فيها يكون غائياً عن العيون .

ولسائل أن يقول . وكيف يتأتى إلقاؤه فى مكان مَخْفِيٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ (١١) ﴾ [يوسف]

ونقول : إن فى مثل هذا القول تمييزاً لدرجة الشر التى كانت مُتَوَقَّدة فى اقتراح بعضهم بقتل يوسف ؛ وفى هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل^(١) لحالته العادية ، وصَحَّتْ فيه عاطفة الأخوة ؛ وقال :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٢) ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تَمَّتْ تصفية هذه المسألة ؛ فلم يقف صاحب هذا رأى بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرَحِه فى الأرض ؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب ؛ فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : « لا تقتلوا يوسف » .

وفى نُطْقِه للاسم تحنين لهم .

(١) قال القرطبيس فى تفسيره (٢٤٥٢/٤) : « القائل هو يهوذا » وهو أكبر ولد يعقوب. قاله

ابن عباس . وقيل : روبيل . وهو ابن خالته . وقيل : شمعون .

ويضيف :

﴿وَالْقُوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ^(١) بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝

[يوسف]

وكانه يامل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَكْصِبُونَ ۝

وبعد أن وافقوا أخاهم الذي خفف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء في الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم موجهًا الكلام لأبيه ، وفي حضور كل الإخوة :

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ .. ۝

[يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحدا منهم هو الذي قال ، وأمن الباقون على كلامه ؛ إما سكرتًا أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

(١) يلتقط الشيء ولقطه . أخذه ليصونه أو لغرض آخر . ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعاً ، قال تعالى : ﴿فَالْتَقِطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ .. ۝ (٤٥)﴾ [القصص] فأخذوه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ۝ (٤٦)﴾ [يوسف] يأخذه بعض المسافرين ليلتفتوا به وليصوغوه . [للقاموس القويم ١٩٨/٢] .

قال موسى عليه السلام :

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ^(١) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

ورد الحق سبحانه على دعاء موسى :

﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى آمن على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (٩١) ﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردت فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ،
هو واحد من إخوة يوسف ، وأمن بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (٩١) ﴾ [يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يوافقهم
الأب .

(١) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انتهى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو محاه وأزاله .
وطمس عينه : أعماه . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : ائزل
عليها ما يحويها ويهلكها . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٢) شد العيل : ربطه رباطاً محكماً وشد أسرته : قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ،
أى أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٩٨) ﴾ [الإنسان] . أى : أحكمتا وثاقهم
وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٩٩) ﴾ [ص] أى : قوينا . وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى
قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أحكم الغطاء واربطه بقوة على قلوبهم وهو دعاء عليهم .
[القاموس القويم ١/٣٤٤] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١)

[يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شر ؛
وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عرض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢)

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا
بعلة ليأذن لهم أبهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان
الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحِب ومسموح به ؛ لأنه ما زال
تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفَضَّلُ الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛
كان يتعلم الطفل السباحة ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى
الرمية^(١) وهكذا نفهم معنى اللعب ؛ إنه شُغْل لا يُلْهِى عن واجب ، أما
اللهو^(٢) فهو شُغْل يُلْهِى عن واجب .

(١) رتق يرتع : أكل وشرب كما يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستمر
للإنسان إذا أطلق لشبهات بطنه العنان . [القاموس القويم ٢٥٤/١] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « هو النسي » ينقر يرمون ، فقال : رمياً بنى
إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » أخرجه أحمد فى مسلم (٣٦٤/١) وأخرجه البخارى فى
صحيحه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بنحوه .

(٣) لها يلهو لهواً : تسلى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها . أو تسلى بما لا يفيد . قال
تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ ۚ ۝ (١٠) ﴾ [الجمعة] واللهو هنا : الفتاء والطيل
والزمر الذى كان يصاحب عودة التجار وقت الصلاة . [القاموس القويم ٣٠٥/٢] .

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يُؤدّن المؤذن ؛ يأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة في ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لصار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَبِخْرُنِّي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ
الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣)

وكلام الأب هنا لا بد أن يغيبهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يخاف فيها من فراق يوسف لقلة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهي :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

وقال بعض الناس^(١) : لقد علّمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلاحظ أن يعقوب جعل للاخوة لحظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤٧٠ / ٢) : « أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطي في « الدر المنثور » (٥٩٠ / ٤) : « آثاراً في هذا الشأن » ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفي في الطيوريات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقوا الناس فيكذبوا » ، فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوه كذبوا فقالوا أكله الذئب » .

وهذا لِيُرَبِّيَ فِيهِمْ مَوَاجِيدَ الْإِخْوَةِ الَّتِي تَفْتَرِضُ أَلَّا يَتَصَرَّفُوا مَعَ
أَخِيهِمْ بِشَرٍّ ؛ وَلَا أَنْ يَتَصَرَّفَ غَيْرُهُمْ مَعَهُ بِشَرٍّ إِلَّا إِذَا غَفَلُوا عَنْ
أَخِيهِمْ .

ونلاحظ في رُدُّهم عَجَزَهُمْ عَنْ أَنْ يَرُدُّوا عَلَى قَوْلِهِ :

﴿ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ .. ﴾ (١٢) [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على
يوسف ، وَرَدُّوا فَقَطْ عَلَى خَوْفِهِ مِنْ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ، وجاء القرآن بما
قالوه :

﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا
لَآخِسِرُونَ ﴾ (١٤)

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم : كي يأذن
في خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم
مُحِيطُونَ بِهِ كعُصْبَةٍ ، وأعلنوا أنه إِنْ حَدَثَ ذَلِكَ فَهُمْ سَيُخْسِرُونَ
كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لَا يَقْبَلُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ هَذَا
الْهَوَانَ ^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٦٢/٤) : « قوله ﴿ إِنَّا إِذَا لُخْسِرُونَ ﴾ [يوسف] أى : إنا
لنخسرون في حفظ أئماننا » أى : إنا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أمجز أن
ندفعه عن أئماننا » .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ فَنَسُوا مَا فِي الْأَرْحَامِ لِيُظْهِرَهُمْ آيَاتِي وَلِيُنذِرَ لِقَوْمِهِمْ رَبَّهُمْ إِنَّهُمْ فَكَّهُاءٌ ذَلِيلُونَ ﴾^(١)
﴿ إِلَيْهِ لَتُنْتَبِهَنَّكُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢)

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ .. ﴾^(٣) [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذت منهم مناقشة ، فيها أخذ ورد ، إلى أن استقروا عليها^(٤) .

والهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحى كما نعلم هو إعلام يخفاء .

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة فى مصر ودخلوا عليه أمسك بقدرح ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدرح : إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا^(٥) .

(١) جمع أمره : عزم عليه أو أحكمه . قال تعالى : ﴿ قُلْ لِيَرْغَبُنَّ فِيَّ مَنَافِعُكُمْ ثُمَّ أَنَّى ﴾ [طه] أى : عزم عليه وأحكمه . وأجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوْنَاهُ مِنْ قُدْرَةٍ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ .. ﴾^(٦) [يوسف] أى : اتفقوا . [القاموس القويم ١ / ١٢٧] .

(٢) ذكر القرطبي فى هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظونه . وسأله إلى دوبييل وقال : يا دوبييل إنه صغير وتعلم يا بنى شفتى عليه ، فإن جاع فاطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم سَجَل برده إلي . قال : فبأخذه يفعلونه على أكتافهم . لا يضعه واحد إلا رفعه آخر [انظر : تفسير القرطبي ٤ / ٢٤٦٢] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرضهم وهم له منكرون . جيء بالصواع فوضع على يده . ثم نقره فظنُّ فقال : إني أليخبرنى هذا الجاه أنه كان لكم أخ من أبيكم يُقال له يوسف ، يدين دينكم وأنكم أنظفتم به قافيتهم فى غيابة الجب . فانتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجاه ليخبركم خبركم » (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٦١)

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَلْحَظْ إخوته هذا الوحي .

ونقول : إن الوحي إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير الموحى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة فى مصر : بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم ؛ لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ^(١) أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ . . (٧٧)﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحي فى هذه الآية - التى نحن بصدد خواطرننا عنها - هو إيناس الوحشة ؛ وهو وارد إلهى لا يردده وارد الشيطان ؛ والإلهام وارد بالتسببة لمن هم غير أنبياء ؛ مثلما أوضحنا الأمر الذى حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه فى اليم^(٢) .

(١) يقصدون يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجنه أبى أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبيد الله بن أبى نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء - فيما بلغنى - أن عمته ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبائها ممن ولها كان له سلم لا يتأزر فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به وكه فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تأقت إليه نفس يعقوب فاتاهما فقال : يا أخية سلمى إليّ يوسف فو الله ما أقدر على أن يقب عني ساعة قالت : فو الله ما أنا بتاركتك ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسلينى عنه أن كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق لحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : فسدت منطقة إسحاق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتصمت ثم قالت : اكتشفوا أهل البيت فكتشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لى لسلم أصنع فيه ما شئت ، فاتاهما يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذلك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما استطيع غير ذلك . فامسكت فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، راجع تفسير ابن كثير ١٨٦/٢ .

(٢) يقول تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا أَنْ نَحْنِ^(١) أَنْ أَعْلَيْنَا فِي الثَّابُوتِ فَأَعْلَيْنَا فِي الْيَمِّ فَلَقَيْنَا الْيَمِّ بِالسَّاجِلِ . . (٧٧)﴾ [مكة] .

والوارد الإلهي لا يجد له معارضة في النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنسُ وحشته^(١) حين اللقاء إخوته في الجُب الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقتة لبلده التي درج^(٢) فيها وأنسه بالبيئة التي اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوَةً لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهم من الذي كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك - وهم إخوتك - سوف يُضطَّرون لدق بابك ذات يوم يطلبون عونك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُب الذي القوه فيه ، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ١٦

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداءً دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا آباهم ومكروا

(١) ومما ورد في هذا ما نقله القرطبي في تفسيره (٢٤٦٥/١) : « قل الضحك - نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهم عجل الله لك خروجك من هذا الجب » فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل تجوى ، ويا حاضر كل ملا ، ويا مفرج كل كرب ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، أيتنى بالفرج والرجاء ، واغثف رجاءك في قلبى حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددتها يوسف في ليلته مراراً ، فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الجب .

(٢) يقال للصبى إذا دبَّ وأخذ في الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبى يدرج فهو دارج : مشياً مشياً ضعيفاً ودباً . [لسان العرب - مادة : درج] .

بأخيهم ، وأخذوه بالقوة في الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ،
وكان ضنيناً^(١) أن ياتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبت ؛ فقالوا :
نؤخر اللقاء لأبيننا إلى العشاء ؛ والعشاء محلُّ الظلمة ، وهو ستر
للانفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة
كذب ألسنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث
مُخْتَلَق^(٢) .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتتكشف سيماهم
الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخفى للوجه من النهار ، وأستر
للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عشاء ؛ قلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الطرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَكُونُ ﴾ (١٦)

[يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى نظرى ؛ ليس للإنسان فيه مجال
اختيار ؛ ومن يريد أن يقتله فهو يتباكى ، بأن يقرُّك عينيه ، أو يأتى
ببعض ريقه ويقرِّبه من عينيه ، ولا يستتر ذلك إلا أن يكون الضوء

(١) ضننت بالشئ . أضن : بخلت به ، وهو ضنين به ، ورجل ضنين : بخيل . والضنة
والضن : الإمساك واليخل . وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَرُّ عَلَى النَّبِىِّ بَعِثِينَ ﴾ (٢١) [التكوير] فهو
لا يكتم غيباً عن رسول الله . بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء ، [راجع لسان
العرب ، والقلموس للزويم] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلفه وتخلقه واختلقه واقتراه : ابتدعه الاختلاق : الكذب ، وهو افتعال
من الخلق والإبداع كان الكاتب تخلق قوله . [لسان العرب - مادة : خلق]

خافنا : لذلك جاءوا اباهم عشاءً يُمَكِّنُونَ البكاء^(١) .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التي أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه : أعلمنا أنه سبحانه هو الذي يميت ويحيى ، وهو الذي يضحك ويبكى .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم]

ولا يوجد فرق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزي وآخر عربي ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صيني وآخر عربي أو فرنسي ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افعل الإنسان الضحك : فهو يتضحك ؛ وإذا ما افعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفعل الضحك أو البكاء . والذي يفصح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل في سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه : حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ لبيبايعوه ، ولم يبقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٦٦/١) : . قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء

المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك .

ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يطفى ، كما قال حكيم :

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى .

نفسه : وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقيـل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتـم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركـم ، فمن شاء فليذهب واطركوني » ^(١) .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فور أن دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكُتَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١٧)

صَادِقِينَ

كلمة : ﴿ نَسْتَقِيقُ .. ﴾ (١٧) [يوسف]

تعبر عن بيان تلوق ذات على ذات في حركة ما ؛ لنرى من

(١) ذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فعقد أنث له فإن القوم إنما يريدونني . هذا الليل قد غشيك فاتخذوه حجلاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في سيط الأرض في سواء هذا الليل إلى بلادكم ومداينكم فإن القوم إنما يريدونني ، فلو قد أصابوني لهوراً عن طلب غيري ، فاذهبوا حتى يلجج الله عز وجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا في الجري نحوه للوصول إليه . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ .. ﴾ (١٧) [يوسف] أي : نتباري في الجري والسبق . ﴿ وَاسْتَقْبَا الْآيَاتِ .. ﴾ (١٥) [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَقْبُوا الْغَيْرَاتِ .. ﴾ (البقرة) تباريا في الوصول إليها أو غلبتها قيل غيركم . [القاموس القويم ٢٠٢/١] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان فى الجرى ترى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق فى حركة بالة ؛ كأن يمسك إنسان ببندقية ويصوبها إلى الهدف ؛ ويأتى آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومَنْ يسبق منهما فى إصابة الهدف يكون هو المتفوق فى هذا المجال .

وقد يكون الاستباق فى الرمى بالسهم ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْنٍ مَرْنٍ ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومثبت عليه وتر ، ويوضع السهم فى منتصف الوتر ، ليشده الرامى فينتقل السهم إلى الهدف .

وتُقاس دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمى ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف» .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التى يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامى .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لعبة لا تُلْهِيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يجد من أمور ؛ فإذا التقى بعدد نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب^(١) الذى لا ينهى عن طاعة ، وينفع وقت الجِد هو لعب حلال .

(١) اللعب قد يكون مضموناً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يلهى الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، والله لا يكون إلا مذكوماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عدوان : وبينهما قبيلة موقوتة : ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلهى لعب الكرة عن واجب : فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يراعوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وابناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ^(١١) .. ﴾ (١٧)

[يوسف]

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذي أذن بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسَلْنَاهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ .. ﴾ (١٢)

[يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١)

[يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢)

[يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ، وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتبارهما مصدرًا ويجمع على امتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ أَبْطَأَ حَيْةُ أَوْ مَتَاعٍ .. ﴾ (١٧) [الرعد] أي . وصنع أشياء ينتفع بها . وقال تعالى : ﴿ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلَبُونَ عَنْ أَسْلِحِكُمْ وَأَمِينِكُمْ .. ﴾ (١٢) [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأبوات للحرب ومال ونحو ذلك . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٥] .

وهذا أول الكذب الذي كذبوه ؛ وهذه أول مخالفة لشروط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن «المريب يكاد يقول خذوني » نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١٧) [يوسف]

أو : أنهم قالوا ذلك لأنهم يعلمون أن والدهم لن يُصدقهم مهما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل « آمنه الله من الجوع » ، أو قوله الحق :

﴿ وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) [فريش]

أو : تجيء بالباء ، ويُقال « آمن به » أي : صدَّق واعتقد .

أو : يُقال « آمن له » أي : صدَّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتَحَدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبيهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ۚ

عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١) القميص : ما يحيط بالبدن وقد يُسمَّى شعارًا وما فوقه دثار ، وقد يُسمَّى كل ثوب قميصًا . والجمع قمصاة وقمصى وقمصان . [التلخيص للقرآن ١٣٢/٢] .

(٢) « قال مجاهد . كان دم سخلة أو جدى تبهوه . وقال قتادة : كان دم ظبية ، أي : جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه . وقرأ الحسن وعائشة : « بدم كذب » بالدال غير المعجمة ، أي : دم ظري . وحكى أنه المتغير ، قاله الشعبي » (تفسير القرطبي ٣٤٧١/٤) .

(٣) سولت نفسه له أمرًا : زينت له ليفعله . وسول له الشيطان : اغراه . والتسويل : تحسين الشيء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . [لسان العرب - مادة : سول] .

كَانَ قَمِيصَ يَوْسُفَ كَانَ مَعَهُمْ ، وَيُقَالُ : إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَّقَ عَلَى
مَجِيءِ الْقَمِيصِ وَعَلَيْهِ الدَّمُ الْكَذِبَ بِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ رَحِيمًا ، فَأَكَلَ لَحْمَ
يُوسُفَ وَلَمْ يُمَزَّقْ قَمِيصُهُ ؛ وَكَأَنَّهُ قَدْ عَرَفَ أَنَّ هُنَاكَ مُؤَامَرَةً
سَيَكْشِفُهَا اللَّهُ لَهُ ^(١) .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفي أواسط السورة ^(٢) تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شقَّ
من دُبُرٍ لحظة أن جذبته امرأة العزيز لتراوده ^(٣) عن نفسه .

وفي آخر السورة ^(٤) يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد
بصره .

ولهذا أخذ العلماء والادباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء :
والمثل هو قول الناس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية

(١) نقل الفرطبي في تفسيره (٢٤٢١/٤) ، أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم
يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذنب حكيماً
يأكل يوسف ولا يخرق للقميص . قاله ابن عباس وغيره .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْفَتِي عَنْ نَفْسِي رَشِيدٌ شَهِدُ مِنْ أَعْلَيْهَا إِنَّ كَانَ قَمِيصٌ فَلَنْ مِنْ قَبْلِ
فَصَدَّقَتْ وَهِيَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصٌ فَلَنْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهِيَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٧) [يوسف] .

(٣) وأورد على الشيء : مرادة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَوْدَتْهُ
الْبَىٰ هُوَ لِي بَيْنَهَا عَنِ نَفْسِي .. ﴾ (٢٦) [يوسف] أي : طلبت منه نفسه في محاولة ومخادعة .
[القاموس القويم ٢٨١/٦ بتصريف] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ
عَلَىٰ رُجُلِي يَأْتِ بِغَيْرٍ .. ﴾ (٢٧) [يوسف] .

رضى الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من على ، فقليل «قميص عثمان» رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ^(١) .. (١٨) ﴾ [يوسف]

وكان القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب من جاء بدم الشاة ووضعوه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصدري للمبالغة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عدل » أى : كان العدل تجسّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شر » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يُوصَفَ الدم بأنه دم صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزّق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

(١) هنا أسلوب الإعجاز البلاغى . وفيه إشارة إلى قضية ملققة .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكن أنيابه قد مزقت القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم : أشار أحدهم خفية للباقيين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوج لقميصه من دمه ^(١) ؛ وهذا ما تفرقه كتب السير .

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة ^(٢) التي يتحلى بها أي محقق في قضية قتل ؛ حين يُقَبِّب أسننته للمتهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » ^(٣) .

ويأتي هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (٦٨) ﴾

[يوسف]

« والسَّوَّلُ » : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢٤٧٢/٤) محاولات أبناء يعقوب تبرير ما حدث وانكشف أمرهم أمام أبيهم لفراسته فقال : « روى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاستخلف قولهم ، قاتلهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟ » .

(٢) الفراسة : فن النظر والتثبت والتأمل للشيء والبصر به ولهما معنيان غالباً أين الأثير أحدهما : ما يؤمنه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس .

الثاني : نوع يُقَدَّرُ بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق ، فتعرف به أحوال الناس . نقله ابن منظور في [لسان العرب - مادة : فرس] .

(٣) الذكر : الحفظ للشيء تذكيره . ورجل ذكير : جيد الذكر والحفظ . والذكر والذكرى : نقيض النسيان . والتذكر . تذكر ما أمسيته . [لسان العرب - مادة : ذكر] .

مشدودة ؛ ثم يحب أن يسترخى ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد في نفسه شيئاً من اليُسْر في بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

هنا بمعنى يَسَّرَتْ وسهَّلَتْ ، وما دامت قد سَوَّلَتْ لكم أنفسكم هذا الامر فسوف استقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطياذ خطأ في القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ » .

نقول : هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه « اصبر عن كذا » إذا كان الامر عن شهوة قد ثورت إيلاماً ؛ كأن يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر على كذا » إذا كان الصبر فيه إيلام لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَأَهْجُرْهُمْ ^(١) هَجْرًا جَمِيلًا (١٩) ﴾ [المزمل]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب في القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله وفهمه ؛ وقد بسّين لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُر بِنِّي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [يوسف]

(١) هجره يهجره هجراً وهجراناً ؛ تركه مع سخط ونفور . قال تعالى : ﴿ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [المدثر] أي : اترك الرجز كله نافراً منه كارهاً له . وهذا الامر بالنسبة للرسول ﷺ معناه : اثبت على هجره لأنه لم يفعل رجزاً . وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (٢٠) ﴾ [المزمل] أي : اتركهم وابعد عنهم في سملحة بغير إيذاء . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٨] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للرب ؛ وشكوى من قدر الرب .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ^(١) .. (١٨) ﴾ [يوسف]

ويتبعها :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

كان الصبر الجميل أمر شاق على النفس البشرية ، ولم يكن يقوب قادراً على أن يُصدق ما قاله أبناؤه له ؛ فكيف يُصدق الكذب ؟ كيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه ؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أقولُ لنفسي تأساء وتعزية إحدى يدي أصابته ولم تُردِ كلاماً خلف عن فقد صاحبه هذا أخى حين ادعوه وذاك ولدي ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة ؛ لأن من يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ على خلق الله ؛ ولا بد أن يفرع فيها الإنسان إلى الله ؛ ولذلك علمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ^(٢) ؛ وحزبه أمر

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ، والتفويض لمن بيده الأمر ؛ من مفهوم خواطر الإمام.

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في مسنده (١٢١٩) .

ما يعنى : أن مواجهة هذا الامر تفوق اسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى
المُسَبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعنى : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون
شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ ^(١) أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [التحل]

أى : أن ألسنتكم نفسها تصِفُ الكلام أنه كذب .
والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات]

وتعنى أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما
قالوا ؛ وكان مصير كذبتهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ^(٢) وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [يوسف]

وهكذا عيّر يعقوب عليه السلام عن نفسه ؛ قائلجوارح قد تكون
ساكنة ؛ لكن القلب قد يزدحم بالهموم ويفتقد السكون ؛ لذلك لا بد
من الاستعانة بالله .

(١) وصف الأمر : ذكره وعرفه وتحدث به . قال تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ .. (١١٦) ﴾ [التحل] أى : تذكره وتقله . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات] أى : من الوصف الذى يصفونه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو غير ذلك . وقال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .. (١٣٩) ﴾ [الأنعام] . أى : جزاء وصفهم وعقاب . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٩] .

(٢) الجمال : البهاء والحسن يرصف به الحسن والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨٠) ﴾ [يوسف] وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٨٥) ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عقاب . والسراج الجميل : المطلق المصحوب بالإحسان إلى المطلقة ومنحها حقوقها كاملة وبغير إيذاء . وقوله : ﴿ وَأَمْجَرَّهُمْ مَجْرًا جَمِيلًا (٤١) ﴾ [المزمل] لا إيذاء فيه بقول أو عمل . [القاموس القويم ١/ ١٢٨] .

وقد علمنا الحق سبحانه أن نقول في فاتحة الكتاب :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) [الفاتحة]

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بخالقك لتخلص في عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتي لموقف يوسف عليه السلام في الجُب .

يقول سبحانه :

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا أَغْلَمُ وَأَسْرَوْهُ بِضْعَةَ ۖ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَمْحُلُونَ ۝١١﴾

(١) السيارة : الجماعة السائرة المسافرين . قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (٥)﴾ [يوسف] أي : جماعة مسافرة . وقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [العائدة] للمسافرين . [القاموس القويم ٢٤٠/١] .

(٢) وردت الماء إذا حضرتك لتشرب . والورد : الماء الذي ترد عليه . والواردة : وراد الماء . والورد : الثوراد وهم الذين يردون الماء . [لسان العرب - مادة : ورد] . ورد الماء : تصده ويلقه ويوصل إليه .

(٣) ادلولو : الوعاء الذي يخرج الماء من البئر ونحوه . قال تعالى : ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف] أي : أنزله في البئر ليخرج منه ماء . [القاموس القويم ٢٣٦/١] .

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٧٥/٤) : « في معناه قولان : أحدهما : اسم للفلام .

الثاني : يا أيها البشري هذا حينك وإوانك . قال قتادة : بشر أصحاب بانه وجد عبدا . قال السدي : نادى رجلاً اسمه بشري . قال النحاس : قول قتادة أولى ، لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا بشيراً . قال القرطبي : وهذا أصح لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم . »

(٥) أسروا الأمر والحديث : أخفيته . وأسر إليه الحديث . أنقاد إليه سرا ولم يُطلع عليه أحداً منه . وقوله : ﴿وَأَسْرَوْهُ أَخْفَاةً ۖ﴾ [يونس] أخفوها في صدورهم وفي سرايرهم . ويقول في قصة يوسف : ﴿وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً ۖ﴾ [يوسف] أخفوه . وقوله : ﴿يَسْرُونَ إِلَهُمْ بِالْمُودَةِ ۖ﴾ [المتحفة] أي : يسرون إليهم أنباء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة بينكم ، وهم تكيك وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تخفون العودة لهم ، أي : تجعلون مودتكم لهم سراً ، وتخفونها عن المسلمين تفاقاً وخداعاً . [القاموس القويم ٢١٠/١] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا
ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ
كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف : بهدف التجارة وجلب
البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد
منهم إلى البئر ؛ ليأتى لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد
إلى البئر ليُحضِرَ لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوَهُ في البئر ؛ ويسمى
حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف
في الحبل : فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛
فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ .. ﴾ (١٩)

[يوسف]

أى : أنه يقول يا بشرى هذا أوائك ؛ وكأنه يبشر قومه بشيء
طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً .. ﴾ (١٩)

[يوسف]

أى : أنهم أخفوه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشى بجانبهم؛

خشية أن يكون عبداً أبقاً^(١) ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۖ ۝ (١٩) ﴾ [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسروه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا

فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۖ ۝ (٢٠) ﴾

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل

على البيع أيضاً ، أى : أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى : بثمن زهيد ،
وكانت العبيد أيامها مقومة بالنقود .

والبخس أى : النقص ، وهو إما فى الكم أو فى الكيف ؛ فهو

يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد

فى عمر يوسف يُقوّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبخس ، وبثمن أقل قيمة
إما كمّاً وإما كيفاً .

(١) أبق يابق ؛ هرب من ماله ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۖ ۝ (٤٤) ﴾ [الصافات] جعل
ترك يونس عليه السلام قرصه إياها لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يتحم بها .
[القاموس القويم : ٤/١] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يرقه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُرُوا النَّاسَ أَنْبَاءَهُمْ ۖ ۝ (٥٥) ﴾
[الأعراف] . والبخس : القليل تناقص عن مثله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ۖ ۝ (٢٠) ﴾ [يوسف]
وقوله : ﴿ فَلَا يَخَالُ بَخْسًا وَلَا رَهْفًا ۖ ۝ (٢٠) ﴾ [الجن] أى : لا يخاف نقصاً ولا ظمناً . [القاموس
القويم ٥٦/١] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠) [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية الثمن البئس ؛ فهم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه ؛ وكانهم قالوا لأنفسهم ؛ أى شيء يأتى من وراءه فهو فائدة لنا^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّأَتِي وَأَكْرَمِي
مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٧٩/٤) : « قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠) [يوسف] قيل : المراد إخوته . وقيل : للسيارة وقيل : الواردة . وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم شبيهاً أى : أن يوسف لم يكن مصدر سرور لأحد منهم ، لا هند الإخوة ، لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله . ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبى منّا . والزهد قلة الرغبة . ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى » .

(٢) ثوى المكان ، وثوى به يشوى : حله وأقام فيه واستقر به ، فهو متعدد ولازم واستعمل القرآن اللازم . فقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَارِيًا فِي أَهْلِ مَثْوَى ﴾ (٢٠) [القصص] أى : مقبلاً عندهم . والمثوى : اسم مكان أو مصدر ميم . قال تعالى : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ (٢١) [يوسف] أى : إقامته . أى : أكرمي يوسف وغير باسم المكان عن الحال فيه مجازاً مرسلًا علاقتة المحلية . [القاموس القويم ١١٢/٩] .

وكان للشراء علة ؛ فهو قد اشتراه لامراته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تتجرب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن من اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعود أن تحمله ربة البيت وتقبله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسيابياً ؛ فقد يقع المحذور وندخل في متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهذا يعنى أن تعتنى بالمسكان الذى سيقم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضى أن تعتنى بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ في خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفع الموصول بعاطفة من ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر ، فعندما ينشأ يوسف كأمين الرجل وزوجه ؛ وكإنسان تربى في بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحَمَّلاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل :

[يوسف]

﴿ أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا .. (٢٦) ﴾

وقد علمنا من السُّر أنهما لم يُرزقا بأولاد^(١) .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

[يوسف]

وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرؤى والأحلام ؛ وليقلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام قسيِّعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضُتُّوا عليه بالإلقاء في الجُب ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .
ولذلك نقول : إن الظالم لو علم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضُنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

[يوسف]

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .. (٢٧) ﴾

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشئ كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

(١) « قال ابن عباس : كان حصواً لا يُولد له ، وكذا قال ابن إسحاق : كان قسطين لا يأتى النساء ولا يولد له ، فإن قيل كيف قال (أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا) وهو ملكة ، والولدية مع العبودية فتناقض ؟ قيل له : يعتقد ثم يتخذ ولداً بالتبني ، وكان التبني في الأمم معلوماً عندهم ، وكذلك كان في أول الإسلام ، ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٢٤٨٢) .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو^(١) ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذى له الملك ، وهو وحده القادر على كل شيء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يخططوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قيوم^(٢) ؛ لا تأخذه سنة^(٣) ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لعلموا أن الله يملك بحق من يظلم فوق الذى ظلمه .

ورأينا فى حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشد هولاً من مصيرهم لو تحكم فيهم من ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ^(١) وَأَتَيْنَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَرْأَوْا الْعِلْمَ فَأَنبَأَ يَاقُوبَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران] .

(٢) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنَى القائم بتبوير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بامكتتهم . وقال قشادة : القيوم القائم على خلقه بأجلهم وأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب - مادة : قوم] .

(٣) ومن يؤسّر سنة : نام ثومة خفيفة ، السنة : النعلة . قال تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةً وَلَا نَوْمَ﴾ (٢٢٢) [البقرة] أى : لا تأخذه ثومة خفيفة ولا أى نوم ، أو لا تأخذه غفلة عن أى شيء ولا نوم من أى نوع نعل أو خف كثر أو قل . [القاموس القويم ٢٢٨/٢] .

(٤) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٨٤/٤) : « معناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقشادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم » .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ يَلْعَ أَشَدُّ ۖ ۝ (٢٢) ﴾

[يوسف]

أى : وصل إلى غايته فى التَّضَجُّج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ »
أخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ قَوْرَ أَنْ يبلُغ أشده ؛
ويصير فى قدرة أَنْ ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش فى بيت
ممتلئ بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إنْ لم يَكُنْ محروساً بالحكمة والعلم ؛
ستولد فيه رعونة^(١) ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والْحُكْم هو الفِصْل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق
ويأطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الْحُكْم ، فهو قادر على أَنْ يفصل بين
الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذى يستطيع أَنْ ينقله إلى الغير . والذى
سيكون منه تاويل الرؤى^(٢) ، وغير ذلك من العلم الذى سوف يظهر
حين يُولى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أَشَدَّهُ وحرسه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذِيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ (٢٢) ﴾

[يوسف]

وكل إنسان يُحسن الإقامة لما هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

(١) الرعونة : الحمق والاسترخاء . والأرعن : الأموج فى منطقته . [لسان العرب - مادة :
رعن] .

(٢) الرؤى : جمع رؤيا ؛ وهى ما تراه فى منامك . ورأى : بمعنى اعتقد وبمعنى عرف . ورأى
فى منامه رؤيا : حلم . والرؤيا : الحلم فى المنام . [القاموس القويم ٢٥٠/١] .

الحُسْنُ ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قَدَرِ الله أن يجعله فقيراً ،
ويحاول أن يُحسِّنَ ويَتَّقِنَ ما يعمل ، فيوضح الله بِحُسْنِ الجزاء : أنت
قبلت قدرى ، وأحسنْتَ عمَلَكَ ؛ فَخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء
الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

[يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَرِ
الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتى بِحُكْمٍ من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعمم
الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام .

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها ، فإنه يقرر
بعدها أن كل مُحْسِنٍ يعطيه الله الحُكْمَ والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴾ (٢٧)

[يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة^(١) ،
وهنا بدأت متاعبه فى القصر ، ففى طفولته نظرت إليه امرأة العزيز
كطفل جميل ؛ فلم يَكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فتجد حالها قد تغير ، فقد بدأت تدرك صفاته ؛
وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان

(١) الفتاه : الشباب . والفتى والفتية : الشاب والشابة . قال الفقيهي : ليس الفتى بمعنى الشاب
والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال . قال الشاعر :

إِنَّ الْفَتَى حَسَلُ كُلِّ مَكَمَةٍ لَيْسَ الْفَتَى بِمَنْعَمِ الشُّبَّانِ

[لسان العرب - مادة : فتا] .

بالعاطفة المشبوبة^(١) ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتى النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علة غَضُّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إن لم تغضَّ البصر أدركت ، وإن أدركت وجدت ، وإن وجدت نزعت إلى الزواج أو التعفف بالكبت فى النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإن لم تتعفف عريت^(٢) فى أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدى النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ^(٣) أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَىٰ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَىٰ الْإِرَةِ^(٤) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوَاتِ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النور]

(١) شب النار والحرب : أوقدها . وشبه النار : اشتعلها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبي عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شبت النار وشبت هى نفسها ، قال ولا يقال : شابة ، ولكن مشبوبة . [لسان العرب - مادة : شيب] .

(٢) رجل عريد وعرييد وعريد : شريد مُشَارٌ ، ويقال للمعريد : عريد كانه شبه بالحجة . [لسان العرب - مادة : عريد] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سُمى به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول . قال تعالى فى قرآنه : ﴿ وَهَذَا بَعْلىٰ شَوْحًا .. (٢٢) ﴾ [مور] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ مِنْ غَيْرِهِنَّ ﴾ [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى - وبعد طلاق بائنة أو طلقين بائنتين بعقد جديد . [القاموس القويم ٧٦/١] .

(٤) الأرب : الحاجة التى تقتضى الاحتياط لها . وكذلك الأربة والمارب . قال تعالى : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَىٰ الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ .. (٢٤) ﴾ [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . [القاموس القويم ١٧/١] .

أى : الذى بلغ من العمر والشيخوخة حداً لا يجعله يفكر فى الرغبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى فتوته ، بعد أن بلغ أشده نظرة مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتَ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنُ مَثْوَاىَ
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

وساعة تسمع «راود» فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فاعل »
أو « تفاعل » ومثل : « شارك محمد علياً » أى : أن علياً شارك محمداً ؛
ومحمد شارك علياً ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُراودة مطالبة برفق ولين بستر ما تريده ممن تريده ؛ فإن
كان الأمر مُسهلاً ، فالمُراودة تنتهى إلى شيء ما ، وإن تأبى الطرف

(١) غلق الباب يغلّقه غلقاً ، أو صده مثل أغلقه . وغلقه بالتضعيف للمبالغة فى إغلاق الأبواب وإحكامها . كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّقَ الْأَبْوَابَ ٢٥ ﴾ [يوسف] أى : أحكمت إغلاقها لتأمين على نفسها من الداخلين . [القاموس القويم ٥٩/٢] .

(٢) هَيْتَ الشيء : أعدّه وجهّزه وبسّره ، قال تعالى : ﴿ وَهَبْنَا لَهَا مِنْ آمْرِنَا رَشَدًا ٢٦ ﴾ [الكهف] أى : بسّر لنا عن أمرنا طريق الرشاد والحق . وهبت للأمر : أعددت نفسى له . وقبرى : فى سورة يوسف عليه السلام (وهبت لك) أى : أعددت نفسى لك . و (هيت) : اسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتَ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ٢٥ ﴾ [يوسف] والمعنى : أفيل . واللام للحمدية . أى : أسمعك لتقبل أو الدعاء لك . [القاموس القويم ٢١١/٢ ، ٢١٢] .

الثاني بعد أن عرف المراد ؛ فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كنت تصبو^(١) إليه .

وهكذا راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أي : طالبت به برفق ولين في أسلوب يخدعه ليُخرجه عما هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبت أن يحضر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً ؟ » وتدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه في بيتها ؛ وهي متمكنة منه ؛ فهي سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربى في بيتها ؛ وهي التي تتلطف وترق معه ، وفهم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب راق غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ﴾ [يوسف]

وكلمة : ﴿غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ﴾ [٢٢]

توضح المبالغة في الحدث ؛ أو لتكرار الحدث ، فهي قد أغلقت أكثر من باب . ونحن حين نحرك المزلاج^(٢) لنؤكد غلق باب . ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غلق الباب .

(١) صبا يصبو : مال وأحب . قال يوسف عليه السلام : ﴿وَلَا تُصْرِفُنِي عَنْ كَهْدَمِ أَمْرٍ إِلَيْهِمْ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف] أي : أمل إليهم وأفعل ما يُغريهم به ، وصبا إلى اللهو : حن واشتاق إليه وصحبه . [القاموس القويم ٣٦٨/١] .

(٢) المزلاج والمزلاج : مفلاق الباب ، سُمي بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أي أغلقتها . والمزلاج : المفلاق إلا أنه يفتح باليد ، والمفلاق لا يفتح إلا بالمفتاح . [لسان العرب - مادة : زلج] .

فهذه عملية أكبر من غلق الباب ؛ وإذا أضفنا مزلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فقصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليلقى العظيم الذي جاء ليقابله .

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبايع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق .

هذا القصر الذي سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب^(١) أنها أبهة^(٢) ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكت عنها عمر^(٣) .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فور الدخول ؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضنَّ عليه بمناذاته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

(١) الأريب : العاقل ، والأرب والأوب : الدهاء والبصر بالأمور ، وهو من العقل . وأصل الأوب : الدهاء والمكر . [لسان العرب - مادة : أوب] .

(٢) الأبهة : العظيمة والنباهة ، والأبهة : العظيمة والكبر . ورجل ذو أبهة أى ذو كبر وعظمة . [لسان العرب - مادة : أبه] .

(٣) ذكر أبو علي الفغالي في أماليه (١٣٦/٢) : قال المفيرة بن شعبة : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كسوى للعرب .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

فلفطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ فنجد أن امرأة العزيز قد غلقت الأبواب ؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فعله ، وهي قد حاولت ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر ، وحدثت المراودة وأخذت وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يستجب لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

أى : أنها انتقلت من مرحلة المُرَاوِدَة إلى مرحلة الوضوح فى طلب الفعل ؛ بأن قالت : هَيَاتُ لك ؛ وكان ردّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيذ به ، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارت أسبابك أمام الحدث الذى تمرُّ به علَّك تجد مَنْ ينجذك ؛ فكان المسألة قد عَزَّت عليه ؛ فلم يجد معاذاً إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبي ﷺ عقد على ابنة ملك^(١) ؛ كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبي بالغيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضي الله عنها : إن تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنا . وقالت للعروس : إن النبي يحب كلمة ما ، ويحب من يقولها^(٢) . فسالت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولي « أعوذ بالله منك » .

فبادرها رسول الله ﷺ وقال : « قد عُدَّتِ بمعاذ »^(٣) وسرحها السراح^(٤) الجميل .

وهناك في قضية السيدة مريم عليها السلام ، تجدها قد قالت لحظة أن تمثل لها الملاك بشراً سوياً^(٥) :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ (١٨) [مريم]

فهي استعاذت بمن يقدر على إنقاذها .

(١) جاء في الطبري أنها ملكة بنت داود اللثيمة (١٢٢/٢) أو قاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٢٩/٣).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٢٥٩/٩) : « وقع عند ابن سعد (في الطبقات) أن عائشة وحفصة دخلت عليها أول ما قدمت فمشطتاها وخضبتاها وقالت لها إحداهما : إن النبي ﷺ يعجب من المرأة إذا دخل جلبها أن تقول أعوذ بالله منك » .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبي أسيد رضي الله عنه .

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق : ﴿ فَتَعَالَيْنِ أَسْرَحْكُنْ وَأَسْرَحْكُنْ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴾ (١٨) [الاحزاب] أي : طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

(٥) السوى من الرجال : من ليس في خلقه عيب وليس في بدنه مرض ولا آفة ، فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ إِنَّكَ تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ نِجَالٍ سَوِيًّا ﴾ (١٨) [مريم] أي : حالة كونك كامل للخلق لا خورس بك ولا بكم ولا أي عجز . وقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (١٧) [مريم]

مستوى الخلق في صورة إنسان كامل جميل وضمير . [القاموس القويم ٢٢٩/١] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ^(١) إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٢) ﴾

[يوسف]

واعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحت ما تريد .

والمعنى الثاني : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أَنْجَاهُ مِنْ كَيْدِ إِخْوَتِهِ ؛ وَنَجَّاهُ مِنَ الْجُبِّ ؛ وَهَيَّأَ لَهُ أَفْضَلَ مَكَانٍ فِي مِصْرَ ، لِيَحْيَا فِيهِ وَمِنْهُ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ مَعَ بُلُوغِهِ لَأَشَدَّهُ .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

ليُذَكِّرَ امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها :

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

فالصعوبة لا تأتي فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أَنْ تُكْرِمَ يوسُفَ ، وتختار له مكان إقامة يليق بابن ، ولا يمكن أَنْ يُسْتَقْبَلَ ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

(١) المَثْوَى : اسم مكان أو مصدر ميمي ، قال تعالى : ﴿ وَبَيْنَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥٦) ﴾ [ال عمران] اسم مكان مُصِيدٍ به النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] أى : إقامته . أى : أكرمى يوسف وعبر باسم المكان عن الحال فيه مجازاً مرسلًا علاقته المجازية . [القاموس القويم ١/ ١١٢] .

وتلك مِيزَة أسلوب القرآن : فهو يأتي بعبارة تتسع لكل منطاطات
الفهم ، فما دام الله هو الذي يُجْازَى على الإحسان ، وهو مَنْ قال في
نفس الموقف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢) [يوسف]

فمعنى ذلك أن مَنْ يَسْءِ يأتي الله بالضد ؛ فلا يُفْلَح ؛ لأن
القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢) [يوسف]

و ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ^(١) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ^(٢)

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ^(٣) ﴾ (٢٤)

(١) هم بالفعل بهم به معاً : تصدده واتجه إليه بشيته ولم يفعله . قال تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ
يَسْطُرُوا اَيْدِيَهُمْ لَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ .. ﴾ [المائدة] اى : عزموا واتجهت ذبيحتهم إلى حريكهم
والتعدي على عبيدكم وإيذانكم فكفهم الله . وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام . ﴿ وَلَقَدْ
هَمَّ بِهَا وَهَمَّ بِهَا .. ﴾ [يوسف] همت به : هم عزم وتصميم . وهَمَّ بِهَا هَمَّ تَوَكَّرَ وإعراض
ومقاومة . اى . هَمَّ بمقاومتها والله أعلم . [القاموس القويم : ٣٠٧/٢ بتصريف] .

(٢) البرهان : الحجة البينة الناصلة . قال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ قُلْ اَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. ﴾ [يوسف] اى : لولا اَنْ رأى حجة ربه التى
شكته على الحق وحرفته عما هم به - أو لولا اَنْ رأى برهان ربه . اى الدليل على قدم
سيده وحضوره ، وقدر الله مجيء سيده إلى البيت فى هذا الوقت ليصرف عنه السوء .
[القاموس القويم ٦٥/١] .

(٣) اخلصه الله : جعله صافياً نقياً طاهراً . واسم المفعول مخلص ، يفتح اللام . قال تعالى : ﴿ اِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف] اى : الاصفياء الاتقياء المطهرين . [القاموس القويم ٢٠٢/١] .

والهَمُّ هو حديث النفس بالشئ ؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه ،
ومن رحمة ربنا بخلقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدثته نفسه أن يفعلها ؛
ولم يفعلها كُتِبَتْ له حسنة^(١) .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التي كانت منها ،
والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُعاملة بين اثنين
يصطراعان في شئ .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين
قالت : « هيت لك » وكذلك بيّن موقف يوسف عليه السلام حين قال
يوسف « معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً ؛ وتساوى في حديث
النفس ؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون قَهْمُنَا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ لأننا
نعلم أن « لولا » حرف امتناع لوجود ؛ مثلاً نقول : لولا زيد عندك
لأتيك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع
عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجِدَ منه ؟

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت
له حسنة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له سيئاً إلى سبعين ضعف ، ومن هم بسيئة
فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » . أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٠) كتاب الإيمان
(حديث ٢٠٦) .

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد هَمَّتْ به ولم يهم بها ؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القول اللقطة المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل ؛ وإن لم يَقُل لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عُنِينٌ^(١) أو خَصَّاه موقف أنساها سيده فقارت قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهَمَّ بها ؛ لكان المانع من ألهم إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طارئ لأنها سيده فقد يمنعه الحياء عن ألهم بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً ، وهو قد بلغ أشده ونُضِجَه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُم يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضيَّعَتْ رجولته بغتة^(٢) ؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يقرب عروسه ؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم ألهم على الإطلاق ؛ ومن غير شيء ، لَقَالَ : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهَمَّ بها .

(١) العنِين : الذي لا يأتى النساء ولا يريد من بين العنانة . وعُنِينٌ عن امرأته إذا حكم القاضي عليه بذلك أو مُنِع عنها بالسحر . وامرأة عُنِينة كذلك : لا تريد الرجال ولا تشتهيهم . وسُمِّي عُنِيناً لأنه بمن ذكره لقبل المرأة من عن يمينه وشماله فلا يقصده . [لسان العرب - مادة : عنن] .

(٢) بغتة بغتاً وبغتة : فاجأه على غرة وغفلة . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف] والمباغتة : المفاجأة والبغت والبغتة : المفاجأة ، وهو أن يفجأك الشيء . [لسان العرب - مادة : بغت] .

ولكن مثل هذا القول هو نقي للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهمّ واجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور ، لأن للعواطف النقائص .

ومن لطيف الله بالخلق أنه يُوجد الالتقاءات التفاعلية في المتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أي شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر في أنه لو همّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها قال الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢١)﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهمّ ، فواحد همّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهى المسألة ، ولذلك فلا داعى أن يدخل الناس فى متاهات أنه همّ وجلس بين شعبيّتها^(١) ، ولم يرتعد إلا عندما تمثّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل^(٢) ؛ فافسقُ الفساق ولو تمثّل له أبوه وهو فى مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة^(٣) يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأى : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزیز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفِكَاك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتى دَعَتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا^(٤) على أن يوسف لم يحدث منه شيء .

(١) فى الحديث : « إذا قعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الغسل » شعبها الأربع : يداها ورجلاها - وقيل : رجلاها وشقرا لرجلها ، كنى بذلك عن تغييره الحشّة فى لرجلها . [لسان العرب - مادة : شعب] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وسعيد بن جبیر : رأى صورة يعقوب على الجدران حاضاً على أنامله يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله . [ذكره القرطبي فى تفسيره ٢/٤٤٩٢] .

(٣) رجل قصيل : فحل ، وإنه لبين الفُحولة . غير خفى بل هو مُنجب . [لسان العرب - مادة : فحل] .

(٤) تضافر القوم على فلان وتظاهروا عليه وتظاهروا بمعنى واحد كله إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتآلبوا وتصابروا مثله . قال ابن سيده : تضافر القوم على الأمر تظاهروا وتعاونوا عليه . [لسان العرب - مادة : ضمير] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَأَوْدَتُنِي عَنْ نَفْسِي .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصَدِّقَةً لِمَا قَالَ :

﴿ وَلَقَدْ رَأَوْدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ^(١) .. ﴾ (٢٧) [يوسف]

وقالت : ﴿ الْآنَ خَصَحَصَ^(٢) الْحَقُّ أَنَا رَأَوْدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ^(٣) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .. ﴾ (٥٢) [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٥٣) [يوسف]

وقال يوسف لحظتها :

﴿ وَلَا تُصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢٤) [يوسف]

والصَّبُورَةُ هي حديث النفس بالشيء : وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبورة : لأن الحق سبحانه قد قال :

(١) استعصم : طلب لنفسه الحصانة وتمسك بها . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَأَوْدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ (٢٧) [يوسف] أي : فامتنع متمسكاً بعصمته وعلّة نفسه ويحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢٤/٢] .

(٢) خصحص الحَقُّ : وضح وتبين بعد خفاؤه . قال تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ خَصَحَصَ الْحَقُّ .. ﴾ (٥١) [يوسف] . قال ابن منظور في لسان العرب : « الخصخصة : بيان الحق بعد كتمانته » . [مادة خصص] .

(٣) في قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف ، ومنها أنها : امرأة العزيز . قال ابن كثير في تفسيره (٤٨١/٢) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لتصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة » .

﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۖ ۝٢١﴾ [يوسف]

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتي تهامسنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يقلن :

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ ۝٢٢﴾ [يوسف]

لحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف :

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ۖ ۝٢٣﴾ [يوسف]

وهكذا تعلم انه قد حدثت مُقدمات تدل على أن النسوة ثوين له مثل ما ثوته امرأة العزيز ؛ وظنن أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقنه هن ؛ وهذا دأب^(١) البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه ؛ فيندمدمم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۖ ۝٢٤﴾ [يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أجبن ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قلن :

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدأب والدأب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنَ وَأَنْشَأَ الْقُلُوبَ قُلُوبًا ۚ قُلْ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَيْءٌ وَلَا يَنْفَعُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُكُمْ مِنْهَا فِي سَحَابٍ مِّمَّاتٍ ۚ ۝٢٥﴾ [يوسف]

.. ﴿ غَافِرٌ ۚ ۝٢٦﴾ [غافر] أي : عافيتهم وعسائهم . وقال تعالى : ﴿ قَالُوا تَزَوَّجْنَا بِنَا ۖ ۝٢٧﴾ [يوسف]

[يوسف] أي : متزوجين من بناتنا . وقال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَكُمْ الْفُتُنُ وَالْقُتُنُ ۚ ۝٢٨﴾ [يوسف]

فأين .. ﴿ [إبراهيم] أي : مستعدين في الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تنقيبها لهما .

بالإنسان المجد . [القاموس القريم ٢١٩/١] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۖ ﴾ (٥١) [يوسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائماً بالغواية ، وهو لا يدخل أبداً في معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خلق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قَالِ لِقَبِيرَتِكَ أَغْوَيْتَهُمْ ^(١) أَجْمَعِينَ (٥٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٥٣) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز - هو كشيطان - عن غوايته ، ولا يجرو على الاقتراب منه .

والشاهد الذي من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ ^(٢) مِنْ دَبَّرٍ ^(٣) فَكَذَّبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٥٧) ﴾ [يوسف]

(١) لغواه : أضله وأوقعه في الفسّ والضلّال . قال تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ ﴾ (٥٢) [القصص] أي : أضلّناهم كما ضلّنا . وغوى يَقْوَى غيًّا غواية : انهك في الجهل وهو ضد الرشد . قال تعالى : ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ قَدْ كُنَّ فِي الضُّلَعِ مِنَ النَّارِ ۖ ﴾ (٥٢) [البقرة] وغوي : بمعنى خاب وقيل لأنه انهك في الجهل . والغاوى : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ وَبَرَزَتْ لِلْجِمْمِ الْغَوَايِرُ (٥٣) ﴾ [الشعراء] أي : الضالين المنهمكين في أعمال الجهل . [القاموس القويم ٦٤/٢]

(٢) قد الثوب : شقّه . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ ﴾ (٥٥) [يوسف] . والقدة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الامة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها . قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُودُهُمْ قُدًّا ۖ ﴾ (٥٥) [الجن] أي : جماعات مختلفة الرأي جمع قُدَّة . [القاموس القويم ١٠٢/٢]

(٣) الدبر : مؤخر كل شيء - وعقب وظهره - ضد القبل . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ ﴾ (٥٥) [يوسف] أي : من خلف . وولى المصارب دبره : كناية عن قراره . قال تعالى : ﴿ سَيُهْزِمُ الْجَنُوعُ وَيُؤْكِرُونَ الدَّبِرَ (٥٦) ﴾ [القمر] أي : ويفرون . وجمع الدبر أبار . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَنَظَّرْكُمْ يَلْمِزْكُمْ الْأَذْيَارُ لَمْ يَلْبِسْكُمْ يُضْعِفُونَ (٥٧) ﴾ [آل عمران] أي : يفرون منكم منهزمين . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ الْعَظِيمِ (٥٨) ﴾ [ق] أي : عقب كل سجود أو عقب كل صلاة . [القاموس القويم ٢٢٠/١]

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حق أحد أن يتساءل : هل هم يوسف بامرأة العزيز ، أم لم بهم ؟

وفى الآية التى نحن بصددها ، يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (٦٤) ﴿

[يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٦٥) ﴿

[الإسراء]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ..﴾

[النساء]

﴿(٦٥)﴾

أى : لا بد أن يبعث الحق رسولاً للناس مؤيداً بمعجزة تجعلهم يصدقون المنهج الذى يسيرون عليه ؛ كى يعيشوا حياتهم بانسجام إيمانى ، ولا يعذبهم الله فى الآخرة .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ^(١) عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٦٦) ﴿

[يوسف]

والفحشاء هى الزنا والإتيان ؛ والسوء هى فكرة الهَم ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودته عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

(١) الصرف : رد الشيء من حال إلى حال . وصرف النقود : تغييرها أو إنفاقها . وصرف

السجين : أخطى سبيله . وصرف القلوب بصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال . قال

تعالى : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٦٧) [التوبة] . [القاوس القويم ٢٧١/١] -

مرحلة السُّعَار^(١) لحظة أن سبقها إلى الباب : فَكَّرْتُ فِي أَنْ تَقْتُلَهُ ؛ وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجَازَى كقاتل^(٢) .

فصرف الحق عنه فكرة القتل ؛ وعنى بها هنا قوله الحق « السوء » ؛ ولكنى أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهم ، وهى مُقَدِّمَات الفعل .

ويقرر الحق سبحانه أن يوسف عليه السلام من عباده الْمُخْلَصِينَ ، وفى هذا رد على الشيطان ؛ لأن الشيطان قال :

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ (٨٢)﴾

[ص]

وقوله الحق هنا :

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٦٤)﴾

[يوسف]

يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرُبَ عباد الله المخلصين . وهناك « مُخْلَصِينَ » . و « مُخْلَصِينَ » والمخلص هو مَنْ جَاهَدَ فَكَسَبَ طَاعَةَ الله ، وَالْمُخْلَصُ هو مَنْ كَسَبَ فَجَاهَدَ وَأَخْلَصَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ^(٣) .

وهناك أَنَاسٌ يَصِلُونَ بِطَاعَةِ اللهِ إِلَى كَرَامَةِ اللهِ ، وهناك أَنَاسٌ

(١) السُّعَار : شدة الجوع . يقال : سَعِرَ الرجل ، فهو مسعور ، إنا لاشتد جوعه وعطشه . والسُّعْر : شهوة مع جوع . والسُّعْر : الجنون . وسعار العطش : التهايه . والسعير والساعورة : النار . وقيل : لهبها . والسُّعَار والسُّعْر : جرها . [لسان العرب - مادة : سحر] .

(٢) ذكر القرطبي فى تفسيره أن من بين تاويلات هم يوسف عليه السلام يامرأة العزيز أنه هم بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان ككفه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فاستعت فضربها . [راجع تفسير القرطبي ٢/٤٤٨٨] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً تقياً مطهراً ، واسم المفعول « مُخْلَصٌ » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٦٤)﴾ [يوسف] أى : الأصفياء الاتقياء المطهرين ، وأخلص دينه الله : طهره وصفاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٦٤)﴾ [الزمر] . [القاموس القويم ١/٢٠٢] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - والله المثل الأعلى - منزه عن كل تشبيه ،
أنت قد يطرُق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه
وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى في الشوارع وتدعو واحداً لتعطيه من
فضل الله عليك ، أى : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه
أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأخذ ورد ؛ ينتقل بنا
الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿وَأَسْتَبِقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيَا سِيدَهَا^(١)
لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٢)﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا
فى هذا الاستباق ، ونلاحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ؛
وكانت امرأة العزيز قد غلقت من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿وَالْفَيَا سِيدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾ [يوسف]

(١) الفى الشيء : وجده ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَقْبَرُوا بِبَنَاتِهِمْ خُلَافَيْنِ (٢٥)﴾ [الصافات] ، وقال :

﴿وَالْفَيَا سِيدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾ [يوسف] أى : وجده ، [القاموس القويم ١٩٧/٢] .

(٢) ساء قومه يسوءهم سيادة : شرف عليهم ورأسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سابة :

﴿وَالْفَيَا سِيدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾ [يوسف] سيدها : زوجها ، وقال تعالى : ﴿وَمِنْهَا وَحْشَرًا

.. (٢٦)﴾ [ال عمران] سيداً أى : شريكاً ورئيساً فى الدين والعلم . وقال : ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا سَادَتَنَا

وَكُتْرَانَنَا .. (٢٧)﴾ [الأحزاب] أى : رؤساءنا من الملوك والأمراء . [القاموس القويم

يدلنا على أنها لحقت بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهي قد استبقت مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهي تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدت قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشدت من قميصه من الخلف ، وتمزق القميص في يدها ، وقد محص الشاهد - الذي هو من أهلها^(١) - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿وَأَلْقَى سِكِّمَهَا لَدَا الْبَابِ.. (٢٥)﴾

[يوسف]

أى : حدثت لهما المفاجأة ، وهي ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا .. (٢٥)﴾

[يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾

[يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام :

(١) وذلك هو قوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَكُذِّبَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

(٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ^(١) شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا^(٢) إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ
قَدْ^(٣) مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولين مختلفين ؛ قولها هي
باتهام يوسف ؛ وقوله هو باتهامها ، ولا بُدَّ أن يأتى بمن يفصل بين
القولين ، وأن يكون له دِقَّةُ استقبال وفهم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦)

وتأتى كلمة « شاهد » فى القرآن بمعانٍ متعددة .

(١) شاهد : دَلَّ بقول أو فعل ، وقال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا .. ﴾ (٢٦) [يوسف] .
[القاموس القويم ٢٥٨/١] . وقال القرطبي فى تفسيره (٢٤٩٤/٤) : « شاهد شاهد من
أهلها ، أى . حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٩٤/٤ ، ٢٤٩٥) :

« اختلف فى هذا الشاهد على أقوال :

منها : أنه طفل فى المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث التوارد فيه من
النبي ﷺ . وهو قوله : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة ، وذكر فيهم شاهد يوسف ، ومنها : أنه
رجل حكيم لو عقل كان الوزير يستشير به فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة « يتصرف » .

(٣) قد الثوب : شقة ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ تَقْبَصَ مِنْ دُبُرِ .. ﴾ (٢٦) [يوسف] والقدة : القطعة

المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة فى الرأى مع مجموع الأمة كانها قُتِلَتْ وقُطعت
منها ، قال تعالى : ﴿ كُنَّا عَرَائِفَ قَدَمًا ﴾ (٢٦) [الجن] أى : جماعات مختلفة الآراء جمع قدة .

[القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فهى مرة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا ^(١) طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [التور]

وتأتى مرة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا .. (٨١) ﴾ [يوسف]

وتأتى « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أى : رجع كلاماً على كلام لاستتباط حق فى أحد الاتجاهين . والشاهد فى هذه الحالة وثق القرآن أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لردت شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

لأن معنى هذا - والواقع لم يكن كذلك - أن يوسف عليه السلام وهو من أقبل عليها ؛ تدلّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثّر فيه ، فتمزّق القميص .

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

(١) أى : عذاب الزانية والزانى وإيقاع العقوبة بهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ لِّىْ دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [التور] .

(٢) القميص : ما يحيط بالبدن ، وقد يسمى شعاراً وما فوقه دثار ، وقد يسمى كل ثوب قميصاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (٢٨) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١٤٣/٢] .

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قد من الخلف ؛
فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلاحظ أن الشاهد هنا قال هذا رأى قبل أن يشاهد القميص ؛ بل
وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل
الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَقْمِصَةَ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ^١
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ ۖ .. ۝٢٨﴾ [يوسف]

يدل على أنه رتب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً
فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدما ، وهكذا جعل الحثية الغائبة
هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف]

والكيد كما تعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

(١) الكيد : مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتدبر بها الكاشد ليتغلب على خصمه ،

ومن ذلك قوله : ﴿ فَاجْتَمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ انْتَرُوا سَفَاً ۝٢٧﴾ [طه] أى : اجتمعوا الوسائل التى تكيدون

بها . [القاموس القريم ٢ / ١٨٠] .

مَنْ لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُوَاجَهَةِ ، وَكَثِيرُ الْعَرَاةِ عَظِيمٌ ؛ لِأَنَّ خُسْعَهَا
أَعْظَمُ .

وَتَعُودُ آيَاتُ السُّورَةِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَوْقِفِ عَزِيزٍ مِصْرَ ، فَيَقُولُ الْحَقُّ
سُبْحَانَهُ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ الزَّوْجِ :

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ
كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ^(١)

وبهذا القول من الزوج أنهى الحقُّ سبحانه هذا الموقفَ الرَّبَاعِيَّ
عندَ هذا الحدِّ ، الَّذِي جَعَلَ عَزِيزُ مِصْرَ يَقْرَأُ أَنَّ أَمْرَاتِهِ قَدْ أَخْطَأَتْ ،
وَيَطْلُبُ مِنْ يَوْسُفَ أَنْ يَعْزِضَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ لِيَكْتُمَهُ .

وهذا يبين لنا سياسةَ بعضٍ من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر
نشاهدُه في عصرنا أيضاً ؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبى أن يرى
أهله في خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيبرئض أن يرى الغيرُ أهله في
مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له
من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا ملاحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي

(١) اعرض عن الشيء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه ، قال تعالى : ﴿ اعْرِضْ وَتَأْتِ بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء] . [القاموس القويم ١٦/٢] . قال القرطبي : « أي : لا تذكره لأحد ولا تكتبه » . [تفسير القرطبي ٢٤٩٧/٤] .

(٢) الخطأ والخطأ : ضد الصواب ، وقد خطئه يخطئ خطأ : أذنب مطلقاً أو تعدد الذنوب . قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هَذَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف] [أي : متنبين .

لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ،
عزيز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. ﴾ (٢٩) [يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٩) [يوسف]

وهو في قوله هذا يُقَرُّ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يُقَرَّ بذلك إلا
إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو في موقف لا يسعه فيه
إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ،
والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا
الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعت فيه
القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور
عيوناً تتعسس^(١) عليها ، وألسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه
يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها
مهما بلغت قدرة صاحبها على التستر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدام القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على
ألسنة النسوة .

(١) أصل العَسَّ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه كان يمس بالمدينة . أي :
يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعسس : اسم منه كالطلب . وقد يكون
جمعاً لعسس كحارس وحرس . [راجع لسان العرب - مادة : عسس] .

ويحكى القرآن الموقف قائلاً :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا نَنظُرُهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفرد كل منهما يساقط في اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثني هو « امرأتان » ، لكن في صيغة الجمع لا ترجد « امرأتات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ (٢٠)

[يوسف]

وما قلته هو الحق ؛ لكنهن لم يقلن ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٩٨/٤) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازة ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الصاحب . عن ابن عباس وغيره » .

(٢) شغفه : أصاب شغاف قلبه أي غلافه ، أو أصاب باطنه ومميم قلبه . قال تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ ﴾ (٢٠) [يوسف] أي : أصاب شغاف قلبها بحب قوي نافذ كالسهم . [القاموس القويم ٢٥٠/١] .

وراءه سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهم ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول فى الآية التالية حين قال :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٦) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٣٧) ﴾ [يوسف]

والمكر هو سترُ شيء خلف شيء ، وكان الحق يُنبِّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبة للحق ؛ ولا تعصبا للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنكاي^(١) بامرأة العزيز ، وقصحا للضلال الذى أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردن - أيضا - شيئا آخر ؛ أن يُنزَلْنَ امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، قَاتِنِينَ بِنَقِيضِينَ ؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز^(٢) ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذى لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى الحسية .

(١) نكى العدو نكايه - أصاب منه - وقد نكبت فى العدو أنكى أى مزمته وغلبته ، فنكى يتكى نكئ ، [لسان العرب - مادة : نكى] .

(٢) تدور معانى الميز حول من بيده السلطان والقوة ويده مغاليد الحكم لا يراجعه أحد شيئا ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهى . [راجع : لسان العرب - مادة : عزز] .

فيقال : « الأرض العَرَّاز »^(١) أى : الأرض الصخرية التى يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحد أن يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامرأة العزيز حين تصير مُضْغَةً^(٢) فى الأفواه ؛ لأنها راودت فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك قضيفة مزرية^(٣) مشينة^(٤) .

وقالت النسوة أيضاً :

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ ﴾ (٣٠) [يوسف]

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل « الهوى » مثل : شغشقة^(٥) النبات ، ويقال : « رأى شيئاً فهو لهواه » .

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : عرّز] : « العَرَّاز والعَرَّاز : المكان الصلب السريع السيل . وقال ابن شميل : العراز ما غلط من الأرض . وإنما يكون فى أطرافها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن التبول فى العراز لنلا يترشش عليه » .

(٢) مضغ يمضغ : لآك . ومضغ الطعام يمضغه مضغاً . والمضغة : القطعة من اللحم . والمضغ النمر : حان أن يمضغ . وتمر ذو مضغة : صلب متين يمضغ كثيراً . ومضغ الأمور : صفارها [لسان العرب : مادة - مضغ] والمقصود تشبيهها بقطعة اللحم التى بلوكها الناس فى أفواههم .

(٣) الإزراء : التهاون بالشئ . وإزديته أى حفرته ، وإلازراء : الاحتقار والانتقاص والعيب ، وهو افتعال من زريت عليه زراية إذا صته . [لسان العرب - مادة : زوى] .

(٤) الشين : العيب . وهو خلاف الزين . قال الفراء : العين والشين والشنار أى : العيب والمعاشين : المعاييب والمقاييب . [لسان العرب - مادة : شين] .

(٥) شق النبات يشق شقوقاً ، وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض . وشق ناب الصبي يشق شقوقاً : فى أول ما يظهر . [لسان العرب - مادة : شقق] .

وقد ينتهى هذا الهوى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلّق الإنسان بما رأى ؛ انتقل من الهوى إلى العلاقة^(١) .

وبعد ذلك يأتى الكلف^(٢) ؛ أى : تكلف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهى العشق^(٣) ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلم كل طرف ككفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التذليّه »^(٤) ؛ أى : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هزال ويقال « تيلت^(٥) الفؤاد » أى : تاه الإنسان فى الأمر .

ثم تاتى بعد ذلك مرحلة الهيام^(٦) ، أى : يهيم الإنسان على

(١) علق الشيء علّقاً وعلّق به علاقة وعلّقوا ؛ لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب ، وقد مكّفها علّقاً وعلاقة وعلّق بها علّقوا وتعلّق بها ؛ أحبها . وقال الحياضى : العلق الهوى يكون للرجل فى المرأة . [لسان العرب - مادة : علق] .

(٢) الكلف : الولوج بالشىء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشىء كلفاً وكثّفه ؛ لهج به . وكلف بها أشد الكلف ؛ أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء . [لسان العرب - مادة : كلف] .

(٣) العشق : شدة الحب . وسمى العاشق عاشقاً لأنه يتبدل من شدة الهوى كما تبدل العشقة إذا قطعت . والعشقة : شجرة تخضر ثم تدبّ وتفسح . عن الزجاج . [لسان العرب - مادة : عشق] .

(٤) قال ابن القيم فى روضة المحبين (من ٥٩) : « وأما التذليّه ففى المسحاح : التذليّه ذهب العقل من الهوى ، يقال : دلّه الحب . أى : حيرّه وأدهشه » .

(٥) قال فى روضة المحبين (من ٤٩) : « أما التباله فهى فحالة من تبكّه إذا أفناه . قال الجوهري : تبلمهم الدهر وأتيلهم إذا أفناهم . وتبله للحب وأتبله ، أى : أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيّمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هيّمان : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهيمّ . مصير عام يهيم هيّماً وهيّماناً إذا أحب المرأة . والهيام : العشق . والهيام . أن يذهب على وجهه . [لسان العرب - مادة : هيم] .

وجهه ؛ فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه
« جوى »^(١) .

تلك هي مراحل الحب التي تمر بالقلب^(٢) ، والقلب - كما نعلم -
هو الجهاز الصنوبري ، ويسمونه مَقَرَّ العقائد المنتهية ، والتي بحثها
الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشم ويسمع
ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور ؛ فهو يعرضها على
العقل ليوازن بينها ؛ ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك
الأمور المقبولة إلى القلب ؛ لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية ؛ فقد تأتي مسائل أخرى تزعزعها ؛ ولذلك
يُقال للأمور التي استقرت في القلب « عقائد » ، أي : شيء معقود
لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره في إخضاع سلوك حركة
الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ في نفس الإنسان ؛ فهو يجعل كل
حركته في ظل هذا المبدأ الذي اعتقده .

وهكذا نعرف ؛ كيف تمر العقيدة بعدة مراحل قبل أن تستقر في
النفس ، فالإدراك^(٣) يحدث أولاً ؛ ثم التعقل ثانياً ؛ وبعد ذلك يعتقد

(١) الجوى : المارقة وشدة الوجد من عشق أو حزن . [لسان العرب - مادة : جوى] .

(٢) ذكر ابن القيم في روضة المحبين (ص ٢٥) تحواً من ستين اسماً للمصيبة ، لكل اسم
مقام أو درجة في اللص .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس هذه لاختيار الأشياء ، فلا بد من الإدراك ،
ثم الانتعال ، ثم النزوع ، أي : الاختيار .

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وفقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ ﴾ (٢٠) [يوسف]

تعني أن المشاعر انتقلت من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ،
والشغاف هو الغشاء الرقيق الذي يستر القلب ؛ أي : أن الحب تمكّن
تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ ﴾ (٢١) [يوسف]
هو قول حقٍّ أريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مقصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاً^(١)
وَأَمَّت كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ^(٢)
أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا^(٣)
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ ﴾ (٢٢)

(١) تنكره يتكره : جلس متمكناً ، أصله ارتكأ ، قال تعالى : ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ ﴾ (٢٣) [الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا إِلَى الْأَرْبَابِ ۖ ﴾ (٢٤) [الكهف] . والمتكا : اسم مكان .
قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاً ۖ ﴾ (٢٥) [يوسف] أي : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمكنات
متمكنات . والمتكا : ما يتكرو عليه الإنسان من مخدة أو أريكة . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] .
(٢) أكبر الشيء : عده كبيراً ، أو عظم شأنه به قرأه كبيراً ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ ۖ ﴾ (٢٦) [يوسف] [القاموس القويم ٢/١٥٠] .

(٣) حاش لله ، أي : براءة لله ومعاناة له ، قال ابن الأنباري : معنى حاشي في كلام العرب
اعزل فلاناً من وصف القوم بالحشي وأعزله بناحية ، ولا أدخله في جملتهم . [لسان
العرب - مادة : حشا] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لهنَّ الكلام عن الذي حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بدُّ أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر : وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامراته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر : إنسان له علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك : ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر.

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتي ثرثن بالأمر ، وقال العلماء^(١) : هنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أى : سائس الخيل) ، وامرأة السجن .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن : فمن الذى نقل لهنَّ أسرار القصر ؟

لا بدُّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسَلِّي أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام : ثم نقلت زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر : وكيف يمكن بها : أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكاً وَأَنْتِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينٌ ۖ ۝٢١ ﴾ [يوسف]

والمَتَكُ هو الشيء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ

(١) انظر : تفسير القرطبي (١/٢٤٩٨) ، ذكره من ابن عباس وغيره .

من كيفية جلسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها ، وقد خططت لتكشف وَقَعَ رؤية يوسف عليهن ، فقدمت لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحي بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَهُنَّ قُلُومًا رَأَيْنَهُ أَكْبَرَهُ .. ﴾ (٢١) [يوسف]

ويقال : أكبرت الشيء ، كأنك قد تخيلته قبل أن تراه على حقيقته ؛ وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين ترى الشيء واقعاً ؛ تكبر المرائي عن التخيل .

والمثل أن إنساناً قد يحدثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعت عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَاهَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ حَبِيبٍ أَصْدَقَ الْقِيَمِ
حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَذْنِي بِأَطِيبٍ مِمَّا قَدْ رَأَى بِصَرِي
ويقولون في المقابل : سماعك بالمعبدى خير من أن تراه^(١) . أى :
يا ليتك قد ظنلتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنقص من
قدر ما سمعت .

(١) هذا مثل يضرب لمن خبره خبر من مرّاه ، يُضرب للرجل الذي له صيت وذكور ، فإذا رأته أذريت مرّاه . ومعنى : حَيٌّ أو اسم للقبيلة . فامّا قولهم في المثل : تسمع بالمعبدى لا أن تراه ، فيخفف عن القياس اللازم في هذا الخبر . [لسان العرب - مادة : معبد] .

وَهُنَّ حِينَ أَذَيْنَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ بِتَدَاوُلِ خَبَرِ مُرَاوَدَتِهَا لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ،
تَخَيَّلْنَ لَهُ صُورَةً مِمَّا مِنَ الْحُسْنِ ، لَكِنَّهُنَّ حِينَ رَأَيْنَهُ فَنَاقَتْ حَقِيقَتَهُ
الْمَرْتِيَةَ كُلَّ صُورَةٍ تَخَيَّلْنَهَا عَنْهُ ؛ فَحَدَّثَ لَهُنَّ انْبِهَارَ .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ
عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان في يدك شيء قد يقع منك .

وقد قطعت كل مذهب يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأة العزيز
لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المُقَدَّم لَهُنَّ .

وقال الحق سبحانه في ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ فَقَطَعْنَ^(١) أَيْدِيَهُنَّ .. ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدق من هذا
القول^(٢) ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢١) [يوسف]

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢/٢٥٠٢) : « قال مجاهد : قطعنّها حتى ألقينها . وقيل :
خدشنها . وروى ابن أبي نحيع قال : حَرَكَ بالسكين . قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس
قطعا تبين منه اليد . إنما هو خدش وحرّ . وذلك معروف في اللغة أن يقال : إنا خدش
الإنسان يد صاحبه قطع يده . »

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٧٦) : « ذكر غير واحد أنها قالت لَهُنَّ - بعد أن كنّ كل
واحدة منهن سكيناً - : هل لَكُنَّ في النظر إلى يوسف ؟ قُلْنَ : نعم . فبعثت إليه ثامره أن
أخرج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع ، فرجع وَهُنَّ يعززن في
أيديهن ، فلما أحسسن بالآلم جعلن يولولن . فقالت : أنقن من نظرة واحدة لمثلن هذا .
فكيف ألام أنا ؟ » .

وكلمة : ﴿ حَاشَ .. ﴾ (٣١)

[يوسف]

هى تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى ،
أو : أنهم قد نَزَعْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة
بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون
قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التى يعرفونها^(١) ! فَقُلْنَ :
لا بد أنه ملكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هى صورة مُتَخَيِّلَة ، والإنسان يحكم على
الاشياء المُتَخَيِّلَة بما يناسب صورتها فى خياله ، مثلما نتخيل الشيطان
كاشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر ؛ فما تراه بشعاً قد
لا يراه غيرك كذلك ؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى
أخرى .

فالمرأة الجميلة فى أواسط إفريقيا فى نظر الرجل هى ذات الشفاه
الغليظة جداً ؛ أو صاحبة الشعر المُجَعَّد والمُتَمَوِّج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال ينجذب إليه
الرجل فى بعض الحالات ؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر
الناعم للغاية يذهبن إلى مُصَفِّفَة الشعر ، ويطلبن منها تجديد
شعورهن .

(١) قال القشيري أبو نصر : وذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر . بل
هو فى صورة ملك . وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين]
والجمع بين الآيتين أن قولهن (حاش لله) ثبرة ليوسف ممّا رمته به امرأة العزيز من
المراودة . ذكره القرطبي فى تفسيره (٤/٣٥٠٥) .

إذن : فالجمال يُقاس بالأذواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال في النفس الإنسانية على قَدَرِ مَقُومَاتِ الالتقاء في الانسجام .

ولذلك يُقال في الريف المصري هذا المثل « كل قولة ولها كيال » .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب في الزواج منها ؛ وما أن يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع في هواها ، ويتعجل الزواج منها ، وهذا يعني أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثاني .

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أخذَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذي يكتب القبول ؛ ويظهر في المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث في نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قلنَ :

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر^(١) .

(١) عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٣) والحاكم في مستدركه (٥٧٠/٢) .

وأورد السيوطي في كتابه (الدر المنثور) (٥٢٧/٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفشتن به . وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الشيع والطبراني .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً

عليهن :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَةٍ لَيْسَ جَنًّا
وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ (٣٢)

وكانها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ،
فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فَذَلِكُنَّ .. ﴾ (٣٢)

مُكُون من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذَلِكُنَّ » خطاب للنسوة ،
والإشارة تختلف عن الخطاب .

(١) لَمْ يَلْمِ لَوْه لَرَمَا : هنالك على عمل لا ينبغي ولا يليق فهو لائم . وتلارم الرجلان : لأم كل
منهما الآخر : ﴿ فَأَقْلَرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامِؤُنَا ﴾ (٣٠) [القلم] . والام : جرّ على نفسه اللوم
يفعل ما لا ينبغي فهو مليم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿ فَالْقَظْفَةُ أَعْرَتُ وَهَرُ مَلِيمٌ ﴾ (١١٤)
[الصافات] أي : مذنب مستحق للوم . [القاموس القويم ٢٠٨/٢] يتصرف .

(٢) عصمه يعصمه : منعه ووقاه ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١٧) [المائدة] يحفظك
ويقيك . وقوله : ﴿ مَا أَوْى إِلَيْنِ جَمَلٌ يَعْمِيهِ مِنَ الْمَاءِ ﴾ (٤٤) [مرد] يحفظني . واعتصم : تمسك
بقوة . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (٢٣٩) [آل عمران] أي : تمسكوا بدينه .
واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ
(٣١) ﴾ [يوسف] أي : فامتنع متمسكاً بعصمته وبعفة نفسه وبحفظها من السوء . [القاموس
القويم ٢٢٣/٢ ، ٢٤] .

(٣) الصَّغِيرُ يكون ماديّاً في الحجم . ويكون معنويّاً في القدر والمنزلة وهو ضد الكبر .
وصغير : في حجمه أو في قدره ومنزلته . فمن المادي قوله : ﴿ وَلَا تَسْأَلُوا أَن تَكْتُمُوا صَغِيرًا
أَوْ كَبِيرًا ﴾ (١٥٦) [البقرة] ، ومن المعنوي قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ (٧٧) [الأعراف]
[القاموس القويم ٢٧٧/١] .

وهنا موقف أسلوبى : لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب يُقرأ : له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية^(١) ؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً^(٢) أو مُرسلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالطُّورِ ^(١) ﴾ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ ^(٢) فِي رَقٍّ ^(٣) مُّنشُورٍ ^(٤) وَالْبَيْتِ ^(٥) الْمَعْمُورِ ^(٦) ﴿

[الطور]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلف ، وأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً ؛ فأذنك تأخذ منه على قدر سمو أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده فى الرسالة التى كتبها ابن زيدون^(٥) مُستعظفاً ابن جهور:

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تغفر البيت . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة فى البيت .
(٢) السجع : الكلام المقفى . وسجع يسجع سجعاً تسجيعاً : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وصاحبه سجاعة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل كلمة تشبه صاحبها . قال ابن جنى : معنى سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله .
[لسان العرب - مادة : سجع] .

(٣) الطور : جبل بسيفاء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ ^(١٥٤) ﴾ [النساء] ، ويُسمى أيضاً : ﴿ طُورِ سِجَّاءٍ .. ^(١٥٥) ﴾ [المؤمنون] و ﴿ وَطُورِ مِصِينَ ^(١٥٦) ﴾ [التين] . [القاموس اللغوي ١/ ٤٠٨] .

(٤) الرق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس اللغوي ١/ ٢٧٢] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المغمزوسى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٢٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان لتفسير بينه وبين الأندلس ، تولى بإسبيلية عام (٤٦٣هـ) فى أيام المعتمد على الله ابن المعتضد . [الاعلام للزركلى ١/ ١٥٨] . ينصرف .

« هذا العُتْبُ محمودٌ عواقبه ، وهذه الغَمْرَةُ نَبْوةٌ ثم تنجلي ، ولن يريبنى من سيدى إنَّ أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فأبطأ الدَّلاء قَبْضاً أملوها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عُتْبُ عليه فى اغتفاله . فإنَّ يَكُنَّ الفعلُ الذى ساء واحداً فافعاله اللاتى سررنَ ألوفُ وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وانت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المرسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعري على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق في الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ . (٣٢) ﴾ [يوسف]

فهي موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ^(١) مُسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور]

وايضاً قوله الحق :

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

(١) لسان الازهرى : قرأ ابن كثير وناقع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي : اهنا الصراط المستقيم ، بالصاد . وقرأ يعقوب بالسين ، قال : وأصل صانه مسين فليت مع اللهاء حسناً لقرب مخارجهما . قال الجوهري : الصراط والسرائط : الطريق - [لسان العرب - ملحة - صراط] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نشرًا ، مما يدل على أن النغم الذى قاله الله تَظْمًا أو شعرًا أو نشرًا لا نشان^(١) فيه ، ويكاد أن يكون سبيلًا واحدًا .

وهذا لا يتأتى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم ينبّهك أحد لما فى بعض الآيات من وزن شعري .

أما كلام اليشعر ؛ فأنت إن قرأت الموزون ؛ ثم انتقلت إلى المنثور ؛ أحسّت أذنك بهذا الانتقال ؛ ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون ؛ وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۚ ﴾ (٣٢)

[يوسف]

قالت ذلك بجرأة من رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه « استعصم » ، وهذا يعنى أنه قد تكلف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل . وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٣٢)

[يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها من أكبرن يوسف لحظة رؤيته ؛ تعلن لهن أنه إن لم يطعها فسيما

(١) نشر الشيء ينشر نشرًا : ارتفع . وتل ناشز : مرتفع . ونشر فى مجلسه ينشر : ارتفع قليلاً . وأنشر الشيء : رفعه عن مكانه . [لسان العرب - مادة : نشر] .

تريد ؛ فلسوف تسجنه وتُصَغَّرُ من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النسوة اللاتي سَمِعَتْهَا ؛ فقد طمعت كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تنفرد أي منهن به .

ولذلك يُورد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ^(١)
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٢) ﴾

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٢٧) [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هي التي قالت :

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْغَرَنَّ^(٣) .. ﴾ (٢٢) [يوسف]

(١) الصرف : رد الشيء من حال إلى حال . وصرف السجين : أخلى سبيله ، وصرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ..﴾ (٥٧) [التوبة] أي : حوّلها . [القاموس القويم ٢٧٤/١] .

(٢) صبا يصير : مال وأحب ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٤)﴾ [يوسف] أي : أمل إليهن وأفعل ما يترينني به . وصبا إلى اللهو : حُرٌّ واشتاق إليه . [القاموس القويم ٣٦٨/١] .

(٣) الجهل : الطيش والسفه والتعدي بغير حق ، والجهل : ضد العلم وهو البخل من المعرفة ، واسم للفاعل ، جاهل ، وصيغة المبالغة « جهول » ، ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿وَلَنُكْرِمَنَّ أَكْثَرَهُمْ بِجَاهِلٍ^(٥)﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم ١/١٣٥] .
بتصرف .

ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحى له بالألّا يُعرض نفسه لتلك الورطة التى ستؤدى به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام فى قوله المفرد - امرأة العزيز - فى جمع النسوة اللاتى جمعتهن امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتى طلبنَ منه غَمَزًا أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه فى محاولة لاستمالته ^(١) ، وللعيون والانفعالات وقَسَمَات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دأَّت يوسف على المراد الذى تطلبه كل واحدة منهن ، وفى مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس فى مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء ^(٢) . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمْتُ عليك إلا مجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون فى المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خُفية بأنه سيُجَزَل ^(٣) له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أى شىء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٧/٤) : أن كل واحدة طلبت أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعذله (تلومه) فى حقها ، وتأمره بمساعدتها . ففعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وثراوية ، فقال : يا رب كانت واحدة تُصِرُّ جماعة .

(٢) هجاء يهجو بهجاء : شتمه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الوقيعه فى الأشعار . [لسان العرب - مادة : هجو] .

(٣) الجزيل . العظيم . وأجزلت له من العطاء أى أكثرت . وعطاء جزل وجزيل إذا كان كثيراً . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [لسان العرب - مادة : جزل] .

ألا أبلغُ لَدَيْكَ أبا دَلَامَة فليسَ مِنَ الْكَرَامِ وَلَا كِرَامِه
إِذَا لَبِسَ الْعِمَامَة كَانَ قِرْدَا وَخِزِيرَا إِذَا خَلَعَ الْعِمَامَه
وهكذا خرج من قسم الأمير : وكسب العطايا التي وعده بها من
حضرُوا المجلس .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها نجد يوسف عليه
السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة : فقال :

﴿ رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٢٢) [يوسف]

أى : أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل
الفحشاء ، أو يوافق النسوة على دعوتهن له أن يُحرّر نفسه من
السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿ وَالْأَنْصَرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢٣) [يوسف]

ولسائل أن يقول : ولماذا لم يقل يوسف « يا إلهي » وهو يعلم
أن مناط التكليف في الألوهية بـ « أفعَل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله
سبحانه ! لأنه هو جلّ وعلا مَنْ ربّاه وتعهّده : وهو هنا يدعوه باسم
الربوبية ألا يتخلّى عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر : وإن لم يصرف الله
عنه كَيْدَهُنَّ ! لاستجاب لغوايتهن ، ولأصبح من الجاهلين الذين
لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كرهه ؛ إلا أنه قد فضله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُرَبِّي الأول ، لتأتى الاستجابة منه سبحانه .
يقول الحق :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ^{٥٤}
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^{٥٥} ﴾

وهكذا تفضل عليه الله الذى خلقه وتولى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهن ؛ الذى تمثل فى دَعْوَتِهِنَّ له أن يستسلم لِمَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ امرأة العزيز ، ثم غَوَايَتِهِنَّ له بالتلميح دون التصريح .
تلك الغواية التى تمثلت فى قول الملك من بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ ^{٥٦} إِذْ رَأَوْنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سَوَءٍ .. ^(٥٦) ﴾

وهكذا أنجاه الله من مكر النسوة ؛ وهو جَلٌ وعَلَا له مُطْلَق السمع ومُطْلَق العلم ، ولا يخفى عليه شيء ، ويستجيب لأهل الصدق فى الدعاء .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ^{٥٧}
لَيَسْجُنَنَّهُمْ حَتَّى حِينٍ ^{٥٨} ﴾

- (١) الخطب : الشأن الذى تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿ قَالَ لَمَّا خَطَّبْتُمُوهَا الْمَرْسُورُونَ ^(٥٧) ﴾ [الحجر] أى : ما شأنكم الهام . [القاموس القريم ١/١٩٨] وقال فى اللسان : « الخطب : الشأن أو الأمر ، صغُر أو عظم . ومثله قولهم : جُلُّ الخطب أى : عظم الأمر والشأن » .
(٢) قال ابن عباس : « التميم من الآيات . وشهادة الشاهد من الآيات . وقطع الأيدي من الآيات . وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبي فى تفسيره (٤/٣٥٠٨) .

وبعد أن ظهرتُ العلاماتُ الشاهدةُ على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقعَ بيوسف في الفعل الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَعَ يوسف عليه السلام في السجن ؛ ليكون في ذلك فَصْلٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيْسَ جُنَّةٌ .. ﴾ (٣٥)

[يوسف]

فيها نوع من استبقاء الحب الذي يَكُنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نفيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذي يَكُونُ تلك الوقائع .

والسجن - كما نعلم - هو حَبْسُ المسجون لتقييد حركته في الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضي أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إزلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شره .

وتعلم أن الإنسان لا يجترئ على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضي أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَانٌ ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه في العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعض من أقاربه : ومعهم المأكولات : والمطلوبات .
ولكن هناك سجن ديني أسسه رسول الله ﷺ : حين عزل المجتمع
الإيماني عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألا يكلم أحد الثلاثة^(١)
الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية : بل وتسامى هذا
العزل إلى أن صار عزلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل
بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف في السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي
أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ،
أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة في التخلف عن الخروج مع
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٥١١/٤) : « قال » فتيان » لأنهما كانا عبيدين ، والعبد يُسمى
فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردي . وقال القشيري : ولعل الفتى كان اسماً للعبد
في مرفقهم ، ولهذا قال : ﴿ تَوَارَوْا فَأَمَّا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف] .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذي يغطي العقل ويذهب به ، وهي إما مأتونة من خمرة
الشيء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرة العجين : وضعت فيه الخمير لتتفاعل معه
فاختمر ، والخمر في صنفيها يوضع الخمير على العصير ويترك حتى يخمر فيستخذ منه
الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة] وقوله
تعالى ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف] أي : أعصر عنباً ليصير خمرًا فهو مجاز
مرسل علاقته ما سيتناول إليه . [القاموس القويم ٢٠٩/١] بتصريف .

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٢٥١٢/٤) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويناديهم ، ويعزى
الحزاني . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق رسع
عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . »

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هي معية ذات ،
وقيل : إنهما الخباز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة
بطانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هي
فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف : ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى
والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السم للعزيز^(١) .

وبعد فترة من حياة الاثنین مع يوسف داخل السجن ، وبعد
معايشة يومية له تكشف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حلمًا ، فقررا أن يطلبيا منه تأويل هذين
الحُلُمَين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوسار ، غير آمن على
غده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يهملهم :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حلمين ؛ فواحد منهما رأى فى
منامه أنه يعصر خمرًا ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْرًا فوق رأسه تاكل
منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كُلُّ منهما على حدة - يطلبان - تأويل
الرؤييين المناميتين ، أو أنهما قد طلبا نبيًا تأويل هذا الأمر الذى
رأياه .

(١) مما ذكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك
عمر فيهم فملوه فندسوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمماه جميعاً ، فأجاب الخباز وأبى
صاحب الشراب ، فأتلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ،
فاستأنسا بيوسف . [تفسير القرطبي ٢/٤١١] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦)

[يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عمله مقاييس الإحسان في ذهن من يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أي أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لعرفوا أن الإحسان قدر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص - على سبيل المثال - لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقة ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إن أردت أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسلباً .

والمثال الذي أضربه دائماً هو : قبل أن تمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءاً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْنِ إنْ نقلت الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك للأمور - وقد اعتدل . وإذا أردت اعتدال الميزان في كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قلب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرم عليك أن تسرق غيرك ، لم يضيق حرمتك ؛ بل ضيق حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذي يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيكما من إحساني ؟ هل رأيتم حسناً معاملتى لكم ؟ أم أن كلا منكما قد رأى دقة اختياري للحسن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي - بفضل الله - ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية :

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) [يوسف]

(١) الملة : الدين . خطأ كان أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِغِبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلْيَعْلَمْ إِنَّهُ أَمْلَأُ مِصْرَهُ نَفْثَةً ۖ نَفْثَةُ الْفِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة] . وهي الدين الحق . ومن الباطل قوله : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ۚ ﴾ [الكهف] ، وهي ملة باطلة . [القاموس القويم ٢٢٦/٢] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٢٥١٢/١) : قوله : ﴿لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ تُرْفِقَانِهِ﴾ [يوسف] يعني : لا يجيئكم شئاً طعماً من منزلكما : ﴿لَا يَأْتِيَكُمُ بَنَاتُهُ﴾ [يوسف] لتعلمنا أني أعلم تأويل رؤياكم . وكان هذا من علم الغيب خصّ به يوسف ، وبين أن الله خصّه بهذا العلم ؛ لأنه ترك صلة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني : دين الملك .

وكانه بذلك يهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من مِثْلاتِ الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفَى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى في إِنْسان ما مَخِيلَةً^(١) خير فليُتِمِ هذه المَخِيلَةَ فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يَحْتَجِزُ الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأُسوة الحسنة ؛ ولكي يُطْمِعَ العباد في تجليات الله عليهم وإشرافاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك مِلَّةَ قوم لا يؤمنون بالله بما يليق بالإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً في النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ^(٢) مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨)

(١) إنه لمخيل للخير أي : خَلِيق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيّل عليه تخيلاً ، كلاهما : اختاره وتقرّس فيه الخير . وتقولت فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أي : رأيت مخيلته . وتخيّل الشيء له : تشبّه . وتخيّل له أنه كذا أي تشبّه وتخالل . يقال : تخيلت فتخيّل لي . كما تقول تصوّرته فتصوّر - وتبينته فتبين . وتحققته فتحقّق - [لسان العرب - مادة : خيل] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذي في سننه (٢١١٦) . وأحمد في مسنده (٢/ ٢٢٢ ، ٤١٦) ، والحاكم في مستدركه (٢/ ٢٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملة القوم الذين لا يعبدون الله حقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم من أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادي ، وقضيه سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لمن يعرف ذلك أن يشرك بالله ، فالتشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١)

[المؤمنون]

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كل إله شيئاً لا يقدر على صنعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله - هكذا أوضح يوسف عليه السلام - أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلغوا منهجه إلى خلقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

اعلم أن الأمر الذي أنت بصددده هو فى مقاييس العقل والفطرة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْرُ إلا على النعمة .

ولو قَطَنَ الناسَ لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذي يُلغوه عن الله ؛ لأنَّ يهديهم إلى حُسْنِ إدارة الدنيا ، وقوى ذلك يهديهم إلى الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين :

﴿يَصْلَحِجِي السِّجْنِ ۚ أَرْيَاكَ مُتَقَرَّبُونَ
خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١)

وكلمة « صاحب » معناها ملازم^(٢) ؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو « صاحب حج » ، الشيء الذي يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذي جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

(١) الرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شيء أى مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له . وهو رَبُّ الأرباب . ورب كل شيء : مالكه ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة على المالك والعبيد والمدبر والمربي والصاحب والقيم والمنعم . [لسان العرب - مادة : رب] بتصريف .

(٢) قهره يقهره قهراً : غلبه وإنَّه . قال تعالى : ﴿لَأَنَّا الْبَيْتَ فَلَا تَقْهَرُ﴾^(٣) [المصحر] . والقاهر : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(٤) [الانعام] أى : المسيطر عليهم . [القاموس القويم ١٢٦/٢] بتصريف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثرت ملازمته . صاحبه يصحبه وصاحبه : ماضيه . والصاحب : المعاشير . [لسان العرب - مادة : صاحب] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿أَرَأَيْتَ مَتَّفِرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ [يوسف]

وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فأنت تعلم مقدماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكان يوسف قد وثق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكن ليسأل إلا إذا عرف أنهما سيديران كل الأحيوية ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذي أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض في مقاييس الأشياء أن تُغنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : في قوَى البشر نجد التعدد يُثْرى ويُضخِّم العمل ، لكن في الألوهية نجد الشرك يُضعف العمل .

ولذلك نجد الصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبيه السجن :

﴿أَرَأَيْتَ مَتَّفِرِّقُونَ خَيْرٌ .. (٣٩)﴾ [يوسف]

ولو كان تفرُّقهم تفرُّق ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق تكرر لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطة قوة ونقاط ضعف ؛ وتفرُّقهم هذا دليل نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ^(١) وَرَجُلًا سَلَمًا ^(٢) لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ^(٣) ﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ،
وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِي إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا أَتَمًّا
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ
أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاتُهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ^(٤) ﴾

ونلاحظ أن يوسف - عليه السلام - لم يتكلم حتى الآن مع
السجينين عن مطلوبيهما منه ، وهو تأويل الرؤيتين ، وهو لو تكلم في
المطلوب منه أولاً ؛ لانصرف ذهن وانتباه كل من السجينين إلى قضاء

(١) شكس: ساء خلقه وغلب عليه حب النزاع - وتشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال
تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. ^(٢٩) ﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد للمشارك
له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ٢٥٤/١] .

(٢) السَّلَم : السَّلَام : الأمان وعدم الحرب . ﴿ ادْخُلُوا إِلَى السَّلَامِ كَالْفِئَةِ ﴾ [البقرة] في الصلح
والمهادنة والاستسلام . ﴿ وَالْقُرْآنُ نَزِيلٌ سَلَامٌ .. ^(٣٦) ﴾ [النساء] سالموكم وخضعوا لكم
واستسلموا لكم . وقوله تعالى : ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ .. ^(٣٧) ﴾ [الزمر] أي : ملكاً خاصاً له
لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ٢٢٤/١] .

(٣) الْقَيِّمُ : الثابت المستقيم الذي لا موجه فيه . أو المقوم المعدل للأمور أو المهيمن المشرف
عليها . ومن ذلك قوله : ﴿ دِينًا قِيَمًا .. ^(٣٨) ﴾ [الانعام] أي : مستقيماً أو مقوماً لغيره من
الاديان السابقة . [القاموس القويم ١٤٣/٢] .

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذي يدعو إليه هو الأمر الأبقى ، وهو الأمر العام الذي يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتها إلى الأمر الجوهرى قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التى يسألان فيها ؛ وأراد أن يُصحح نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفى هذا إبطاء لا أثره^(١) .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ .. ﴾ [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة متعددة هو مجرد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتم بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آبائكم كفر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتوضيح الأسماء عادة للدلالة على المسمى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذهن ؛ ولذلك تسمى المولود بعد ولادته باسم يُميّزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

(١) أثره عليه : فضله . وآثر فلاناً على نفسه . من الإيثار . ويقال : قد أخذ بلا أثره وبلا أثره وبلا استئثار ، أى : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [لسان العرب - مادة : أثر] .

وإذا أطلق اسم واحد على متعددين ؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمثل من الريف المصرى ؛ حين يتفاهل أب باسم « محمد » ؛ فيسمي كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يميز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضع اسم لمسمى غير موجود ؛ فهذا امر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ؛ فصارت هناك أسماء على غير مسمى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة ؛ ليسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تكن هناك آلهة ؛ بل كان هذا أسماء بلا مسميات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ۖ ﴾ (٤٠) [يوسف]

وكان يوسف يتساءل ؛ إذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مسمى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مسمى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسَمًّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزل معهم المنهج الذي يوجز في « أفعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسَمًّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام في وُصِفَ تلك الأسماء التي بلا مُسمّيات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .. ﴾ (٤٠)

[يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴾ (٤١)

[يوسف]

أى : إننى - والكلام ليوسف - إن قلتُ شيئاً فلأنى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندي ؛ ولا عن هواى ؛ لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذَكِّرُ الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٢)

[يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلغتهم بالمنهج ،

ولكنهم لم يُوظَّفوا هذا العلم في أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام في تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿يَصْحَبِي السَّجْنُ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رِيَهُ خَمْرًا
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (٤١)

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فلن سوف يُصلَّبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سياتكل من رأسه ؛ وهذا يعنى أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الاحاديث ، وهى قدرة على فكِّ شفرة الحُلُم ، ويعطيها الله لمن يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمن قال :

﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ..﴾ (٤٦) [يوسف]

أنه سوف ينال العفو حسب ما أظهرته الرؤيا التى قالها ، وأما

(١) استفناه : طلب منه الفتوى وسأله رايه فى مسألة لمافتاه . فاجابه . قال تعالى : ﴿وَأَسْتَفْتِيهِمْ

أَلْرَبُّكَ الْغَنِيُّ وَأَلَّهُمُ الْبَرُّ﴾ [المسافات] وقال : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ فَلِى اللَّهِ بِفَيْكُمْ لَبِهُنَّ

﴾ (٤٧) [النساء] .

الآخر فسيأكل من رأسه الطير - أي : سيُصلب كما أوحى بذلك رموز الرؤيا .

ونلاحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذي أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبي الرؤييين .

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُتصّباً على الحكم : لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما : وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، وَمَنْ الذى سوف يُعاقب .

فنزح يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه : لأن الهوى يُكوّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويعلمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا^(١) الْمِحْرَابَ^(٢) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَفَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ^(٣) وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ^(٤) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا^(٥) وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ^(٦) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسْؤَالِ نَعْجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي

(١) تسور السور : تسلقه وعلاه . قال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا الْمِحْرَابَ﴾^(٢) [من] [القاموس القويم ١/٢٢٥]

(٢) المِحْرَاب : الجور وتجاوز الحد فى كل شيء . قال تعالى : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا^(١)﴾ [الكهف] أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٢٤٩] .

(٣) أَكْفَلْنِيهَا : أى اجعلنى كفالاً لها راعياً شئونها مالكا لها . عزنى فى الخطاب : غلبنى وقهرنى . [القاموس القويم ٢/١٨، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَانَهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نعاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفه ؛ وكان يريد أن يَصُوِّرَ الظلم الذي وقع عليه ، وحكم داود بأن مَنْ أَخَذَ النِّعْجَةَ لِيُضْمِهَا لِنَعَاجِهِ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ ؛ وشعر داود أنه لم يُوقِفْ فِي الْحُكْمِ ؛ لأنه ذكر في حيثية الحكم نعاج الذي أراد أن يأخذ نِعْجَةَ أَخِيهِ .

فَالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإبانة الذي أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنه لم يُوقَفْ فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرؤيا متجرباً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ﴿٤١﴾ [يوسف]

أي : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذي وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهي أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدَّرَ محبتها له .

(١) خر راعياً ؛ أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من عل . [القاموس القويم

وتناقت نفس يعقوب إلى ولده : فذهب إليها وقال لها : سلمى إلى يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدت إلى شيء^(١) من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعت تحت ملابس يوسف .

وكان العرفُ الجارى أنه إذا سرق أحد شيئاً وتم ضبطه : تحول من حر إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته : أعلنت العمّة فقدان الشيء الذى أعطاه لها والدها إسحق : وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لسلم - أى عبد - وكان العرف أن من يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقى يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمّة .

ثم جاءت حادثة الحب ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لفوائته ، ورغم تيقن العزيز من براءته إلا أنه أودع السجن : ويقول الرواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرف فى السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسن السمات^(٢) ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير - أى تأويل الرؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

(١) هذا الشيء هو منطقة إسحاق فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤٨٦/٢] والمنطقة : هى كل ما شد به الإنسان على وسطه ، وقد انتطق : أى شد النطق على وسطه . [لسان العرب - مادة : نطق] .

(٢) السمات : حسن القصد والمذهب فى أمور الدين والدنيا . قال خاله بن جنيّة : السمات اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الأذى . [لسان العرب - مادة : سمات] .

ولما دخل هذان الفتيان معه السجن : تألفا به وأحيأه حباً شديداً
وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه
ما من أحد أحببني إلا دخل على من محبته ضرراً ، أحببتني عميتي قد دخل
الضرر بسببها ، وأحببني أبي فاوديت بسببه ، وأحببتني امرأة العزيز
فكذلك .

أي : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جناه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك ،^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظن أنه سينجو
من السجن :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرَنِي عِنْدَ

رَبِّكَ ^(٢) فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي

السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٤﴾

والمقصود هنا هو السجين الذي رأى حلماً يعصر فيه العنب ،
فهو الذي فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته في
صناعة الخمر لسيدته .

(١) قال القرطبي في تفسيره [٢/٢٥١١] أن صاحب السجن أحب يوسف ، فوسع عليه فيه ، ثم
قال : يا يوسف لقد أحببتك حباً لم أحب شيئاً حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم
ذلك ؟ فقال : أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه ، وأحببتني سديتي فنزل بي ما ترى .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى راعي الأسرة ورئيسها .

[القاموس القويم ٢/٢٥١] يتصرف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

يعنى أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

والذكر هو حضور شيء بالبال : وكان له بالبال صلة استقبال ، مثل أى قضية عرفتّها من قبل ثم تركتها ، ونسيّها لفترة ، ثم تذكرتها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهى لا تظل فى بؤرة الشعور كل الوقت ؛ لأنّ الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشيء واحد ، فإن جاء شيء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد فى بؤرة الشعور .

والمثل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتى ما يُذكرك بما فى حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذى كنت قد نسيته وتذكره بكل تفاصيله ؛ لأنّ ذاكرة الإنسان تعمل على مُستويين ؛ فهى تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه ناج :

﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

أى : اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول : شاء له الله أن يمكث في السجن بضع سنين : فما كان ينبغي له كرسول أن يُوسَّطَ الغير في مسألة ذكره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي : وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا بَأْنِكُمَا بَتَّوِيلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي .. (٢٧) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذى يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

[يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مُراداته من خلقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ؛ ونعرف
أن البضع من السنين يعنى من ثلاث سنوات إلى عشر سنوات ،
وبعض العلماء حدّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ^(١) وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ
وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ ^(٢) يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ
كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٢)

والأرض التى وقعت عليها ، وجرت فوقها تلك القصة هى مصر ،
وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّونَ الفراعنة ، وبعد
أن اكتُشِفَ « حجر رشيد » ، وتم فكُّ اللغز اللغز الهيروغليفية ؛ عرفنا

(١) عِجَافٌ : هزل فهو أعجف وهى عجفاء . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. (٢١) ﴾

[يوسف] هى الهزلى التى لا لحم عليها ولا شحم خُربت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا
خشب [لسان العرب - مادة : عِجَف] .

(٢) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والنجاسة والعرافة والسحر وأشراف

قومه . [إراجع : تفسير القرطبي ٢٥٢٠ / ٤] .

أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ! حين استعمر مصر ملوك الرعاة ،
وهم الذين يُسمون الهكسوس .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف
وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ،
وقتلوا من كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود ملك في مصر أثناء قصة يوسف عليه
السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن .

وساعة نقرأ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴾ (٤٢)

[يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه : فهذا يعنى أنها رؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ ﴾ (٤٢)

[يوسف]

أى : مُثَلَّثَةُ اللحم والعافية . وكلمة (عِجَاف) أى : الهزيلة ! كما
يُقال عند العامة « جلدها على عضمها » : فكيف تأكل العجاف
السمان ؟ مع أن العكس قد يكون مقبولا ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعٌ سُتَلَاتٍ خُضَرٍ وَأَخْرَ يَابَسَاتٍ .. ﴾ (٤٣)

[يوسف]

ولم يَصِفِ الملك أى فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل من حوله
من أعيان القوم الذين يتصدرون صدور المجالس ، ويملاون العيون :

﴿ أَقْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٣) [يوسف]

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أى : انتقل من شاطئ إلى شاطئ ، وكأنه يطلب منهم المراد المطوى فى الرؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العبرة » ، وهى التجربة التى نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شيء مكتوم فى النفس ، وتؤديه ، وتظهره بالعبارة .

ومن « العبرة » ، وهو الدمعة التى تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما : سواء كانت مشاعر حزن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسرُ الرؤيا حين يعبر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملا الذين حول الملك تفسيراً للرؤيا التى رآها فى منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوا أَضُفِّتُ أَحْلَامُهُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (٤٤)

وهكذا أعلن الملا أن رؤيا الملك ليست سوى أخلام أخلام بلا معنى .

(١) الضفت : قبضة من قضبان مختلفة من التيات . وقوله تعالى : ﴿ أَضُفِّتُ أَحْلَامُهُ ﴾ (٤٤) .

[يوسف] أى : أحلام مختلفة مختلفة ملتبسة غير مميزة على سبيل الاستعارة ، كالاشياء

المختلفة . [القاموس القويم ١/ ٢٩٦] .

و « الضُّعْفُ » هو حُرْمَةٌ من الحشائش مختلفة الأجناس : فكان رُؤْيَا الملك لا تأويل لها عندهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز في التأويل .

وهذا صدق من البطالة في ألا يخبر أحدهم بشيء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذي يعلن جهله بأمر لسانه - ويكون قد علمه - يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يثبت على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصدق في الفتيا : « مَنْ قَالَ لَا أَدْرِي فَقَدْ أَفْتَى » : لأنه حين يقول « لَا أَدْرِي » ؛ سيضطر إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (١) أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٢) ﴾

وكان الذي نجا من السجينين يسمع مقالة الملك ورد الملاء ؛ فاسترجع بذاكرته ما مرَّ عليه في السجن ، وكيف رأى الرؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

(١) ادكر : أصلها اذكر على وزن افعل . قلبت تاء الافتعال دالا و زال الفعل دالا وأدغمت

الدالان : ﴿ وَقَدْ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) ﴾ [القمر] [القاموس القويم ٢٤٤/١] .

(٢) الأمة : المدة والحين والوقت ، وفسر به قوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (٢٠) ﴾ [يوسف] .

وقرأ ابن عباس « وانكر بعد أمه » ، والهاء ، والأمة : التسيان والغفلة أي تنكر بعد نسيان .

[القاموس القويم ٢٤٤/١] .

وقوله : ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (١٥)﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهنه ؛ وافشعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مرَّت ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾ [مود]

و « الامة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا^(١) لِلَّهِ حَنِيفًا وَكَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افشعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أن كان سجيناً وراى رؤيا منامية أوَّلها له يوسف . قال الساقى للحلا وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿أَنَا أَنبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥)﴾ [يوسف]

وبذلك استأنن ليذهب إلى مَنْ يُؤُول له رؤيا الملك .

وقوله : ﴿فَأَرْسِلُونِ (٤٥)﴾ [يوسف]

(١) اللقنوت : الطاعة والدماء . وقتل المؤمن بانه : اطاعه وأقر له بالمعبودية . وقتل فى صلاته : خشع واعلمن - وقت : دعا وأطال الدماء . [القاموس القويم ١٢٤/٢].

يعنى أن التاويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تاويل
الرؤى .

ونلاحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف
يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .
وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛
فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك :

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ
خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْتِسُّ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. ﴾ (٤٦)

[يوسف]

يدل على أنه قد جُرب في مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صِدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق في كل أقواله ؛
وصادق في كل أفعاله ، وصادق في كل أحواله ، ولكن معناها يتسع
ليدلنا على أن الصديق ملازم له دائماً في القول وفي الفعل .

(١) الصِّدِّيق : بكسر الصاد وتشديد الدال: صيغة مبالغة من الصديق . ﴿ أَوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ
.. ﴾ [الحديد] ، وهي صديقة : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. ﴾ [المائدة] هي مريم عليها

السلام . [القاموس الزويم ٢٧٢/١] .

أما في الأقوال فصدقه واضح ؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدل عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألا تُجَرَّبَ عليه كلاماً ، ثم يأتي فعله مخالفاً لهذا الكلام ؛ وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صَدِيقٌ » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان في الحياة تنقسم قسمين ؛ إما قول وإما فعل ؛ والقول أداته اللسان ، والفعل أداته كل الجوارح .

إذن ؛ فهناك قول ، وهناك فعل ؛ وكلاهما عمل ؛ فالقول عمل ؛ والرؤية بالعين عمل ؛ والسمع بالأذن عمل ، والمس باليد عمل .

لكن القول اختص باللسان ، وأخذت بقية الجوارح الفعل ؛ لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان ؛ إما قول ؛ وإما فعل .

والصديق هو الذي يصدق في قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق في فعله بالأقوال يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ^(١) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

(١) لمقت : أشد الإغضاظ . مقت يسقته : يغضه . ويقول تعالى ﴿ لَمَلَأَ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مُقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ . (٢) ﴾ [غافر] قال : يقول : لمعت الله إياكم حين دعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا أكبر من مقتكم أنفسكم حين رايتم للعذاب . [لسان العرب - مادة : مقت] .

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشَتِهِ فِي السَّجْنِ هُوَ وَزَمِيلُهُ الْخَبَازُ ،
وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّلَ لهما الرؤييين :
﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]
والتجربة الثانية : هي مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً
لتأويله للرؤييين . ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٦) [يوسف]

أى : أفنتنا في رؤيا سبع بقرات سِمَانٍ ؛ يأكلهن سبعٌ عِجَافٌ
شديدة الهزال ، وسبع سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ ، وسبع أُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي
أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصُّه ؛ بل هي تخص رائيها لم
يُحدده ، وإن كنا قد عرفنا أنها رؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

هو تحرُّزٌ واحتياطٌ في قضية لا يجزم بها ؛ وهو احتياطٌ في واقع

قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ (٢٤) [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجت نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يهديك إلى الاختيار المناسب في كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكان الله يُعلم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططتْ فانت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدم على أي فعل ؛ فأَيُّ فعلٍ مهما صَغُرَ يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة . لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أن تردَّ كل شيء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقى :

﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

وبذلك يُعلمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٦) [يوسف]

وكان الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السلام : ويعود به إلى الناس ؛ فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التاويل ؟

أستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجة^(١) فيه ؟ أو يستقبلون التاويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرَكَ ومنزلتك يا يوسف : فيُخلّصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ۚ ۞ (٤٦) ﴾ [يوسف]

قد يدفع سائلاً إلى أن يقول : مَنْ الذي كُلِّف الساقى بالذهاب إلى يوسف : أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد نسبها الساقى إلى الكل : للاحتياط الأداوى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ
فِي سَبِيلِهِ ۚ إِنْ أَقْلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ۞ (٤٧) ﴾

وهذه بداية تاويل رؤيا الملك .

والدَّابُّ معناه : المُواظبة ؛ فكان يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأبٍ وبدون كسل .

(١) تحاجاً : تخاصماً وتنازعا الحاجة ، كل منهما يحاول أن يثبت أنه الحق ، قال تعالى : ﴿ وَادَّخَرُوا الْحَبْلَ فِي الْبُيُوتِ ۚ ۞ (٤٧) ﴾ [غافر] أي : يتخاصمون . [القاموس القويم ١/ ١٤٢] .

(٢) دأب على الأمر : اعتاده . والدَّابُّ والدَّابُّ : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ لُوطَ ۚ ۞ (٤٨) ﴾ [غافر] أي : عاداتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ۚ ۞ (٤٧) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ١/ ٢١٩] .

وَيَتَابِعُ : ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧)

[يوسف]

أى : ما تحصّدونه نتيجة الزرع بجدّ واجتهاد ؛ فلكم أن تأكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً في سبيله .

والحفظ في السبيل يُعلّمنا قَدْرَ القرآن ، وقُدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه ، وما آتاه الله جلّ علاه ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين ، وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزّن في سبيله ؛ فستلك حماية ووقاية له من السوس .

وبعض العلماء قال في تفسير هذه الآية : إن المقصود هو تخزين القمح في سبيله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو ترك القمح في سبيله فقط ؛ لأن العيدان هي طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان ؛ وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمح أثناء عملية « الدّرس » ؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُنفصلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التي تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، وتسميها « الردة » وهي نوعان : « ردة خشنّة » و « ردة ناعمة » .

ومن عادة البعض أن يَفصلوا الدقيق النقي عن « الردة » .

وهؤلاء يتجاهلون - أو لا يعرفون - الحقيقة العلمية التي أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالي من « الردة » يصيب المعدة بالتلبك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوي على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف في مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمونه « الدقيق العلامة » ؛ الذي إن وضعت ملعقة منه في فمك ؛ تشعر بالتلبك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعي الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ؛ فلن تشعر بهذا التلبك .

ويمتن الله على عباده بذلك في قوله الحق :

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ^(١) وَالرِّيحَانُ ^(٢) ﴾ [الرحمن]

وقد اهتمدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة في طحن القمح، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقي للغاية ؛ يعاني من ارتباك غذائي يُلجئه إلى تناول خبز مصنوع من قشر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السن » ؛ ليعوض في غذائه ما فقد من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(١) الحب ذو العصف : أي ذو القين أو ذو الورق الذي يخلقه . والعصف والعصيفة : ورق السنبل . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٤/ ٢٧١) : « معنى هذا والله أعلم أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف وهو ما على السنبل ، وريحان وهو الورق العلف على ساقها » .

﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الماسقي الذي جاء يطلب منه تاويل رؤيا الملك : بما يجب ان يفعلوه تحسباً للسنوات السبع العجاف التي تلي السبع سنوات المزدهرة بالخضرة والعطاء ، فلا ياكلوا ملء البطون ؛ بل يتناولوا من القمح على قدر الكفاف :

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التاويل لحلم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا حَصَرْتُمْ ^(١) ﴾ (٤٨)

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث في مصر من جذب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذي يتطلب همه لا تفتر .

وقوله سبحانه في وصف السبع « سنوات » بأنها :

﴿ شِدَادٌ ﴾ (٤٨) [يوسف]

يعنى : أن الجذب فيها سوف يُجهد الناس ؛ فإن لم تكن هناك

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٥٢٦/٤) : « أى : مما تحبسون لتزعموا ، لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات . قال أبو حنيفة : تحسبون . وقال قتادة : تحسبون : تدفرون ، والمعنى واحد » .

حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدث المجاعة ، وليعصم الناس بطونهم في السنوات السبع الأولى ، وليأكلوا على قَدَرِ الضرورة ؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْبِ .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقى حياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمُرُّ على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط ؛ بل نبغى منه المتعة أيضاً ، ولو كان الإنسان يبغي سَدَّ غِثَاثَةٍ^(١) الجوع فقط ، لاكتفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا ناكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول :

﴿ فَكُلُوْهُ هَنِيْئًا ^(٢) مُرِيْنًا ^(٣) ۝٤ ﴾ [النساء]

أى : بدون أن يضرك ، ودون أن يَجِرِّكَ هذا الطعام إلى المَهْضِمَاتِ مِنَ الْعَقَاقِرِ .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه : ﴿ هَنِيْئًا ۝٤ ﴾ [النساء]

أما المقصود بقوله : ﴿ مُرِيْنًا ۝٤ ﴾ [النساء]

(١) الْغِثَاثُ : المهالك . وَالْغَوْلُ : المشقة . [لسان العرب - مادة : غول] .

(٢) هَنُوٌّ يَهْنُزُ هَنَاءً : تيسر بلا مشقة ، وسهل أمره ، وسعد به صاحبه وهو طعام هنىء : أى سائغ نافع يسعد به آكله . قال تعالى : ﴿ فَكُلُوْهُ هَنِيْئًا مُرِيْنًا ۝٤ ﴾ [النساء] أى : حلالاً طيباً لا حرمه فيه ولا حرج عليكم فى آكله . [القاموس القويم ٢/ ٢٠٩] .

(٣) مَرَّةٌ الطَّعَامُ : سَهْلٌ فى البَاطِنِ وَحَسِيْدٌ عَاقِبَتُهُ وَخِلَا مِنْ التَّنْفِيْصِ . [القاموس القويم

قهر الطعام الذى يفيد ويمد الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يستساغ
طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تُحْصِنُونَ﴾ (٤٨)

[يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هي التي تاكل ؛ بل البشر
الذين يعيشون في تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أى حدث يحتاج لزمان ومكان ؛
ومرة ينسب الحدث للزمان ؛ ومرة ينسب الحدث للمكان .

والمثل على نسبة الحدث للمكان هو قول الحق سبحانه :

﴿وَأَسْأَلُ^(١) الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ^(٢) ..﴾ (٤٩)

[يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التي كانوا فيها ،
وأصحاب القوافل التي كانت معهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمتها ؛ نجد الحدث
منسوباً للزمان ؛ وهم سيأكلون مما احصنوا (لا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن
يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبذور لاستخدامها
كتقاوى فى العام التالى لسبع سنوات موصوفة بالجذب .

(١) وهذا الأسلوب يسمى فى البلاغة المجاز بالحذف - ولأن الإيجاز للجرجاني -

(٢) العير : القافلة ، والعير : القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿ أَتَيْتُهَا

الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَخَارِقُونَ ﴾ (٧) [يوسف] أى : أيها القوم الراحلون ، [القاموس القويم ٤٤/٢] .

وقوله تعالى :

﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

نجده من مادة « حصن » وتفيد الامتناع ؛ ويقال : « أقاموا في داخل الحصن » أى : أنهم إن هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

أى : الممتنعات عن عملية الفجور ؛ وهنّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللّٰى أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا .. (٩١) ﴾ [الأنبياء]

أى : التى أحكمت صيانة عفتها ، وهى السيدة مريم البتول^(١) عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ^(٢) (٩٩) ﴾

(١) البتول من النساء: العذراء المنقطعة عن الأزواج . ويقال : هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا . [لسان العرب - مادة : بتل] .

(٢) قال ابن عباس : يعصرون الأغاب والذمن . وقال ابن جريج : يعصرون العنب خمراً ، والسمسم دهنًا . والزيتون زيتًا . وقيل : أراد جلب الألبان لكثرتها . ويدل ذلك على كثرة النيات . [تفسير القرطبي ٢٥٢٧/٥] .

ونلاحظ أن هذا الأمر الذى تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرؤيا ؛ لأن ما احتوته رؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف^(١) يأكلن سبع بقرات سمان ؛ وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأسور ؛ حيث يعود الخصب العادى ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك ..

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غوث » ؛ لاننا نقول « أغث فلاناً » أى : آمن فلاناً ؛ لانه فى حاجة للعون ، والغيث^(٢) ينزل من السماء لينهى الجنب .

وقوله : ﴿ يَغَاثُ النَّاسُ ۖ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى : يعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضرورى من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى : مما يمكن عَصْرُه من حبوب أو ثمار ؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعمل .

(١) عجاف : هزل فهو أعجف . وهى عجاء . أى : هزيلة . والتعجيف : سوء الغذاء والهزال .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلْنَ سَبعَ عِجَافٍ ۖ ﴾ [يوسف] (٤٩) هى : الهزلى التى لا لحم عليها ولا

شحم ، ضريرت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خصب . [لسان العرب - مادة : عجف] .

(٢) الغيث : المطر . والغيث : الكلا ينبت من ماء السماء . والاصل المطر ، ثم سُمي ما ينبت

به غيثاً . [لسان العرب - مادة : غيث] .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرْزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاة ! ولهم أن يدخروه ، وما سبق في آيات الرؤيا وتاويلها هو حوار بين يوسف الصديق - عليه السلام - وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء في أمر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأن يرسلوه كي يُحْضِرَ لهم تاويل الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علم الملك بتاويل الرؤيا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ فَلََمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ٥٠ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له تاويل الرؤيا ، وأصرَّ الملك أن يأتوا له بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب الاستفادة منه ؛ وعاد الساقى ليُخْرِجَ يوسف من السجن الذي هو فيه .

لكنه فُوجيء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء يصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ٥١ ﴾ [يوسف]

وهكذا حرص يوسف على ألا يستجيب لمن جاء يُخَلِّصه من عذاب السجن الذي هو فيه ؛ إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ ﴾ [يوسف]

ويُخفى هذا القول في طياته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العبرة التي تخدمنا في واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أي إنسان هو أمر مُهِمٌ ؛ كي تزول أي ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أي عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولُ قائل في وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمْزاً »^(١) : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول :

« عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه - والله يغفر له - حيث أُرْسِلَ إليه لِيُسْتَفْتَى في الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من

(١) اللَّمَزُ : العيب في الوجه ، وأصله الإشارة بالعين والراس والشفة مع كلام خفى ، والهمز : الغيبة والوقيعة في الناس وذكر عيوبهم . [لسان العرب - مادتي : لمز ، همز] .

صَبْرِهِ وَكِرَمِهِ - وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ - أَتَى لِيُخْرِجَ فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى أَخْبِرَهُمْ
بِعِذْرِهِ ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لِبَادِرْتِ الْبَابَ ، وَلَكِنَّهُ أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْعِذْرُ^(١) .

وَشَاءَ تَبَيَّنَا ﷺ أَنَّ يُوضَحَ لَنَا مَكَانَةَ يُوسُفَ مِنَ الصَّبْرِ وَعِزَّةِ
النَّفْسِ وَالنِّزَاهَةِ وَالْكَرَامَةِ فَقَالَ ﷺ :

« إِنْ الْكَرِيمَ ، ابْنُ الْكَرِيمِ ، ابْنُ الْكَرِيمِ ، ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ
يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ . قَالَ - لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثْتُ ، ثُمَّ
جَاءَنِي الرَّسُولُ أَجِبْتُ ثُمَّ قَرَأَ ﷺ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي
قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾^(٢) . [يُوسُفَ]

وَهَكَذَا بَيَّنَّ لَنَا الرَّسُولُ ﷺ مَكَانَةَ يُوسُفَ مِنَ الصَّبْرِ وَالنِّزَاهَةِ ،
وِخْشِيَّتِهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ السِّجْنِ فَيُشَارَإِلَيْهِ : هَذَا مَنْ رَاوَدَ امْرَأَةً سَيِّدَهُ .
وَفِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ إِشَارَةٌ إِلَى مِبَالِغَةِ يُوسُفَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ ،
وَكَانَ مِنَ الْأَحْوَاطِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ السِّجْنِ ، ثُمَّ يَحْمِلَ عَلَى كَشْفِ بَرَاءَتِهِ .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْكَرِيمَ لَا يَسْتَفِلُّ الْمَوَاقِفَ اسْتِغْلَالًا أَحْمَقَ ، بَلْ
يَأْخُذُ كُلَّ مَوْقِفٍ بِقُدْرِهِ وَيُرْتَّبُ لَهُ ؛ وَكَسَانِ يُوسُفَ وَاثِقًا مِنْ بَرَاءَتِهِ ،
وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَكُونَ الْمَلِكُ آخِرَ مَنْ يَعْلَمُ .

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ (١١٦٤٠) ، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (٤٠/٧) : « قَبِيه
إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ الْقُرَشِيُّ الْمَكِّيُّ وَهُوَ مُسْتَرْكٌ » ، وَقَدْ أَوْرَدَهُ السَّيْرُوْطِيُّ فِي الدَّرَرِ الْعَنْشُورِ
(٥١٨/٤) وَعِزَّادَةُ لَازِمِ جَرِيرٍ وَأَبْنُ حَاتِمٍ وَالتَّبْرَانِيُّ وَأَبْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ عَنِ بْنِ عَبَّاسٍ .
(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٢٢/٢) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٢١١٦) وَقَالَ : « حَدِيثٌ حَسَنٌ » .
وَكَذَا أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٢٤٦/٢) كَلِمَةً مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ . قَالَ الْحَاكِمُ :
« هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْ بِهِذِهِ السِّيَاقَةُ » وَسَكَتَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ .

وصدق رسولنا ﷺ حين قال : « دُعُ مَا يَرْيَبُكَ إِلَى مَا لَا يَرْيَبُكَ ، فَإِنِ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَإِنِ الْكُذْبَ رَيْبَةٌ » ^(١) .

وكان ﷺ يرى أن الإيمان بالله يقتضى ألا يقف المؤمن موقفَ الرُّيبة ؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نَائِبَهَا ، قد تُثير الغيرةَ من نِبَاهَتِهِ البعضُ ؛ فيَتَقُولُونَ عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك ؛ بالأُ تقف موقفَ الرُّيبة ، والامر الذى تأتيك منه الرُّيبة ؛ عليك أن تبتعد عنه .

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة ، فقد جاءت زَوْجُهُ صفية بن حُيَيٍّ تزوره وهو معتكف فى العشر الاواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتُ تنقلب - أى : تعود إلى حجرتها - فقام معها رسول الله ﷺ ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، مرَّ بهما رجلان من الانصار فسَلَّمَا على رسول الله ﷺ ثم نفذاً ^(٢) ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « على رِسَالِكُمَا ، إنما هى صفية بنت حُيَيٍّ . قَالَا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما » ^(٣) .

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٧٨) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (٢٠٠/١) ،

والترمذى فى مسنده (٢٥١٨) وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث الحسن بن على .

(٢) التفاد : الجواز . وفى المحكم : جواز الشيء والخلوس منه . تقول : نفذت أى جُزّت .

[لسان العرب - مادة : نفذ] ، أى : مرّاً وجاوزاًهما .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من

حديث صفية بنت حُيَيٍّ .

وهنا في الموقف الذي نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعي النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، ورأودن يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ خَشِ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنَاصُصَةُ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٥١﴾

ونعلم أن المُرَاوِدَة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز ؛ واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هِيَ النسوة إلى مجلسها ؛ وقَطَعْنَ أيديهن حين فُوجئْنَ بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَسَ لَدُنِّي أَصْبٌ ۚ ﴾ (٥١) إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٢٢) ﴿

[يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ .. ﴾ (٥١) ﴿ [يوسف]

وَالْخَمْبُ : هو الْحَدَثُ الْجَلَلُ ، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس ؛ فهو ليس حديثاً بيّتهم وبين أنفسهم ؛ بل يتكلمون عنه بحديث

(١) حصص الحق : رُضِحَ وتَبَيَّنَ بعد خفائه . والخصصة : بيان الحق بعد كتمانها أي : ظهر وبرز . [لسان العرب - مادة : حصص] .

(٢) صعباً يصيب : مال واحباً ﴿ أَصْبٌ إِلَيْهِنَّ .. ﴾ (٢٢) ﴿ [يوسف] أي : أبل إليهن وأفعل ما يغريتنني به . وصبا إلى اللهب : حنٌ واشتاق إليه . [القاموس القويم ١/ ٣٦٨] .

يصل إلى درجة تهتز لها المدينة : لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ [الذاريات]

أى : ان الملائكة طمأننت إبراهيم عليه السلام : فهى فى مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامري قد صنع لهم عجلاً من الذهب الذى أخذوه من قوم فرعون تجده يقول للسامري :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٩٥) [طه]

وقول الملك هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ (٥١) [يوسف]

يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتز لها : واعتبرها خطيئاً : مما يوضح لنا أن القيم هى القيم فى كل زمان أو مكان .

وبدا النسوة الكلام ، فقلن :

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ .. ﴾ (٥١) [يوسف]

ولم يذكرن مسألة مُراودتهن له ، وكان الامر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ .. ﴾ (٥١) [يوسف]

أى : ننزه يوسف عن هذا ، وتنزيهنا ليوسف أمر من الله .

وهنا تدخلت امرأة العزيز :

﴿ قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ۖ ٥١ ﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرت بأنه لم يعد هناك مجال للستر ، ووضح الحق بعد خفاء ، وظهرت حصّة الحق من حصّة الباطل ، ولا بدّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ أَنَا وَأَوْدَتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٥٢ ﴾ [يوسف]

رواشرت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ٥٣ ﴾

قالت ذلك حتى تُعلن براءة يوسف عليه السلام ، وأنها لم تنتهز فرصة غيابه فى السجن وتنتقم منه ؛ لأنه لم يستجب لمراودتها له ، ولم تتسج له أثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلنا على أن شرّة الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالى فى نفسه ، وقد يجعل من الرّلة الأولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كى تستر الحسنة السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ١١٤ ﴾ [مود]

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك

السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استتررا سيئات المسيء ! لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأت تاريخ الناس ، أصحاب الانفس القوية في الأخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسقطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تذهب عنهم السيئات ؛ لأن يالَ الواحد منهم مشغول بضعفه الذي يلعبه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفت امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرت بأنه سبحانه وتعالى لا يُفِذ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ

رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبريء نفسها ؛

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣)﴾ [يوسف]

ومجيء قول الحق سبحانه المؤكد أن النفس على إطلاقها أمارة

بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء^(١) : إن هذا القول من كلام يوسف ، كرد عليها حين قالت :

﴿ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي . (٥٢) ﴾ [يوسف]

ويمكن أن يتسبب هذا القول إلى يوسف كَلَوْنٌ من الحرص على ألا يلُمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذي صرف كيدهن عنه .

وهذا لَوْنٌ من رحمة الله به : فهو كبشر مُجَرَّدٌ عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية : لكن الحق سبحانه عصمه من الزلل .

ومن لُطْفِ الله أن قال عن النفس : إنها أمارة بالسوء ؛ وفي هذا توضيح كاف لطبيعة عمل النفس ؛ فهي ليست أمرّة بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهي دائماً أمارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكاليفات الإلهية كلها إما أوامر أو نواهي .

(١) قاله ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم . والقول الأشهر والاثيق بسياق القصة ومعاني الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك . [انظر : تفسير ابن كثير ٤٨١/٢ بتصرف] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهي تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها في ظاهرها ممتعة ، وتلبى نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حَقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحَقَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » ^(١) .

أي : أن المعاصي قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي تُوصِّلُه إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلذُّ به لحظة قد تشقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذي يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضِر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبي ﷺ :

« لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ^(٢) .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستتر إيمانه ؛ ولا يضع في باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٢ ، ٢٥٤) ، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) .
والترمذي في سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ويخطيء الإنسان في حساب عمره ؛ لأن أحدا لا يعلم ميعاد أجله ؛
أو الوقت الذي يفصل بينه وبين حساب المولى - عز وجل - له على
المعاصي .

وكل منّا مُطالب بأن يضع في حسبانهِ حديث الرسول ﷺ :
« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته » ^(١) .

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهو
الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذي كان إذا وقف على قبر بكى حتى
تبتل لحيته ، فسئل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ،
وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده
أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد » ^(٢) .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف]
ونعلم أن هناك ما يشفى من الداء ، وهناك ما يُحصن الإنسان ،
ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه
يفغر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح
الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع في زلة أخرى .

(١) ذكره المجلد في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن انس بن مالك رضي الله عنه .
وتعالمه . « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في شئى كثره عليكم ، وإن ذكرتموه في
ضيق وسعه عليكم ، الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٦٣) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٦٧) ، والترمذي في سننه
(٢٣٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ ۞ (٨٢) ﴾ [الإسراء]

فساعة تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويقوى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويفجر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك . وهو رحمة لك حين تتخذ منهجاً ، وتطبقه في حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طبٌ علاجي وطبٌ وقائي في آن واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖٓ أَسْتَخْلِصُہٗٓ لِنَفْسِیٓ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۖ ۞ (٨٣) ﴾

ونلاحظ أن الملك قد قال : ﴿ أَتُؤْتِي بِهٖٓ ۖ (٨٢) ﴾ [يوسف]

مرتين^(١) ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهن امرأة العزيز .

ورأى الملك في يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسعة علم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويفكر في صفات هذا الرجل :

(١) مَكْنٌ مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت مستقر . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۖ ۞ (٨٣) ﴾

(٢) [يوسف] أي : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٢] .

(٣) المرة الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖٓ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ بِكَ فَمَسَّاهُ ۖ ۞ (٨٤) ﴾

ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي يكنهن علم (٨٣) [يوسف] والمرة الثانية في قوله

تعالى هنا : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهٖٓ أَسْتَخْلِصُہٗٓ لِنَفْسِیٓ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۖ ۞ (٨٣) ﴾

[يوسف]

والراحة النفسية التي ملأت نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .
والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله
مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى في قوله :
﴿ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد
أن استشف خفة يوسف على نفسه ؛ وتيقن الملك من بعد الحوار مع
يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعذب الغرائز ؛ غريزة الجنس .
وتيقن من أن يوسف تقبل السجن ؛ وعاش فيه لفترة طالت ؛ وهو
صاحب علم ، وقد ثبت ذلك بتساويل الرؤيا ؛ وقد فعل ذلك وهو
سجين ، ولم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات
البراءة .

ولكل ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذي أعلن الأمر بقوله :
﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف]
وذلك ليسد باب الوشاية به ، أو التسامر عليه . ومكانة « المكين »
هي المكانة التي لا ينال منها أي أحد .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلم عن الوحي من
جبريل عليه السلام قال :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٦٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٧٠) ﴾
[التكوير]

قال المعنى : أن يوسف عليه السلام أهلٌ للثقة عند الحاكم ؛ وهو
الذي سيفُذ الأمور ، وله صلة بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمكن من
عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة في مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجَّح الحاكم من يراهم أهل الثقة على أهل الخيرة والأمانة ، فتختل موازين العدل . وعلى الحاكم الذكي أن يختار الذين يتمتعون بالأميرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعادل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥١ ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرؤياه ، التي سبق أن أولها يوسف :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا^(١) فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ٥٢ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ٥٣ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ لَيْسَ لِصَبَّاحِ النَّاسِ وَقِيَدٌ يَعْصِرُونَ ٥٤ ﴾ [يوسف]

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحسن تدبير وحزم وعلم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتي وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات :

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ^(٢) ٥٥ ﴾

إِنِّي حَافِظٌ عَلَيْهِ ٥٦

(١) دأب في عمله دأباً ودأباً : جَدَّ فيه ولازمه من غير فتور . أي : مداومين مجتهدين ذوي دأب . [القاموس القويم ٢١٩/١] يتصرف

(٢) الخزائن : جمع خزانة ، وهي المكان الذي تحفظ فيه الأشياء النافعة . قال ابن كثير في تفسيره (٤٨٢/٢) : « هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلون من السنين التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد » .

وهذا القول تأكيد لشقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبغثر ما سوف يأتي في سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلّى بهما يوسف عليه السلام .
وقد يقول قائل : أليس في قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟
والقاعدة^(١) تقول : إن طالب الولاية لا يؤلى .

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان أمراً قيسستجاب ، ولم يكن مأموراً بالإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق

وقد تاتي ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجت الرياح وهبت العاصفة ؛ وتعقدت الأمور ؛ وارتمى القبطان ، وجاءه من يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهي الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يوجّه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة سفينته .

إذن : فمن حقّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعيّن عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذي خبرة يُفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وجهّ الإصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٢٢) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نؤلى على هذا العمل أحداً سواه ، ولا أحداً حرص عليه » .

وفى مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :
الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقته فى إنجاح المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يُظهر وَجْهَ الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٥) [يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد.

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ،
لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك
مسألة تتطلب حكمة وحِفْظاً وعِلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى المِثْرَة الأثمان
من ذهب وفضة ، وَمَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحْضِرُ الجواهر من
الأحجار الكريمة ؛ أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

وَمَنْ لا يملك كان يُحْضِرُ بعضاً من ائذانه للاسترقاق ، أى : يقول
رَبُّ الأسرة الفقير : خذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية
أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الأمر فى سنوات الجَدْب
ليشُدَّ كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء
بل يأكل فى معنى واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف :
« المؤمن يأكل فى معنى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » ^(١) .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة - من حديث جابر وابن عمر
رضى الله عنهما .

وكان التمرين في سنوات الجَدْب يقتضى دِقَّة التخطيط ،
ولا يحتمل أى إسراف .

وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع ، فكل إنسان سيأخذ على
قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء !
أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سئل : ولماذا أخذت منهم ما دُمْتُ قد قررت أن ترد لهم
ما أخذته ؟

أجاب : كي يأخذ كل إنسان في أقل الحدود التى تكفيه في
سنوات الجَدْب .

ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض ، وهو يشتري الخبز
المُدْعَم ليُطعم به الماشية ، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان
يشترى في حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألا يُلْقَى مما
اشترى شيئاً .

وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة ؛ لذلك وجب على كل
فرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر في حياتنا ؛ فحين لا يجد أحد
ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن في كبرياء : « إن
معدتى لم تُعد تتحمل اللحم » .

وقد يعلن الفقير حُبّه للسّمك الصغير ؛ لأن لحمه طيب ، عكس
السّمك الكبير الذى يكون لحمه « متفلاً » ، أو يعلن إعجابه بالفجل
الطارح ، لأنه لذيذ الطعم .

وقديماً في بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش
بعيداً عن بيوت الأهل في سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً
من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفى آخر لقمة في الرغيف ،

أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .
وهكذا يتحمل كل واحد على قدر حركته وقدرته .
والشاعر يقول :

والنفس رغبة إذا رغبته
وإذا تُردُّ إلى قليل تقنع
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا^(١)
حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

وهكذا كان تمكن الله ليوسف عليه السلام في الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة ؛ عادلة ؛ فلما جاء الجذب : لم يأتها وحدها ؛ بل عمَّ البلاد التي حولها .

بدليل أن هناك أناساً من بلاد أخرى لجشوا يطلبون رزقهم منها ؛ والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم في بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقعة الشدة كانت شاسعة .
وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴾ (٥٦)
[يوسف]

(١) يتبعوا منها حيث يشاء : أي ينزل في أي مكان يريد من أرض مصر . وهذا كناية عن اتساع جهه ، [الفاموس القويم ٨٨/١] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً في أكثر من مكان : ولا يَظُنُّ ظَنَّ
أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة في
بعض البلاد : فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم في منطقة ما : وقد
يزوره : فهم يعتنون بكل المنطقة التي يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه في حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة
ما فهم يُعيدون رَصْفَ الشوارع : ويصلحون المرافق : وقد يُحضرون
أصص الزرع ليُجملوا المكان .

فما بالك إنْ علموا بوجود بيت للحاكم في مكان ما ؟ لا بدّ أنهم
سيؤالون العناية بكل التفاصيل المتعلقة بالمرافق في هذا الموقع .

إذن : لقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴾ (٥٦)

[يوسف]

يعنى : شُيُوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون في هذا
البلد : فلا تأخذ الأمر على أنه تَرْفٌ وشَرْفٌ ، بل خُذْ هذا القول على
أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير
مقصودين .

وتلك لفظة توضح أن التَّبَوُّءَ حيث يشاء ليس رحمةً به فقط :
ولكنه رحمةً بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ لُصِيبُ بِرَحْمَتٍ مِّنْ نَّشَأُ .. ﴾ (٥٦)

[يوسف]

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية : وَمَنْ
كان يشقى من أجل أن يعيش في مكان مُرِيح ستتحول المنطقة التي

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه .
فيوسف المُمكن فى الأرض له مسكن مجاور له ؛ وسيجد العناية
من قبل الجهاز الإدارى حينما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة
من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلَا تُضِيعْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦)

[يوسف]

والمُحْسِن هو الذى يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف ؛ لأنه حين أقام لنفسه بيتاً
فى أكثر من مكان ؛ فقد أحسن إلى أهل الأمانة التى له فيها بيوت ؛
بارتفاع مستوى الخدمة فى المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازى المحسنين بكمال وتمام الأجر ، وقد كافأ يوسف
عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٧)

ويوضح - هنا - سبحانه أنه لا يجزى المحسنين فى الدنيا فقط ؛
ولكن يجازيهم بخير أبقى فى الآخرة . وكلمة « خير » تستعمل
استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شئ آخر ؛ أى : أنهما شركاء فى
الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان »^(١) .

والاستعمال الثاني لكلمة « خير » : هو خير مقابل شر ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴿ [الزلزلة]

والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ، لن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن نقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب في الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذي سيصدق ذلك . أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشترى الفساد في الأرض .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاء نوعين : جزاء في الدنيا لمن يحسن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً ؛ وجزاء في الآخرة يختص به الحق سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٧) ﴿ [يوسف]

أي : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً .

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢ / ٢٦٦ - ٢٧٠) ، ومسلم في صحيحه (٢٦٦٤)

وابن ماجه في سننه (٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الميثاق : وزن معلوم قدره . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (٥٠) ﴿ [النساء] .

أي : مقدار وزن ذرة لا يظلم شيئاً صغيراً أو كبيراً . [القاموس القويم ١/ ١٠٩] .



على عكس خير الدنيا الذي قد تفوتهُ أو يفوتُكَ ، بحُكْمِ أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرِكَ فيها ؛ ولكن الآخرة لها الدَّيْمُومة التي شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف :

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ

وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨)

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد أَلْقَوْهُ في الجُبِّ صغيراً ؛ ومَرَّتْ رحلته في الحياة بعد أن عشر عليه بعض السَّيَّارة ؛ وباعوه لعزير مصر ، لتعمر به الأحداث المتتابة بما فيها من نُضْجِ جَسَدِي وَحُسْنِ فائق ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على سلامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو في منصبه العالي ، بما يفرضه عليه من وجاهة في الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، قد تحددت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمرُّ عليه عَقْدٌ من الزَّمان ؛ فهذا الزَّمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كان كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلاً يُغيِّرُ الزَّمنُ ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج . والذي دفعهم إلى المسجى هو القحط الذي لم يُؤثِّرْ على مصر وحدها ؛ بل أثر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذي اختزن الاقوات تحسباً لذلك القحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه الميرة^(١) والطعام ، ولم يتخيَّلوا

(١) الميرة : الطعام يستاره الإنسان أي يجلبه . مار أهله : جلب إليهم الطعام . قال تعالى :

﴿وَتَمِيرَ أُمَّلًا وَتَحْفَظُ أَخَانًا..﴾ (يوسف) . [القاموس القويم : ٢/ ٢٤٦] .

بأي حال أن يكون من أمامهم هو أخوهم الذي القوه في الجب ،
ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ولا بد أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يحكون له عن
أبيهم وأخيه ، وأنهم قد طلبوا الميرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم^(١) .
وكلمة « الجهاز » تطلق هنا على ما تسبب في انتقالهم من
موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .
وطلب منهم - من بعد ذلك - أن يأتوا بأخيهم « بنيامين » معهم ،
وقال لهم :

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف]

(١) جهاز العروس والمسافر والجيش : هو ما يحتاجون إليه وما يلزمهم في قصدهم والمحنى
هنا أنه أوفى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذي جاءوا من أجله . [راجع تفسير ابن كثير
٤٨٣/٢ ، والقاموس القويم ١٢٤/١] .

(٢) ذكر السدي وغيره أن يوسف عليه السلام شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم :
ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ
الله . قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله . قال : وله أولاد
غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا فلك في البرية ، وكان أحينا إلى أبينا ،
وبقى شقيقه ، فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه ، فامر بإنزالهم وإكرامهم . [تفسير ابن كثير
٤٨٣/٢] .

(٣) النزول : الحلول بالمكان . والنزل والنزل : ما عُيِّنَ للضيف إذا نزل عليه - [لسان العرب -
مادة : نزل] .

وفى هذا تذكير لهم بأنه يُوفى الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة فى المِثْرَة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يحضروا أخاهم كي يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كائمان لما يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْلاً بعير فوق ما أخذوه هذه المرة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهام معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية :

﴿ وَنَزَّادُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. ﴾ (٤٥)

[يوسف]

وقوله :

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥٩)

[يوسف]

يعنى : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسن المكان الذى نزلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزَل » فى ظاهر الأمر أنها ضدُّ مُعْلَى ، وحقيقة المعنى هو : مُنْزَلٌ مِنَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمَكَانِ الْمَوْجُودِ بِهِ كُلُّ مَطْلُوبَاتِ حَيَاتِهِ .

والحق سبحانه يقول عن الجنة :

﴿ مُزَلَّاتٌ مِّنْ عِشْوَرٍ رَّحِيمٍ ﴾ (٣٢)

[فصلت]

(١) النزل : المنزل ، وما يُعدُّ لينزل فيه الضيف . قال تعالى : ﴿ تُخْرِجُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارَ خَالِدِينَ

فِيهَا مُزَلَّاتٌ مِّنْ عِشْوَرٍ رَّحِيمٍ ﴾ [آل عمران] [القاموس للقرن ٢ / ٢٦٠] .

أى : أنه سبحانه قد أعد الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المولى عز وجل هو الذى يعد ؛ فلا بد أن يكون ما أعدّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخوانى الذين بهروا بفندق راق فى سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً راقياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقباليين ؛ تظهر نفسه فيه ؛ فإن كان حقوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإن كان مؤمناً يفرح ويقول :

هذه النعمة التى أراها تزيد من عشقى فى الجنة ؛ لأن تلك النعمة التى أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فماذا عن صنع الله للجنة ؟ وهو من خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيت نعيماً عند أحد إلا ازداد إيمانى ، بأن الذى أراه من نعمة قد أعدّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما من ينظر نظرة حقد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صباية^(١) النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صباية عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحت بالنعمة عند إنسان ؛ فثق أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهت النعمة أن تاتى إليك .

فإن أردت الخير الذى عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التى عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتى إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقول يوسف عليه السلام فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنها عنها :

(١) الصباية : الشرق . صيبت إلى الشيء صباية ، فانا صبأ ، أى : عاشق مشتاق . [لسان العرب - مادة : صبيب] .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥٩) [يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحسن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يحضرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي

وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦٠)

ويوسف يعلم مقدماً صعوبة أن يأمنهم أبوه على أخيه ؛ لذلك وجه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي .. ﴾ (٦٠) [يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المعاد معاً^(١) قحط وجذب ومجاعة .
وأضاف يوسف :

﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦٠) [يوسف]

أي : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذي أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ يَا أَبَانَا مَعِ مَنَا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦٢)

[يوسف]

وتلقوا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا :

(١) المعاد : المصير. أي : أن سرحهم إلى بلاد ذات جند وقحط وهي الموطن الذي جاءوا منه . والمعاد والمعاداة : الماتم يعد إليه . [لسان العرب - مادة : عود] .

﴿قَالُوا اسْتَرْوِدْ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١)

وقولهم : ﴿ اسْتَرْوِدْ^(١) عَنْهُ أَبَاهُ .. ﴾ (٦١) [يوسف]

يعنى : أن الامر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُراودة تعنى أخذ وردة ، وتحتاج إلى احتيال ؛ وسبق المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الْبَنَىٰ هُوَ لِيَ بَيِّتَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ (٢٢) [يوسف]

واكّدوا قولهم :

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١) [يوسف]

أى : أنهم سيبدلون كل جهودهم ؛ كى يقبل والدهم إرسال أخيه معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلب صعب المآل ، عسير التحقيق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ لِفَتَايَنِهِ أَجْعَلُوا أَصْنَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ (٦٢)

إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

(١) أى : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً نتعلم صدقنا فيما قلنا .

[نكره ابن كثير فى تفسيره ٤٨٢/٢] .

(٢) الرحال : جمع رحل . وهو ما يوضع على الجير للركوب عليه ، ويطلق على ما يحمى

المسافر من امتعة . [القاموس القويم ٢٥٩/١] .

(٣) انقلب : رجع وتحول إلى وضعه الأول . أو إلى وضع آخر . قال تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف] . أى : راجعون إليه . [القاموس القويم ١٢٩/٢] . بتصريف .

أى : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أن يُعيدوا البضائع التى أحضرها هؤلاء معهم ليقيضوا^(١) بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدى يوسف عليه السلام أن يُنقذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُستتر فى الرّحال التى أتوا عليها ، وفى هذا تشجيع لهم كي يعودوا مرة أخرى^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتَلُ ۚ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [٦٣]

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فرر عودتهم ومعهم الميرة ، وكانهم أرادوا أن يوضحوا للاب أنهم مُنعوا مستقبلاً من أن يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحكوا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيه « بنيامين » معهم : فليسوف يكتالون ، وليسوف يحفظون أخاهم الصغير .

(١) قايضه مقايضة : إذا أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة - واقْيِضَ : العَوَضَ - { لسان العرب - مادة : قْيِضَ } .

(٢) ذكر ابن كثير أن هذا اقوالاً منها : أن يوسف خفى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل : تذكّر أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام . [راجع تفسير ابن كثير ١٨٢/٢] .

وهم فى قولهم هذا يحاولون أن يُبْعِدُوا رِيْبَةَ الْآبِ عَمَّا حَدَّثَ
ليوسف من قبل .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ
عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤)

وهنا يُذَكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقَدِّمُوا من قبل ما يُطْمِئِنُّه على
ذلك ؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .
وأضاف : ﴿ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤) [يوسف]
وهو قول نتنسم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه
يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب فى فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا نُبْعَثُ هُنَا بِضْعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ
كَكَيْلِ يَسِيرٍ ﴾ (٦٥)

(٦١) بئس : كذب وظلم . وبغى الشيء : طلبه . قال القرطبي فى تفسيره (٢٥٥٩/٥) : والمعنى : أى

شيء نطلب وراء هذا ؟ ولما لنا الكيل ، ورد علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم .

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التي حملوها معهم في رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمنًا لما أرادوا الحصول عليه من طعام وميرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على الميرة التي يتفدّون بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصبحوا أخاهم في المرة القادمة ، وسوف يحفظونه ، وسوف يعودون ومعهم كَيْلٌ زائد فوق بعير ، وهذا أمر هَيِّنٌ على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه

هنا :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا ^(١)
مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ ^(٢) أَوْ لَا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ
مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ^(٣) ﴾

ونلاحظ هنا رِقَّة قلب يعقوب وقُرْب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرِقَّة التي بَدَتْ من قبل في قوله :

﴿ قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^(٤) ﴾ [يوسف]

وطالب منهم أن يحلفوا بيمين مَوْثِقَةٍ أن يعودوا من رحلتهم إلى

(١) الميثاق والميثاق : العهد المؤكّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ .. ﴾ (٧) [السجدة] .

أى : عهده الذي عاهدكم عليه ، والركم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٩] .

(٢) الإحاطة بالشئ : الإحاطة به من جميع جوانبه . وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴾ (٦) [

يوسف] . أى : إلا أن تُحصروا أو تمنعوا سبيل النجاة . [القاموس القويم ١/ ١٧٨] .

مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحطَّ بهم
أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كأن يحاصروهم أعداء يُضَيِّعونهم
ويُضَيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ .. (٦٦) ﴾ [يوسف]

واقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطوا أباهم اليمين والعهد على
رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُتِمَ فسبحانه المنتقم .

ويُوصى يعقوب أولاده الأسباط :

﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام فى المرة الثانية لذهابهم
إلى مصر . بعد أن عَلم بحُسن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم
رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حظوة عند عزيز
مصر .

وساعةً ترى إنساناً له شأن ؛ فترقب أن يُعادي ، لذلك توجس
يعقوب خيفة أن يدبر لهم أحد مكيدة ؛ لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة . وكانت المدن
قديماً لها أبواب ؛ تُفتح وتُغلق في مواعيد محددة ، وحين يدخلون
فُرادى فلان ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقد خاف يعقوب على أبنائه من الحسد ، ونعلم أن الحسد
موجود .

وقد علمنا سبحانه أن نستعيد به سبحانه من الحسد ؛ لأنه
سبحانه قد علم ألا أن الحسد أمر فوق طاقة دفع البشر له ، وهو
القائل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا
وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾
[الفلق]

وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيد بواحد مُساوٍ لك ؛
لأن الحسد يأتي من مجهول غير مُدرك ، فالشعاع الخارج من العين
قد يتأجج بالحقد على كل ذي نعمة ، وإذا كان عصرنا ، وهو عصر
الارتقاءات العادية قد توصل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت
الأشياء .

إذن : فمن الممكن أن يكون الحسد مثل تلك الإشعاعات ؛ والتي

قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم
النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ۝ (٢١) ﴾ [المدثر]

وإن قال قائل : ولماذا يُعطي الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك
الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطي من الإمكانيات لبعض من خلقه ،
فيستخدمونها في غير موضعها ، وكل إنسان بشكل ما عنده إمكانية
النظرة ، ولكن الحق هو الذي يولد الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن
تنظر دون حسد إن قلت : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم
بارك^(١) .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجج الشرارة المؤذية ، ويمكنك
أن تستعيز بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق
سبحانه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا
وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾
[الفلق]

وأن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوذ الحسن والحسين
رضي الله عنهما ، ويقول :

(١) يقول تعالى : ﴿ وَكَرَّوْنَا إِذَا دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ ۝ (٢١) ﴾ [الكهف]

« أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة^(١) ، ومن كل عين لامة^(٢) »^(٣) .

وقال ﷺ : « كان أبوكما - إبراهيم - يُعوذُ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام » .

كما أنه ﷺ : « كان إذا حَزَبَهُ أمر قام وصلى »^(٤) ، لأن معنى حَزَب أمر للرسول ﷺ ، أو لواحد من أتباع الرسول ﷺ أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسان أن يَأْوِي إلى المُسَيِّب ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أخذت أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المُضْطَر : لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. ﴾ (٦٢) [النمل]

والمضطر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدُعْ ربه إلا بعد أن

(١) الهامة : مفرد هوام . وهي الحيات والعقارب ، وكل ذي سم يقتل سمه ، وأما ما لا يقتل ويسم فهو النشوام . [لسان العرب - مادة : هوم] .

(٢) اللامة : ما تخافه من من أو قرع . واللامة : العين التي تمسبب الإنسان . [لسان العرب .. مادة : لدم] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠/١) ، والترمذي في مسنده (٢٠٦٠) ، وأبو داود في مسنده (٤٧٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال الترمذي « حديث حسن صحيح » .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) - وأبو داود في مسنده (١٢١٩) عن حديث حذيفة ابن اليمان .

أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ
ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خراطتنا عنها : نجد يعقوب عليه
السلام وقد أوصى أبناءه ألا يدخلوا مصر من باب واحد ؛ بل من
أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبيهت قضية الإيمان بما يقتضيه من
تسليم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ ۝ (١٧) ﴾ [يوسف]

أي : لست أغنى عنكم بحزري هذا من قدر الله ، فهو مجرد
حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك
قال :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٧) ﴾

[يوسف]

فكل الخلق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه
يعتمد كل مؤمن .

ونفذ أبناء يعقوب ما أمرهم به أبوه ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ

يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ

قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

أى : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أرادته سبحانه ، فلا شيء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أن يردُّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أى شيء لن يمتع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .. (٦٨) [يوسف]

ويعقوب يعلم أن أى شيء لن يردُّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدر الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿وَأَنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمَاهُ﴾ .. (٦٩) [يوسف]

أى : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الاسباب ، ويعلم أن الأخذ بالاسباب لا ينافي التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الاسباب رحمةً بعباده :

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) [يوسف]

أى : يعزلون الاسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

(٦٨) قضى حاجته : أدركها ونالها ، قال تعالى : ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .. (٦٨) [يوسف]

أى : أدركها وحصلها . [القاموس القويم : ١٢٢/٢] .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ
أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٦٩

أى : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم ؛ وأكرم
وقادتهم^(١) ؛ بعد أن وُفُوا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه
بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتاقاً لشقيقه بنيامين .
وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف ؛ فهما من أم
واحدة ؛ أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ أَخَاهُ .. (٦٩) ﴾ [يوسف]

يدل على أن يوسف كان مُتَشَوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٩) [يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استقرروا^(٢) لفترة بينيامين ، ولم

(١) أواه : ضمه إليه وأسكنه عنده أو أنزله في بيت . والماوى : اسم مكان . قال تعالى : ﴿وَإِنَّا
لَجَنَّةٌ فِي الْمَآوَىٰ (١١)﴾ [التَّائِبَاتِ] . فى : للمنزل والمجا . [القاموس القويم ٤٥/١] .

(٢) ابتأس الرجل : أكتاب وحزن . [القاموس القويم ٥٣/١] .

(٣) الوفد : : الركبان المعكّمون . قال الأصمعي : وقد فلان يقد وفادة إذا خرج إلى ملك أو
أمير . [لسان العرب - مادة وفد] .

(٤) استقرروا فلاناً : أنفرد به . واستقرروا الشيء : أخرجه من بين أصحابه . وأنفرد : جعله

فرداً . [لسان العرب - مادة فرّد] .

يُحْسِنُوا مُعَامَلَتَهُ ، وَحَاولَ يوسُفُ أَنْ يُسْرِى عَنْ أَخِيهِ ، وَأَنْ يُزِيلَ عَنْهُ
الْكَدْرَ بِسَبَبِ مَا كَانَ إِخْوَتُهُ يَفْعَلُونَهُ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ^(١) فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَيْتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾

أى : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المِثْرَةِ لهم ، كما
سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جهَّزهم في المرة السابقة ؛ وأراد أن
يُبقَى أخاه معه في مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته لِيُبقِيه معه ؛
وقد أخذ أبوههم ميثاقاً عليهم ألا يَضِيعُوهُ ، وألا يُفْرطُوا قِيَهُ ، كما
فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد
جَدَّدَ الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادِرُونَهُ ، وكانوا يحقدون عليه
وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُورَاعِ الْمَلِكِ ، التي يشرب فيها الملك ،
وتُستخدَمُ كَمَكْيَالٍ ، وجعلها في رَحْلِ أَخِيهِ .

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذي يُسْتَقَى به . وقد كان إثناء من الفضة كانوا يكيلون به
للطعام . [لسان العرب - مادة : سقى] .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقاً متعددة من مادة « سقى » أى :
« السين » و « القاف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس
والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ .. ﴾ (٧٥) [النوبة]

فكان معنى السقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضع فيه الماء
ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذى كان يشرب به
الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليل على نفاسة المكيال .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التى يُشرب
منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَمِ الشارب ؛ وأيضاً يُقال
بها ؛ ومفردُها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِي .. ﴾ (٧٥) [يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعُوا « السقاية » فى رَحْلِ

أخيه ، و « الرَّحْل » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافرين كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جمالهم استعداداً للعودة إلى الشام : وقعت المفاجأة لهم : والتي يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذْنٌ مَّوَدَّنٌ ^(١) أَتَتْهَا الْغَيْرُ ^(٢) أَنْتُمْ نَسَارِقُونَ ^(٣) ﴾ [يوسف]

أى : يا أصحاب تلك البعير أنتم سارقون . والسرقه فعل قبيح حينما يترتب عليها جزاء يُوقع على السارق ، والمسروق هو شيء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمت بموافقة من « بنيامين » ليملك مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه ^(٤) إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رضى بنيامين بذلك ، وهو أمر يزيد من حزن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دقة القرآن ، ولتحسن الفهم عنه : لنرى أن حزن يعقوب على فقد يوسف قد غلبه : فلن يؤثر فيه كثيراً فقد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

(١) آذن تاتيئاً واذناً . أعلم بالشيء . والتضعيف يدل على الكثرة والتكرار . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذْنٌ مَّوَدَّنٌ أَتَتْهَا الْغَيْرُ أَنْتُمْ نَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف] . أى : نادى وأعلم وأكثر النداء والإعلام . [القاموس القويم ١٦/١] .

(٢) المقصود بابويه : أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه . لأن « راحيل » أم يوسف وبنيامين ماتت في نفس بنيامين . [انظر : تفسير القرطبي ٥/٣٥٩٨] .

بحكاية السرقة ! واستبقاء بنيامين فى مصر قال :

﴿ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ .. ﴾ (٨٩)

[يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة ! فالآية هنا لا تُحدّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم فى نظر يوسف قد سرقوه من أبيه ، والقوة فى الجِبِّ .

وهنا يأتى الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا أَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (٧١)

أى : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة متسائلين : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهمهم :

﴿ قَالُوا نَفَقَدْ صُورِعَ الْمَلِكُ وَلَمَنَ جَاءَ بِهِ
حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ (٧٢)

أى : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية

(١) الزعيم : الكليل والضعيف والوثيس . زعم بالأمر : تكفل به فهو زعيم أى كليل .

[القاموس القويم ٢٨٦/١] .

الملك : وَيُقَالُ لَهَا « صَوَاع » ، وَمَنْ سَيُخْرِجُهَا مِنَ الْمَكَانِ الْمُخْتَفِيَةِ بِهِ
سَوْفَ يَنَالُ مَكَافَاةَ قَدْرِهَا وَزَنَ حِمْلٍ بَعِيرٍ : فَلَعَلَّ صَوَاعَ الْمَلِكِ قَدْ
خُبِتَتْ فِي حِمْلٍ أَحَدِكُمْ دُونَ قَصْدٍ .

وأكّد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يُخرج صَوَاعَ الملك ،
ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهي حِمْلٌ بَعِيرٌ مِنَ الْمَيِّرَةِ
وَالغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ

فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ويقولهم ﴿ تَاللّٰهِ ﴾ هو قَسَمٌ ، وعادة تدخل « التاء » على لفظ
الجلالة عند القَسَمِ المقصود به التعجب ، أى : أن إخوة يوسف
أقسموا مُذهشين لاثهامهم بأنهم لم يسرقوا : وَأَن الْكُلَّ قَدْ عَلِمَ عَنْهُمْ
أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِغَرَضِ الْإِفْسَادِ بِسَرِقَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، لَمْ يَسْبِقْ أَنْ
اتَّهَمَهُمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ هَذَا الْاِتِّهَامِ .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما جاء على السنة مَنْ أَعْلَنُوا عَنْ وَجُودِ
سَرِقَةٍ ، وَأَن الْمَسْرُوقَ هُوَ صَوَاعُ الْمَلِكِ .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على أسنتهم :

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا سؤال من مُسَاعِدِي يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة في شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا نفعل بمن نجد في رحله صواع الملك ؟ وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضْبَطُ بسرقة في شريعة آل يعقوب أن يُسْتَرْقَ أو يظل في خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عممة يوسف التي أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفت في ثياب يوسف شيئاً^(١) عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقت يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمته .

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقى أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذي يَصْبِرُ إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِدُ الحق سبحانه قولهم :

﴿ قَالُوا جَرَّؤُهُ مِنْ وَجْدِ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَّؤُهُ^٢ ﴾

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

وهكذا نطقوا بالحكم هم أنفسهم ، وأكّدوه بقولهم :

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

[يوسف]

(١) هو منطقة إسحاق كان ينتقل بها ، أي : يشدها على وسطه . وكانت ممتدة في أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق لحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، لتستبقى عندها ولا تسلمه لأبيه يعقوب ، وقد كان هنا حتى ماتت . [راجع : تفسير ابن كثير ١٨٦/٢] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مآربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسف بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾

وكان الهدف من البدء بتفتيش أوعيتهم ! وهم عشرة ! قبل وعاء شقيقه ، كي ينفي احتمال ظنهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ! ليستخرج منه صواع الملك ؛ وليطبق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ فيستبقى شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكَمًا لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ۝٧٦﴾ [يوسف]

أى : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ۝٧٦﴾ [يوسف]

أى : ما كان يوسف لياخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر :
لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكأد له ، وحقق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفع سبحانه درجات عالية من العلم والحكمة .

ولم يكن الكيد بسبب أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرُّفعة ، فكان كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يدرون ما فى المحنة من المنع .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أى أمر صعب يقع عليه من غير رأى منه : لا بد وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أن كادوا له ، فماذا كانت نتيجة كيدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذاك علم ، فقال :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

و (ذى علم) أى : صاحب علم . وكلاهما مُنْقِصِل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحب علم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

أى : أن العلم ذاتى فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد بُهتوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الأخ الذى وجدت السقاية فى رَحْلِهِ ؛ وأخذوا يُوبِخُونَهُ ؛ لأنه أخرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عتدهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسبق منه معروف فى قولهم :

﴿ يُونُسَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ (٨) [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هى « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتَلَطَّفُوا بِهِ ^(١) . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رَحَالِي هو مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالِكُمْ .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . قَرَدَ بنيامين : ينو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورِدُ الحق سبحانه هنا قولهم :

(١) العصبه : الجماعة المترابطة . والعصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب : مادة : عصب] .

(٢) ذكر اللوطى فى تفسيره (٣٥٦٩/٥) أن إخوته ، لما رأوا ذلك فكسوا رؤوسهم، وأقبلوا عليه قائمين : ويلك يا بنيامين . ما رأينا كالיום قط . ولدت لك « راحيل » أخوين لمسين . قال لهم أخوهم : والله ما سرقنا ، ولا علم لى بمن وضع فى متاعى .

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ
فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ
شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة في بنيامين قد سبقه إليه شقيق له
من قبل ، وقالوا ذلك في مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضَحَتْ ملامح
العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٧٧) [يوسف]

يُسَمَّى في اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية : أن
حدثاً يقع بسبب حدث وقع قبله ، فهناك حَدَّث يحدث وحده ، وهناك
حَدَّث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إن تذاكر دروسك تنجح ، وهنا
حدثان ، المذاكرة والنجاح ، فكان حدوث النجاح الشرط فيه حدوث
المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثاني ،
وهو هنا قولهم :

﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٧٧) [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ ۚ ۞١٨٤ ﴾ [آل عمران]

فكان الله يوضح للرسل ﷺ : إن كَذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عاكسة منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً . فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن مسببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذي حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ۚ ۞١٨٥ ﴾ [يوسف]

أي : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة في أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للملكات المستقيمة ؛ لا بد أن يُخرج تلك الملكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنقصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للرد .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »^(١) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٢/٥) ، وأبو داود في سننه (٤٧٨٢) ، وابن حبان (١٩٧٣ - موارد الغلمان) من حديث أبي ذر رضي الله عنه . قال الهيثمي في المجمع (٧١/٨) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه و غضبه ، وَلْيُسْرِبْ جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَاسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمته التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحفظ به فى حضانتها من قَرْطِ حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَاسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثر فيه ، ولكنه قال رآيه فيهم لنفسه :

﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

لأنكم أنتم مَنْ أخذتمونى طفلاً لالعب ؛ ثم ألقيتمونى فى الجُبِّ ؛ وثركتكم أبى بلا موانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سُرقتُم ابناً من أبيه .

وهو إن قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصل إليهم المعنى ، والقول ليس إلا الفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمِع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ (٧٧) [يوسف]

أى : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات
والسّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ .. ﴾ (١١٦) [النحل]

أى : أن ما تقولونه يُوحى من تلقاء نفسه أنه كذب ، وهكذا
نعرف أن كلمة « تصف » وكلمة « تصفون » غلب في استعمالهما
للكلام الذى يحمل معه دليل كذبه .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُ ۚ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨)

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف :
بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. ﴾ (٧٨) [يوسف]

ونلاحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقاً متعددة ، إن أردت الكبير
فى السن تكون من « كَبُرَ يَكْبُرُ » ، وإن أردت الكبير فى المقام تقول :
« كَبُرَ يَكْبُرُ » .

والحق سيحاته يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥ ﴾ [الكهف]

والكِبَرُ واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السن فهو مختلف ؛
وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. (٧٨) ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه
قد احتُجِرَ من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدر ذلك وأنت
عزيز مصر ؛ وترجو أن تحفظ للأب شرفه ومجده وعظمته ، واسترَّ
ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهْدَمٌ ، لا يحتمل
الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد نُقِدَ .

ثم يعرضون عَرَضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخَذُّ أَحَدِنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتِمَّ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛
وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المِيزَةَ ، ولم يأخذ بضائعهم
ثمناً لها .

وَمَنْ يفعل ذلك ؛ لا يضمنُ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن
يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيه الصغير .

كل هذه ترقيمات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألا يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَقُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا
مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧١﴾

ويستعيز يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممن وجد في متاعه صُوعَ الملك ، فما ذنبه في هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنب ارتكبه غيره .

وساعةً تقرأ « إذا » مُنَوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملة محذوفة ، أي : أن يوسف قال : « إِنَّا أَخَذْنَا غَيْرَ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ نَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

وجاء « التثوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْتُمْ حِينًا تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٤)

[الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الروح الحلقوم ، وجاء « التثوين » عوضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكّرهم أنه لا يحقُّ له أن يأخذ أحداً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وَجِدَ في متاعه صُوعَ الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة^(١) أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يَبْتَ فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالهم هذه فيقول :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ
قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ
أَبِي أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ٨٠

ويقال : « يئس » أي : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا
الأمل فقط ، بل استياسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

لهم قد أخذوا يُرْقِئُونَ كل ألوان المُرْقِئَات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما
أوردوا مُرْقِئًا ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصدًا .

وكانهم بذلك يُلْحُونَ على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة
والجو المحيط لا يحمل أي بارقة أمل ، وكلما تبدو بارقة أمل

(١) الجريرة : الجنابة والذنب يجنيه الرجل . [لسان العرب - مادة : جرد] .

(٢) استياس : يئس منه بعد جهد ومشقة . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٦] .

(٣) الميثاق والموتق : العهد المؤكّد . قال تعالى : ﴿ وَمِثْقَالُ الذِّبْنِ وَالْحُكْمُ بِهِ ... ﴾ [المائدة] .

أي : عهد الذي عاهدكم عليه ، والزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٩] .

(٤) برح الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أي : لن أفارق أرض

مصر . [القاموس القويم ١/ ٦١] بتصريف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصداً ؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيه بنيامين معهم في رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَّصُوا نَجِيًّا ^(١) ۝ (٨٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومن حوله من المُعاونين له ، وأخيهام موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسْرُة ؛ والمَسْرُة لا تكون إلا في أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلاحظ أن ﴿ خَلَّصُوا ۝ (٨٠) ﴾ [يوسف] هي جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ۝ (٨٠) ﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التي يتساءل فيها مَنْ لا يملكون ملكة عربية : كيف يأتي القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملكة لَعَرَقُوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ^(٢) ۝ (٤) ﴾ [التحريم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

(١) نجاه ينجوه نَجَوْا - كَلَّمَهُ سِرًّا وَخَصَّهُ بِالْحَدِيثِ فَخَلَّصُوا نَجِيًّا أَيْ - مُتَنَاجِينَ - تَنَاجَى الرَّجُلَانِ : أَفْضَى كُلُّ مَتَمَّا إِلَى الْآخَرِ بِحَدِيثِهِ سِرًّا . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٥] بتصريف .
(٢) الظهير : المعين المساعد كأنه يستند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/ ٤١٨] بتصريف .

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾
[الشعراء]

أى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » . وكذلك كلمة « عدل »
فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما : فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقال : « حكم القضاة عدلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿نَجِيًّا.. (٨١)﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ، فهم حين استياسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يبدى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾
[يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين
 رأهم قد قَبِلُوا فكرة العودة دون أخيهام الذي احتجزه عزيز مصر ؛
 قال لهم رآيه الذي حذرهم فيه أن يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم
 موثقاً من الله إلا أن يُحَاطَ بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقة
 حين أخذوا يوسف وضيّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألا يبرح المكان ، ولن يعود إلى أبيه
 إلا إن أُذِنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسَلِّمه عزيزُ مصر أخاه ،
 أو أن يموت هنا في نفس البلد .

وهذا القول في ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى
 أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحمّلون تلك المواجهة مع
 الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد في الرحلة
 الأولى يوسف ، وفي الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن
 الكبير الذي يرأس الرحلة .

وفي هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور
 مُدَاوَلَةٌ بين الإخوة في تلك المُتَأَجِّجَةِ ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس
 الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذي أوردته الآية

التالية :

﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ
ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا
لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١)

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى
آبائهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتهم ابنه بالسرقة ، ونحن
لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُواع الملك في
رَحْلِهِ ، ولا نعلم هل نَسَّها أحد له ؟ وهل هي حيلة^(١) ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد
أخذہ العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه
بالسرقة ، إلا أن ثبوت وجود صُواع الملك في رَحْلِهِ هو السبب في
كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن
هناك سوابق لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن
يقولوا لآبائهم - إن كَذَّبهم - ما جاء به الحق على ألسنتهم ؛

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ (٨٢)

(١) الحيلة : الحثق في تدبير الأمور وهو تقليد الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الراو
واحتمال : طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٥٨٠/٥) : يريدون بالقوية مصر . وقيل : قرية من قرانا
نزلوا بها وامتناروا منها ، وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أى : أنك يا أبانا إن كنت تشك فى أقوالنا : يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذى كنا فيه : لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجة ، وحديث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت معنا شهدت الواقعة : فقد أذن مؤذن بالحادث ، وتم تفتيش العير علناً .

فلذا أردت أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العير التى كانت تسير معنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (٨٢) [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حديث من الأحداث لا بد له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يوجب ، ومن قوة تنهض به .

وفى بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيقال :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ ..﴾ (٨٢) [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبي ويوحى لك الله فسأله أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ونعلم أن العير هي المطايا ؛ سواء أكانت نياقاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البغال التي تحمل البضائع .

وحين يُقال :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شيء فوق المَلَأِيسَات كلها .

ومثال هذا ما كان فى موقعة بدر : فقد خرج رسول الله ﷺ ليلقى العير القادمة من الشام وهى مُحَمَّلَةٌ بالبضائع ؛ ليصدرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهاجرين التى كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِمُوا من مكة ؛ وصفهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حَدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبحانه ما جاء على السنة إخوة يوسف حينما عادوا ليلقوا آياهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخَلَّف أخيهما الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفتيشهم قد تم فى مكان بعيد قليلاً عن العُمران :

وقحص جنود أو مساعدي يوسف امتعتهم التي عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمي المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ! تفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فنقولهم :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجئنا بصحبته من أصحاب القوافل الأخرى .

وكررنا قولهم :

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك : لذلك أرادوا هنا أن يثبتوا صدقهم ؛ وحسين يسأل أبوهم يعقوب : سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شك فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذب ، وأدعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد آكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ ۖ
جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٢)

الأمور التي تخالف الضمير ؛ ويُستحي منها ؛ ويُخشى مغبتها^(١) ؛
هى أمور تستعصى على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى
تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسر لها ، ما أن تُقدم على فعل الأمر
المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سَوَّلَ » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ ﴾ (٨٢) [يوسف]

أى : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس
المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظة أن جاءوا له بقميص يوسف
وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا
تَصِفُونَ ﴾ (١٨) [يوسف]

(١) الجمال : البهاء والحسن يوصف به الحسن والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبِرْ جَمِيلٌ ۖ ﴾ .
(٨٢) [يوسف] . وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [الحجر] الذى
لا لوم معه ولا عتب . [القاموس للتوحيدي ١/ ١٢٨] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو
الصبر المؤمن الذى يعطى أملاً .

(٢) المغيبة : العافية . نوب الأمر ومغيبته : عاقبته وآخره . [لسان العرب - مادة : غيب] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحد ، بل ستأتي من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر في النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خراطرها عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهاام الصبر من الله ، فهبات الفرج قد اقتربت ، فقال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٢) [يوسف]

في هذه الآية طلب الأمل الذي يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴾ (٨٢) [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسون كبير الإخوة الذي رفض أن يبرح مصر ، إلا بعد أن يأتين له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴾ (٨٢) [يوسف]

ولم يقل : يأتيني بهما .

وَيُذِيلُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِقَوْلِهِ :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٤) [يوسف]

فإنَّه سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرفات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْغَضَ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٨٤)

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خير أحزنه ، وخلاً بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسف .

وساعةً تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : « وا حُزْنَاهُ » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصِيبَتَاهُ » ؛ فهذا يعنى أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا هم ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال :

﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴾ (٨٤) [يوسف]

لأن أخاه بنيامين كان أشبه الناس به ؛ فكان حُزْنُهُ على يوسف

(١) كظيم : أى سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ . ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكثوم من كظمه للغيظ أى : كربه وأحزنه وأسكته وشق عليه . [الناموس القويم

طاقة من الهم نزلت به ، وتبعها طاقة هم أخرى ، هي افتقار بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ .. (٨٤)﴾

[يرسف]

أى : أن دموع يعقوب كثرت حتى بدأ الجزء الاسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضت عيناه من قَرَطَ حُزْنَه ، الذى لا يبيته لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد يقاسر على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى ؛ وتذرف^(١) عيناه حُزْنًا على موت ابنه إبراهيم . فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - : أتبكي ؟ أو لم تكن نهيت^(٢) عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيت^(٣) عن صوتين أحْمَقَيْنِ فاجرَيْنِ : صوت عند مصيبة ، خُمَش^(٤) وجوه ، وشق جيوب^(٥) ، ورنه^(٦) شيطان^(٧) » .

وقد قال رسول الله ﷺ :

(١) الذرف : صبّ للدمع . ذرفت العين الدمع : أسالته . [لسان العرب - مادة : ذرف] .
(٢) الخُمَش : الخدوش . وقد خُمَشَ وجهه : خدشه . [مختار الصحاح] .
(٣) الجيوب : جمع جيب - والجيب : إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . [تفسير القرطبي] : [١٧٦٧/٦] .

(٤) الرنة : المصيبة الحزينة . والرنين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده : هى الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء . [لسان العرب - مادة : رن] يتصرف .
(٥) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبد الله ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث فى الترمذى . ولكن فى فتح الباري (١٧٤/١٠) زيادة : « صوت عند تغمة ، لهو ولعب ، ومزمار الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ،
وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »^(١) .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون
جلموداً^(٢) أو يكون صخوراً لا يتفاعل للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً
للأحداث ؛ لأن هذا لوّن يجب أن يكون في إنسانيته ، وهذه عاطفة
يريد الله أن يبقّيها ، وعلى المؤمن أن يُعليها .

فسبحانه هو الذى خلق العاطفة ، والغريزة فى الإنسان ، ولو أراد
الله الإنسان بلا عاطفة أو غريزة لفعل ما شاء ، لكنه أراد العاطفة
والغريزة فى الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مهمتها ، يقول لك
المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يَهْدِبَ لك الانفعال .

والمثل الذى أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ،
يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرهاً^(٣) .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف
ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة فى التجسس على الناس .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٢) . وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢١٥)
من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الجلمود والجلمود : الصخر ، وفى الصخرة التى تكون فى الماء القليل . [لسان العرب -
مادة : جلمد] .

(٣) الشره : أسوأ الحرص . وهو غلبة الحرص . والشره : السريخ الطعام الشديد الحرص
عليه . [لسان العرب - مادة : شره] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتي بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كإطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهج الغرائز والعواطف لتبقى في إطار مهمتها .

والعاطفة - على سبيل المثال - هي التي تجعل الأب يحنو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يعلى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨١ ﴾

[يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قدره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القربة » أى : أحكمتا غلق فمومة القربة ، بما يمنع تسرب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُونُسُ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٨٥ ﴾

ولقائل أن يسأل : ومن الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولى عنهم ؟

(١) فتأ وفتى : زال وتحول . والمفسر يحثون . أى : ما زلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك . [تفسير القرطبي ٢٥٨٤/٥] .

(٢) المرض : الذى أذابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والمرض أيضاً : الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب - مادة - مرض] يتصرف كثير . قال القرطبي فى تفسيره (٢٥٨٥/٥) : « أمل المرض الضماد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهزم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقال في الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سن أبوك إسحاق » .

والمعنى : أنك صرّحت عجوزاً عاجزاً ، مهتماً . قال : إنما هشمتني يوسف . فسعّبت عليه الله في هذه القولة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لي . قال : غفرتها لك ^(١) .

وقد نبّه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللّٰهِ تَقْتَأُ تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ ﴾
 ﴿٨٥﴾

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤ / ٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامي وعزاه لأبن جوير الطبري . قال طلحة : أتبعث أن يعقوب دخل عليه جاره فقال : يا يعقوب ، ما لي أراك قد انهشمت وقتبت . ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمتي وأفنتني ما ابتلاني الله به من هم يوسف ، وتكره ، فأوحى الله إليّ : يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لي . قال : فإني قد غفرت لك فكان بعد ذلك إنا سئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (٨٦) [يوسف] .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّفِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَيْتُ : هي المصيبة التي لا قدرة لأحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوع يتوود إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المبتلى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد » .

والحق تبارك وتعالى يقول في كتابه :

﴿قُلُوا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ (٤٢) [الأنعام]

فساعة يأتي البأس وتتضرع إلى الله : يكون اليأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذُّكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذي لن يزيل اليأس إلا هو .

أما الذي يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فهو له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بمن يدعو .

وتساءل بعضهم : ولماذا لم يقل يعقوب ما علمنا إياه رسولنا ﷺ :

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) [البقرة]

(١) حقيقة البت في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها . قال الحسن . يئى : حلجتي . وقيل : أشد الحزن . [راجع : تفسير القرطبي ٢٥٨٦/٥] .

ونقول : إن هذا من النعم التي اختص بها الحق سبحانه أمة محمد ﷺ ؛ وحين دخل بعضهم على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه وأرضاه - وكان يعاني من وعكة ، وكان يتأوه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أنتوجع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواتمها - يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حزنه وهمه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضر ؛ لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجوده ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكذوبة أن يوسف ما زال حياً ، وأن الرؤيا التي حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ
وَلَا تَأْتِسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ
اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

ونلاحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والآخر

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿يَبْنِي

أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (٨٧) [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما وابحثوا عنهما

الأكبر الذى أصرَّ على ألا يبرح مصر إلا بعد أن يأذن أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكر يوسف وأخيه ، ولم يأت ذكر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صغارا ، أما الأخ الأكبر فـيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧)

[يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحس ، والحس يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المحسوسة ، وتتركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنوات المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواس أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرات كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧)

[يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كي تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أطلقت على مَنْ يَتَتَصَّتْ ويرى ويشمُّ رائحة الأخبار والتحركات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفي عرفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار « شمَّ شمَّ لنا على حكاية الأمر الفلاني » .

وتابع يعقوب القول :

﴿ لَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحٍ ^(١) اللَّهُ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

أى : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا ؛ ولم نجد خلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال الله رحمة .

والأثر يقول : « لَا كَرْبَ وَأَنْتَ رَبُّهُ » .

وما يَعْرِ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبَهُ أمر قام وصلى » ^(٢) .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسببائه فوق كل الأسباب ، وجَرَّبُوا ذلك في أى أمر يُعضلكم ، ولن ينسْتهى الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد خلاً لما أعضكه .

(١) الرُّوح : الرحمة ، سماها روحاً لأن الرُّوح والراحة بها . وقوله : ﴿ لَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ » .

(٨٧) [يوسف] أى : لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد ، يريد أن المؤمن يرجو فرج الله . [راجع : القرطبي في تفسيره ٣٥٨٧/٥] و [لسان العرب - مادة : روح] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود في سننه (١٢١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

وكلمة « رُوح » نجدُها تُنطَقُ على طريقتين « رُوح » و « رُوح » ،
و « الرُّوح » هي الرائحة التي تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما
يجلس إنسان في يوم قَيْظٍ^(١) ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول :

﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ (٨٩) [الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسِّنات حين يشتد القيظ ، ونجلس
في بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما في البستان من
زهور .

والرُّوح^(٢) هي التي ينفخها الحقُّ سبحانه في الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذي يسير عليه
كل مؤمن ، فيقول :

﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) [يوسف]

لأن الذي ليس له ربٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين
بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً
يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يهبُّه ممَّا فوق
الأسباب .

(١) القَيْظُ : صميم الصيف . واليوم القَائِظُ : شديد الحر . [لسان العرب - مادة : قَيْظ] .

(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَرَأَةٌ وَتَفْخِ لِي مِنْ رُوحِهِ﴾ (٢٦) [

السجدة] . أى : من سر الحياة التي لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره .

بروح لا يملك نفخها في الإنسان إلا الله . [الفاموس القويم ٢٨٠/١] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس في حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله ، وسوف يجد في لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن .

وهباً أنك سائر في الطريق ، وفي جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إن كان في بيتك عشرة جنيهات فحزرك يكون خفيفاً لضياح الجنيه ، ولو كان رصيدك في البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع .

وَمَنْ لَهُ رَبٌّ ، يبذل الجهد في الأخذ بالأسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أي كرب مما هو فوق الأسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن المكبد هو الذي ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بالله ، ولو كان يؤمن بالله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كرب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبدُه ؛ إما عجزاً أو بخلاً ، فهو في كل هذه الحالات ليس إلهاً . ولا يستحق أن يؤمن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطى بالأسباب ،
وبما فسوق الأسباب ؛ وهو حسين يمنع ؛ فهذا المنع هو عينُ العطاء ؛
لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

ويتقلنا الحق سبحانه إلى ثقله أخرى ؛ وهي لحظة أن دخلوا على
يوسف عليه السلام في مقره بمصر : ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا
الضَّرُّ وَحَشْنَا بَضْعَةً مَرْجَلَةٍ فَأَرْفِ لَنَا الْكِيلَ وَنَصَدِّقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ بِعَجْزِ الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

ولم يذكر الحق سبحانه اسم من دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ،
والضمير في « عليه » لا بُدَّ أن يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم
قائلين :

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ .. ﴾ (٨٨) [يوسف]

أي : أن الجوع صَبَّرَنَا إلى مُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب من
يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهم الأدنى .

ويستمر قولهم :

(٦) أي : ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل - قاله مجاهد والحسن وغير واحد .
[ابن كثير ٤٨٨/٢] . وقال الفرطاس (٢٥٨٨/٥) : « الإجزاء : السُّوق يدفع والمعنى :
أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

[يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحصسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مدخل الترقيق والتفخيم ككون من المكر ، فالنفخيم بئدائه بلقب العزيز ؛ أى : المالك المتسمك ؛ ويعنى هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر فى متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُرْجَاة ، أى : بضاعة تُستخدم كائمان لما سوف يأخذونه من سلع .

وكلمة : ﴿ مُرْجَاة 》 .. (٨٨) ﴿

[يوسف]

أى : مدفوعة من الذى يشتري أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ (١٢)

[النور]

وكلمة « يزجى » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ 》 .. (٨٨) ﴿

[يوسف]

(١) الرُّكُم : جمعك شيئاً فوق شيء حتى يجعله رُكاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشبه المركب على بعضه ، وارتكبت الشيء وشراكم إذا اجتمع . [لسان العرب - عادة : ركم] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّبْ هذا الأمر فى نفسك ،
وراقب كيف تدفع ثمن أى شىء تشتريه ؛ فَإِنْ كَانَ مَعَكَ نَقُودٌ قَدِيمَةٌ
ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛
وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تَشْتَرِى مِنْهُ : « خُذْ هَذِهِ الْوَرَقَةَ النَّقْدِيَّةَ الْقَدِيمَةَ
الَّتِي تَدْفَعُهَا لِي ، وَاسْتَبْدِلْهَا لِي بِوَرَقَةٍ جَدِيدَةٍ » .

فما دامت النقود سوف تُدْفَعُ ؛ فأنت تريد أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنَ النَقُودِ
القديمة ؛ وتُفْعَلَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُرْتَاحٌ ، وبذلك يمكننا أَنْ نفهم معنى :

﴿ بِبَضَاعَةٍ مَرْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]
على أنها بَضَاعَةٌ رَدِيئَةٌ .

فَكَانَ الضَّرُّ الَّذِى أَصَابَهُمْ جَعَلَهُمْ عَاجِزِينَ عَنْ دَفْعِ الْأَثْمَانِ لِلْمَيْرَةِ
الَّتِي سَوْفَ يَأْخُذُونَهَا ، مِثْلَ الْأَثْمَانِ السَّابِقَةِ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِالْجُودَةِ .
وَيَتَابِعُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مَا جَاءَ عَلَى أَسْنَتِهِمْ :

﴿ فَأَرَأَيْتَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنْ اللَّهُ يُجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾
[يوسف]

أَيُّ : أَنَّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُؤْفَى لَهُمُ الْكَيْلُ وَلَا يَنْقُصُهُ ؛ إِنْ كَانَ مَا
جَاءَ وَابَهُ مِنْ أَثْمَانٍ لَا يُؤْفَى مَا تَسَاوَاهُ الْمَيْرَةُ ، وَطَالِبُوهُ أَنْ يُعْتَبَرَ تِلْكَ
التَّوْفِيقَةُ هِيَ الْكَيْلُ صَدَقَةٌ .

وبذلك رُدُّوهُ إِلَى ثَمَنِ أَعْلَى مِمَّا حَمَلُوهُ مِنْ أَثْمَانٍ ، وَفَوْقَ قُدْرَةِ
البشر عَلَى الدُّفْعِ ؛ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ إِنَّمَا يُثِيبُ عَلَيْهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

ولفائل أن يسأل : اليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟
 نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختص به الحق سبحانه آل
 محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن
 الصدقة لا تنبغي لأل محمد ، إنما هي أوساخ الناس » ^(١) .
 وانظر إلى ما فعلته الترفيقات التي قالوها : نظر إليهم يوسف
 عليه السلام وتبسم ، ولما تبسم ظهرت ثناياه ^(٢) ، وهي ثنايا مميزة
 عن ثنايا جميع من رآه .
 وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
 إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

ومجىء هذا القول في صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل
 والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المتحدث .

ثم يأتي التلطف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ^(٨٩) [يوسف]

وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العذر بالجهل ، ولم يتحدث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٤) ، ومسلم في صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من
 حديث عبدالمطلب بن ربيعة بلفظ : « لا إن الصدقة لا تنبغي ل محمد ولا آل محمد ، إنما
 هي أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان في فمه هي : الأسنان الأربع التي في مقدم فمه : ثنان من فوق ، وثنان
 من أسفل ، [لسان العرب - مادة : ثنى] .

إليهم بعزة الكبرياء ، وغرور المكانة التي وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عنهم صدمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم .

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ في حقك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالَتْ مرارتك من سلوكه ، فتذكَّره بما فعله قديماً وانت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طيشك ، لكنك الآن قد وصلت إلى درجة التعقل وفهم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثنائه دفعهم إلى تذكُّره^(١) ، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية :

﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُسُفُّ قَالَ أَنَا يُسُفُّ
وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٩٠)

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَنْتَ لَأَنْتَ يُسُفُّ .. ﴾ (٩٠) [يوسف]

(١) كان يوسف عليه السلام إذا تبسَّم كان ثنائه للؤلؤ المنظوم ، قال ابن عباس : تبسَّم

يوسف ، فشبهوه بيوسف فقالوا له على جهة الاستفهام : ﴿ أَنْتَ لَأَنْتَ يُسُفُّ .. ﴾ (٩٠)

[يوسف] ، وفي هذا روايات أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره (٢٥٩١/٥) .

(٢) مَنَّ عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . قال القرطبي في تفسيره (٢٥٩١/٥) : أي : قد

مَنَّ الله علينا بالنجاة والملك ، يتمرّف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريري الذي أكدوه بـ « إِنَّ » و
« اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجب بنجاحهم في
التحسس الذي أوصاهم به أبوه .

فَرَدُّ عَلَيْهِمْ :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي .. ﴾ (٩٠)

[يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكر
يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه في النعمة ، وأن
الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجىء شكر يوسف لله على نعمته في قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

﴾ (٩١)

[يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذي يعرض القضية العامة التي تنفعهم
كإخوة له ، وشنفع أي سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف
عليه السلام بعد بيّنة من واقع أحداث مرّت به بدءً من الرؤيا إلى هذا
الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع معاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف
وأخيه مما ابتلياً به واجتمعا من بعد الفُرقة . وعُلِّل يوسف ذلك
بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ .. ﴾ (٩٢)

[يوسف]

أي : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتر همته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصي مهما زينت له .

فسبحانه وتعالى لا يضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مستحقين لرحمته ، وإحسانه في الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف في هذا الموقف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴾

و « تالله » قسم بالله .

و ﴿ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ ۞ (٩١) ﴾

[يوسف]

أى : خصلك بشيء فوق ما خص به الآخرين ، وهو لم يؤثر بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما أثرك به من الملك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مقربين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مقرباً مقدماً عند رب أبينا ورب العالمين .

والشأن والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بد أن ننسب إلى الفرق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعريز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٩) [يوسف]

ولم يقل لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هي : « الخاء »
و « الطاء » و « الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ
يعلم منطقة الصواب ويتعداها ، أما المخطئ فهو مَنْ لم يذهب إلى
الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام
لإخوته بعد أن أقرؤا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ
وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو ماخوذ من الثَرِبُ ؛ فحين
يذبحون ذبيحة ، ويُخرجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْنًا كثيفًا ؛
هذا الدهن يُسمى ثَرِبًا .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتفدَّ جيدًا ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب
من عليه هذا الثَرِبُ .

والتثريب يعنى : أن اللوم العنيف قد آثب الشحم من لحمه ،
وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسله .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إِذَا زُنْتُ أُمَّةً أَحَدَكُمْ فَتَبَيَّنْ ^(١) زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ، وَلَا يُشْرَبْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زُنْتُ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ، وَلَا يُشْرَبْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زُنْتُ الثَّلَاثَةَ فَتَبَيَّنْ زِنَاهَا فَلْيَبِيعْهَا ، وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ » ^(٢) .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلت كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة ؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فليبيعها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يؤد العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

[يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك ؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت فى حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابهها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

[يوسف]

هو فهمٌ لحقيقة أن أى رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستمدّة من رحمته سبحانه .

(١) قال النووي فى شرحه لمسلم (٢٢٣/١١) : « معنى تبَيَّن زِنَاهَا تحققه ، إما بالبيّنة ، وإما برؤية ، أو علم عند من يُجوز للقضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطاهم القديم وعفا عنهم ؛ والله أولى منه بالعرف عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذي علم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٣)

وكان يوسف عليه السلام ، قد علم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذي كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السير أن أخاه الأكبر الذي رقص أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨٠)

[يوسف]

قد قال ليوسف :

« يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّنِي أَنَا الَّذِي حَمَلْتُ الْقَمِيصَ بِدَمٍ كَذَبَ إِلَى أَبِي ،
فَدَعْنِي أَحْمِلْ هَذَا الْقَمِيصَ لِأَبِي ، كَيْ تَحْذَرَ هَذِهِ تِلْكَ » (١) .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥ / ٢٥٩٣) : « حكى السدي أن الذي حمل قميصه يهوذا .

قال ليوسف ، أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأخبرتته ، وأنا الذي أحمله الآن

لأسره ، ويعود إليه بصره ، فحمله » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ رَجَهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝ (٩٢) ﴾ [يوسف]

و نلاحظ أنه لم يقل : « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

﴿ وَجَهِ أَبِي ۖ ۝ (٩٣) ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحنان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و .

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝ (٩٣) ﴾ [يوسف]

أى : يرتد إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأَتُوبِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ۝ (٩٤) ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قرآنى دقيق ، أن يُحْضَرُوا معهم كل مَنْ يَمُتُ بِصِلَةِ قرابة لهم أو يعمل معهم ^(١) ، ولم يقل يوسف « يالكُم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلاحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يَمُتُ لَهُمْ بِصِلَةِ قُرْبَى ؛ لأن فى مثل هذا الأمر - من موقع عزيز مصر - إجباراً للأب على المجيء ، وهو يُجِلُّ آياه عن ذلك .

(١) قال مسروق : كانوا ثلاثة وتسعين . ما بين رجل وامرأة . القرطبي فى تفسيره (٢٥٩٣/٥) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ^(١)﴾^(٢)

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وقصِلَتِ العِيرُ ، أى : خرجت من المدينة وتجاوزتها : لتسير فى رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (١١)﴾ [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فاضاف :

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (١١)﴾ [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخرف ، لأن التفنيد هو الخرف^(٣) .

(١) ريح يوسف : أى ريحاً تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الرائحة أى رائحته . [القاموس القويم ٢٨٠/١] .

(٢) فنَّد : ضعف رأيه من الهرم ، أو كتب عانداً ، واتى بالباطل . وفنَّد رأيه : أضعفه وأبطله ، أو بين ما فيه من الخطأ . [القاموس القويم ٨٩/٧] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكبر . [لسان العرب - مادة : خرف] .

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صورَ
المرائي والأصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُخيل للإنسان
أنها تلاشت .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أي جماعة
كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلت عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممّا
يدلّ على أن الصور لها نضج من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة
قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛
ويقولون : لا شيء يضيع في الكون ، بل كل ما وُجد فيه محفوظ
بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشمّ الريح من على
مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر
الكلاب المدربة في المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أي محاولة
لتهرب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من
بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث
الآن في كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء
المحيط بالإنسان ؛ فعلياً أن ندرك أن العيرَ عندما خرجت من أسوار
المدينة ؛ وأخذت طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه
السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يشمّ رائحة يوسف ؛ تلك التي
يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسّم يعقوب لرائحة يوسف
بمخرج العير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العير لحظة تواجدها في المدينة تكون رائحة قميص
يوسف مُختلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى
داخل أي مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛
ويختلف الأمر في الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشي هبة الرائحة دون أن
يعترضها شيء .

وبذلك نؤمن أن كل شيء في الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً
لقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كَرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة
لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويرد من بقي من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد ريح يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ (١٥) ﴾

وكانهم قد ملّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين
له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنون الضلال^(١) بمعنى
الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي
لا علاقة لها بالتدين من محبة شديدة ليوسف ، وتعلق به ، والتمنى
لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقع لقائه ، وهم الذين ظنّوا أن
يوسف قد مات .

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحسوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق
مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَرَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى].

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصِيرٍ ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وحين حضر البشير^(١) ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة ؛
ويقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن
يأذن له والده ، أو يأتى حلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى
مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقه ، طبقاً لما أراد يوسف
ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فألقاه على وجه الأب
تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفرح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه
فى أيام حزنه على يوسف ، وأبيضاض عينيه من كثرة البكاء حدثه
قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد
ذلك هو بكاء من فرط الشوق لرؤية ابنه .

(١) البشير : الذي يُبشِّرُ القوم بالخبر السار . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا
أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُطْفَأاً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال
لإخوته : قد علمتم أني ذهبتُ إليه بقميص التُّرَّة (الحزن) فدعوني أذهب إليه بقميص
الفرحة . [تفسير القرطبي ٢٥٩٦/٥] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحي من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلّت انتصارات الحق والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦) [يوسف]

ولم يقل ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبي ، وأن الواقع قد أيد الكلام الذي قاله لهم :

﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا ﴾ (٩٧) من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (٩٨) [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم : إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مدركات الأشياء على قدرها ، وهناك أشياء فوق مدركات العقول .

وحين يحدثكم معصوم عن ما فوق مدركات عقولكم إياكم أن تكذبوه ؛ سواء فهمتم ما حدثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عما فوق مدركات العقول .

(٩٦) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا ﴾ (٩٧) من يوسف وأخيه [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بمنية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

راجعته على الأصل وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ محمد السراوي الفسشار بالأزهر والاستاذ عادل أبو المعاطي .